العدل

الإسلاميون والحكم

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد السلام ياسين

العدل

الإسلاميون والحكم

دار لبنان
للطباعة والنشر

الطبعة الثالثة : 1439/ 2018

ISBN: 9789920740043

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Name: DAR LOUBNAN LIL TIBAA WAL NASHR

ACC: 1578046

BLOM BANK SAL- MAIN BRANCH

RACHID KARAMEH STREET

BEIRUT LEBANON

IBAN: LB61 0014 0000 4002 3041 5780 4614

(CURRENT USD)

SWIFT CODE: BLOMLBBX

بشامون - الطريق العام ـ مجمع بشامون الصناعي

هاتف و فاكس : 5813203 - 00961

البريد الإلكتروني: dar@darlubnan.com

الموقع الإلكتروني: www.darlubnan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

يتصدر مطلب العدل كل المطالب في البرامج السياسية الجادة. والعدل الذي أمر الله به -إقامتُه والتهييء لقيامه- أهم ما تتطلع إليه الأمة المسلمة وتشرئب إلى تحقيقه طوائف الأمة المستضعفة في الأرض، أمة الإسلام.

فالعدل بين الناس في الحكم، والعدل في الأرزاق حين تُنتَجُ وحين تُقسم، والعدل تنشُده أمة الإسلام اقتضاءً من النظام العالمي العولمي الطاغي في الأرض، والعدلُ بين الناس جميعا أبيضِهم وأسوَدِهِمْ مطالب أساسية ينبغي أن تتصدر برامج الإسلاميين وهم على عَتبَةِ المسؤولية عن الحكم.

ليس في هذا الكتاب برنامج للحكم والعدل في الحكم وإقامة العدل آني موقوت جاهز مظروف بالحال والأمد العاجل. بل هو نظر إلى مستقبل المسلمين على اتساع رقعة دار الإسلام، وفي الأفق الواسع الشاسع للآمال العالية التي تبشر ببلوغها إن شاء الله هذه اليقظة المباركة لجند الله الداعين إلى الله الذين تعقِد عليهم الأمة آمالها.

سُطر هذا الكتاب منذ ثماني سنوات، وانتظر فرصة الظهور. انتظارٌ جرت أثناءه أقدار الباري جل وعلا مجراها. وكانت الحرب الخاطفة المهلكة التي أوْدَت بالأمة الإسلامية في العراق من جراء نزَق سلطان «البعث» العراقي وطاغوته. انتظار جفّت أثناءه ينابيع التفاؤلِ بالجهاد الأفغاني بعد أن حارَ نزاعا قبليا داميا. انتظار نجحت أثناءه الثورة الإسلامية في إيران بعد تقلبات ومخاضات هي من طبيعة كل تغيير سياسي اجتماعي عميق.

ثماني سنوات توحلت فيها الأمة الإسلامية في فلسطين واستفحل عدوان اليهود بعد أن علَّق الفلسطينيون التفاوُضيون خيوط أحلام على اتفاقية أسلو. ثماني سنوات عاش فيها المسلمون بكمد وألمٍ عاجِزَين مآسي الأمة الإسلامية في البوسنة والهرسك.

وها نحن أمةَ الإسلام نعيش كابوسَ العولمة وهي هيمنة جاهلية في ميادين الاقتصاد والمال والأعمال والثقافة والسياسة والمصير التاريخي السائرة به «جاهلية ما بعد القرن العشرين» مسارا خطيرا يقتضي من المسلمين التبصر بحاضرهم ومستقبلهم على ضوء ما أوحى الله عز وجل رب الناس ملك الناس إله الناس من الهدَى ودين الحق إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

غزتنا الحدَاثة الجاهلية ولفّتنا بأرديتها، فنحن في حياة رثة هامشية حول مائدة الحداثة الجاهلية الصائلة. خراب العالم الإسلامي واستمرار تخريبه بأيدي أعداء الإسلام من خارج وأعدائه من الداخل الناخرين كالدود في العود حقيقة لا يُماري فيها إلا من يضع على عينيه غماضات الجهل أو التجاهل. أهم عوامل التخريب الغربة عن الدين، أهم ثمار التشويه التغريبي هذه الأشكال من الحكم يستدعى إليها الإسلاميون ليزينوا وجهة الديمقراطيات الملهاة أو يُقصَوْن عنها إقصاء أو يُسْتَدرجُون إلى مغاوي العنف ومهاويه، ويقصَفون قصفا فظيعا كما فُعل بالإخوان من جبهة الإنقاذ في الجزائر ليتفرَّد حُداة التغريب نوابُ التخريب بالساحة، يتخذون صنائع لهم يدمرون البلاد والعباد يقَتّلون ويذبحون. فظاعات أعداء الدين في الجزائر أَشَدُّ ما أصاب المسلمين وذراريهم. في البوسنة والهرسك قُتِّلَ المسلمون وذُبِّحوا وانتُهِكت حُرُماتهم بيد كافرين سافرين، وتلك مصائب أصابت المسلمين مُتسلسلةً مع تاريخ المجابهات التاريخية بين الإسلام والكفر منذ بعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين. أما فظائع الجزائر فقسوتها ودمويتها ووحشيتها التي تتقزز منها النفوس البشرية يزيدها كلوحا وبؤسا ونكاية في المسلمين أنها تنسب لمسلحين إسلاميين، وما هي إلا صنع شرذمة المنافقين المستولين على السلطة.

يبحث هذا الكتاب عن الوسيلة لاكتساب جُند الله القائمين بالقسط في هذا العصر وما بعده القدرةَ والفهمَ لإقامة حكم إسلامي قاعدته العدل وجماله الإحسان. حكم يؤسس نظاما اقتصاديا سياسيا أخلاقيا إيمانيا متجددا بتجدد إيمان المسلمين، فاعلا ناجعا في إقامة صرح الإسلام من ركام الخراب الديني والمادي والنفسي الذي يُعانيه المسلمون من جراء هزيمتهم التاريخية أمام الغزو الجاهلي الشامل الذي تتمثل صيغته الحالية في حقائق العولمة.

جسم الأمة مريض، ونفوس المسلمين وعقولهم مريضة، لَمّا بُثّتْ في كياناتهم الحسية والمعنوية جراثيم التغَرُّب عن دينهم وعناكب الوحشة والفُرقة فيما بينهم. ولَمَّا طرَقَت أبوابهم وولجتها واغتصبتها عقلية تِقْنَوِية تُزْري بالدين وتَدين بالمادية الربحية الصرفة مِلَّةِ الرأسمالية الوحشية الناشِبةِ أظفارها في جسم الأمة الإسلامية تجهض كل محاولة لانتشال المسلمين من وَهْدة عوَزهم وفقرهم وتخلُّفهم الذي يلعن لعنا أليما تخمة بعضهم.

يبحث هذا الكتاب عن إعادة تأسيس التركيبة النفسية والاجتماعية التكافلية والسياسية والفكرية لمجتمعات مشتتة طوَّحَ بها الاستبداد الداخلي الممالئ الخانع للقُوى الغازية العاجزُ عن ضمان حرية الفرد وكرامته وعزة الأمة وقدرتها على تبليغ رسالة رب العالمين إلى العالمين.

طاقات المسلمين البشرية والمادية مبعثرة، موارِدها الغنية منهوبة، اقتصاداتها المتوجهة طوعا وكرها لتغذية قُوى الشمال الغنية غنيمة للمسرفين في الأرض، المستكبرين فيها، الطاغين فيها. وعندما تنغلق الأبواب وتشح الأرزاق ويتيه الشباب المسلم في يأس البِطالة والعَطالة يستبد العنف بالناس فتأكلهم النزاعات الدموية وتتفجر الطاقات المكبوتة المكمومة المغمومة في حركات مدمرة دموية.

لن يقاوم المخاوف واليأس والفقر والتخلف اقتباسُ الفئة المغربة الماسكة بزمام الحكم فينا لحداثة رثة وديمقراطية مزيفة هجينَة. إنما يعيد الأمل إلى النفوس والثقة والعزم تصالح بين فئات المسلمين على توبة جماعية إلى حقائق الإسلام وعدل الإسلام وشورى الإسلام.

في هذا الكتاب نقد للغربنة وأسبابها. وفيه -بل هي صلب الكتاب- دعوة إلى التمسك بالعروة الوثقى كتابِ الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فيه جسور ممدودة ويد مبسوطة لحوار تبين فيه كل فئة من فئات الأحزاب السياسية والفاعلين الاقتصاديين وسائر مراتب المجتمع المدني وأقسامه ما فهمها للإسلام ونيتها في احترام أوامره ونواهيه وعزمها على الفعل وقدرتها عليه.

لا ندعو في هذا الكتاب إلى قطيعة رحِم بين المسلمين مهما كان ماضيهم وحاضرهم ودرجة تنكبهم عن جادة الدين. إنما ندعو لقطيعة واعية منيبة إلى الله راجعة إلى شريعته مع الكفر والإلحاد والنفاق والاتباع الأعمى لسرب الضالين.

إنما ندعو إلى عدل الإسلام وأخوة الإسلام وتكافل المسلمين وتعاونهم على البر والتقوى كما أمر الله عز وجل. وندعو إلى أخلاق الإسلام وقيمه، وحرية الإنسان وحقّه في معرفة ربه، وحقه في الكرامة والأمْن والرزق، وواجبِه في المشاركة في جهاد الأمة لتحرير الأمة من براثن أعدائها، واقتناء وسائل التقنية المتطورة لمصاولة القوى الرأسمالية العسكرية العولمية ومطاولتها لكيلا يكون نصيبنا من خيرات الدنيا والآخرة نصيب المغبونين في القِسمة الضيزَى التي يبغيها مستكبرو العالم لمستضعفي العالم، المسلمون هم في العالم المستضعفون في الأرض النموذجيون.

أبناء الدنيا في تنافسية لاهثة على خيرات الدنيا. ولا بد لنا من مزاحمتهم بالمناكب، مناكب العلم والبحث العلمي والحذق الاختراعي، والتدبير المالي الاقتصادي السوقي. فالدنيا سوق، وسوقها الحاضر وما يتراءى لِقيم السوق من مستقبل أفجرُ ما تكون السوق، وأعْتى ما تكون، وأخبثُ ما تكون تنظيما رِبَوِيّاً ساحقا ماحقا ملعونا، وتسويقا استهلاكيا غازيا.

دنيا العولمة انفجار تلفزيوني إعلامي معلوماتي يستأْثر بالأذهان والأوقات والأعمار والأخلاق، يَسْرِقها ويستهويها ويلعب بها في ضوضاء ملهية عن الجد في كسوب الدنيا وعن الاستعداد للآخرة. فالدنيا العولمية مأْدُبة لئامٍ من حيث

قسمة الأرزاق ما بين شمال مُتخم وجنوب مُفَقَّر منهوب. والعالم المعلوماتي التلفزيوني مشهد لاَهٍ مُله مجنون مجنن. ساق التقدم العلومي التكنولوجي العالم مَساقا أربَكَ الفلسفات وحير العقول وفتح الله عز وجل بأسبابه على الناس أبواب كل شيء من بلائه المقضي وفتنته للناس الـمُقَدَّرَة ليبلونا أينا أحسن عملا. وهو العزيز الغفور.

يتقدم الإسلاميون للحكم، تستغيث بهم اليوم وغدا أمة مقهورة مغلوبة على أمرها وعلى أرزاقها وعلى عقول أبنائها وبناتها وعلى مصيرهم الدنيوي والأخروي في عالم مضطرب يستحيل فيه التوازن العادل، يتعذر فيه العدل الاجتماعي، تموت فيه الأخوة بين بني البشر، ويستنسِرُ فيه القوي على الضعيف، ويُجْحِفُ فيه القادر بحق العاجز، وتتبخَّرُ فيه أوهام ديمقراطية لبرالية واعدةٍ ضمان حقوق الإنسان، وازدهار الاقتصاد، والعدل بين الدول، وتشغيل العاطل، واحترام هُوَيات الشعوب وإرادتها.

في عالم عولمي ظالِمٍ مستكبروه، موزّعة قوَى مستضعفيه وفي مقدمة موكبهم المسلمون، ينادي منادي الإسلام على المسلمين ليحملوا رسالة الإسلام بشرى للإنسان وتخليصا له من ربقة ما يستعبده من دون الله، ويُضله، ويظلمه، ويحقره.

لله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

سلا، الخميس 14 ربيع الأول 1419

عبد السلام ياسين

فاتحة

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾. آمين.

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وخلفائه الراشدين، وجندك المجاهدين وإخوانه من بعده إلى يوم الدين.

أما بعد،

أنْ يُخرج الله العلي القدير الحي من الميت وأن يخرج الميت من الحي شأن من شؤونه المذكورة المشكورة. هو المحيي المميت لا إله إلا هو. عليه توكلت، وإليه أنيب.

وأن يُخرجَ من ثنايا المسلمين بعد عهود خمولهم نشْئا متوقد العزيمة فائض الإيمان منة من مننه سبحانه على المسلمين وعلى الناس أجمعين. ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

لا يشكرون ولا يحبون وَلا يرجون خيرا من الإسلام الصاحي الذي يعبر عن حيويته بشتى أنواع العبارة في أرجاء الأرض. ويتساءلون عن جيل الصحوة وقد تربت في قلوبهم آفة الجمود، أو دبت في نفوسهم عقارب الكَنود الحَسود، أو تلظت في أحشائهم العداوة والجحود: من هم هؤلاء الذين ملأوا الدنيا جماحا وصياحا وسموهم إسلاميين؟ أهو دين جديد تَبَنوه من دون الناس، أم هي فورة التطرف والإرهاب والتشدد وضيق الأفق تهدد استقرار الأمن، وتؤذن في العالم بالبَوار والدمار؟

ومن المسلين الطيبين من يطرح السؤال من جانب الاستفسار عن هذا الشباب الملتحي وهذه الشابات المحجبات الذين زاحموهم في صف الصلاة وتميزوا في المجتمع بالسمت النظيف والخلق العفيف. قد يفرح قلبه لما يرى ويسمع،

وتَقلَق نفسه لما يوسع الظاهرةَ الإسلاميةَ أصناف المعلقين من ألقاب ونُعوت فيها الشك والتشكيك والفهم الركيك.

ظاهرة قل أن تبقيَ أحداً بالحياد بعد تنامي المد الإسلامي في العالم، يلمَس هذا المد الجارُ الجُنُبُ والأسرةُ في أبنائها وبناتها، والحي والمدينة، والشارعُ والمدرسة والجامعة. ظاهرة تجندتْ لاستكناه أسرارها وفَلَكِها ومَدارِها الاستخباراتُ العالمية منذ أن أصبَح الإسلاميون قوة سياسية يُحسب لها ألفُ حساب، ما من حساب فيها إلا يُخيفُ استراتيجيي الغرب المتربص، والحكام على رقاب المسلمين الـمُتوجسين خِيفةً من مسلمين يفرِدون الله عز وجل بالوَلاء، فيه سبحانه يُوالون، وفيه يُعادون، وإلى شرعه يحاكِمون كل شاذة وفاذة في حياتهم، راجين أن ينتصرَ دينُ الله على أيديهم.

صحوة هي من بركة الله عز وجل على هذه الأجيال، فطوائف متكاثرة من المسلمين يكتشفون حياة الطهر والتقى ويبادرون للتوبة والمسجد والحج والعُمرة والتمسك بمظاهر السنة ولزوم مجالس الوعظ والاستماع لأشرطة الدعاة. حي الله عبدَ الحميد كِشك وأمثاله من القوالين بالحق.

هذه درجة من درجات الصحوة، وخُطوة تتلوها بسرعة خطوات، لاسيما في صفوف الشباب، فإذا بالتائب وقد امتلأتْ جوانحه من أصداء الحِس الصالحِ يهتم بأمر غيره فينشر الدعوة بحماس، ثم ينقله حماسُه وتجربتُه واتساعُ معارِفِه ووعيه بما عليه الأمة من تنكر للدين خطوة أخرى فإذا به ينضم إلى جماعة إسلامية حركية لها طموح إلى الجهاد في سبيل الله، وسعيٌ منظم لتكوين فصيلة من فصائل جند الله، وخُطة لتغيير المنكر والأمر بالمعروف، وموقِف فاعل تُجاه السياسة والساسة والحكام في بلاد المسلمين وفي العالم.

أكثر الناس لا يشكرون الظاهرة الإسلامية ولا يحبون ولا يُنصِفون في الحكم. مِن أسباب حَيْفِهم الجهلُ بحقائق ما يجري، ثم هذه الحملةُ الشرِسة التي يُسعرُها الإعلام العدو على «المتشددين» مستغلا كل حادثة، مضخما كل تافهة، نافِخا في كل واد، تُعطيه أخطاء بعض الملتحين المتحمسين فرصة للنيل من الحركة الإسلامية.

فالحاكم المستبد، والعلماني المتحزبُ، والمراقبُ الحاقدُ من خارج بلاد المسلمين، يصرُخون من فئة تدخل الدين في السياسة، وتنقُل المعركة إلى المسجد، وتكتَسح الساحة السياسية، وتربح الانتخابات، وتدخل البرلمان.

وقد كان للثورة الإيرانية الإسلامية وما لقيته من قَبول واستحسان لدى المستنكفين من الظلم من بين المسلمين وسائر المستضعفين الأثر البين في التعريف بالإسلام الحركي المناهض للاستكبار العالمي.

واستخلص المستكبرون في الأرض من دروس الصحوة الإسلامية ومظاهرها الإيجابية والسلبية أن الإسلام الحركي هو العدو المهدد للاستقرار الاستكباري في العالم، القادر على تقويض العروش الصنيعة الظالم أهلُها.

وتطامَن الغيورون على الدين المعتزون بإسلامهم المخلصون لربهم، فانطلقوا من قيود الشك التي كانت تعقِلُ الإرادات وتستغرق الصالح من النيات.

أما اللايكيون، وهي الكلمة الأصلية العجمية التي ترجموها إلى «العلمانية»، فقد تلَظت فيهم نار الحمِية، وهم الفاشلون في ميدان السياسة المنهزمون، يرون الدينامية الثورية والفاعلية التي يتمتع بها الإسلاميون في استقطاب الأنصار وتنظيم الجهود ودخول المعارك التي لبثت زمانا حُكْرا على المتفرنجين المغربين.

إن لنا مع المغربين واللايكيين حوارا طويلا في هذا الكتاب بحول الله، قَصْدُنا أن نفتح للمتمسكين منهم بإسلامهم عقيدةً بابا للتفاهم حتى يقتنعوا إن شاء لله بأن فصل الدين عن السياسة تحريف للدين يَشينهم في عقيدتهم. أما الضالون الملحدون فلعل الله الغفورَ الرحيمَ يحمل إلى قلوبهم مع كلماتنا التي لا تريد إلا الإصلاح ما استطاعت نسمةً يتلوها مطر الرحمةِ فالتوبةِ فالفَيْءُ إلى الإسلام.

هؤلاء هم اللايكيون المتنصلون من دينهم يصفون الإسلام المتحرك المجاهد الهاجم بنصر الله على معاقلهم الخربة بأنه خلط إديولوجي يتميز به الخطاب المتطرف الذي يخبِط خبطَ عشواءَ حين يحمل الـمُعْطَى الدينيَّ على المعطيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية ليُعطيَ لأنصاف المثقفين تفسيرا

محرفا للواقع ماضيا وحاضرا، وليرسُم للمستقبل خطا معاديا لخير الإنسانية، مُجافيا لمقتضيات التقدم والحضارة والرقِيِّ.

أعتذر للغة القرآن وللمعتزين بلغة القرآن عن استعمال ألفاظ وتعابير دخيلة مترجمة هجينة. ذلك أُضطرُّ إليه أحيانا لأقتصد في الوقت مخاطبا بعض الناس بما يفهمون. وهي سنة عسى أن يمحوَ الله عز وجل عنا باتِّباعها غيوم الضلالة.

الإسلام عند أعداء الصحوة الإسلامية هو متاهة اللاَّ فكر، اللا معقول، الإديولوجية الغيبية.

والـمَعين العتيد الذي منه تَشْتَقّ المعقولية ويستفيض الفكر هي فلسفة الأنوار التي طلعت شمسها في القرن الثامن عشر بأوربا، وبفرنسا خاصة، فانبسطت أشعتها على الإنسانية النموذجية التي صنعت الثورة الفرنسية وعلمت الأجيال مبادئ الحرية والمساواة والأخوة. لا معرفة إلا ما يصْدُرُ من هناك، ولا حضارة ولا ثقافة.

في طريق الحركة الإسلامية الصاعدة، الغادية الرائحة من نصر إلى نصر بإذن الله، تتمثَّل هذه الذهنية المغربة العلمانية عقبةً في سبيل بناء النموذج الإسلامي في الحكم على أساس الفِطرة وإسلام الوجه لله عز وجل. تتوسط هذه «الفلسفة الأنوارية»، أمِّ الإلحاد وأمِّ اللبرالية وجدة الماركسية وسائر الفلسفات المادية، بين الدعوة الإسلامية وبين الفطرة المقبورة في كيان مَن نوَدُّ أن نبلغهم عن الدين، وعن الله عز وجل، وعن الآخرة.

نودُّ مع ورثة الفلسفات المادية حوارا هادئا يتناول جوهر الموضوع في قضية الإسلاميين والحكم إبقاءً على فلول المنهزمين من أنصار الإديولوجية، البائدة منها والمنبعثة. لكنهم، وهم مطية الشيطان الإلحاديِّ، يأبونه إلا صراعا، يأبونها إلا عداوة سافرة أو مقنعة للإسلام، يأبونها إلا حربا تنعَتُ الإسلام بأنه ظلام، وتتأسف على ما يفْجَعُ قلبَها من انتصارات «الإديولوجية الغيبية» في زمان ماتت فيه وتموت إديولوجياتهم المرجعية، فهم يكابرون ويتسوَّقون من تلك السوق

البائرة في بلدها موسكو وفي أوربا الشرقية وفي كل مكان مصداقيةً تُبارز مصداقية الإسلام. وهيهات أن تغتر الأمة بعد اليوم بِناعقهم بعد أن عرفت من هم بالحق حماةُ الدين وبُناة الشخصية الأصيلة الحرة من قيود التبعية الفكرية، لا تلك الشخصية المهجّنة التي برهنت أنها حليفة الاستعمار، جاهرة بعداوتها للإسلام أو متلبسة منافقة تزعم أنها نصيرة الوطن وباعثة العزة القومية!

موعدنا المسجدُ يا مَن تحدثه فطرته يوما بالتوبة.

ولأهل المسجد الراجعين إلى ربهم، المحافظين على صلاتهم، المتطهرين من أرجاس المنكر التي تشجعها وتنشرها الحكومات التقليدية واللايكية الجاثمة كعُقْبان البلاء في بلاد المسلمين، نتحدث عن عدل الإسلام وعن الإسلاميين والحكم، من طَوْر الفطرة ومن عُرْضِ المعاناة التاريخية التي أبْرَزَتْ في هذا الزمان نور الإسلام المجاهد، يتألق في أفق المسلمين بشرى لكل عبد منيب.

أبرزَها الله الغني الكريم، أستغفره من فلتات اللسان والقلم.

أبرز الله عز وجل منذ قرن ويزيد، منذ الهجمة العاديَة على ديار الإسلام، هجمة الاستعمار الأوربيِّ، رجالا قاوموا العدوَّ بالسلاح الحربيّ، وقاوموا فكره بالتصدي العلمي، ونفَروا واستنفروا لمواجهة الطوفان الجاهلي الجالب علينا منذُئذ بخيله ورَجله.

منهم مجاهدونَ مبكرون حملوا السلاح وأبْلَوْا البلاء الحسن في صد الطغاة، مثل عبد القادر الجزائري، ومحمد بن عرفان بالهند، ومحمد بن عبد الكريم الخَطابي بالمغرب، والسادة السنوسيين بليبيا، ومحمد المهدي بالسودان وغيرهم من جند الله.

هؤلاء كانوا طليعة صحوة المسلمين من رقدة القرون، صحَّتهم دقاتُ طبول الأساطيل الغازية، وطلَقاتُ مدافعها المدمرة.

وصحا المسلمون للخطر الداهم، خطرِ الغزو الحضاري الفكري المهدِّدِ للكيان المعنوي للأمة، على صوت منذرين من علماء المسلمين وفضلائهم أمثال

الجمال الأفغاني ومحمد عبده ثم رشيد رِضى ومحب الدين الخطيب وأمثالِهم رحمهم الله ورحم كل مجاهد في سبيل الله. لا يضير محبتنا لهؤلاء الطلائِع الأعزاء ما تخلل فكرهم من تذبذب أحيانا. نرى نحن من مواقعنا ذلك التذبذب ونحن على أرائك العافية متكئون. وهم كانوا في المعمعان الساخن حيث تصطك بهم الأحداث وتضغط على أفكارهم وإراداتهم همومٌ كالجبال.

رحم الله أولئك الرجال، فهم مهدوا لنا الطريق، وهم كانوا نِعْمَ طليعةِ القوم. نِعمَ السلف كانوا لنا إن نحن شمَّرنا عن ساعد الجد لنتعامل مع زماننا وأحداثه بنفس الشهامة والصمود كما تعاملوا مع زمانهم.

ورحم الله حاملي البِشارة الإسلامية ومؤسسي الصحوة ومشيِّدي أركانها. في مقدمتهم الأستاذ حسن البنا، ذلك الجبَلُ الشامخ، وأبو الأعلى المودوديُّ مُنظِّرُ العمل ومنور الفِكَرِ، وأبو الحسن الندويُّ ذو القلب القوي والمنهج السوي، وسيد قطب إمام الأُسْدِ الغُلْب. وسِواهم رحمهم الله.

أولئك آبائِي فجئني بمِثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

ثم ها أنت ترى يا أيها المؤمن المحافظ على صلاته، الغيورُ على دينِه، القانِع بالمبرَّات، المكثرُ من الصدقات، الحارثُ لآخرته حرث الزيادة في الثواب والحسنات ما آل إليه أمر أمتك بعد طول رقاد وبعد إيغال أهل الظلم والفساد، من تحفّز جهاديّ به تَحْيَى وله تستجيب هذه الأجيال الصالحة من أحفاد الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدر وأُحُد، ومع الخلفاء الراشدين والفاتحين، ومع صلاح الدين النجم الثاقب مبيد كيد الصليبيين، ومع أبطال الإسلام الذين هَبوا في كل زمان مُلبين داعي الله إلى نصر دين الله وتثبيت سنة رسول الله.

ما هذه الصحوة إلا طَوْرٌ مُجَدَّدٌ من أطوار الجهاد الإسلامي السرمديِّ. فإن فاتك يا أيها المؤمن السليمُ الفطرة أن تكون مع الأفغاني وعبده ورشيد في بث الأذان في غلَس الدعوة، ومع البنا والنبهاني والمودودي في تجنيد الجند، فلا

تذهبن بك الشكوك إلى التفَصِّي من عُهدة الجهاد بحجة أن هذه الصحوة متعددة التنظيمات، مختلفة الاجتهادات، متواثبةُ الكَرَّات، صائلةٌ أحيانا بفُتُوّتها فوق سياج التعقل والثبات.

هذه الصفوف من الإسلاميين المنادين بنداء العدل، المرشحين للحكم، الصابرين في درب الجهاد ينتظرون وِفادتك. ما هم عندما ينكشف لك أمرهم من وراء اللافتات إلا صف واحد، وحزب واحد، يسعَوْن لنيل رضى الله الأكبر على طريق نيِّرَةٍ واضحة ناهجة هي طريق حمل هَمِّ الأمة ونُصرة دين الله في الأرض، من حيثُ تسعى أنت لنفس الهدف في خوَيْصَّة نفسك، في فرضك ونفلك، في ركن الاستقالة من الأمر العام. بانزوائكَ أخي فاتك الفضل الذي خص الله تعالى به المجاهدين.

إننا لا نحتاج مع الفِطَر السليمة، فِطَر أهل الإيمان، إلا تبليغَ كلمة الصدق، فإن زرع الله عز وجل ما نحرثه بكلمتنا البشرية نهض في قلوب من شاء الله قائمُ الحق.

أما من ينتمون بالوَلاء الفكري المذهبي لفولتير وروسو وماركس ولينين وتشي كيفارا وكرامشي فإن فطرتَهم مطمورة تحت رُكام ألف طَبَقٍ. مع هؤلاء أيضا نتحدث في هذا الكتاب، فاعفُ أيّها السليمُ من لوثات الفكر المغرب إن صادفت فيما تقرأ التواءً في تعَرُّجات الفكر وانغماضا عن المصطلح القرآني واللفظ النبوي.

إننا نعتقد أنه لا بيان يُرجى، ولا بلاغَ، ولاَ مَسْلَكَ إلى قلوب العباد، ولا أصالةَ للخطاب الإسلامي إلا بالأسلوب القرآني السني البريء من لَوَثات الفلسفة وعُجمات الحذلقة الثقافية. لكن ما حيلتُنا والنشءُ المُغرَّبُ الذي نحب أن نخاطبه ونحاورَه أُلْقِم منذ طفولة عقله طُعمة العُجمة القلبية وإن انطلق لسانَهُ بلغة الضاد. فعالَمه الذهنيُّ مسكون باللاييكية الفلسفية، لا يفهم عنك إن لم تحدثه بلغة العصر، التي لا يفهم غيرها، عن القومية والاشتراكية واللبرالية والوجودية

والديمقراطية والرأسمالية الأمبريالية، وعن الديموغرافية الأصولية، وعن التراث والأصالة، وعن الثقافة والفن، وعن كل شيء سِوى الله عز وجل، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدَر خيره وشره.

إننا لا بد أن نبلغها واضحةً صالحةً، قوية مُدَوِّيَّةً، أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وأن القرآن حق وما عارضه باطل، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم حق وما خالف سنته باطل. وأن الإسلام نور والجاهلية ظلام. وأن لله أولياءَ يبعثهم ويدخلهم الجنة. وأن له أعداء يبعثهم بعد الموت ويدخلهم النار. وأن مواجهة الإسلاميين لأعداء الدين فرض جهادي. وأن سعيهم إلى الحكم وسيلة ضرورية لإرساء دعائم العدل والتمكين في الأرض لدين الله.

تجولُ معه في دروب هذه الياءات والليات العصرية الأكاديمية ومعك أدواتك المنهجية الديالكتيكية النبوية، يستمع إليك تلميذ الفلسفة «الأنوارية» الماركسية اللبرالية ويثق بزكانتك. وأكثرُ ما يكون الماركسي أو المتمركس دفاعاً عن مذهبيته حين تُصرع مذهبيته على الساحة وينعَق بومُ البَوْنِ على أطلال ما بنَتْ. وأكثرُ ما يكون اللبرالي غراما بلبراليته حين تستعيد اللبرالية شبابها وتُنشِب أنيابها وتطأ العالمين بأظلافها.

مع ذراري المسلمين الذين تنفّسُوا رياح العصر الفلسفية المنهجية نحب أن نتحاور أيضا التماسا لفتح باب الهداية للفطرة المقهورة في جنباتهم. عسى اللهُ أن يجعل بيننا وبينهم مَوَدَّة في طريق رجوعنا ورجوعهم بالتوبة إلى الخالق الرزاق المحيي المميت القهار سبحانه.

ولِمَنْ يحمله الورَع الأكاديمي على التعامل ب«الصرامة المنهجية» لا يُلْقَون بالا لأفكار غير منظمة ومفاهيم غير مرتبة ممنهجة نتقدم بالمنهاج النبوي المشتق من قول الله عز وجل: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾[1]، المتسربل بجلال أصله العُلْوِيِّ من قوله عز من قائل يخاطب كل إنسان تائه شارد عن مَوْلاه: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً

(1) سورة المائدة، 50.

ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾. (2)

الشّرعة ما جاء به القرآن، والمِنهاج (بالألف بعد الهاء) هو ما جاءت به السنة كما قال حَبْر الأمة سيدنا عبدُ الله بنُ عباسٍ رضي الله عنهما.

ويا أهلَ الصرامة المنهجية لا تَعْجلوا علينا أنْ قلّدْنَا سَلَفنا وتشبثنا بأصلنا وجِئنا بحجتنا «الغيبية الماضوية التقليدوية»، فليس لنا بعد الله وآياته ورسوله مِن مَبدإٍ. مِن آياته تعالى سُنّتُهُ في التاريخ وفِعلُه في العبادِ. لا ننكر الواقِعَ، ونحنُ من جُملته وأنتم، وما حولنا وما حولكم، وما تطورت إليه أوضاع العالم وما تتطور، ولا حبةٌ في ظلمات الأرض ولا رَطبٌ ولا يابسٌ إلا في كتاب مبين. لا ننكر ولا نكفُر آياته في الكون، بل نؤمن بها ونشكر كما نؤمن بآياته الـمُنزلة على رُسله، الـمُفَصَّلة في كتابه المحفوظ، وفي سنة رسوله محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين. وبعد الدنيا الآخرة، وبعد الموت البعث والنشر والموقف والحساب والميزان والصراط والجنة أو النار. هذه صرامَتُنا، صرامةُ العقيدة ثبتنا الله عليها.

أما «منهجيتنا» فليس يُرادُ لنا بالمنهاج والشرعة أن نسبح في التنظيرات غافلين عن الله وعن مصيرنا إليه بعد الموت، بل دُعينا إلى اقتحام العقبة لنكون من أصحاب الميمنة مستعيذين بالله مِن منهجية الذين كفروا بآيات الله فكانوا من أصحاب المشأمة، عليهم نار مُوصدة.

في نار مُوصَدة منذ هذه الدنيا لو تَعلمون مَنْ يَلُوكُ نهارَه ولَيلَه عقيدةً ماديَّةً لها في ذهنه رسوخ القواعد المبنية المؤسسة على ثوابتها ومتغيراتها، لها على لسانه رَتابة الحذلقة المكتبية. في نار مُوصدة لو تعلمون مَنْ لا ينهض مستجيبا لنداء الباري جل وعلا الرؤوفِ بخلقه ملَبِّيا مشمرا تائبا عائدا عابدا.

---

(2) سورة البلد، 11–20.

يبحث المنهجيون المهزومون في مجالات السياسة، لا يزالون، عن صيغة للثورة، وعن معرفة بالذات القومية وأدوائها، وعن القامع الخارجيِّ الاستعماري الإمبريالي، وعن طريقة سالكة إلى الخروج من التخلف إلى التنمية، ومن التبعية إلى الاستقلال، ومن اللاشيئية سِمَةِ قومهم وأوطانهم إلى «شيئية» لها بال بين الأقوام المصنعة المتقدمة ذات البأس والثروة والحضارة والحرمة في العالم.

هذا يريدون، وفي هذا يتبارَوْن عَرضا وتحليلا ونقدا للذات وتعليلا. ولم تعط منهجيتكم يا بني الأوطان إلا مزيدا من البلاء لقومكم.

ونريد نحن للأمة عزة ومَنَعَة، وعافية ورفاهية وعدلا ووحدة وقوة. نريد لها إمامة العالم لتُبَلِّغَ رسالة الله للإنسان، وهي رسالة عدل ورحمة وسلام وتعايش على البِرِّ في الدنيا.

لكننا نبدأ بمخاطبة الإنسان الفرد، نحدثه بحديث المنهاج عن مصيره بعد الموت، ونحدثه عن العقبة وفك الرقبة (نفهم فك الرقبة فهما واسعا)، وعن إطعام ذي المسغبة، وعن الانتظام في صف الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. الانتظامُ معَهُم شرط مشروط في نيل الدرجات العُلاَ في الآخرة.

ولأن خطابنا القرآنيَّ المنهاجيَّ يلتقي بالفطرة السليمة عند المسلم والمسلمة نُكوِّنُ رحمة إحيائية، معها وبها تنبعث القوى الإيمانية المحركة للجماهير.

وتُكَوِّنُ بتكوين العزيز القادر سبحانه، إرادة اقتحامية مُشَخصة في هذه الجماعات المصلية التائبة إلى ربها، العازمة على خوض معارك الحق حتى الموت.

ويَكُون وقوفُنا موقف التلميذ النابه المتلقي بقصد التنفيذ أمام كتاب الله وسنة نبيه، وأمام آياته الكونية ووضعه للأسباب، وضوحاً منهاجيا رائده عمل الأنبياء عليهم السلام، وحاديه الحِكمةُ ضالَّةُ المؤمن.

ولا تُكَوِّنون بصرامتكم في التلمذة للفلسفات إلا شخصيات متشنجة، وفصائلَ متجادلة عاجزة. هدانا الله وهداكم.

❋❋❋

المرجعية المطلقة لشِرْعة الله التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، تنزيلا من عزيز حميد، تعطينا الوِجْهة والمعنى لحركة الإنسان في هذا العالم، لحركة المؤمن الصائر إلى ربه على طريق السعادة الأبدية، وحركة الذين آمنوا وعملوا الصالحات المكلَّفين بعد الرسل عليهم السلام بشهادة الحق وإقامة القِسط في الأرض وتبليغ رسالة الإسلام.

عبارة «اقتحام العقبة إلى الله» دليل على طريق السعي الجهادي المتقدم بالإنسان، الرافِعِ له، من دركات الكفر إلى صعيد الإسلام فمقاماتِ الإيمانِ فمعارج الإحسان. سلوكُ الفرد العابدِ لربه، المتقرب إليه، المكلَّفِ من قِبله، المؤتمِر بأمرِه، المنتهى عندَ نَهيه، هو الضمانةُ لتكوين المجتمع الجهادي الأخوي القائم بالحق في الأرض. من انتظام ذلك السلوك الفرديِّ في وَلاَيةٍ رابطة بين المؤمنين، أمرُهم شورى بينهم، يتألف جند الله القائمون بأمر الله. قومَةٌ هي ولا نقول ثورة.

❋❋❋

أمّا المنهاج النبوي، وهو السنة التطبيقية العملية النموذجية، التاريخيةُ بعدُ، البشرية المتجددة في الزمان والمكان باجتهاد أجيال الإيمان، فنجدها ونستمدها لفظا ومحتوى وتَوجُّها وبشرى للمؤمنين، وبُشرى للمحسنين، وعامِلَ ثقة في موعود الله عز وجل وبلاغِ رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، في هذا الحديث العظيم الـمُنبِئ عن العِز المستقبَل الذي ينتظر هذه الأمة المرحومة أصلا، المقهورةَ بلاءً، الصاحية اليومَ، المتيقظة المجاهدة المنتصرة بإذن الله.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد رحمه الله بسنده الصحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون مُلكا عاضا فيكون ما**

شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها. ثم تكون ملكا جبريا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت».

***

تنطلق خُطانا المنهاجية من قواعد الشِّرْعة، يستنير القلبُ بنورها، والعقل بعلمها، والنّظر بمفاهيمها، والإرادة بحافزها وداعيها وندائها، لنقتحم العقبة إلى الله عز وجل.

هكذا نفكر وهكذا نعمل. والخلافة على منهاج النبوة هي الأفق.

وهكذا نطرح في هذا الكتاب أسئلة ثلاثة في ثلاثة أبواب.

السؤال الأول: ماذا يريد الإسلاميون؟ هؤلاء الذين ترشحهم الأقدار الإلهية إيمانا وتصديقا، ويرشحهم حكم الواقع الـمُحَس الملموس لتولي زمام الحكم في بلاد المسلمين.

ما هي أهدافهم؟ ما هي الشروط المنهاجية ليتربّى سِربُهم على الإيمان، ويتحلى حزبُهم بخصال الرجولة والكفاءة الذاتية لتتحول الإرادة الاقتحامية عند الفرد المؤمن العضو في جماعة المسلمين إلى قوة اقتحامية تخرق العقبات السياسية والاجتماعية والثقافية والتخلفية الاقتصادية العلمية التكنولوجية؟

السؤال الثاني: تتحرك هذه القوة الإسلامية في طور تكوينها الحاضر، وستتحرك غدا بإذن الله، في عالمٍ المسلمون فيه وَفْرةٌ عددية، لكنهم من الضعف والعجز والهزيمة الحضارية بحيث لاَ غِنَى لهم في صراعهم غير المتكافئ للبقاء من مُصانعة القوى العالمية المهيمنة. والعالَم في مخاض، تعبُره تيارات جديدة، وثورات «حريرية» لشعوب رجعت من «أمل» الشيوعية إلى حضن الهيمنة الرأسمالية. العالم في مخاض ميلاد أليم عسير حسير لفئة مستضعفة مفقرة من الإنسانية، يزدادون عَوَزا وتخلفا كلما ازداد الأقوياء ثراء ونَعْمة وقوة. والمسلمون هم جوهر عالم المستضعفين.

العالم يعرف تطورا مذهلا في العلوم والاختراع، يعرف جنونا إعلاميا يطوق الكوكب الأرضيّ، القريَةَ الكوكبية، بطوق من التوابع الإلكترونية الحاملة لرسالة الشهوة الدوابية العارمة.

العالم يعرف تلوث البيئة المهدد بخراب الكرة، يعرف أمراض الحضارة السائدة وأمراض اللاحضارة المنبوذة.

ما سلوك القوة الاقتحامية الإسلامية في هذا العالم وهو عقبة ذات أبعاد تضغط وتتمنع وتقاوم وتدْحَرُ وتقتل؟

السؤال الثالث: هذه القوة الاقتحامية الإسلامية التي أصبح يعترف المراقِب المسلم أنها الأمل الوحيدُ للأمة، ويصرخ العدوّ أنها الخطر الداهم المهدد للسلام في العالم، ليست وحدها الفاعل السياسي في بلاد المسلمين. هنالك أحزاب لاييكية، ونخب مغربة، وأنظمة موروثة قائمة. هنالك الديمقراطية يطلبها الشجر والحجر بوصفها سفينة النجاة. هنالك الأمم المتحدة. هنالك حقوق الإنسان دينُ العصر الـمُعلَن. هنالك علاقات التبعية الاقتصادية. هنالك المديونية. قيودٌ في أرجلنا وأغلال في أعناقنا.

ما العمل؟

هذه أسئلتنا، وهذا منهاجنا على الشرعة الواضحة، لَيلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وعلى الله قصد السبيل. ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والصلاة والسلام على الرسول الرؤوف الرحيم.

سلا، صبيحة الإثنين 13 صفر 1411.
عبد السلام ياسين

الباب الأول

ماذا يريد الإسلاميون ؟

الفصل الأول

الورد السياسي الأخلاقي للحركة الإسلامية

- قواعد الإسلام
- معضلة التأصيل
- مرض الغثائية وداء الأمم
- منطق الدعوة ومنطق «الساحة»
- الغلوّ والتطرف
- فقه التجديد
- تحديات المستقبل

قواعد الإسلام

أقصد بقواعد الإسلام المرتكزات الأرضية الجغرافية السياسية، والمقومات الاقتصادية، والحجم البشري الذي عليه بعد الله عز وجل يمكن أن تتكِئ القوة الإسلامية الاقتحامية في سبيلها إلى التمكن في الأرض والاستواء في الحكم. وما التمكين إلا من الله عز وجل، لكننا ننظر في الأسباب والإمكانيات الظاهرة وهي من وضعه تعالى وخلقه وتسخيره.

يَعتَمد واضعو السياسات على التخطيط المحسوب المدقق للحاصل والفائت من إعداد المستقبل. والحاصل للحركة الإسلامية الصاحية هو أولا الثقة التامة بالمولى القوي العزيز وبوعدِه الكريم على لسان نبيه الأمين صلى الله عليه وسلم بأنها ستكون خلافة على منهاج النبوة بعد العض والجبر.

الفائت هو حال الأمة من التشتت والتمزق، حتى إنك إن ذهبت تحصي المسلمين ومقومات المسلمين لا تُسمِّي أمة واحدة، وإنما تسمي مُزَعـًا من جسم مُمزق في دويلات مستقِلٍّ بعضُها عن بعضٍ، تابِع كلُّها للقوى العالمية المهيمنة، وتُسمِّي اقتصاديات هزيلة تنتمي بلا استثناء للعالَم المتخلف، بل يُضرَب المثلُ ببعضها للفقر المدقع.

هذا رغم وفر الإمكانيات، رغم الفائض المالي في دويلات النفط، رغم الفائض في الإمكانات الفلاحية في بلدان لاَ تعرف أن تستغل الأرض ولا تقدِر. رغم وجود طاقات مادية وبشرية لا تُستثمَر.

تُسَمِّي إن استعرضتَ المسلمين مليارا من الخلق ويزيد، تُسَمِّي كَمّـًا ديموغرافيا تَزَاحُمُ الأجيال فيه على مائدة الحياة يشكل عِبْئـًا ثقيلا ومشكلا لا يجدُ حلا.

تُسمِّي إن ذكرتَ المسلمين الجوعَ يُجاوِر التخمة، والهزيمة والغُرْبة على وجه الأرض، والهُوية الضائعة إلا من انتسابٍ إلى الإسلامِ دفينٍ يُذَكِّرُ الزنجيَّ المسلم متى وجَد من هموم معاشه الشحيح فُسحةً للتفكير أنه أخ في الدين لذلك العربي الثري الذي تحدثوا عنه في وسائل الإعلام أنه خَسر على مائدة القِمار في مونتي كارلو أربعمائة ألف دولار في جَلسة واحدة. يذكِّرُهُ انتسابُه للإسلام تلك الأخوة المبدئية التي تلْعن هذه الأَثَرَةَ الجاهلية التي مكّنَتْ للظلم الشنيع، ومكن له النظامُ العاض والجبري، ومكن لها التنكر لدين الإسلام دينِ العدل والإنصاف.

أمة متعددة متنوعة منتشرة شعوبا في القوقاز والعرب والإيرانيين والأوربيين. ما بين أسودَ وأسمر وأبيض. أتراك وهنود ومغول وزنوج وماليزيون. متنوعو السِّحْنات واللغات واللهجات. قبلتهم في الصلاة واحدة، حجهم إلى بيت الله الحرام الواحد، عقيدتُهم أن لا إله إلا الله محمد رسول الله على كثير من الجهل بالدين في عوامهم، وعلى كثير من البِدعِ والخُرافات الراسبة من القرون والطارئة الناشئة من الاختلاط الثقافي.

المسلمون المليار ويزيد سُنةٌ وشيعة، أكثرُ من تسعين في المائة من أهل السنة والجماعة انتماءً، لكن الأقلية العددية من الشيعة في إيران هم الذين فَجّروا على عتَبَةِ القرن الخامس عشَرَ ثورة نبهت العالم إلى أن الإسلام قوة كامنة لا تنتظر إلا القيادة الحكيمة لتشكيل قوةٍ تحررية لها الاعتبار.

المسلمون يشكلون على خريطة العالم حزاماً يمتد من أندونسيا إلى شواطئ الأطلسي بالمغرب، من جاكرطا إلى طنجة. وبلاد العرب المسلمين هي بُؤرة هذه الرقعة. للعرب المائةُ والخمسون مليونا، بل المائتا مليونٍ عن قريب، المِيزةُ المنكرَةُ بأنهم أكثر شعوب الأرض تفاوتا في قِسمة الأرزاق وسوء توزيعها. النفط كان يكون ركيزةً لتنمية توفر الرخاء للعرب وللمسلمين أجمعين لولا أنَّ فهم بعض العَرَب للإسلام وتحريفهم له حوَّل دين العدل مُبرِّراً ليبقى هذا أميرا يرتع وذاك صعلوكا لا يشبع.

المسلمون دويلات خلَّفها التقسيم الاستعماري، وقسَّمها التوزيع العضِّيُّ الجبري من قبله، ما منها واحدةٌ تُذْكَرُ إن تحدث العالـمُ عن الصناعة والعلوم والاكتفاء الذاتي واليدِ النافذة في سياسة العالم واقتصاده ودبلوماسيته وتقرير مصيره. بل ما منها واحدة تقرر مصيرَ نفسها بحرية دون أن تستأذن الحاميَ القوي أو الحليف الاستراتيجي أو الممول الـمُوَجِّهَ للسياسة الاقتصادية الاجتماعية التي لا ينبغي أن تَدور عجلتُها إلا وَفْقَ ما يُصْلِحُ الدواليبَ الرأسمالية طاحنةَ المستضعفين في العالم.

المسلمون أقليات مقهورة في آسيا وأفريقيا، وجاليات مشتتة في أرجاء المعمورة. في الاتحاد السوفييتي بالأمس كان المسلمون يمثلون أقلية هي بعد الأقلية المسلمة بالهند أكثر المغلوبين على أمرهم عددا. وهم اليوم، بعد تفتت الاتحاد السوفييتي، جمهوريات تُنازِع القوميةُ فيها الهويةَ الإسلامية التصدُّرَ والبروز.

هناك أقليات في سنغافورة الصغيرة وفي الصين الكبيرة. أقليات في فتنام والفلبين، في سيلان وبرمانيا، في يوغوسلافيا وبلغاريا وبولونيا وهنغاريا وسائر الفتات من الإمبراطورية العثمانية رحمها الله. هنالك في أوربا أقليات باليونان وقبرص، وأغلبية، بل عامة، في ألبانيا عجل الله سراحها من قبضة الماركسيين الخبثاء. هنالك جاليات في فرنسا إسلامية يقدمها حجمها ليكون الإسلام ثاني دين في البلد، وجاليات في إنجلترا وسويسرا وإيطاليا وإسبانيا وهولندا وبلجيكا. وفي الأمريكتين جاليات مهمة تزاحم هنا وهناك، بحجمها العددي لا غيرُ، الجاليات اليهودية المتمكنة في البلاد ثروة وتنظيما ونفوذا.

الأقليات المسلمة تعاني من القِلَّةِ والذِّلَّة والاضطهاد مثل ما تعاني الدويلات الإسلامية التابعة المحكومة بغير ما أنزل الله. وتتكون الجاليات المسلمة في أغلبيتها الساحقة من مستضعفين نزحوا من ديارهم طلبا للقوت. فهم عُمال هامشيون تستغلهم البلاد المضيفة وتأكل أعمارهم. معهم قِلة من الطلبة

والخريجين. والكل مهدَّد بسطوة البحر الكافر المحيط، يحتاجون أن تمد الدعوة الإسلامية لهم يد العون لكيلا يذوبوا وتذوب ذريتهم في مجتمع الغربة. وإن مصير أبناء الجاليات المسلمة وبناتهم من الجيل الثاني والثالث لمأساة تُدمِي القلوب.

هل يكون هذا الشتات من البشر مُرتكزا يُرجَى نفعه يوما مع ما وصفنا وما لم نصف مِن الضَّعف والضياع؟

نعم والله إن سرت في الأمة روح جديدة. وإنَّ في أفغانستان الجهاد، أفغانستان الكرامات، أفغانستان التي دحرت أكبر قوة عسكرية في العالم لخيرَ آية يتدبرها المؤمن ليرى مواقِعَ نصر الله. (1)

وإن في انبعاث الإسلام في أرض روسيا بعد سبعين سنة من القمع الوحشي لآية أخرى على أن الله عز وجل ناصر دينه ولو بعد حين. إلى الجمهوريات المسلمة بالقوقاز وآسيا الوسطى وسائر تلك الربوع سرت الروح الجهادية من أفغانستان الجهاد فأيقظت، بل زادت يقظة، محاضن الإيمان التي حافظ عليها الدعاة عشرات السنين تحت السياط والسفك والتكفير المبرمج. وهكذا التقى الصوفية أهل الحديث فكونوا ما يسميه الروسيون الحاكمون بـ«الإسلام الموازي» المناهض للكفر. وإنه لدرس نتلقاه من هناك. بل درسان: لقاء أهل الحديث بالصوفية وهم في بلاد العرب خاصة يسَعِّر بعضُهم الحرب على بعض. ثم درس تمييز العدو بأنه كافر بينما نحن ألِفنا أن نصفه بالمستعمر الظالم، وكأن صفة الكفر حال ثانوي لا قيمة له.

إذا حلَّت الأرانب رَبْعا فسيحا خِصبا فلن تكون لذلك الربع حُرمَةٌ لأن سكانه أرانِبُ. فلو سكنته الأسود لأصبح عرينا عزيزَ الحِمَى له المَنَعة والسطوة. هكذا ديار المسلمين، وخيرات المسلمين، وطاقات المسلمين، والكمُّ العدديُّ الهائل للمسلمين. كل ذلك لا وزن له سياسيا ولا أخلاقيا ما دام المسلمون على حالة البعد عن دينهم.

(1) كُتب هذا قبل مأساة تناحر القبلية الدموي. آه على أفغانستان!

من هذا البعد عن الدين تخطُّبُهم الداهية، داهية الخوف والجوع والظلم والتفاهة. أرانب طيِّعة لكل صائد.

والذي يريده الإسلاميون، وهم الرحمة الإحيائية التي بها يجدد الله الكبير المتعال الإيمان، هو أن تنبعث الأمة من رقاد، وتتجمع من شتات، وتَحْيَى من موات، لتقوى على حمل الرسالة للعالمين.

معضلة التأصيل

المعضلة هي المشكل ذو الرأسين، إن حللت أحدهما انعقد الآخر.

ومِن المعضلات المقيمة في أذهان مفكري المسلمين منذ قرن ويزيد قضية الأصالة والمعاصرة. كيف نربط الحاضر العصري بالماضي الأصيل. ولكل تصورهُ عن الأصالة مفردة وعن المعاصرة، وعنهما مجتمعتين بمقدار، أو بتمازج، أو بتناقض وتنافر.

لم يكن للمشكلة حِدَّتُها قبل الصدمة الاستعمارية، إنما كان عند المسلمين العثمانيين شعور بالاضطرار «لإصلاحات» تضيف إلى الأمة الممتلئة بذاتيتها قوى التدبير العسكري وترتيب «التنظيمات» القانونية.

لما هجم الاستعمار يقضم من أطراف الأمة في الهند وأندونسيا وأفريقيا قاومه المسلمون بذاتية إسلامية لا تشعر إزاءه بنقص حضاري لأنها لم تكن على اطلاع بالفرق الهائل في تطوير الوسائل الصناعية والتسليحية والتنظيمية. ولم يزدَدْ شعور الدولة العثمانية رحمها الله بالحاجة للإصلاحات والتنظيمات إلا بعد أن حل العدو المتفوق قريبا من دارها في الجزائر ومصر وتونس والمغرب.

ثم إن فشل المقاومة البطولية للاستعمار من قبل رجال كعبد القادر الجزائري والمهدي السوداني وعمر المختار بليبيا ومحمد عبد الكريم بالمغرب، ومن قبلهم أحمد ابن عرفان بالهند، وأمثالهم أشعر المسلمين بالورطَة، لكن لم يفقدهم الثقة بالنفس، ولم يبث فيهم الشك في هُوِيتهم الحضارية الإسلامية. كانوا عند أنفسهم مسلمين يقاتلون كفارا.

وبهذا الاعتزاز بالذات بدأت المقاومة الوطنية للتحرير يقودها رجال يتكِئون على إسلامية الشعب، ويرفعون شعارات ما لبثت أن اختلطت فيها

الروح الإسلامية بالنداء الوطني المحلي القومي. وفي الطريق إلى التحرر اقتبس الزعماء أسلحة فكرية من القومية الأوربية الغازية بحكم المناقضة مع الـمُقابلة تعكس هذه المقابلة صفات الضد على الضد. وهكذا قاتل الوطنيون المحتل، فلم تنته المعركة بجلاء الاستعمار إلا وقد أصبح الناس وطنيين انزوت إسلاميتهم وراء الاهتمام.

ثم استلم الوطنيون الاستقلال كما تُستَلَمُ الحياةُ الجديدة، فإذا في أيديهم إدارة عصرية استدعت بضروراتها المزاحِمة نخبة من «العصريين» طوروها إلى دولة قومية هي هذه التركيبات الشرقية الغربية، العصرية الأصيلة، الأصيلة العصرية، المرتدية أثوابَ الغول، الـمُمتَشِقَةُ على الإسلاميين الطالبين لحكم إسلامي سلاحَ التفزيع والقمع، تارة لأنهم يهددون أصالة الإسلام الرسمي المحضون في كنَفها، وتارة بدعوى أنهم لا يفهمون العصر، فهم ظلام من ظلام.

كان جسمُ الأمة قبل الصدمة الاستعمارية كيانا رَخوا رثا باليا ضعيفا. كانت قابلية الاستعمار، كما كان يقول مالك بن نبي رحمه الله، تنادي بحالها مَنْ يملأ فراغ الضعف بالقوة. كانت التجزئة السياسية أمرا واقعا مزمنا ابتدأ من القرن الرابع الهجري، منذ استولى الديلم والترك على الدولة المسلمة ثم تنازعوا أطرافها منذئذ مع أقوام آخرين حتى استقرت، في مُعظمها، بيد العثمانيين. وشاخت الأمور في أيديهم، وشكل ظلْمُهم للرعايا، ومنهم العرب، مطية أخرى زادت القابلية للتجزئة والاستعمار استحكاما.

وجد الرجل الأبيض المتفوق نفسه وقد اكتسب عضلات ما لبث أن صرعت «الرجل المريض» العثماني. وفي ظروف الحرب العالمية الأولى برز مصطفى كمال وارثا عصريا قوميا لمجد العثمانيين، قلص الإسلام إلى زاوية الإهمال، وحارب الدين وقتل العلماء، و«ترّك» الدولة وعصَّرها بقوة الحديد والإرهاب.

هذا الاستعمار يشبه في عاداته في الحل والترحال، وفي الاستيطان والتناسل الذبابة المكسيكية التي تعمِد إلى كائن حي جريح فتستبطن جرحه وتعمقه، ثم

تبيض فيه بَيْضها فيفقِس عن أجيال من الذباب متوارثة، جرثومتها ومادة غِذائها وحياتها من الكائن المحتَل الذي يموت عنصرُه لتحيى العناصر الطفيلية.

دخلت العصرية غازية على الأصالة، وَرَدَ الكفر عاطِشا لاستعباد الضعفاء على الإسلام الموروث.

وحار المسلمون في الوِجهة، ما حيَّرَهم غيرُ المثقَّفين المغربين الذين لهم وعي بما يجري في الساحة وليس معهم إيمانُ العجائز، ذلك الإيمان الفطري الذي به حافظت الشعوب على إسلاميتها وهويتها وأصالتها، فهي اليوم يتجاذبها صَخَب العصر ونسلُ الذباب الطفيلي إلى جانب التعصر والتطور والتنصل من كل دين إلا دين القومية وجلباب الفلكلور.

ويدعوها إلى الإسلام طائفة من بنيها الذين عَزُّوا على المسخ الذبابي.

ما هي الأصالة وما هي العصرية، وكيف أصبح الجمع بينهما مطلبا معضلا، وكيف اشتبك الفكر المسلم في شباك هذا الطرح المعضل ذي الطرفين المتنازعين المتخاصمين؟

الطرح نفسه وارد علينا، داخل على إسلامنا، دخيل فيه، غريب عنه. إنه طرح محايد، بريء من كل دين، ينسُبُك نسبة وثنية مادية إلى «أصل»، ويسحبُك إلى عبادة «العصر» وما في العصر من مكتسبات مادية بشرية. طرح يجردك من عبوديتك لله عز وجل ليدخلك في متاهة المعميات التي يحلو للمثقفين المغربين من ذراري المسلمين أن يتباروا في ريادة مجاهلها.

ما هي التركيبة الـمُثلى لأساس الشخصية الأصيلة؟ ما هي الصياغة الفكرية لها؟ ما هي الصبغة الثقافية؟ وهكذا تتسلسل الأسئلة والأجوبة والاحتمالات في الذهنيات المغربة طردا وعكسا. وفي الميدان، في المدارس والجامعات، تدور عجلة التعصير والتأصيل.

تدخل المادة البشرية في يد الأساتذة المصنوعين بيد دهاقين العصر المستعمرين، فيتناولون نفسها وفكرها وشكلها وعاداتها بالتطريق والتمزيق

حتى تتهيأ للتحويل في كيمياء «الثقافة»، وحتى يُفرز منها عناصر السلامة الفطرية «محلل» التغريب، وحتى تتفاعل لصياغة جديدة بحضور «الـمُرَكِّبِ» اللاييكي.

الطرح الإسلامي لا يعرف التعميات الفلسفية، بل ينفيها ويطردها. الطرح الإسلامي يسألك عن إيمانك بربك وبمصيرك إليه. ينسبك إلى خالقك، فذاك أصلُك. ويسألك عن دار الامتحان والبلاء هذه الدنيا هل عملت فيها صالحا. ولا تستطيع أن تعمل صالحا بتجاوز نطاقك الضيق إن لم تعرف سنة الله في الكون، وآياته في الخلق، وما أخرج للناس في العصر من منتجات الفكر والصنائع، وما بث فيه من قوى متنافسة، وما أخر فيه وما قدم. هو المقدِّم وهو المؤخر لا إله إلا هو.

في الطرح الإسلامي معادلة لا معضلة. الإسلام يعلن البشارة بالإنجاح في الدنيا والفوز في الآخرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات. والمعضلة الفكرية الخابطة بين الأصالة والعصرنة لا تبرح بالمقلدة للفكر الوثني الإشكالات العقيمة.

أي وزن في السياسة والأخلاق يُرجى للمسلمين ما دام التعبير عن مطمحهم يتراوح بين أصالة مفقودة وعصرنة ممتنعة؟

ماذا يريد الإسلاميون؟ أية شخصية، وأي مجتمع وأي تنظيم، تكفل للمسلمين عودة الروح إلى كيانهم الخَفيف ليكتسي رزانة ويقتني في العالم وزنا؟

من الإسلاميين أنفسهم من يتوق لاستعادة الشخصية المسلمة التي دمرها الاستعمار، والمجتمع الذي انهار أمام صدمة الاستعمار، ومجد «الخلافة» الأموية والعباسية والعثمانية، وقد لَبِسَ كل ذلك في خيال التائقين حُلَلَ البهاء وزهو النصر وكرامة «الأصل» المجيد.

مرض الغثائية وداء الأمم

تُكَوِّنُ المقابلة بين الأصالة والمعاصرة «وحدة جدلية» على الشهوة لأذهان مفلسفة لا يستقيم لها التفكير إلا على طرحِ مُشاكِلٍ للمنوال المنهجي المادي. ويتداول الرهائن الثقافيون في يد الفكر المغرب الموضوعَ للنقد ونقد النقد، وللنقض ونقض النقض. تفكير في معقول ملموس مرغوب فيه هو المعاصرة، هو أن يكون المرء صورة طِبْق الرجل الأبيض «المتنور» المتحضر، وأن يكون المجتمع امتدادا حضاريا للعالم المتقدم، عالم الغرب العتيد. وتفكير في الغامض الجامد، في التراث الذي لا نجْرُؤُ على طرحه كله، ونحتاج أن نتزين به في عالم الثقافات ليبقى لنا بعض اعتبار الذات، لتبقى لنا «أصالة».

وتستعمل الجدلية المنهجية لتتيح «في آخر التحليل» تلفيقا منافقا بين الأصالة والمعاصرة، أو «تجاوزا ديالكتيكيا» نتخفف به من عِبء الغيبيات جميعا، ولتبقى لنا فلسفة الفارابي وتجديد ابن رشد للأرسطية.

مقطوعون يتعلقون بمقطوع. وانشطار في الفكر والشخصية والسلوك.

وينجر بعض الإسلاميين، إما دفْعا لبهتان المستشرقين وتلامذتهم وإمّا تشبثا بأصل تاريخي نلجأ إليه من الهزات، فيدخلون في إشكالية الأصالة والمعاصرة ليدافعوا عن المجد الأموي والحضارة العباسية، وليرسموا الطريق لاستعادة هوية ما قبل الاستعمار.

هكذا يتمسك بعض الإسلاميين بمقطوع منقوض، يتمسكون بنموذج المجتمع المنحل والنظام الحُكْمي المذموم شرعا، فلا هم تمكنوا من النقد الضروري المتبصر للذات، ولا هم استطاعوا عرض مشروعهم المستقبلي على النّمَوْذج النبوي القرآني متجاوزين إغراء البريق الحضاري المجيد الذي اقترن بالملك

العاض ثم الجبري. هذا التمسك بالأصالة الغامضة زيغ عن الخط المنهاجي واختزال وتعمية للأمراض التي كانت سبب تفتت الأمة وهزيمتها وضعفها و«لا شيئيتها» و«لا وزنيتها» في عالم اليوم.

ولا ينبئك مِثْلُ خبير، لا يصف لك الأمراض الطارئة على الأمة، والتي كانت ولا تزال السبب في انخذالها حتى انتُهكت حُرمتها، غير الحبيب الطبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن كان غيرُنا من رهائن الفكر المغرب المفلسف «المعقلن» يستعيرون أدواتهم الفكرية وتركيباتهم المفهومية من مرجعيتهم المادية الكافرة بالله ورسله، فنحن نستمع إلى مبلغ الوحي، النبي الرسول صلى الله عليه وسلم، يخبرنا من زمانه بزماننا، من ماض مُؤَسَّسٍ عن لاحق مخرَّب مُهدَّم مُفتَّت. لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَتُنْقَضَنّ عُرا الإسلام عُرْوةً عروةً، فكلما انتقضت عُروة تشبث الناس بالتي تليها. وأولهن نقضا الحكم، وآخِرهن الصلاة**». رواه الإمام أحمد والطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه.

عُرا الإسلام معاقِد القوة فيه، أصوله وفرائضه.

والنقض «انتشار العَقد من البناء والحبل»، و«النِّقض المنقوض»، و«منه قيل للبعير المهزول نِقض». كما قال الراغب رحمه الله.

البناء الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم في اكتماله البشرِيِّ النسبيِّ وحافظ عليه الخلفاء الراشدون المهديون بحفظ الله بدأ انتقاضه وانهدامه وانتشاره بعد ثلاثين سنة من موته صلى الله عليه وسلم. اغتالوا الإمامَ عليا كرم الله وجهه فكسروا قبة البناء، بل أعْملوا المعول في أُسِّهِ لما حوَّلوها ملكا عاضا. كان الانقلاب الأموي الباغي ضربة في الكيان الإسلامي، ترجَّعتْ هزاتها على مدى التاريخ كما تترجع رجات الزلزال.

وما الأنقاض والأنكاث التي نراقبها في جسم الأمة من تجزئة في الوطن الإسلامي، وتفرق طائفي مذهبي، وذَرِّيَّةٍ في الفكر، وتشتتٍ في الوِجهة إلا نتيجة بعيدة «أصيلة» لتلك الضربة ورجاتها. ويا عجبا كيف نُصِمُّ آذاننا ونغمض أعيننا عن هذا الحَدَث الزلزالي في تاريخنا، حدثِ اغتيال الشورى والعدل!

ما فعل الاستعمارُ غيرَ تعميقِ النقض، بل ما كان الاستعمار إلا لوجود أنقاض وأنكاث حيث كان قَبلُ البناء الحصين المنيع. دعك من عبادة حضارة ما هي إلا مظهر لقوة بقيت في الأمة «رغم» النقض العاض لا بسببه، رغم فساد الحكم وانحلال عروته.

ونستمع إلى المصطفى الحبيب صلى الله عليه وسلم يخبرنا بمصير الأنقاض بعد زمان. كيف ازداد التفتت واستفحل واستوحل وتأصل حتى كانت القابلية للاستعمار دعوةً جَفَلَى للأمَم أن هَلُموا إلى مَأْدُبَة.

للباحث المستنير بنور الوحي أن يتأمل تاريخ المسلمين وبإزائه الخبر الحقيق والوصف الدقيق الناطق بالنقض وبتحول الخلافة على منهاج النبوة إلى ملك عاض ثم جبري.

ونختصر نحن لننزل مع الدليل المنهاجي النبوي إلى عصر الاستعمار وما حمله إلى أذهان خريجي مدرسة الاستعمار من زبَد فكري يُرْغِي باحثا عن أصالة غامضة محقورة ومعاصرة هي نبذ الدين والوحي جملة.

اختَصَرت الزمانَ عبارةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «**يوشك الأُممُ أن تَداعَى عليكُم كما تَداعَى الأَكَلَةُ على قَصعتها!**»

في كلمة «يوشك» الدالة لغة على قرب وُقوع الفعل الـمَسُوقِ بعدَها تحذيرٌ وتخويف وتهويل. وما تركت الكِناية بالقصعة والآكلين منها معنى من معاني الضَّعف والمفعولية إلا عبرت عنه.

فقال قائل: ومن قِلَّةٍ نحن يومئذ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل. ولينـزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم. وليقذِفن الله في قلوبكم الوَهْنَ**».

قال قائل: يا رسول الله! وما الوهْنُ؟ قال صلى الله عليه وسلم: «**حُبُّ الدنيا وكراهية الموت**».

هذا هو مرض الغثائية الذي ينْخَر في كياننا. وليس بعد وصف الله ورسوله لدخائل ما بالعباد كلام. والحديث رواه أبو داود والإمام أحمد بسند صحيح.

الغُثاءُ غثاء السيل وغُثاء القِدْر. وهو «ما يطفَح ويتفرّق من النّبات اليابس وزبَد القدر. ويضرب به المثل فيما يضيع ويذهبُ غيرَ مُعتدٍّ به». هكذا قال علماء اللغة.

الغثائية إذاً مرض الطفوح والتفرق وخفة الوزن. وهي صفات ما يضيع ويذهب غيرَ معتَد به. أي لا قيمة له ولا أثر.

وكُنْهُ الغثائية الظاهرة وسببها الوهْنُ الذي لا يفيد معه كثرة العدد. من مليار مسلم ويزيدون أين كتيبة برَأَتْ من الوهن؟

الوهن حب الدنيا وكراهية الموت. حب الدنيا أثَرَةٌ قتلت العدل، وسلطوية عاضة جبرية قتلت الشورى. فصميم الصميم في كياننا المعنوي مقتول. والجثة الغثائية لا يمكن أن تحيى وتفعل إن لم تعد إليها الروح بعودة الشورى والعدل. وهما ممتنعان ما لم نعالج العِلة الكامنَة في النخاع: الوهْنَ.

إن ما يريده الإسلاميون حياة بالإيمان والإحسان تجعل من الفرْد المؤمن عاملا للصالحات، ومن الأمة قوة اقتحامية ترتفع من الوهدة وترقى إلى العزة متخطية العقبات. وهناك في قاع النفس الفردية، في القلوب، قذف الله رب العزة الوهن. هناك في العلاقات الجماعية وَلَدَ الوهنُ جراثيم الاستبداد والظلم والأثرة. ولا علاج إلا العلاج العميق لمرض الغثائية في القلوب، ولأدواء الأمَم التي سرَتْ فينا منذ تدحرجنا عن العقبة، منذ نقضنا البناء النبوي الراشد.

وقد أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم بجماع الأدواء المتولدة من الوهن، الناشئة في أحضانه. قال عليه الصلاة والسلام: «**سيصيب أمتي داء الأُمم**». فقالوا: يا رسول الله! وما داء الأمم؟ قال: «**الأَشَرُ والبطَر، والتكاثرُ**

والتناجُش في الدنيا، والتباغض والتحاسد، حتى يكونَ البَغْيُ». الحديث أخرجه الحاكم بسند صحيح.

البطَر خِفة تعتري الإنسان إذا طرأت عليه نعمة. قال علماء اللغة: «خفة». والأشَر مثل البَطَر زهوٌ فارغ. والتكاثر والتناجش في الدنيا مِثْلان، والتباغض والتحاسد صنوان. والبغي هو الهيكل المحلول المنقوض للأمة الغثاء، يلفها بسياط العض والجبر بينما يلفَعُها من داخلِ البَطَرُ وأخوهُ، والتّكاثر وحَمُوه، والتباغض وقرينه. وإن محاولة العلاج بالإصلاحات السياسية وحدها لَكَمَنْ يُبَيِّض واجهة مرضوضة منقوضة.

منطق الدعوة ومنطق «الساحة»

ويح الحقائق! ألا تزال الأمة غثاءً وجهاد أفغانستان[1] ونصر الله عز وجل للمجاهدين كالشمس الساطعة ببرهانها! غثاء ذلك الشعب المسلم الأبي الشامخ بإيران، زلزل عرش الطاووس بثورة يتحدث عنها التاريخ مِلْءَ نفَسِه! أغثاءٌ جيلُ رجال الصحوة الذي صافحته يد التوفيق الإلهي فعدَّل من حِمْل الأمة مَيْدَه، وفك مِن عنائها اليائس قيده!

كلا لست من العَمِينَ عن الضياء ولا من الأَعْشَيْنَ عن النور. لكني أشير إلى مكامن الداء الأَمَمِيِّ الذي يندسُّ، له طَوَفانٌ ورَوَغانٌ، خلالَ مَظاهر القوة، ومن تحتِ سرابيل البأس والشدة.

لنتركْ آيَة الكرامة الأفغانية، فهي تحدٍّ لكل جاحد. ذهب مرض الغثائية وزال، نسأل الله رب العزة أن ينصر جنده.

ونترك، إلى حين، مظاهرَ الصحوة العامة، فلنا معها الكلام بدءاً وانتهاء. ولنتأمل الثورة الإسلامية بإيران ففيها من الدروس الإيجابية والسَّلبيّة ما يصلح معيارا عمليّاً عينيّاً لحال المسلمين وقابلياتهم الكامنة وقوتهم الظاهرة.

بهرت الثورة الإسلامية الشيعية العالم بقوتها. هذا فِرْقٌ من الأمة التي كانت قَصعة للآكلين، كانت مفعولا به موضوعا لِمساوَمةِ الاستعمار، يتحول إلى قوة فاعلة، ويدحَضُ بحُجة الحياة تُهمة الموت، وبآيةِ اليقظة وَصمةَ أن الدين أفيونُ الشعوب. قومٌ لَبَّوْا نِداء الاستشهاد في سبيل الله، وآمنوا بالله ورسوله وجنته، وخَفّوا للثأر التاريخي من يزيدات الظلم وشاهات الخيانة.

فِرْقٌ من الأُمة، ونِقْضٌ من أنقاضها، الْتفّ على لَوْعَةِ ضَياعِ الإمامة باغتيال سيدنا علي كرم الله وجهه، ودفَنَ في سُوَيْدائه كمَد مقتل سيدنا الحسين، واحتَمى

(1) كان! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

في أحضان آل البيت، وتغذت روحانيته بمحبتهم والوَلاء اللانهائي لهم. وشرِبت نفسُه كراهيَّة الظلم من حوض المناحات في عاشوراء، والتعزيات الدائمة في حسين، السلام على حسن وحسين وعلى جدهم وعلى آل بيت النبي الأمين.

وتفجرت الغضبيَّة القرونية في وجه الشاه ونظامه، وكان نظامه حصنا منيعا من حصون الاستعمار الأمريكي حليف دولة اليهود. كان الشاه حارِسَ المنطقة، ما كان يُحسَبُ أن شعبا أعزلَ ينسِفُ أركان إيوانه، وينفُخُ كالرماد عماد سلطانه.

الغثائية هي حب الدنيا وكراهية الموت. وقد شاهد العالَم أجمعُ كيف تعرضت الصدورُ لسدود النيران، وكيف خرج شعب برُمّته يتقدمه لابسو الأكفان المتقدمون في مسيرة حسينية هي خلاصة المناحات جميعا. برَأ أولئك من مرض الغثائية لا ريب.

وذاك ما أذهَلَ العالَم وأربك أمريكا التي عاشت شهورا طوِيلة مَهانَة العجز عن تحرير رهائنها.

ومن حجز الرهائن نبدأ تأمُّلنا في داء الأمم.

كان المسلون، منذ سقوط الدولة العثمانية شوكة الإسلام رحمها الله، لا يُذْكَرون إلا في معرض التوزيع على مائدة الغنَائم الاستعمارية. ثورة المسلمين الشيعة أبرزت المسلمين إلى الساحة السياسية وهم قوة يرهبُ جانِبُها. ومن منطق الدعوة المطالبة بحق ضائع انتقلت الثورة بالمسلمين إلى منطق الساحة العالمية، إلى مجال المدافعة والمقاتلة والمناجزة. ذلك الكَمُّ الذي لم يكن له وزن في عالم الأقوياء أصبح ثِقلا هائلا، ونوعية من القوة تهدد التوازنات الدولية.

وكان احتجاز الرهائن أسْلُوبـاً لمْ تألَفْهُ الدول القوية المتحضرة جدا أن يمارَس عليها من موقف القوة، وإن كانت هي مارست على الشعوب المستضعفة ألف أسلوب للإذلال والقهر.

طار المسلمون والمستضعفون في الأرض فرحا لثورة إيران، يعُدونها بشيرا للتحرر من قبضة الغاصبين، وتجاوبت معها الشعوب المقهورة في الشرق

والغرب، وتناغم معها الدعاةُ الإسلاميون ثقةً أن نصرَها نصرُهم، وأن كلَّ خطوة تخطوها الثورة إلى الأمام هي نقلة للمسلمين إلى دار العز من دار الهوان.

داء الأمم في خلاصته هو البغي، وجَدَ البغيُ الطاغوتي الأمريكي في البغي الانتقامي الذي حجز الدبلوماسيين مُتَعَلَّقا ليحيك مؤامَرة كالحة طوقت الثورة الإيرانية وحاصرتها وقاتلتها بأيدي القومية العربية البعثية حتى غُصَّتْ بالعُنفِ أمةُ الإسلام، وحتى جانفت المقاصِدُ الثورية سبيل الحق، وحتى تشوهت مَعالِمُ الطريق، وحتى استفحلت أخطاءُ حكومةٍ اختلط عليها منطق الدعوة والبناء بمنطق الهدم والتقويض.

احتدمت القوة الغضبية المكبوتة قرونا فاشتعلت نارا تلفح وجوه الطغاة، ودمدمت على ديار الظلم فخربتها. ولم يكن في الحوزات مشروع واضح للبناء يرسُمُ حدود الوُسْعِ، وصراعات القوى العالمية، وضغوط السياسة العالمية، وقسمة الأقوياء للمقومات الإستراتيجية، ومتطلبات الدولة الحديثة.

كان من علماء الحوزات الشيعية أمثال آية الله باقر الصدر وآية الله مطهري مستبصرون بالعصر استبصارهم بالنصوص. لكن الذي فجر الثورة بقيادة الإمام الخميني رحمه الله هو العقل التقليدي المستظهر بشعبية المساجد والحسينيات وروافد الحوزات.

عاش علماء الشيعة في كِنِّ التقية قرونا طويلة مستمسكين بذكرى اغتصاب الخلافة من الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبِلَوْعة اغتياله، وسفك الدم الزكي الحسيني، وسَوْق بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا إلى بَلاط يزيد بن معاوية. وبَقي المِرْجَل في غليانٍ داخلي طقوسي عندما قامت دولة شيعية على يد الأسرة الصفَوية ثم الأسرة القجرية. وطفح المِرجل الغضبي على عرش ابن رِضَى شاه البهلوي.

ظل علماء الشيعة منذ أكثر من قرن، وهم المستقلون اقتصاديا عن الدولة، يصاولون الدولة ويطاولونها، ويقودون الانتفاضات مثل انتفاضة التبغ في إيران منذ قرن، والثورة العراقية ضد الإنجليز في العشرينات من القرن العشرين بتاريخ

النصارى. كانت لهم قدَم في الساحة السياسية قديمة، وبثورة الإمام الخميني رحمه الله احتلوا الساحة وانفردوا بها. فبأي منطق تصرفوا. أهي الضغوط والمؤامرة والحرب، أم هو اختيار ناشئ عن علة قد تُعْزَى بسبب إلى داء الأمم؟

الشيخ محمد حسين فضل الله عالم من علماء إخوتنا الشيعة. إنه مرشد «حزب الله» في لبنان، لبنان الأحزان، لبنان الصيغةُ القصوى للانتقاض والتفتت والأشر والبَطَر ولَواحِقِهما. نقرأ ما عند الشيخ محمد حسين من رأي في أسلوب قيادة الاقتحام الإسلامي.

قال في مقدمة كتابه «الإسلام ومنطق القوة»: «إن الدول الكبرى، والقوى الغاشمة، تطوِّرُ كل أساليب الحرب، وكل وسائل القوة... وترى ذلك أمرا حضاريا مشروعا من أجل الدفاع عن الحضارة و عن الشعوب الحرة–فيما تقول. فلماذا لا يحق للشعوب الضعيفة أن تطور وسائل المواجهة بأساليب غير مألوفة؟ [...]

«إن منطق القوة هو منطق الحياة في ساحة الصراع، ولا منطقَ غيرُه. ولكن وسائل القوة هي التي تتنوع فكرا وكلمة ومنهجا وسلاحا».

هذه هي فئة من المسلمين أحياهم الله تعالى من خمول الذل، وجمعهم من غثاء، وزرع فيهم نبض الحياة ودفع القوة. فهل جاءوا بمشروع من صميم الدعوة، وأساليب الدعوة، برسالة لبناء الإنسان، وإنقاذ الإنسان من حضارة مريضة، ودلالة الإنسان على قيمته ومصيره إلى دار الجزاء؟ هل جاءوا بالإيمان يطرد الكفر، وبالعافية تذهب السقم، وبالنور يطرد الظلام؟

أم أنهم ضغطتهم الأحداث ضغطتها، فانكشفت عِلَل ساكنة تمُتّ إلى الماضي، إلى «الأصالة»، بصلات، فانخرطوا في منطق العصر، وردوا فعلا بفعل، وواجهوا صراعا أعمى بصراع أكمه؟

لو كنت يا هذا في ساحة لبنان ما كنت تفعل؟ ما كنت تقول؟

الغلوُّ والتطرف

يفسر أهل اللغة الاقتحام بأنه «توسُّطُ شِدّةٍ مُخيفة» أي الدخول في معترَك ساخن. وما سؤالنا عن الذات الإسلامية وأمراضِها، ما اعتبارنا للتجربة الشيعية الثورية، إلاَّ لأن الإسلاميين في طريقهم إلى الحكم وبعد استيلائهم عليه يدخلون في «شدة مخيفة» لا يصمد فيها جسم مُنطوٍ على علل مُضنية، حاملٍ لجراثيمَ مُفنية.

من العِلل الغثائية الدائية الغُلُوُّ في الدين. حذّرَ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «**إياكم والغُلُوَّ في الدين؟ فإنما هَلك من كان قبْلكم بالغلو في الدين**». رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح.

والغلُوُّ عرَّفه الشيخ المحدث الـمُناوِيُّ رحمه الله أنه «التشديد في الدين ومجاوزة الحد والبحث عن غوامض الأشياء، والكشفُ عن عِلَلِها وغوامض مُتعَبّداتها».

وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحذر من الغلُوِّ أهْلَ الكتاب الذين منعهم عن متابعة الحق اتباعهم للهوى و«التشديد ومجاوزة الحد» حيث قال سبحانه: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ** ﴾[1].

التشديد وتجاوُز الحَدِّ ظاهِرَةٌ كانتْ حادة في صفوفِ الشباب الإسلامي، وهي آخذةٌ في الاعتدال بحمد الله كاشف البلاء. يُغالي البعضُ في تقييمها ويبالِغ، خاصَّة الأعداءُ الذين يروْن في كل ملْتَحٍ إرهابيا وفي كل متحجبةٍ رمزا للتطرف. وقلّما يُعطي الـمُتحاملون على التائبين والتائبات والعابدين والعابدات

(1) سورة المائدة، الآية 77.

حقّـًا للسبب الباعِث عَلَى نفور الشباب من المجتمع وإنكارِهم لأوضاعه، ذلك الإنكارَ الذي يبلُغ أحيانا حدّ الهجْر والتكفير.

إذا كان الغُلُوُّ ظاهِرَةً مَرَضِيَّةً في الشباب المنبعث بالإيمان، وكان هلَكَةً للمتعنِّتين في خصوصيات أنفسهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هلك المتنطعون»، فإنَّ حُمَّى الغُلُوِّ ما هي إلا عَرَض من أعراض المرض المُزمِن الدفين، مرَض الانتقاض في عُرَا الدين، مرضِ الفساد في نظامه، ألا وهو الحكمُ بغير ما أنزل الله.

يُخبِر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بأصل العِلَلِ ومَبادِئها كما أخبر بالغثائية وحذر من داء الأمم فيقول: «**هلاك أمتي على يدَيْ غِلْمةٍ من قريش**» حديث صحيح رواه الإمام أحمد والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

كان استيلاءُ بني أُمية على الحكم، واغتصابُهم لسُدَّته، وتعاقُبُ غِلْمتهم وسفهائهم على مقام شريف تعاقب عليه زمانَ الرُّشد أبو بكر الصديقُ وعمر الفاروق وعثمانُ ذو النورين وعلي الإمامُ رضي الله عنهم، كارثةً على الإسلام رضَّت جسمَه وفتحت في جنبه جرحـًا انسلت إليه جراثيم الأوبئة، منها الغلوُّ في الدين.

كان الإمامُ الحَسَنُ بن علي رضي الله عنهما يرَى أن طائفة من الخوارج مَا انفصلوا عن الجماعة وتشددوا في النكير على الحكام إلا غضبا للدين وَرفضا لجوْر الوُلاةِ من بني أمَيَّةَ. وكذلك حَكمَ على الظاهرة أهلُ المدينة والقراء الذين خرجوا على الحجاج صنيعةِ الغِلمة ورمزِ الجَوْر. وحكمُ الإمامِ الحسنِ ومَن رأى رأيَه من أهلِ الحَقِّ يُرجِعُ ظاهِرةَ التطرُّفِ إلى نِصابها النِّسْبيِّ مِنْ كونها رفضـًا لواقعٍ مكروه أغْضَب فِتيةً مؤمنين على مُنْكَرٍ لا يُحتمَل.

ظاهرةُ الغُلُوِّ في شباب الصحوة مُتَنَفَّسٌ قبلَ كل شيء لغَضَبٍ مَكْبوت. فتية استيقظوا لجرائم البغي فكرهوا البغاة، ولم يجدوا حولَهم إلا غُثاءً مِن الناس وهم

المتشبعون بروحِ الجِهاد. انطلقوا في «غزوات» حُرَّة، معهم بضاعة مُجزاة من العلم، وحصيلة تقارب الصفرَ من الحكمة والتجربة، فشرَدوا في دروب التقلقل، وانكمشوا في جماعات منغلقة توالدت فيها أنواع «الاجتهادات» الشاذة، وتصرف فيها الأميرُ الـمُطاعُ وهو في مقتبل العمُر واغترار الزعامة. والزاد من معرفة الدين كما صنعه نظام التعليم الرسمي البئيس، وكما لفقته اطلاعات مَكتبية مشتتة، وكما فهمه عقل «طازج»، لم يتمرَّس بأهل الذكر ولم يسألهم ولم يثق بهم، ولا يراهم إلا خوَنَةً للدين.

بإزاء كل نظام جبريٍّ في بلاد المسلمين جهاز رسمي من الموظفين الدينيين. لا يُقبل في صف هذه الوظيفة «الجوقية» إلا ضعفاء الإرادة من أهل العلم، الخجولون من كل مواجهة، الساكتون عن الحق جُبنا أو تأوُّلاً، المستعدون لتحريق البَخورِ على أعتاب النظام الحاكم.

هؤلاءِ العلماءُ الضائعون السائرون في رِكابِ الهلَكة الطاغوتية أصبحوا في نظر الشباب المتشدد رموزاً للخيانة. وَهُمْ في الواقع، باستثناء ساقطي الهمة وهم قلة، ضحايا فتنة تسوق الأمة، شبابَها المتنطعَ وعلماءَها الخاملين، في «منطق الساحة».

هلَك المتنطعون لَمّا تَصدَّوْا لسيْلِ الفتنة، ليس معهم إلا إخلاصُهم للقضية الكبْرَى التي وجدوا فيها رَفْعـًا لقيمتهم المهدورة. وفي أثناء المعركة التي يحسبونها أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر التفتت إليهم العِلَّة الموروثة في الحُكم فحاربتهم، والتفّتْ عليهم العِلةُ الموروثة في النفوس، التي لم تهذبها تربية ولم يتعدها تعليم سليم ولم ترعها ربانية تتجاوز بهم آفاق الأشَر والبطر وأخواتهما، فدكتهم تحت كلكلها. هلكة في هلكة في هلكة.

قال الإمام النوويّ رحمه الله في شرح التنطع: «التقعر في الكلام بالتشدّق، وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشيِّ اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم».

يَتوبُ شاب نصفَ توبة، ويتعلم نصفَ تعليم، ويكتشف يوما أن له قدرة على الخطابة وتصفيف الكلام، فيستخفه البَطر وينتصبُ مفتيا وإماما مجتهدا يتخطى ما أصَّله علماء الأمة الراسخون ليقعد بجانب مالك وأبي حنيفة والشافعي وعلى رأسه وهْم الرجولة والفحولة. ويحتقر كل رأي لا يوافق رأيه، ويُبَدِّعُ المسلمين، ويكفر المخالفين، ويشير إلى مواقع الجاهلية في كل ما يتحرك فيه الناس ويسكنون.

وقد يتبنى مذهبا منسوبا لإمام مجتهد، غالبا ما يكون مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، يجول في أقواله جولة، فيخرج بالفتوى الجاهزة لكل شاذة وفاذّة من عالَم مضى وانقضى إلى عالم يتأجج بمشاكل جديدة يغمض عينيه لكيلا يراها. لأنها لَم يرد بها نص، فهي كُفر وبهتان وظلام جاهلي. حكما قاطعا بلا مقدمات ولا مرافعة.

لاَ يدور بخَلَدِ الشاب المتنطع المعجَب هو وسربُه بالفصاحة والكلام المنَمَّق ودقائق الإعراب -إن وُجد- أن أحكام الشريعة مراتبُ، وأن للشريعة مقاصدَ، وأن مصلحة العباد والاجتهاد في تحصيلها علَّةٌ تستهدي بالدليل، وأن الأدلة قد تتعارض فيلزَم الترجيح، وأن ما شادَه سلَفُنا الصالح من قواعدِ الأصول سنَدٌ لا غنى لنا عنه.

إننا إذ نقسو على الشباب الإسلامي الضائع في متاهات العزلة والانفراد الشاذ نعطي للعامل النفسي الفكري الذاتي فينا حقه من المسؤولية عن خفة وزن الحركة الإسلامية الهامشية. نفعل ذلك لنشخص المرض تشخيصا صحيحا حتى يتأتى العلاج.

يريد الإسلاميون اقتحام عقبة الحكم، وهم اليومَ المرشَّحون الوحيدون لإنقاذ الأمة باعتراف الخصم والعدو. فإن خفيَت عنا هشاشة في تكوين أحد أجنحتنا فإن دخولنا في «الشدة المخيفة» يكون تعرضا لتهشمنا جميعا.

فنريد من شباب الصحوة أن يلتمس البُرءَ لنفسه قبل كلِّ كلام. من كانت وِجهتُه وموضوعُ عنايته ومراقبته أفعالَ الناس وأخطاءَ المجتمع وهو عن ذات خطيئته

وموبقات أخطائه غائب، كيف يُصلح؟ من كانت الغفلة عن الله عز وجل ساكنة قلبَه وإن كثرت صلاته وصيامه ونفله كيف يُذَكِّرُ الناس بالله ويزعم أنه داعٍ إليه؟

من كان تحت جِلْبابه الأبيَض الجديد وعمامته الناصعة إيمانٌ خَلَقٌ وَفِكرٌ رَثٌّ وتصوُّر وَرائيٌّ للدين، كيف يكون للأمة منقذا؟ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. نسأله التوفيق، لا حول ولا قوة إلا به.

فقه التجديد

كان الخوارج الأولون أكثر الناس عبادة، جاء وصفهم في حديث نبوي شريف يصفهم أكمل الوصف وأدقه، وهو الوصف المعصوم الصادر عن الوحي، لا كشهادة مؤرخ يرى ظواهرَ الأحداث. روى الإمام البخاريّ رحمه الله عن سيدنا علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**سيخرج قوم في آخر الزمان أحداثُ الأسنان** [أي شباب] **سفهاء الأحلام** [خفاف العقول] **يقولون من خيرِ قول البَرِيّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرَهم، يمرُقون من الدين كما يمرُق السهم من الرمِيَّة**». الحديث.

حداثة السن سِمة مشتركة بين الخوارج المارقين الموصوفين في الحديث وبين شبابنا الأعزاء أمل الأمة. ونرجو أن لا يبقى عند أحدهم نصيب من رقة دين الذين لا يتجاوز إيمانهم حناجرهم رغم تعبّدهم الشديد الذي وصفه الحديث الشريف قبل ظهورهم وأكده التاريخ بعد.

لا يُجاوز إيمانُهم حناجرهم، ولا يدخُلُ إلى قُلوبهم، فهو إيمان منافقين، هو عدَم، أو إيمان أعْرابٍ يُطلِقون كلمة «إيمان» على هاجس غامضٍ أو ميل سطحي للدين. قال الله عز وجل عن الأعراب: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[1].

وقد ذهبت أجيال رقيقي الدين من سكان البادية الذين وصفهم القرآن بإسلاميةٍ لا ترقى إلى مرتبة الإيمان لانغلاق القلوب، وتبقى صفة الأعرابية تدمَغُ كلَّ مَن حالت صِفاته النفسية أصلا عن دخول الإيمان في قلبه.

هنالك صنف آخر من رقيقي الدين اكتسبوا بعضَ إيمان ثم ضعف هذا الإيمان وبَلِيَ حتى تلاشَى، فتقهقروا إلى مرتبة الأعرابية مع من انغلقوا في إسلامية سطحية أصلا.

(1) سورة الحجرات، الآية 14.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الإيمانَ لَيَخْلُقُ** [أي يَبْلَى] **في جوف أحدكم كما يخلُقُ الثوب. فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمانَ في قلوبكم**». رواه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الحاكم: رواتُه ثقات ووافقه الذهبي.

مَنع الإيمانَ أن يدخل إلى القلوب أصلا أمراض نفسية حائلة، أو دخَل مَدخلا ما فطرأت عليه الأمراض وأنهكته، فبلي وتلاشى. وهكذا يَتأصل في الفرد مرض الغثائية وداءُ الأمم وجرثومة الغلو. وهكذا تطرأ في الأمة أسباب الهَلَكة حتى يكونَ البغي وتستبدَّ الغِلْمة ويفسُد الحكم.

وحيث لا إيمانَ فلا قلوبَ تسمع كلامَ الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم فتتذكر وتأتَمر. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾[1] وسلامة القلب من الأمراض مطلب شريف سأله إبراهيم عليه السلام ربَّه حيث قال: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2].

في تشخيص الأمراض الغثائية الذاتية المهلكة ينبغي أن نحفِرَ عليها وننقِّبَ بِمِسْبَارِ الكتاب والسنة ليكون التشخيصُ أَوْثق، وليكون العلاجُ طِبا نبويا قرآنيا لا يُملِّسُ على العاهة بل يستأصلها بإذن الله تعالى.

إن الله عز وجل أعلم بما خلق، وإنه سبحانه أشار إلى أصل البلاء ومباءَة الداء وعش الآفة: ألا وهي النفسُ وسلطانها المانعُ العبدَ عن الهُدَى، الصارفُ له عن العبودية لربه عز وجل، التائه به في الشهوات والأنانية، وسُكْرِ الهَوَى، وضلال العقل، وأسْرِ العادة. من استيلاء سلطان النفسِ يتولد الأشَر والبطرَ، وينشأ التكاثر والتناجُشُ (وهي الـمُزَايدة) في الدنيا، ويكون التحاسد والتباغض والبغي.

النفس تحب الدنيا وتكره الموت. وحبُّ الدنيا والحِرص عليها، على لذاتها المادية ورئاساتها، سَدٌّ حاجز للإيمان أن يدخل القلب، وسبب الغثائية المباشر

(1) سورة ق، الآية 37.
(2) سورة الشعراء، الآيات 87-89.

بشهادة الحديث الشريف، وداعٍ أبديٌّ للفُرقةِ والتفتُّتِ والخلافِ العِدائيِّ. كان علماؤنا يُسمُّون الفِرَق الضالة والمبتدعة أهل أهواء. يُرجعون الظاهرَة إلى أسبابها.

إن المسلم إما أن يكون في سبيل الله عز وجل، عبداً مطيعا له، مُحبا، متقربا بالفرض والنفل، مؤمنا بلقاء ربه، مستعدا لذلك اللقاء، مشتاقا إليه، مستغفرا لذنبه، منيبا، ذاكرا، متفكرا. فذاك سائر في سبيل السعادة.

وإما أن يكون عبدا لنفسه، خاضعا لسلطانها، مطيعا لهواه، مسترسلا في شهواته. فذاك الشقي.

ومن كان سائرا في سبيل الهوى، أنى له أن يَحْمل الأمانة العظمى، أمانة رسالة الله، مبلغا عن رسول الله، عليه صلاة الله وسلام الله!

من كانت نفسُه منطويَة على خُبثها ومرضها أنى يكون شِفاء لغثائية الأمة وأعرابيتها وهو حاملٌ الجرثومة بين جنبيه!

إن تحقيق العبودية لله عز وجل، والتحرر الكلي من سلطان الهوَى هو الشرط الأول الضروري لتأهيل الفرد المؤمن للانخراطِ عن كفاءة في صف جند الله. وإن جندَ الله لا يكون جندا لله إلا إن سلمت القلوبُ فصلَحَتْ لتكون وِعاء لرحمة الله عز وجل الجامعةِ المؤلفة. قال تعالى يخاطب عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بلسان المِنة والنعمة: ﴿ **هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** ﴾[3]

وإن مستقَرَّ الإرادةِ القَلْبُ المؤمن الفردُ، يشتركُ مع جند الله المنظم في التعبير عن الإرادة الجهادية، وتخطيطها وتنفيذها. فإذا كان قلبُ المؤمن الفرد منضَمّاً على أعرابية، أو كان الإيمان فيه قد خَلُقَ واندثر، فلن يكون الحديث عن التآلف والعضوية إلا حديثَ زور، ولن تكون الإرادة إلا تعبيرا عن طموحات نفسية اجتمع عليها الناس مثلما نرى عند الأحزاب في الأمم التي لا خبرَ عندها بداء الأمم.

(3) سورة الأنفال، الآيتان 62-63.

وإن القضاء على الأنانية التي تستعبد الفردَ لهوى نفسه أو لهوى غيره لَمَطْلبٌ أساسي. كما هو أساسي تحريره من الذهنية الرعَوية، ذهنية القطيع، ومن العادة التي تحشره في زمرة الإمعات التي لا إرادة لها.

وما يتحقق ذلك إلا بالعبودية المطلقة لله تعالى الخالق الرزاق المحيي المميت الباعث رب الجنة والنار. وأصل الدين وأُسُّه حب الله تعالى. قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله: «محبة الله سبحانه، والأُنس به، والشوق إلى لقائه، والرضى به وعنه أصل الدين وأصل أعماله وإراداته. كما أن معرفته والعلمَ بأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ علوم الدين كلِّها. فمعرفته أجل المعارف، وإرادةُ وجهه أجلُّ المقاصد، وعبادتُه أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته، ومدحُه وتمجيدُه أشرفُ الأقوال. وذلك أساسُ الحنيفية مِلةِ إبراهيم عليه السلام»[1].

من كان لا يحب إلا نفسَه، ولا يمجد سواها، ولا يشتغل بغيرها، ولا يسعى إلا في مبتغاها فليس من المِلة الحنيفية حقا. والحنيفية إخلاص الوجه والوِجهة والعبودية لله عز وجل وحدَه لا شريك له.

في هذا الكتاب نتحدث كثيرا عن ماضي المسلمين وحاضرهم ومستقبلهم، وعن العالم المضطرب وما يموج فيه، وعن الحكم ومشاكله. ويكون كلامُنا «ثقافة» كسائر الثقافات، لا يكون حقا يقتحم معاقل الباطل إن لَم نُؤصِّلْ المؤمن الفرد في العبودية لله عز وجل، عبوديتُه له سبحانه هي هويتُه لا غيرُ. وإن لم نؤصِّل جماعة المؤمنين المريدة الفاعلة في إخلاص لله عز وجل إخلاصاً يستوعب الحياة والممات والدنيا والآخرة. وتلك هي جماعة المؤمنين المخاطبين بالقرآن، المكلفين بأمانته، المطوَّقين المشرفين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. ما خاطب بالقرآن غيرهم من الذين أسلموا و«التزموا». والإيمان سلامة القلب، الإيمان شفاء، الإيمان عافية، الإيمان بضع وسبعون شعبة.

(1) إغاثة اللهفان، ج 2 ص 195.

من هنا يكون فقهُ تجديد الإيمان، وتحريك الإيمان، وتربية الإيمان مِحورَ كل عمل إسلامي، وإلاَّ دارت رَحَا الناس على خواء النفوس وخراب الذمم، ونتانة الهوى، وسوء الـمُنقَلب في الدنيا والآخرة. نعوذ بالله.

وقد أخبرنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أن الإيمان يتَجدد بأمرين. أولُهما صحبة «من» يبعثه الله عز وجل ليجدد الدين. جاء في حديث رواه أبو داود والبيهقي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأسِ كل مائة سنة من يجدد لها دينها**».

وصحبَة الـ«مَنْ» لا تتقيد بزمان، فالمرء على دين خليله كما أخبر الصادق الأمين. وكل حضور صادق مع المؤمنين له روحانيته وتأثيره التجديدي: الجماعات في المسجد ومجالس الإيمان وحِلَقُ العلم وزيارة الصالحين والمشاركة في أعمال البِر.

الركن الثاني من أركان تجديد الإيمان العبادة بأنواعها، ويجمعها ذكر الله فهو اللب، وأفضل الذكر قول لا إله إلا الله. روى الإمام أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**جددوا إيمانكم**» قالوا: يا رسول الله! وكيف نجدد إيماننا؟ قال: «**أكثروا من قول لا إله إلا الله**».

وركن ثالث ضروري: صدق الرجوع إلى الله تعالى، وصدق النية، وإخلاص العبودية له اعترافا وطاعة. وأعلى الصدق صدق طلب وجه الله عز وجل. فذلك هو التطلع إلى مقامات الإحسان والإيقان. وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم.

تحديات المستقبل

أنت يا أخي، يأيها الإسلامي المرشح للحكم، الـمُعبَّأُ في صف الجهاد، أنت عبد لله قسرا. يأيها الإنسان!

أنتِ يا أختي، يا مُربية أجيال الخلافة الثانية على منهاج النبُوة، أنتِ أمة الله قهرا. يأيها الإنسان!

هل حبست نفسك يوما أو ليلة أو ساعة، هل ضيقت عليها الخناق وسألتها إلى أين؟

إن ربك عز وجل أخبرك في كتابه المبين عن السابقين المقربين ذوي الدرجات العُلى المحبوبين عنده في مقعد الصدق. فهل نهضت لطلب الزلفى لديه؟ هذا أعظم تحد مستقبلي بين يديك. إن لم تستيقظ لهذا، إن لم تقم لتقتحم إلى الله عز وجل العقبة، فأنت في واد ونحن في واد.

بين يديك هذا التحدي العظيم النبيل، بل هذا النداء الجليل من رب كريم وهاب ينادينا: «سارعوا»، «سابقوا». ومن خلفك النفس الأمارة، ربيبةُ الشح، السلطانة على ضعفاء الهمة، تجرك وتراودك لتكون لها مطية.

نداء الله عز وجل يُؤَيِّه بك، وبشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبسط أمامك فسيحات الرجاء بالبشرى الصادقة، بشرى الخلافة على منهاج النبوة. تكون فيها أنت من الصفوة عند الله بما جاهدت، أو تكون من الوجوه العاملة الناصبة التي ينصر الله بها دينه وهي فاجرة. الخلافة الثانية كائنة بحول الله، فهي وعده. لكن أنت أنت أنت! وما أعني بأنتَ غيرَ نفْسي الغافلة الخبيثة.

أخبرنا حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم أن له في آخر الزمان إخوانا. فهي كلمة يهتز لها كل ذي لب وشأن. ويُرشح نفسه لها بالصدق الدائم والجهاد المستمر من

رفع الله تعالى همته ليكون من الذين ﴿ **اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[1]. هذا تحد لمستقبلك أخي.

أما البشرى العظيمة لكل تواق للمعالي ففي قوله صلى الله عليه وسلم: «... **وَدِدْتُ أنا قد رأينا إخواننا!**» قالوا: أَوَلَسْنا إخوانَك يا رسولَ الله؟! قال: «**أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم ياتوا بعدُ**». رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والحديث البُشْرَى يفسر الآية الكريمة من سورة الحشر: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[2].

والمذكور السابق الذي يرجع إليه الضمير في «إخواننا» هم فقراء المهاجرين الذين تخصهم الآية بفيء خيبر. ومن اللطائف، ومن دروس الرفق، فتوى الإمام مالك في الروافض الذين لا يستغفرون لمن سبقنا بالإيمان بحرمانهم من الفيء. عقاب قرآني نبوي. لم يكَفِّرْ رحمه الله.

أرايت الـمُتَأهلين للأُخوة الشريفة كيف يدعون الله تعالى أن يطهر قلوبهم من الغِلِّ! وهو الحسد وما يسير في ركابه من علل داء الأمم، وما يؤسسه من مرض الغثائية.

ما يحمل أمانةَ التبليغِ آخِرَ هذه الأمة إلا أشباهٌ لمن حملوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. إخوان يتبعون الأصحاب بإحسان. فاتهم الأجلةُ العظام بالصحبة المباشرة الكريمة، فعوَّضَ التعلق القلبيُّ والمحبة الخالصة بعض ما فات. والحمد لله محيي الأموات. وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: «**أمتي أمة مباركة، لا يُدرَى أوَّلها خير أو آخرُها**». رواه ابن عساكر عن عمرو بن عثمان بن عفان مرسلا. وقد وثقه الذهبي وأشار السيوطي إلى حسنه.

---

(1) سورة المائدة، 95.

(2) سورة الحشر، 10

إن العالم اليوم وغدا ينتظِر رَوْحَ الرحمة التي تنفس عنه كرْب الحضارة المادية الهائمة بلا غاية. الوسائل فيها تعملقت، وتعملق الاختراع والتكنولوجيا، وتقزم الإنسان، وأصبح دابة استهلاكية لا تعرف لنفسها معنى ولا لسعيها الحثيث على الأرض قرارا. الإنسانية تنتظر دين الله الحقَّ يَبْلُغُها خبرُه وسط ضوضاء العالم وجنونه، تنتظر وجه الربانيين تتوسم قسمات الآمال المكبوتة عليه فتستجيب الفطرة المردومةُ المطمورة لنداءِ الشاهدين بالقسط.

ليسَ التحدي الثقيل الذي ينبغي أن تتجند له الدعوة وتواجهه من قبيل ما ينفع فيه التخطيط على المدى المتوسط والبعيد لكسب العلوم وترويض التكنولوجيا وتوطينِها وتبْيِيئِها. ولا هو ينتهي في حدود الجهاد لأداء «فاتورة» المديونية التي خلفها المبذرون إخوان الشياطين. ولا هو واجبُ تنمية بلاد الإسلام وتحريرها من التبعية. ولا هو هذا المعضل المحوري المركزي، الهم الدائم، هم فلسطين وكارثة فلسطين.

التحدي المستقبلي الثقيل في حق الدعوة هو حمل الرسالة لعالم متعطش. وزنُنا السياسي، ولو ثقُلَ بعد زوال وصمة الغثائية، لا يوازي وزننا الأخلاقي الروحي بوصفنا حملة الرسالة الخالدة. بوصفنا مبلغين عن رب العالمين وعن رسوله الأمين. وهو تحدّ لا تقوم له الأمة إن لم يكن التحدي الفردي الذي يُهيب بالمؤمن والمؤمنة أن يتجردا من عبودية النفس والشيطان، وأن يتحررا من سلطان الهوى فيبرَآ من مرض الغثائية وداء الأمم وما ينجر إليهما من آفات، وينبريا تلبية لنداء «سابقوا» ليكونا من المقربين، من «إخواننا».

وهذا لا يأتي بحسن الظن بالنفس، وبالاستعلاء والاستغناء بما حصل للخطيب الشعبي في منبره، والمسؤول الميداني في تنظيمه. هذا يأتي بذكر الله. ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3]. يأتي بحزبك من القرآن لا تلهو عنه. يأتي

(3) سورة الرعد، الآية 29.

بلزومك الجماعة في الصف الأول. يأتي بالاستغفار والتفكر الدائم مع أولي الألباب ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾[1].

قال المحروم: إنها بِدعة أن تتخذ من الأذكار والتلاوة وِردا دائما. وقضى المحروم حياتَه في الغفلة الظلامية الملفوفة بجهل ما أنزل الله عز وجل.

وما أنزل ربنا جل وعلا على رسوله وصية ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[2] إلا تنبيها للغافلين. و«إياكِ أعنِي واسمعي يا جارة»، يأيتها النفس التي لا تطمئن لذكر الله ولا لصحبة الأخيار.

إن نهوض الأمة من كبوتها رهين بقدرتها على نقد ذاتها، وكشف أمراضها، وتطبيق العلاج على الخاصة من رجال الدعوة أولا، قبل أن يمكن تطبيقه على العامة. على الدولة بعد وصول الإسلاميين للحكم أن تتفرغ لتوقعات المستقبل وأن تخطط وتدبر. لكن الدعوة شأنها الأول العظيم هو تربية الأجيال من «إخواننا» ابتداء من تربية الأم لتكونَ الأم نموذجا صالحا للطفل، ويكون الطفل غرسة مباركة، ليكون مسجدا أُسس عل التقوى من أول يوم.

ألا وإن فاقِد الشيء لا يعطيه، والدعاة إن هم عزفوا عن ذكر الله وعن مجالسة المساكين وعن التواصي بالحق والصبر يكونون آفة زائدة لا الشفاءَ المرجوّ. رُب صادق بدأ خطواته الجهادية بطفرة إيمانية وحماس موقوت، ما لبث أن اغتالته نفسه وشيطانه، فنسي ذكرَ الله وذكر الآخرة ومحاسبة النفس ومراقبتها و«صَبْرَها» فبلِيَ إيمانُه، وعصرته النفس وأناخت عليه بكلكَلِها، فذهب مع الزبَد، مع المنافقين الذين لا يذكرون الله إلا قليلا مذبذبين.

قال أهل اللغة: صَبَرَ: حبَس. وصبر الرجلَ: نصبَه للقتل.

صبرُك النفسَ يا أخي، يا حبيبي، هو حَبْسُك إياها، وقتالك لعنفوانها. إنهُ جهاد. وقد جاء في حديث رواه الترمذي عن فُضالَةَ بنِ عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**المجاهد من جاهد نفسه**».

(1) سورة آل عمران، الآية 191.
(2) سورة الكهف، الآية 28.

إن دخولَ الدعاة في السياسة، ومسيرتَهم المظفرة بحول الله إلى سدة الحكم، فتحٌ عليهم لباب الابتلاء الشديد. فإن لم يكن كل واحد على نفسه أولا، وكل واحد مع إخوانه في التواصي والتناصح و«النقد»، قائما بالقسط شاهدا يقظا نابذا حب الدنيا رأسَ الخطايا فهي الهلَكَة ولا شك. له وللناس جميعا.

رجوعُك على النفس أخي وأختي فضيلة. ومهما أمِنْتَ من مكر الله، وأهم مآتيه النفسُ والشيطان، فقد زلَّتْ القدم نعوذ بالله.

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الأصحاب من غوائل النفس، فإن كانت لك رغبة في الأخوة المذخورة المباركة ولم تعتبر نفسك معنيا بالتحذير من باب أولى فهيهاتَ الأمانيُّ.

قال صلى الله عليه وسلم: «**أبشروا وأمِّلوا ما يسُركم. فواللهِ ما الفقْرَ أخشى عليكم. ولكني أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم، فتَنافسوها** [فتتنافسوها] **كما تنافَسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**». الحديث أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذي.

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: «**آلْفَقْرَ تخافون؟ والذي نفسي بيده لتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صَبا حتى لا يُزيغَ قلبَ أحدِكُم إلا هِيَهْ! وايمُ الله لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء!**» رواه ابن ماجة بسند صحيح.

قلوب مُعرَّضَةٌ للزيغ، ودنيا تُصَبُّ صبا، وحب الدنيا رأس الخطيئة وجرثومة المرض. وأي دنيا أبسَط من الحكم. يأيها الإسلاميون، يا أحبّاء قلبي!

الفصل الثاني

الدعوة والدولة

- افترق القرآن والسلطان
- دورة الرَّحا
- العلماء والقائمون
- فتوى الاستيلاء و«عجز الطالب»
- أهل العلم بين التقليد والتلبيس
- «أكره أن أدنسهم بالدنيا»

افترق القرآن والسلطان

كما أمسكت أيدي الصحابة المباركين زمام الأمر في الخلافة الأولى، وحافظوا على البناء بعدما أقاموه مع النبي صلى الله عليه وسلم، كذلك تمسك إن شاء الله أيدي «إخوانه» صلى الله عليه وسلم المباركين زمام الأمر في الخلافة الثانية بعد أن يعيدوا رصَّ البناء من انتقاض.

فما هو هذا الأمر؟ أهو دولة من بين الدول، ترعى مصالح المسلمين، وترفع من شأنهم بين الأمم، قوية عزيزة، لها حضارة شامخة، وجانب مرهوب، وسطوة محترمة. أم هي دعوة ودولة، دولة تخدم الدعوة، وتسير في موكبها، وتأتمر بأمرها؟

نبغ بين المسلمين منذ نحو سبعين سنة رجل ادعى أن الإسلام دعوة لا شأن لها بالدولة، فوجب الإلحاح على البديهيات. إنه الشيخ علي عبد الرزاق، من علماء الأزهر وقضاة مصر، أثار بكتابه «الإسلام وأصول الحكم» ضجة ما تزال أصداؤها تتردد في أوساط الكتاب والمفكرين، الإسلاميين منهم والأكاديميين.

أما الإسلاميون، وهم الشاعرون بضغطة الاستعمار أكثر من غيرهم، فقد ردّوا بأن الإسلام دعوة ودولة، وأطنبوا في إبراز جانب الحكم في الإسلام، واختزلوا الألوهية في صفة من صفاتها، جلت وتعالت، هي صفة «الحاكمية». وإنما أتى تضخيم جانب الدولة في خطاب الإسلاميين المنافحين عن الدين مُغالَبَةً للتيار المعادي. فكانت النتيجة أن غُيِّب أساس الدين، وهو الدعوة إلى الله تعالى، وأشاد الناس بالقوة الحامية والدِّرْع الواقية والهيكل الخارجي: الدولة.

كان علي عبد الرزاق من حزب «الوفد»، وكان حزب «الوفد» يُماري في نزعة الملك فؤاد أن ينتحل لقب «الخلافة» وينتصب على أريكتها في مصر بعد سقوطها في تركيا. فكتب الشيخ كتابه لينقُض الفكرة بنفي أي أصل للحكم يستند

إلى الدين. فهي لاييكية أخرى قالت كلمة باطلٍ أريدَ بها هدف سياسيٌّ. أراد «الوفد» وشيخه أن يقاتل ملكا فعدا على الدين.

وبقي في جو الدعوة هذا التضخيم الجدَليُّ لجانب الحكم في الإسلام، وكأنَّ الله عز وجل ما بعث رسله عليهم السلام إلا لبناء دولة تحكم بالشرع، وتقيم العدل. ولا شأن لأحد في هذا بمخلوقية العبد، وتكليفه، وندائه إلى اقتحام العقبة للقاء ربه، وبعثه بعد الموت، وجزائه، وسعادته الأبدية وشقائه.

إنه سكوت في الخطاب الإسلامي مُريب. إنه جريان مع تيار التغفيل عن الله عز وجل. إنه نوع من اللاييكية الضمنية، وفصل لمعاني الإسلام، وهي أولا وآخرا خضوع العبد لربه عز وجل، عن السياق الحركي الحُكْمي. فيا إخواني، يأيها الإسلاميون المقبلون على الحكم، ماذا تريدون؟ أتريدون دولة باسم الإسلام ينتهي عمَلُكم الدعَوِيُّ عند إقامتها، فتذوب الدعوة في الدولة، أم تريدونها خلافة على منهاج النبوة؟ وإذن فلا بد أن نتكلم في البديهيات لنصحح المسار ولنؤسِّسَ خطابنا وهو مرآة لما تُكنه النوايا على تقوى من الله.

إن الله عز وجل أمر المؤمنين أوامر وكلفهم تكليفا. من التكاليف ما هو منوط بذمة الفرد كالصلاة والصيام، ومنها ما لا يمكن القيام به إلا بتعاون جماعة المؤمنين، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. وإن الله عز وجل شفَع أمره للجماعة بالعمل الصالح الجماعيِّ المؤَذِّنةِ به ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ افعلوا أو لا تفعلوا بأمره الحُكْمي السياسي الدَّولي الصادِع به قولُه عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1].

لا يصلح الناس فَوضَى، ولا يستقيم أمر المسلمين بلا نظام حكم. ولا يخدم أهداف الإسلام الجماعية والفرديةَ نظامٌ لا يخضع للإسلام ولا تكون طاعتُه من طاعة الله ورسوله. فالإسلام دولة ونظام حكم، لا يُضارّ في ذلك مجادل.

---

(1) النساء، الآية 58.

لكن الله عز وجل إنما يبعث رسله عليهم السلام لشأن عظيم، لشأن أخرويٍّ أبديٍّ. بعثهم لهداية الخلق إلى طريق مستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين. وهو صراط السعادة الأبدية. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] آية نفي وإثبات تؤكد الجانب الدعويَّ. آية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ﴾[3] تبين أن النبوءةَ الرحمةَ دعوة مبشرة بحقائق الآخرة منذرة منها قبل كل اعتبار، قبل كل نظام.

آية ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[4] دليل على أن الرسالة النبوية رسالة إيمان بالله تعالى، رسالة انحياش إليه عز وجل، رسالةُ تسبيح لجلاله، رسالة عبودية للخالق الرزاق المحيي المميت الباعث الديان رب الجنة والنار. له الأسماء الحسنى، وله الحاكمية والطاعة.

في عهد النبوة كانت الدعوة والدولة قضية واحدة، فكان من مقتضيات نشر الدعوة أن ينتظم المسلمون في أمور عباداتهم ومعاملاتهم ومعاشهم وجهادهم حول مُطاع واحد. في شخصه الكريم تجتمع معاني الرحمة المهداة، وبيده الكريمة مقاليد الأمر والنهي، أمرٍ ونهيٍ جميعٍ غيرِ شتيت، الكل دينٌ، لا فصلَ في فقه الصحابة رضي الله عنهم بين الدنيوي والديني. هم كانوا عبادَ الرحمن، في كل حركاتهم وسكناتهم يذكرون الله عز وجل ويسبحونه، حاضرين قلبا وقالبا مع البِشارة والنذارة. كل أعمالِهم قُرَبٌ إلى الله عز وجل، ترفعُها النية مهما كانت صغيرة.

في عصرنا، معاشرَ الدعاة، وجدنا الدعوة منزويَة، بل مَزوِيّة، بعيدا عن الدولة، مغايرة لها، مضغوطة مِن قِبَلها، مُحارَبَة مضطهدة، أو مُرَوّضة مُدَجنة مُؤَنّسة.

(2) الأنبياء، الآية 106.
(3) الأحزاب، الآيتان 45-46.
(4) الفتح، الآيتان 8-9.

ومَنَّ الله عز وجل علينا بأن بعث فينا غَيرة على دينه، وَكراهية لطغيان الحكم العاض المنحرف عن طاعة الله ورسوله. فنحن نريد أن نحكم بما أنزل الله لكيلا تبقى الأمة وعلى عنقها تهديد ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّه فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3].

والذي وجدناه أمامنا، في كل قطر من أقطار التجزئة الشنيعة دولةٌ بلا دين، دولة تستخف بالدين، دولة تنكر الدين. فقمنا نصبُ كل جهودنا على تفنيد أصول اللاييكية، ونصرُخ أن الإسلام دعوة ودولة، حتى بُحَّتْ أصوات الغيرة منا، فيخيل للسامع والقارئ أن مقالتنا تتلخص في أن الإسلام دولة، دولة، دولة.

ألا وإن الله عز وجل لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإن سكوت الإسلاميين، سكوت كثير منهم، عن الذي جاءت من أجله الرسل وهو دعوة العباد إلى ربهم وتذكيرهم بالمصير الأخرويِّ، أدَّى إلى ضُمور الحِسِّ الدعويِّ، فإذا بالإسلام المنطوق به الـمُعلنِ المكتوبِ مذهبٌ في الحكم، رائع متفوق. وهم عن الآخرة هم غافلون.

بأنفسنا صدْع خفي، بعضه مِنْ بِلَى الإيمان، وبعضه من «منطق الساحة» الذي يجرفنا فلا نشعر إلا ونحن نتحدث حديثا هو بحديث اللاييكيين أشبه لو لا كلمات تَحنُّ حنينَ الثكلى إلى وليدها. ينعكس في خطابنا الافتراق بين السلطان والقرآن، نقضٌ مرَدُّه إلى ما في النفوس. وكلُّ إناء بالذي فيه يرشح.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خذوا العطاءَ ما دام عطاء، فإذا صار رَشوة عن الدين فلا تأخذوه. ولستم تاركيه، يمنعكم من ذلك الفقْرُ والحاجة. ألا إن رَحا الإسلام دائرةٌ فدوروا مع الكتاب حيثُ دار. ألا إن الكتاب والسلطان**

(1) سورة المائدة، الآية 43.
(2) سورة المائدة، الآية 44.
(3) سورة المائدة، الآية 46.

سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب. ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، إن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم». رواه أبو نعيم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

في هذا الفصل من الكتاب، نعُدُّه من أهمها، نريد إن شاء الله أن نتمعن في الفُرقة بين السلطان والقرآن، بين الدعوة والدولة، ليكون وعيُنا بأسباب الفرقة والخصام أدعَى أن نجمَع، أستغفر الله العظيم، أدعى أن يجمع الله تعالى بنا ما افترق.

في الهدي النبوي، وبالوحي نستضيء نوّر الله قلوبنا بنوره، إشارة إلى مآل الحكم في يد حكام ظَلَمَة دارت بهم رحا القَدر، فانتزعوا الدولة من يد الدعوة، وتحكموا في المال والقوة حتى لم يبق لأهل القرآن من خيار إلا أن يطيعوهم فيضلوا أو يعصوهم فيُقتَلوا.

دورة الرَّحا

نستفيد من التلمذة المستبصرة لتلميح الوحي المعبِّر عن توقيع القدَر، الملـمِّح لمواقعه، أن رحا الإسلام تدور بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهور الفُرقة والخصام بين السلطان والقرآن. ومع التلميح الأمرُ الصارم أن ندورَ مع القرآن حيث دار لا مع السلطان الجائر الذي لا يترك لنا إلا المجال الضيق بين القتل والضلال.

ونستفيد من تصريح الوحي الواعد بالخلافة الثانية أنها دورة نبُوَّة –خلافة على منهاج النبوة–حكم عاض–حكم جبري–خلافة ثانية على منهاج النبوة.

ويفسر الوحيُ الوحيَ بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ. فطوبَى للغرباء». رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الشيخ محمد عبده رحمه الله: يعود غريبا كما بدأ لينتشر وينتصر ثانيَ مرة كما انتشر وانتصر أولَ مرة. ونعم القولة هذه. يؤيد صحتها الحديث المنهاجي، ثم ما نشاهده رَأْيَ العين في الصحوة المباركة.

وليْسَ لِمن يرشحهم القدَرُ من غُرباء الإسلام الموعودين بالغد الـمُكلِّفِ المشَرِّفِ مِثلُ تتبُّعِ الرحا في دورتها ليرقبوا كيف دارت دورةَ النزولِ ليعكسوا في صعدتِهم خِصالَ الخلافة تخلقا وإيمانا.

عندما بايع الصحابة رضوان الله عليهم سيدنا أبا بكر الصديق بعدَ عهدهم بالنبوة ومكانتها الشامخة تضاءل رجل الإسلام العظيم عند نفسه تعظيما لمقام النبوة والرسالة فلَم يرق المنبر النبويَّ إلا درجة تحت مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم. وخطب فكان مما قال: «يأيها الناس، ولودِدْتُ أنّ هذا كفانِيهِ غيري. ولئِن أخذتُموني بسُنَّة نبيكم صلى الله عليه وسلم ما أُطيقُها: إنْ كانَ لَمعصوماً

من الشيطان، وإن كان لَينزل عليه الوحيُ من السماء». رواه الإمام أحمد عن قيس بن أبي حازم رضي الله عنه.

إشعار للناس بأن مقام النبوة والعصمة والوحي انتهى، وأنه ما بقي إلا التعاملُ مع بشر يجتهد في الاقتداء على سمع المسلمين وبصرهم، وعلى شرط «إن أصبت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني». وهو شرط سمعه الناس من أبي بكر ومن عمر. رضي الله عن أبي بكر وعن عمر، وعن عثمان وعن علي، وعن سائر الصحب الخيرين، وعن آل البيت الطيبين الطاهرين.

كان التواصي بالحق، وقول الحق، والوقوف في وجه الباطل، الحابِسَ للرحا أن تدورَ سافلةً إلى دركات السلطان المفارق للقرآن. وكان الشأنُ الأولُ للخليفة الدعوةَ وتعليم الناس دينَهم. قال أمير المؤمنين عمر في إحدى خطبه: «ألا وإني واللهِ ما أرسِل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم. ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم». ويوصي العمال فيقول: «ألا لاَ تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمِّرُوهم [لا تطيلوا مدة خروجهم للجهاد] فتفتنوهم. ولا تمنعوهم حقوقَهم فتُكفِّروهم». الحديث رواه الإمام أحمد عن أبي فراس.

خلافة تريد إعزاز المسلمين لا إذلالهم، وتعتبر أن حرمان الناس من حقوقهم يدفع إلى الكفر. خلافة تُنيط بالعمال، وهم أساسا ممثلو سلطة الدولة، مهمة الدعوة، مهمة تعليم الناس دينهم. فهم خدَمة للقرآن ينبغي أن يُنبَّهوا بقوة لذلك كيلا يُطغِيَهم السلطان.

ويربي الخليفة الراشد الناس على قول الحق ومقاومة الباطل، ويدربهم على ذلك تدريبا كيلا تزيغ به نفسُه أو يَخْنَسَ بهم الخوفُ من السلطان عن الشهادة بالقسط. أخرج ابن عساكر وأبو ذر الهرويُّ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في مجلس وحوله المهاجرون والأنصار: «أرأيتم لو ترخَّصتُ في بعض الأمور ما كنتم فاعلين؟» فسكتوا. فقال ذلك مرتين

أو ثلاثا. فقال بشير بن سعد: لو فعلت ذلك قوّمناك تقويم القِدْح [وهو عود السهم]! فقال عمر: أنتم إذاً! أنتم إذاً!».

أنتمُ إذاً الرجالُ المؤمنونَ إذ تقوِّمون ما اعوج. من يستطيع أن يشجع مقالةً تُهدد السلطان إن زاغ إلا خليفةٌ يلتمس من يعينه على دينه، هو يحكم نفسَه وهواه ويرقُب آخِرَتَه ومولاه!

ودارت الرحا سافلة من الخلافة الراشدة الداعية الخائفة من ربها، الحاكمة نزواتِها بقوم من المسلمين لَحِقوا بالإسلام آخِرَ العهد، لم يتربّوْا التربية التي ترفعهم من أعرابية المسلم الناطق بالشهادتين والنفسُ منطوية على عِلاتها الجاهلية.

لا نريد الخوض في أعراض الصحابة كما يفعل بعضُهم، لكن الإشارةَ إلى مواطن الفسادِ في نفوسٍ من نزلت بهم رحا الإسلام ضرورية ليعرف الغرباء الصاعدون العِلة المتربصة في الطريق فيُطببوها في خاصة أنفسهم ويحترسوا منها احتراسهم من العدو الأنكى والأشد.

أخرج عبد الرزاق عن ابن أبْجَرَ قال: لما بويع لأبي بكر الصديق جاء أبو سفيانَ إلى علي فقال: «أغَلَبَكُمْ على هذا الأمر أقلُّ بيتٍ في قريش؟! أما والله لأملأنها خيلا ورجالا. فقال علي: ما زلتَ عدوّاً للإسلام وأهله، فما ضرَّ ذلك الإسلامَ وأهلَه شيئا. إنا رأينا أبا بكر لها أهلا».

هنا يتعارض منطق المسلم حديث العهد بالإسلام مع منطق المؤمن الذي أسس الإسلام بجنب النبوة. منطق القوة والعنف والعصبيةِ القبلية التي لا ترضى أن يسودَ «أقل بيت في قريش» يعارض منطق الأهلية الذي يزن الأمور بمعيار ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾.

حارب أبو سفيان الإسلام زُهاءَ عشرين سنة، ثم كان من مُسلِمةِ الفتح هو وابنُه معاوية. طُلَقاءُ العفو النبوي بقيت فيهم جاهلية راسبة. ما كمُّها وكيفُها؟ الله أعْلَمُ.

وليس في عَزْوِ الترسبات الجاهلية لصحابي ما ينقُضُ دينَ أحَدٍ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبي ذر: «**إنك امرُؤ فيك جاهلية!**» لمجرد أنه قال

لرجل: يا ابن السوداء. وما أعظم الفرق بين من نطق بكلمة غضب وبين من هدد أن يملأها خيلا ورجالا لنصر الحمية القبلية!

ثم ما أَرَقَّ حاشية الجاهلية التي شجبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحبه أبي ذر بالجاهلية الشنعاء التي استفحلت في بني أمية فقتلت حسينا رضي الله عنه، ودمرت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورمت الكعبة بالمنجنيق!

عصبية جاهلية استفاقت في بني أمية بعد فترة حضانة وتربص حتى انقضت على السلطان، فكانت الفارقة بين عهدين، عهدٍ كريمٍ تُرَشِّحُ فيه الأمة خيارها لخدمة القرآن، وعهدٍ مفتون الأهليَّةُ فيه بالنسب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**هلاك أمتي على يد غِلمة من قُريش**». قال الراوي: فقمتُ أخرج مع أبي وجدي إلى مروان بعدما ملكوا، فإذا هم يبايعون الصبيان، ومنهم من يُبايَعُ له وهو في خِرقة!» رواه الإمام أحمد.

كان معاوية بن أبي سفيان أولُ ملوك بني أمية رجلا ذا مروءة، من مروءته الحنكة السياسية والحِلم. دخل عليه أبو مسلم الخولاني التابعي الجليل فقال: السلام عليك أيها الأجير! فثار عليه الأعوان وقالوا: قل: أيها الأمير! فقال: السلام عليك أيها الأجير! فثاروا عليه مرة ومرة. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم، فإنه أعلم بما يقول! فقال: إنما أنت أجير، استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها. فإن أنت هَنَأْتَ جَرْباها وداويت مرضاها وحبستَ أولاها على أخراها وفّاك سيدُها أجرك. وإن أنت لم تَهْنَأْ جرباها ولم تداو مرضاها ولم تحبِسْ أولاها على أخراها عاقبك سيدها.

كان الملك الأمويُّ الأول يسمعُ بعض ما يُقَوِّمُ بعضَ العوج، سياسة منه ومروءة. ثم ولِيَ بعده ابنه يزيدُ فملك قُرابة ثلاثِ سنوات قام فيها بأعمال ثلاثة خالدة في سجل البغي الملكي العاض. في السنة الأولى قتل حسينا رضي الله

عنه، وفي كربلاء طعنوا الجسد الشريف بالرماح، وضربوه بالسيوف، ورفسوا جثمان الشهيد تحت أرجل الخيل، وقتلوا نيفا وسبعين رجلا من آل البيت وشيعتهم، وساقوا نسوة آل البيت وبنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا إلى البلاط اليزيدي.

هذا موقف يجسد قتال الدولة الغاصبة للدعوة القائمة المقاومة. يجسد سَطْوَ السلطان على القرآن وتسلط الباطل على الحق.

في السنة الثانية من ملك يزيد الماجن العربيد السفيه قام علماء المدينة وقُراؤها على حكم البغي. فدهمتهم جنود البغي. قتلوا سبعة آلاف من أشراف المسلمين، واستباحوا المدينة ثلاثة أيام حتى حبَلَت ألف امرأة من فعل جيش يزيد. في السنة الثالثة من ملك يزيد هجم جيش يزيد على القائم بمكة عبد الله بن الزبير فضربوا الكعبة بالمنجنيق وأسالوا الدم الحرام في البيت الحرام.

كلمة قالها عبد الملك بن مروان «بطل الأمويين» تلخص أصول البغي الملكي العاض وحجته في صيغة تناسب التطور من عصبية أبي سفيان القبلية الساذجة الذي أراد أن يملأها خيلا ورجالا إلى عصبية أمسكت سيف الدولة بيدها. خطب عبد الملك بالمدينة سنة 75 على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إني لن أُداوِيَ أمراض هذه الأمة بغير السيف والله لا يأمرني أحد بعدَ مَقامي هذا بتقوى الله إلا ضربت عنقه!»[1]

من أولئك الذين يطلبون المعونة على الاستقامة وتقويم الاعوجاج، إلى مَلِكٍ حليم لا يستفزه «السلام عليك أيها الأجير»، إلى ما تسمَع! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(1) ابن الأثير ج4 ص41-104 كما نقله المودودي في «الخلافة والملك»، ص106.

العلماء والقائمون

في السنة الثامنة من الهجرة فتح الله تعالى لرسوله وللمؤمنين مكة ثم الطائفَ، فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم بسطة واسعة من عطائه وعفوه. فكان نصيبُ بني أمية من ذلك كبيرا. أسلم أبو سفيان قائد حرب قريش فنادى منادي الرسول أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. وأسلم ابنه معاوية فقربه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء في بعض الروايات أنه استكتبَه.

وفي خلافة أبي بكر بعث خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدَ بن أبي سفيان قائدا لفتح الشام وألحق به معاوية. وما لبِث معاوية لكفاءته وحزمه وفصاحته ودهائه وسياسته أن أصبح في عهد الفاروق أميرا على الشام، تمكن في الشام مدة عشرين عاما حتى صفت له الرئاسة والتف حوله الناس واعصوصبوا له. لا سيما وهو قد استظهر بنسبه القريب من ذي النورين عثمان رضي الله عنه، واستظهر بالعُصْبة من بني أمية. فثار وثاروا بعد فتنة الأخلاط الذين قتلوا الإمام الشهيد الخليفة الثالث يطالبون بدمه.

ليس بقوة السلاح استولى معاوية بن أبي سفيان على الحكم، بل بالدهاء. هزيمته في حرب صفين أمام الإمام الشرعي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهَه أحالها إلى انتصار بحيلة رفع المصاحف وطلب التحكيم.

ومن التحكيم وما تلاه خرج الخوارج، وبدأ انتقاض عُروَةِ الحكم في الإسلام. وما لبث الخوارجُ أن قتلوا الإمام عليا عليه السلام. وما لبث الإمام الحسن بن علي أن تنازل عن قيادة جيش المسلمين ليصفُو الجو لعصبية بني أمية.

ومن دهاء معاوية بن أبي سفيان أنه استعمل ثلاثة من دهاة العرب في توطيد حكمه: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن سُمَيّة الذي لا يُعرفُ أبوه فاستلحقه بنسبه، فصار يُعرَف زورا بزياد بن أبي سفيان.

زياد، قبل الحجاج، كان مثالا للطاغية الفتاك. خطب على المنبر فحصبَه الناس، فأغلق المسجد وقطع أيدي المصلين. خرج الأمر من عند معاوية بسَبِّ علي عليه السلام، فكان المسلمون وآل البيت يسمعون سبَّ أطْهَرِ الناس من على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان زياد من الذين يكثرون السب. فيقوم أحد خيار الصحابة حُجْرٌ بنُ عَدِيٍّ فيَرُدُّ عليه. بعث زياد بحُجر وباثني عشر من أصحابه إلى معاوية، فقتل معاوية حجرا وسبعة من أصحابه شر قتلة، أما الثامن فرده إلى زياد فدفنه حيا.

لا تكاد تُحصي جرائم بني أمية، لكن قيام الخَيِّر حُجر رضي الله عنه حدَث مُهم فتح في تاريخ المسلمين سجلا طويلا من مقاومة العلماء لسلاطين الجور.

ولوقاحة سب الإمام علي على المنابر مدة ستين سنة قبل أن يُبْطِلَ هذه البدعة الشنيعة الرجلُ الصالح عمر بنُ عبد العزيز الأثرُ البالِغُ الدائم المتردِّدُ صداهُ في ضمير أجيال المسلمين، خاصة منهم الشيعة. ومن ذا الذي لا يقوم مع حجر وأصحابه ضد البغي السافر؟

ثم كانت قومة الإمام الحسين عليه السلام، وانتفاضة القراء العلماء بالمدينة، وثورة عبد الله بن الزبير بمكة، وفتك يزيد الفاجر بالمسلمين.

بعد بني أمية توالت مِحنةُ آل البيت من العلويين. فقام الإمام زيدٌ بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين رضي الله عنهم ضد هشام بن عبد الملك الأموي، وتضامن معه الإمام أبو حنيفة الذي كان يقول كلمة الحق وينتقد الحكم.

وخرج أبو حنيفة مع قائم آخرَ من آل البيت، من ذرية الإمام الحسن عليه السلام، هو محمد بن عبد الله «النفس الزكية»، وآزره بالمال في حربه للمنصور العباسي. وكان أبو حنيفة يرى أن الثورة على ملوك العض من أمويين وعباسيين أمرٌ جائزٌ شرعا، بل مشروع واجب.

قال أبو حنيفة عن قومة الإمام زيد: «ضاهى خروجُه خروجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ بدرٍ». في آخر المطاف عَرَضَ المنصور على أبي حنيفة القضاء فأبى إباءً شديدا لكيلا يعمَلَ للظَّلَمَةِ عملا. «فلما أبى دسوا عليه السم فقتلوه». [1]

ويروى أن الإمام مالكـاً أفتى بجواز الخروج مع محمد «النفس الزكية»، فقيل له: إنَّ في أعناقنا بيعة للمنصور. فقال: إنما كنتم مُكرهين، وليس لمكره بيعة».

وقد سُئل مالك عن الخارجين على الحكام: أيجوز قتالهم؟ قال: نَعَمْ إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز. قالوا: فإن لم يكونوا مثله؟ قال: دعهم ينتقم الله لظالم من ظالم، ثم ينتقم من كليهما.

وكان مالك رحمه الله يكثر من رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ليس على مستكرَه طلاق**». فكان بنو العباس يكرهون ذلك ويرونه تلويحا يُبطل بيعتهم، لأنهم كانوا يُحَلِّفون الناس بطلاق أزواجهم إن هم لم يفوا بالبيعة الإكراهية. ونهَوْا الإمام مالكـاً عن التلويح وعن رواية ما يكرهون فامتنع. فآل الأمر إلى ضربه حتى انخلعت كتفاه. رحمه الله.

وكانَ حبُّ آل البيت والوَلاءُ لمحمد النفس الزكية ولإبراهيم ويحيى القائمين بعدَه دخيلةَ مالك. وكان الشافعي رضي الله عنه علوِيّـاً في صميمه، يُكنُّ الوَلاءَ للقائمين ضد تسلط بني العباس.

وهو القائلُ لَمَّا أكثَر الناسُ عليه واتهموه بأنه رافضي:

إن كان رفضا حبُّ آل محمد فليشهد الثقلان أنيَ رافضي

ذهب الشافعي إلى اليمن فاستوطنه زمانا. فكان لسانَ الحق لا يسكت عن باطل يراه من أفعال والي هرون الرشيد. فكتب الوالي إلى «الخليفة العباسي» يقول: «إن تسعةً من العلويين تحركوا. وإني أخاف أن يخرجوا. وإنّ ها هنا رجلا

(1) أنقل عن كتاب «أبو حنيفة» لأبي زهرة رحمه الله، ص37 وما بعدها.

من ولَدِ شافع [يعني الإمام الشافعي رحمه الله] المطلبي، لا أمرَ لِي معه ولا نهي. يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه القاتل بسيفه».

وسيق الإمام مع التسعة الأشراف إلى البلاط في بغداد. فقُتل التسعة، ونجا الإمام بحسن بيانه، ثم بتدخل قاضي القضاة محمد بن الحسن الذي كان يعرف جلالة قدر الإمام وسعَة علمه وفضله.

هذه نبدة سريعة خاطفة عن انقلاب الدولة والسلطان على أهل القرآن. كان في علماء المسلمين، وفي آل البيت بالذات، إباية على الظلم عبرت عن نفسها بالخروج المسلح وبالفتوى الفقهية. فكان القمع الوحشي هو الجواب الـمُكرر الذي ردع في علماء المسلمين كلمةَ الحق لقرون. والناس تبعٌ لعلمائهم. وطال عهد القمع المستمر حتى أصبح ما كان مُنكرا بيِّنا مكروها مرفوضا أمرا واقعا ثقيلا موطد الأركان. أصبح النّزْو على السلطان واغتصابه واستعباد الدعوة ورجالِها أصلا مُقررا.

وتجد كتبا أُلِّفت تستصوب ما فعله الداهية، الصحابي المحترم لحرمة الصحبة لا غيرَ، الباغي المعتدي بعدُ. تستصوب توليته لابنه يزيد وتوريثَه إياه «الخلافة» وكأن الأمة بضاعة يرثها الخلَف عن السلَف!

كانت بيعة يزيد النموذجَ الأولَ لتحريف نظام الحكم في الإسلام وتحويله إلى كسروية. وقد تريث معاوية واستشار دهاته ودبر أمره بإحكام. وأخذ البيعة لابنه يزيد في العراق والشام وأطراف البلاد، حتى لم يبق له إلا كُبراء مكة والمدينة، وفيهما كان بقية الصحابة وأبناء المهاجرين والأنصار.

فتوجه بنفسه إلى الحجاز، واستدعى إليه الأربعةَ المحترمين من علماء الأمة المسموعي الكلمة: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر. لقيهم خارج المدينة وأغلظ لهم القول. وتلك أساليب يحسنها الملوك الغاصبون لتخويف ذوي الرأي وإرهابهم.

ثم استدعاهم خارج مكة وألان لهم القول وأحسن معاملتهم. ثم خاطبهم فُرادى ولاطفهم ليبايعوا يزيدا. قال له عبد الله بن الزبير: «نخيرك بين ثلاث خصال: تصنع ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لم يستخلف أحدا، فارتضى الناس أبا بكر. أو تصنع كما صنع أبو بكر، فإنه عهِد إلى رجل من قاصية قريش، ليس من بني أبيه، فاستخلفه. أو تصنع كما صنع عمر، جعل الأمر شورى في ستة نفر، ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه». ثم سأل الآخرين فقالوا: قولنا قول عبد الله.

عندئذ نطق الملك نطقه الكسروي فقال مهددا مُزبدا مُرعداً: «فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم: إنه قد أعذر من أنذر! إني كنت أخطب فيكم فيقوم إلي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأحمل ذلك وأصفح. وإني قائم بمقالة: فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه! فلا يُبْقِيَنَّ رجل إلا على نفسه!»

ثم نادى رئيسَ حرسه فقال له: «أقِم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين، ومع كل واحد منهما سيف. فإن ذهب رجل منهم يرد عليَّ كلمةً بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما».

ثم دخل المسجد وأدخل الأربعة الكُبراء أمام الناس، وصعِد المنبر فقال: «إن هؤلاء الرهْطَ سادةُ المسلمين وخيارُهم، لا يُبتَر أمر دونهم، ولا يُقضى إلا عن مشورتهم. وإنهم قد رَضُوا وبايعوا ليزيد. فبايِعوا على اسم الله». (1)

فلما رأى الناس سادة المسلمين سكوتا قاموا فبايعوا. لم يعلم المسلمون أن أولي الرأي والحرمة فيهم قد تعاورَهم الترهيب والترغيب، ورُصِد السيفُ على رؤوسهم.

هكذا تمت أول بيعة نقلت الحكم من الخلافة إلى الملك، ومن الشورى والاختيار إلى القسر والإرغام، ومن تعامل الصادقين بصدقهم إلى تحايل الدهاة

(1) الكامل لابن الأثير كما نقله المودودي رحمه الله من كتابه المذكور ص97.

وتحاملهم. دارت رحا الإسلام دورتها ليختفي أهل العلم والتقوى لأزمنة طويلة لا تزال ممتدة تحت ستار التقية عند الشيعة وتحت الاستنكار المكبوت عند سواد الأمة وجمهورها من أهل السنة والجماعة. والله غالب على أمره.

فتوى الاستيلاء و«عجز الطالب»

استنكار مكبوت للحكم المتسلط؟ أم رضوخ للأمر الواقع لما عجز الطالبون عن زحزحة الملكية العاضة عن مواقعها؟ بل آل الأمر إلى إضفاء المشروعية على ما كان ولا يزال في ميزان الحق باطلا!

سطت السيوف الأموية تسعين عاما حتى أزاحتها عن سد الحكم السيوف الخراسانية التي مكنت لدولة بني العباس. ثم تلا الجيوشَ العربيةَ الفارسيةَ التي خدمت «الخلفاء» العباسيين مدى قرن من الزمان جيوشُ الترك ثم أصناف الأقوام من ديلم وسلاجقة كان «الخليفة معهم مجرّدَ رمز لا أمر له ولا نهي».

وهكذا حكم «الأمراء المستولون» من بني بويه وبني سلجوق، ومن شاهات وأتابكة، إلى أن هجم التتار وخربوا بغداد. ثم حكم المسلمين أصناف من المتغلبين الوراثيين من سلاطين وملوك عرب ومماليك عجم، إلى أن ظهر بنو عثمان الأتراك، إلى أن صدم الاستعمارُ الأمة لتدور بها رحا الإسلام في جولة الحكم الجبري الذي نعيشه.

كل ذلك والعلماء الدعاة استكانوا طوعا وكرها إلى تساكن مع الحكم العاض والجبري. انفتحت للدعاة العلماء واجهةٌ لمقاومة عدو متسلل إلى العقول والعقيدة فتفرغوا لجمع الحديث وتفريع الفقه وتأصيله، وانبرَوْا لتعليم الأمة ودفع التيارات الفلسفية الإلحادية المنحرفة تاركين لِحمَلَةِ السيف مهمة قتال العدو الخارجي، ومهمة إطفاء نار الفتن التي ما فتئ يؤججها في أنحاء المملكة المسلمة المتواسعة طوائف البغاة وأهلُ الأهواء من خوارج وزط وزنج ومزدكية زنادقة وخُرّمية وغير ذلك.

منذ رفع الخوارج بعد معركة صفين شعارَ «لا حكم إلا لله» أخذ المسلمون الطارئون على الأمة من الشعوب العجمية يطرحون أسئلة يمليها ما يحملونه من

رواسب الفلسفة والديانة والثقافة التي نشأوا عليها قبل إسلامهم. وتفاعل العامل السياسي مع العامل الفكري العقَدي فنشأت مذاهب شتى هي صدْعٌ في معنى الإسلام وفهمه كما كان الصدع في الحكم وفرقة السلطان عن القرآن تشتيتا لجسم الإسلام.

وكان لا بد لعلماء المسلمين من الذب عن حوزة الدين بالحجة والبرهان تاركين للحكام شؤون السيف والسنان.

من موقف أئمة الفقه الذين قرأنا في الفقرة الأخيرة كيف كانوا متحفزين لإصلاح الحكم تطور الأمر إلى موقفٍ لأتباع مذاهبهم بَنى على قاعدة الأمر الواقع، معترفين بما هو قائم، شاعرين بحدود قدراتهم.

وما انتهى القرن الرابع حتى كانت قضية الاعتراف بحكم السيف الغالب مسألة فقهية مفروغا منها، وضرورة لا محيدَ عنها، يُعَرفها الماورديُّ الفقيه الشافعي فيقول: «وأما إمارة الاستيلاء التي تُعقد عن اضطرار، فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها [...] لوقوع الفرق بين الـمُكنةِ والعجز». [1]

يعني هذا أن الأمير المستولي بالقوة (والمستولي المستبد على «الخليفة» في زمان الماوردي هم بنو بويه) ليس في إمكان السلطان «الشرعي» أن ينحيه عن مواقعه، فلا مناصَ من إعطائه «تقليدا» بمقتضاه تُحفظ لمنصب الإمامة حرمته، ويتم «ظهور الطاعة الدينية التي يزول معها حكم العناد فيه، وينتفي بها إثم المباينة له». قال: «لوقوع الفرق بين الـمُكنة والعجز».

بعد الماوردي رحمه الله بثلاثة قرون نجدُ تحت كلمة «العجز» عندما يكتبها علماؤنا نفس الحسرة المكبوتة ونفس الرضوخ «لوقوع الفرق بين الممكن والواجب». يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء. وهم الذين إذا صلُحوا صلح الناس. فعلى كل منهما أن

(1) «الأحكام السلطانية»، ص35.

يتحرى ما يقوله ويفعله طاعة لله ورسوله واتباع كتاب الله. ومتى أمكن في الحوادث المشكلة معرفة ما دل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب. وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب [...] فله أن يقلد من يرتضي علمه ودينه [...]. وكذلك ما يشرك في القضاة والولاة من الشروط يجب فعله بحسب الإمكان». (2)

مُكنة انعدمت، وطالب عجز، وتاريخ السيف «لوقوع الفرق بين المكنة والعجز».

قال رحمه الله: «ومن كان عاجزا عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ففعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه والدعاء للأمة ومحبة الخير وفعل ما يقدر عليه من الخير لم يُكلف ما يعجز عنه». (3)

من يقرأ ما بين السطور يدركْ تحت كلمات «المكنة» و«العجز» و«القدرة» و«حسب الإمكان» طلباً دائما للحق لم يستقِلْ علماؤُنا عنه، لكنْ أوقفهم عنه واقع حكم عاض له عصبية بها يقوى وليس مع العلماء قوة منظمة.

ونجد التفرغَ الكامِلَ لواجهة حماية العقيدة والدفاع عنها عند أتباع الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله. وما ابن تيمية إلا النموذج الكامل للحنبلي المشتبك مع البِدع والأهواء بلا هوادة. تخَلى ظاهرا عن مخاصمة السلطان ليتأتى له تحت ظل شوكة حامية الجهادُ لحماية العقيدة.

لم يصطفَّ الإمام أحمد رحمه الله مع القائمين على السلطان كما فعل أبو حنيفة ومالك والشافعي. لكنه تصدى وحده لبدعة جارفة قاتلة واجه فيها السلطانَ وكابد وعانى الأذى. وسُجن في الظلام وعليه أربع قيود، وجلَده المعتصم العباسي، وطرحه على ظهره ورفسوه، وعلقوه على خشبتين حتى تخلعت يده. رحمه الله ورضي عنه.

(2) السياسة الشرعية، ص159.
(3) نفس المصدر، ص167.

من فرق أهل الأهواء الذين ظهروا بعد الخوارج الـمُرجئة المتربصون الذين لَم يصوِّبوا رأي الشيعة ولا رأي الخوارج، ومنهم الجهمية والمجسمة، ومنهم الزنادقة. وتصدى المعتزلة لمحاجة هذه الطوائف جميعا بكفاءة وحسن نية. لكن المعتزلة ما لبثوا أن انزلقوا مع التيار الخِصامي، فرجع عليهم السلاح العقلاني الذي استعملوه، وتكلموا في العقائد كلاما ما عرفه السلف الصالح ولا ارتضاه أهل الحديث من معاصريهم. واحتدم صراع شديد بين المعتزلة والفقهاء والمحدثين، خاصة في قضيتي رؤية الله تعالى في الآخرة ينفونها مخالَفَةً للنص الصريح، والقرآنُ يقولون بمخلوقيته بدعةً ابتدعوها.

كان الإمام أحمد رضي الله عنه بالمرصاد، رد عليهم رَدّاً قويا، فاستظهروا عليه بالمأمون العباسي وكان من «أصحابهم»، فآذى الإمام وأوصى ولي عهده المعتصم به فآذاه من بعده، وأوصى المعتصم الواثق. واستمرت الإذاية على الإمام الصامد رحمه الله ثمانية وعشرين شهرا.

كتب المأمون إلى عامله على بغداد إسحاق بن إبراهيم آمرا: «فإن أمير المؤمنين يرى أن تستتيب من قال بمقالته (مقالة الإمام أحمد أن القرآن كلام الله غير مخلوق). إذ كانت تلك المقالةُ الكفرَ الصُّراحَ والشركَ المحضَ عند أمير المؤمنين. فإن تاب منها فأَشْهِرْ أمرَه وأمسك عنه. وإن أصرَّ على شركه ودفَع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده فاضرب عنقه بالسيف وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه». (1)

وكذلك فعل العامل، فامتحن كبار علماء المسلمين. ومات في قبضته محمد بن نوح، وتفلت آخرون بكلمات تأويل، وحصل الأذى الشديد لابن حنبل رحمه الله ورضي عنه. خاصة على يد المعتصم الذي كان يأمر الجلادين بالضرب قائلا: «شُدَّ قطع الله يدك!»

نتأمل ملامحَ ملك طاغية في شخص المعتصم. قال عنه ابن السبكي رحمه الله: «قال المؤرخون: ومع كونه كان لا يدري شيئا من العلم حمل الناس على

(1) تاريخ الطبري، ج2 ص1125.

القول بخلق القرآن. [...] ولولا اجتماع فقهاء السوء على المعتصم لنجاه الله مما فَرَطَ منه. ولو أن الذين عنده من الفقهاء على الحق لأروْه الحق أبْلَجَ واضحا، ولا يُغْروه على ضرب مثل الإمام أحمد. ولكن ما الحيلة والزمان بُنِيَ على هذا. وبهذا تظهر حكمة الله في خلقه». (2)

عند فقيهنا العلامة ابن السبكي في القرن الثامن نجد المساندة التامة للحاكم لأن «الزمان بُني على هذا». إنه الواقِع الذي يلتمس الفقيه الجهبَذُ له تفسيرا بوجود «فقهاء السوء» حول البلاط. ذلك لتبقى صفحة الحاكم المسلم ناصعة، ولتسْلَمَ سُمعَةُ من سماه المسلمون «أمير المؤمنين» يرونه حصنَهم المكين.

وجها لوجه ملكٌ «لا يدري شيئا من العلم» وإمامٌ فحل، جبل السنة شيخ المحدثين. أيُّ تعارُض أبلغُ من هذا بين دولة سلطوية ودعوة قرآنية سنية! أين تلك الوحدة التي تشخصت في النبوة والخلافة الراشدة حيث كان الداعي القرآني هو الآمر الناهي الممسك بالسلطان خدمة للقرآن؟

لكنه المعتصم الذي تستغيث به امرأةٌ مسلمة «وا معتصماه!» كما تقول القصة، فيلبي النداء، ويزحف على الروم، ويحقق انتصار عمورية الذي خلد الشاعر ذكره.

وحفاظا على السيف المُصْلَتِ، سيف السلطان المستولي، يستكين العلماء الدعاة لجريان القدَر، ويراوحون الخُطى بين «المُكنة» و«عجز الطالب».

وحفاظا على وحدة الأمة بين الاضطرابات الداخلية والتهديد الخارجي يُصدر الإمام أحمد فتواه بلزوم الجماعة إذ يقول: «من غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمِّيَ أمير المؤمنين، فلا يحِل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يَبيت ولا يراه إماما، بَرّاً كان أو فاجرا». (3)

أكان علماؤنا جميعا من «فقهاء السوء» علماء القصور إذ يُفتون بصحة إمامة المستولي ويحثون على الطاعة للغالب بالسيف بَرا كان أو فاجرا؟ حاشا وكلا!

(2) طبقات الشافعية، ج1 ص219.
(3) نقل عنه ذلك الفقيه القاضي أبو يعلى الحنبلي في كتاب «الأحكام السلطانية».

ولكنهم عاشوا أزمنة لَم يكن الخيار فيها بين حكم فاضل وآخر مفضول «العجز الطالب»، لكنّ الخيارَ كان بين استقرار نسبيٍّ وسط الزعازع وبين فوضى يُفلت فيها الحبل وينتقض ما بقي محفوظا من أمر المسلمين.

أهل العلم بين التقليد والتلبيس

يُشَكِّل أهل العلم الفقهاء في بلاد الإسلام ذُخرا للمستقبل، نأمل أن يُمِدّوا الحركة الإسلامية الناشئة بالأطر اللازمة، وأن ينعتقوا من أسباب العجز التي تعوقهم اليوم كما عوّقت أجيالا منهم منذ اختصم السلطان والقرآن. لاَ شأنَ يُرجى لفقهاء السوء القِلَّةِ، فهم ثَفَل لا يخلو منهم جيل. لكن الجحفَلَ من حاملي الشهادات المنضَوِين تحت لواء التقليد لفتوى صدرت منذ قرون، أو المشتغلين بمَعاش اليوم الموظفين في المؤسسة الدينية الرسمية منعتهم الحاجة عن الاستقلال في الفكر والحركة- ينبغي أن يكونوا هدفا لرجال الدعوة العاملين ليستجلبُوهُم عند الفرصة إلى الصف.

لاَ نَنْتَظِرْ من الناس أن يكونوا سعيد بن جُبير الذي واجه الحجاج بكلمة الحق فقتله، ولا أحمد بن حنبل الذي قاوَم وحده تيارا يقوده «الخليفة»، ولا عِز الدين بن عبد السلام ذا المواقف الخالدة في قمع غرور المماليك. فتلك مثالية لا ينبغي أن تراوِدَنا. وأولئك رحمهم الله أفذاذ يجود الله عز وجل بأمثالهم متى شاء.

إنما الذي فيه مطمع هو أن نساعد أهلَ العِلم والدين من رجال الإسلام على الخروج مِن رِبقة التقليد الفكري لفتوى قرون خلت حتى تتغير لديهم النظرة الثبوتية التي تتصور التاريخ امتدادا بلا نهاية للظلم الوراثيِّ. وأن نساعدهم على تخطي اجتهاد زيد وعمرو ممن سبقونا بإيمان ليقلدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أخبرنا أنها ستكون بعده الخلافة ثلاثين سنة ثم تكون ملكا عاضا. وأخبرنا في الحديث المنهاجي الذي جعلناه دليلا لنا وأوردنا نصه في فاتحة هذا الكتاب أن بعد الملك العاض ملكـًا جبريـًا تتلوه خلافة على منهاج النبوة.

كان الصحابة أمثالُ الإمام حسين رضي الله عنهم أعلَم العلماء لم يقلدوا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجوا على الظالمين. وكان الأئمة العظام

أمثال زيد بن علي وأبي حنيفة ومالك والشافعي يرون الخروج على الظلمة واجبا. فباقتدائنا بعدَ طولِ لُبْثٍ في أحضان الفتاوي الطارئة، وفي أفقنا وعدُ الخلافة الثانية، بالسنة العملية للأئمة العظام نكون تلامذة مباشرين للأمر النبويِّ. وبذلك نكف عن الدوَران مع الأحداث دوران البلداء لنتعرض لموعود الله ورسوله الذي لا يُشرِّفُ إلا من قامَ وسط الفتنة الخاملة من بين الرقود.

طالما انتظر العلماء المقلدون للفتاوي، المتحرقون كمدا على ما يرون من منكر، رجلا مثلَ عمر بن عبد العزيز أو صلاح الدين أو ابن تاشفين. ملوك عباقرة أصلح الله عز وجل بهم حال الأمة حينا، ثم رجع الـمُلك إلى نصابه ودَيْدنه من العض والظلم. وكم من مَلِك خلا في تاريخ المسلمين هو أقرب إلى الخير والنجدة والمروءة. لكن النظامَ الذي أفرزهم وسجنهم في منطقه نظام فاسد.

كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول في عهد معاوية: اللهم إني أعوذ بك من الستين ومن حكم الصبيان! كان معه عِلْمٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أفشاه. ففي سنة ستين مات معاوية رحمه الله ودخل الحلَبَة يزيد الغلام، من الغِلمة الصبية الذين هلاك الأمة على يدهم. وأعاذ الله أبا هريرة فمات قبل ذلك.

طالما كتب فقهاء المسلمين أدبيات في «تدبير الملك» يُسدون النصح للملوك تَسَلُّلا وملاطفة، مستدلين بسياسة أرسطو وبقصص ابن المقفع وآداب كسرى أنوشروان. ومن الفلاسفة من كتب وصفا للمدينة الفاضلة كالفارابي، حُلما أفلاطونيا فيه النقد للأمر الواقع من وراء ألف حجاب.

إن أموال النفط تُغدَقُ في عصرنا لتمشية إسلام أمريكي لا يألو جهدا في عقد المؤتمرات وتدبيج المقالات في المجلات الملونة الصقيلة. وفي هذا يجد أهل العلم من كل اتجاه مُتنَفَّسا لما يكابدون من آلام، ويجد سلاطين العرب وسيلة لتأنيس كل «طلب» وتعجيزه. وهاتِ ما عندك من نَقد غامض عام للمنكر ما دمت لا تسمي أهلَ المنكر وسدنته وبؤرته: الحكام العاضين الجبريين!

قرأنا في الفقرة السابقة كيف التمس ابن السبكي رحمه الله العذر للمعتصم في التفاف فقهاء السوء حوله. وكذلك يفعل كثير من أهل العلم، إما حكمة وارتجاءً لموعظة واصِلَةٍ، وإما عاميَّةً وتبلدا. يُحَمِّلون «الحاشية الفاسدة» أوزارا ليس يحملها إلا النظام الفاسدُ الذي جرَّحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت عليه قرون من البغي.

تقدم الشيخ الفقيه الحنبلي المحدث الورع الواعظ العلامة عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله بنقد لتلبيس إبليس على الولاة والسلاطين لم يتعرض فيه لأصل البلاء. وإنما حام حول الأفعال والعقائد والنتائج. لم يذكر مثلا ما كان ويكون في قصور السلاطين من ترف مخز، ومن مجالس للشراب، ومن تحكم الجواري في تصريف الدولة، ومن مؤامرات بلاطية.

وحصر رحمه الله «تلبيسات إبليس» في سبعة مآخذَ عدها «أمهات». ولم يكن في الحقيقة ولا يكون من أم لويلات المسلمين إلا أم واحدة: هي فتنة كل حكم لا يكون شورى بين المسلمين. ونقد الحكم المتسلط من أساسه هو النقد لا غير، ورجْمُه بجريرته هو الكلام لا اللف والدوران.

ذكر ابن الجوزي رحمه الله من «أمهات» الفساد اغترار السلاطين وظنهم أن الله تعالى أحبهم لما ولاهم الملك. وذكر تكبرهم عن مجالسة العلماء وترفعهم عن طلب العلم. وهذه مصارحة فريدة من عالم واعظ كان له مجلس أسبوعي داخل القصر يحضره أهل القصر. وهي نفثة رجل حُر لفقوا عليه وقد تجاوز الثمانين تهمة فحبسوه في بيت خمس سنوات يخدم نفسه بنفسه، ويمتاح ماء وضوئه من البئر بيده. ذلك بعد عمْر حافل بالتأليف والوعظ.

وذكر رحمه الله تشديدهم الحجاب عن الناس وتوانيَهم في سماع المتظلمين وإنصافِهم. وذكر استعمالهم لأمراءَ ليس لهم علم ولا تقوى. وذكر نبذهم لتعليم الشرع وعملهم برأيهم فيقتلون من لا يحل قتله. وذكر انبساطهم في أموال المسلمين. وختم بتعاطيهم للمعاصي والموبقات. رحمه الله وغفر لنا وله.

إن إحسان الظن بالحكام المتسلطين أو اتهامَهم بما هم له أهل لا يغير من الواقع شيئا. وإن إسداءَ النصح لمن بايعوه أو بايعوا جده وهو في الخِرَق صَبي لَكَالنَّسْمة البَليلَةِ تهب على الجبل الصلد تحسب أنها مُنْبِتةٌ فيه جنات من نخيل وأعناب.

وإن كان من الملوكِ صالحون، وقد كانوا، فإن في الصفة والموصوف تناقضا لا تغسله الانتقادات ولا الوصايا ولا أدبيات «تدبير الملك». الحكام الوِراثيون أبناءُ الدنيا، لهم منها الجاه والمال والزينة والمتاع. وقد يشُذُّ الواحد منهم فينجيه الله العزيز الوهاب من قبضتها. لكن العَقِبَ منه قد لا يرثُ من الصلاح إلا كما يرث الفقير من المعدم.

هذه وصية للملك الصالح محمد الفاتح العثماني، فاتح القسطنطينية، لابنه ووارثه أورخان. فهل تجاوزت الوصية المليئة بحسن النية مرتبة الأماني، أم هَلْ أوصى الملك المائت ابنه بغير ما كان أصْلَ البلاء كله: أن يكون السلطان حفيظا على القرآن وأهل القرآن، وصيا عليهم لا العكس؟

قال رحمه الله: «ها أنذا أموت، ولكني غيرُ آسف لأني تارك خلَفًا مثلك. كن عادلا صالحا رحيما بالناس جميعا. وابسُط على الرعية حمايتك بدون تمييز. واعمل على نشر الدين الإسلامي فإن هذه هي واجبات الملوك على الأرض. قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء، ولا تفتُر في المواظبة عليه. ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين. [...]

قال: وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة، فاعطف عليهم وشجعهم. حذارِ! حذارِ! لا يغرنك المال والجند. ولا تُبعِدْ أهلَ الشريعة عن بابك. ولا تمِلْ إلى عمل يخالف أحكام الشريعة».

مهانة «لا تُبعد أهل الشريعة عن بابك!» حجة دامغة على ما يَجيش بين نفوس الملوك وألسنتهم في حق أهل العلم. مبجلون، لكن في الباب، خدَم مع الخدم!

ومات الفاتح رحمه الله، فوثب الابن الأكبر بايزيد على الوصي، ودامت الحرب بين المتقاتلين على العرش سبع سنوات. وانتصر بايزيد وأوصى بالملك

من بعده لابنه الأكبر أحمد. لكن الابن الأصغر سليم ثار في وجه أبيه وأخيه. وكان صراع مرير. يُقال إن سليما دس السم لأبيه ليُنهي المأساة.

وكان قتل الأبناء والإخوة والآباء أهونَ ما يكون في سرايا الملوك. ومن قرأ تاريخ العباسيين والعثمانيين والمماليك وكل السلالات المالكة أدرك معنى العض في التعبير النبوي حين يستقرِئ تهارُشَ الأمراء على الملك، وسفكهم لدماء بعضهم، وتآمرهم لذلك مع النساء والخدم والعسكر. ولا غالب إلا الله.

«أكره أن أدنسهم بالدنيا»

لو سألتَ الكثيرين من شباب الدعوة، بل من كهولها وشيوخها، عن منتهى البُغية وغاية الطلب لأجاب بديهة أنه إقامة دولة الإسلام، ممتلئةً جوانحُه بأمَل بنائها، خالصةً نيتُه في خدمتها.

وقد تجد أن ذلك الأملَ وتلك النيةَ غَمَّا المطلب الإيمانيَّ الفردِيَّ وشغَلا وجْهَتَه. وقد تبحث عن التطلع الإحسانيِّ لدَى الكثيرين فلا ترى له أثراً.

والخطرُ المتربصُ بكل زاحف على قلعة الدنيا وزبدتِها، أعني الحكمَ وممارستَه ومصارعةَ الناسِ عليه وفيه، هو انمحاقُ الإيمان الفرديِّ وانسحاقُ التطلع الإحسانيِّ إن وُجِدَ ابتداءً. ومن ثَمَّ ذوبانُ الدعوة في الدولة، وانتِهاكُها، وتسربها في مساربها كما تتسرب قطراتُ الماءِ في الرمال العطشى.

وذلك ما حذر منه رسول الله صلى لله عليه وسلم في قوله لأصحابه ولنا: «**فوالله ما الفَقْرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسَطَ الدنيا عليكم كما بُسِطتْ على من كان قبلَكم فتَنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**». الحديث عند البخاري ومسلم روياه عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

ولئن كانَ في رسول الله صلى الله عليه وسلم الملجأُ من الدنيا وإهلاكها، تحضُن صحبتُه المؤمنين أنْ تغتالَهم زينَتُها وهم بين يديه يتعهدهم ويذوذ عنهم وهو حي يُرزق، فإن غيابَ جسده الشريف ثم توسُّعَ رقعة البلادِ الإسلامية وانبساطَ الدنيا من بعده عرَّض الصحابة لفتنة الدنيا الفاغِرةِ فاها للابتلاع. فما كان من الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا أن ضَمّا إليهما خيارَ الصحابة ضنّاً بهم أن تلوثهم الدنيا.

أخرج أبو نعيم وابن عساكرَ أنَّ أبا بكر رضي الله عنه قيل له: يا خليفةَ رسول الله! ألا تستعمل أهلَ بدر! قال: إني أرَى مكانهم (أيْ أعرف فضلهم)، ولكني أكره أن أدَنّسهم بالدنيا.

وكان عمرُ الفاروق رضي الله عنه يستعمل في شؤون الدولة ذوي الكفاءات العملية على ما معهم من إيمان مستبْقِياً إلى جانبه في المدينة أهل السابقة من المهاجرين والأنصار. لا رخصة لأحد أن يبرح المدينة. وقد فسر المؤرخون فعلَه ذلك بأنه سياسةٌ هدفُها مَنعُ الوُجَهاء من الانتشار في الأرض مخافة أن تتعدد «مراكزُ القوَى» فينافِسَ السلطةَ المركزيةَ منافس. وهو تعليل يليق بسطحية التحليل السياسي.

أما السببُ الحقيقيُّ في حصْرِ كبار الصحابة في المدينة واستعمالِ الأكفاءِ من المسلمين فهُوَ الحِرصُ على إبقاءِ جماعة المسلمين حاملةِ الدعوة بمَنْجىً من الاشتغال بتدبير «الدنيا» لتكون من العاصمةِ مصدرَ إشعاع إيماني ومورِدَ صفاءٍ إحسانيٍّ، تستنير بنوره الأمة، وتعُبُّ من نبعه.

قال ابن سعد رحمه لله: «وكان (عمر) يستعمل رجُلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلَ عمرو بن العاص ومعاويةَ بن أبي سفيان والمغيرةَ ابنِ شُعبة، ويدع من هو أفضلُ منهم مثلَ عثمان وعلي وطلحةَ والزبيْرِ وعبد الرحمن بن عوف ونُظرائهم لقوة أولئك على العمل والبَصَرِ به، ولإشرافِ عُمَرَ عليهم وهيبَتِهم له. وقيل له: ما لك لا تُوَلِّي الأكابِر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: أكرَه أن أُدنِّسَهم بالعمل».

هذا درسٌ من أهم الدروس للدعوة الصاعدة في صحوتها، المرشَّحَة للحكم. بل هو الدرسُ بالحروف البارزة. التحدي هو: هل تمسك الدعوة بزمام الحكم وتدير عجلته وتَبقى مستقلةَ الوجود ماضية الإرادة في وِجهَة التغيير الشامل الجذري للمجتمع، أم تجذِبها الدولة ويستقطبها الحكمُ فيستولي على النفوس، ويستغرق الجهودَ، ويغلب على الوجهة حتى تذوبَ الدعوة في الدولة؟ التحدي

أساسا هو: هل يحيَى الدعاةُ بعدَ الوصولِ إلى الحُكم بحياة الإيمان والإحسان، أم «تدنسهم الدنيا» وتهلكهم كما أهلكت من كان قبلَهم؟

إن الأحزابَ السياسيةَ في أمم الأرض تتلَخَّص أهدافُها في «برنامج» للحكم تعرضُه أو تفرضُه. لا أُفُقَ لها غيرُ الهدف التنموي وغيرُ التوزيع للناتج في صالح هذه الفئة أو تلك. ومن الأحزاب ما يبتدِئ ثورتَه أو إصلاحيتَه بإديولوجية تقترح على الناس أو تفرض مشروعا تغييريا يروم قلب الأوضاع، ثم لا يتعدى الأمر، بعد طول معاناة، برنامجا تنمويا أخفق أو قَصَّر عنِ الأهداف الكمية الموعودة.

وإنّ الإسلاميين في حركتهم الموفقة بإذن الله لا مناص لهم من الدخول في المعمعة إلى جانب طلاب الحكم للحكم، وطلاب الحكم للمال، وطلاب الحكم لنزع المبادرة من الإسلاميين، ومنتقدي الحكم المعارضين. ولا بد للإسلاميين من برنامج يُعْرَض، ولا بد من تصدي بعض أكابرهم للإشراف على تطبيق البرنامج.

إذا أضفْت إلى هذا بقاء الإسلاميين في الظل زمانا، مَمْنُوعين من السياسة، قليلي الخبرة بدخائلها، مُنعدمي التجربة بانعطافاتها وتعريجاتها، كان دافعُ اهتمام أكابر الدعوة بالسياسة أقوى. وإذَنْ تنصرفُ الدعوة بكليتها لتسيير دفة الحكم. وإذن فهو فَناءُ الدعوة من حيثُ هيَ دعوة، لا تلبث الدعوة أن تتحول هيكلية سياسية محضة، تتكلم كما يتكلم السياسيون، وتسلُك مسالكهم. وعُدْ بعدَ حين لزيارة الساحة فلن تجِد إلا فارقَ اللِّحي -إن وُجِدَتْ- وإلا أثاراتٍ من خطابٍ إسلامي. لا قدر الله.

ما الحيلةُ ونجاحُ الدعوة في الحكم لن يقيسَه أحدٌ بحسن النوايا التي نطقت، ولا بمنطقية البرنامج الذي عُرِضَ، ولا يمكن في زمانِ الأرقام والإنجازات العينية، ملموسةٌ هي أمْ وهميّةٌ، أن يُغذِّيَ الإسلاميون الناس بالوعود والهتاف؟

إن تسيير شؤون الدولة الحديثة في أزمات مثلِ الأزمات الممسكة بخناق المسلمين أشبه شيء بالإمساك بمقادة زورق يتحرك بسرعة الجنون في بحر

هائج. وإنَّ استظهار الإسلاميين بذوي الكفاآت والتخصصات من كل نوع وفي كل ميدان لضرورة بديهية. فيوشك في ظروف الأزمة وضرورة الاستعانة بالغير أن تُسَيِّرَنا إرادة غيرُ إرادتنا أو تستبد بنا الضرورَة فننصرفَ عن الدعوة وننهتك في الإدارة ويخطَفنا دَوْلابُها اليوميُّ.

ماذا يظل يفعَل رجل الإدارة الجاد المسؤول، وماذا يبيت يخطط؟ زمانه وجُهدُه تستغرقهما الهموم الدنيوية المعاشية للناس. وهي مهمة حيوية لا بد أن يتفرغ لها الأكفاء. لكن إن رصدنا لهذه المهمة خِيرةَ أهل القرآن أطباءَ القلوب عرضناهم وعرضنا الدعوة للزيغ عن وظيفتها الأساسية: ألا وهي إفشاء الرحمة الإحيائية الإيمانية الإحسانية في الناس.

إن الحركة الإسلامية تتلاشى ويَضمحل معناها إن صبغها الوسط السياسي الذي لا بد أن تخوضه بصبغته، وإن جرها «منطق الساحة» بحباله. المرجوُّ لها أن تكون قوة اقتحامية تحتل معاقل الحكم وتوطد أقدامها فيه مع تعزيز وظيفتها الإحيائية التغييرية التاريخية.

المرجوُّ لها أن يكون تماسكها التنظيمي وسلوكها الأخلاقي النموذجي وإشعاعها الروحي وخدمتها للأمة نقدا حيا عمليا للمجتمع الغثائي المتفكك الخامد الأناني. المرجوُّ لها أن تكسب ثقة الأمة وتحتفظ بها مهما كان إنجازُ الدولة أو قصورُها. ولا يصح شيء من ذلك إن كانت مجرد هيكل سياسي بين الهياكل.

من الدروب المهدِّدةِ للدعوة أن يسْرِق الخبراءُ من خارج الدعوة المفاتيحَ فيصبح الأمر دولة بلا دعوة. وذلك حين يكون إشراف الدعوة على الدولة رخوا، من بعيد. وهو تطرف إلى الجهة الأخرى.

إنهما حافتان مخيفتان كان الفاروق رضي الله عنه يستعيذ بالله من غائلتهما بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من جَلَدِ الفاجر وعجز التقيّ».

كان زياد بن سمية عاملا على البصرة للإمام علي عليه السلام، فلم يُذْكَرْ في عهد الخلافة بِشَرٍّ. وإنما كان الموظفَ الكُفْءَ تُسَيِّره يد أمينة قوية. فلما اغتيل الإمام واستمال النظام الأموي زيادا الداهية الكُفْءَ انخرط مع دولة الدهاء. وأعلن برنامجه في خطبته البتراء المشهورة، سُميت بتراء لأنه لم يبدأها بذكر الله. وطبق برنامجه بالفعل فسن للحجاج وأضرابه منهجا. قال مقسما: «لآخذن الوليَّ بالمولى، والـمُقيمَ بالظاعن، والـمُقبل بالمدبر، والمطيعَ بالعاصي... حتى تستقيمَ قناتكم».

أيُّ استقامة هذه التي تأخذ البريء بجريرة الظالم. وما الشعب المسلم حين يُسارع غَداً إلى أحضان الدعوة واثقـاً بها إلا ذلك البريء الذي يَنشُد العدل والنَّصَفَةَ. فمن لنَا بالأمناء الأقوياء، والأقوياء الأمناء! الله هو الولي.

الفصل الثالث

الطاعة والمعارضة

- «دين الانقياد»
- البيعة وطاعة أولي الأمر
- أنشوطة في الأعناق
- من هم أولو الأمر الواجبة طاعتهم؟
- واجب المعارضة
- «القطب الأعظم في الدين»
- المعارضة والتعددية

«دين الانقياد»

العبارة لابن خلدون مؤرخِنا الحكيم رحمه الله. يستعملها لوصف خضوع المحكومين تحت سلطان العصبية. ونفتتح بها هذا الفصل الذي نعمق فيه نظرتنا إلى الداء الدفين في النفوس، داء الأمم ومادية مرض الغثائية.

إن طاعة الحاكم والاستجابة لأمره والتعاوُن معه هي العلاقات الضرورية في المجتمع المنظم، تكون طاعةُ المحكوم للحاكم بقهر السلطان، أو باحترام القانون، وهذا شأن المجتمعات البشرية المنظمة. وتكتسب الطاعة الصبغةَ الدينيَّةَ في بعض المجتمعات وفاء لعَقْدٍ معقود أو لسُلالَةٍ تزعم أنها تحكم بالحق الإلهي. وهذا ما يُسَمَّى في تاريخ النصارى بالثيوقراطية.

ميزة الحكم الإسلامي الشرعي أن الطاعة واجبة لأولي الأمر منا بناء على بيعة تُلزِم الحاكم والمحكوم بأمر الله ورسوله، شرْطاها الشورى في الاختيار والحكم بما أنزل الله.

لإخوتنا الشيعة رأيُهم، بل عقيدتُهم، في أن الإمامة منصوص عليها في النبي للوصي، ومن وصي لوصي. فالطاعة للإمام عندهم طاعةٌ كُلِّيَّة، لاَ شورى تُلزمه، إذ هو عندهم معصوم. ولا اجتهاد مع اجتهادِه.

تلك الميزَةُ في الحكم الإسلامي الشرعي، أعني ميزة الشورى والبيعة والطاعة الواجبة لأولي الأمر، هي التي انفتقت ففسد الحكم منذ الانقضاض الأموي. وغاب عن أفق المسلمين مدى أربعةَ عشر قرنا من الطاعةِ القهريَّةِ الشرطان الواجبان في العقد السياسي حتى أصبحت الطاعة إلزاما قهريا محضا، عوامل القهر فيه القوة العُنْفيَّةُ التي يتدرع بها في كل زمان ومكان الملوك العاضون والجبريون، ثم العادة القرونية التي ألِف بمقتضاها الناس الخضوع للحاكم أبا

عن جد، ثم الوهْمُ أن في طاعة المسلمين للحاكم المتسلط وفاء لبيعة هي في ميزان الشرع تزوير محض.

الحالة التي يواجهها الإسلاميون في زحفهم إلى الحكم، بل في زحف الحكم إليهم، هي الركود العام، والرقود العميق، لدى القواعد الشعبية التي تدين بدين الانقياد. ومعرفة الإسلاميين بأسباب هذا الركود ومنشإه وتطوره تقرِّبُ الصاحين الطالبين للحق مسافة ما بين استسلام الجماهير لحاكم جديد وبين المشاركة الجماهيرية في قومة تنفض غبار القرون، وتشارك كما يشارك الأحياء، وتدعَمُ الحق وتبنيه بعد تقويض أساس الباطل.

كنا في المعارضة زمانا، وفي السرية والهامشية، وإنه لَمتَّكأٌ مُريحٌ، مهما كان الاضطهاد، أن تصرخ في وجه الباطل أو تسبه في ظهره. خروجنا الوشيك إن شاء الله من المعارضة إلى الحكم يدق ساعة الحقيقة، ويبرزنا إلى حومة فيها المعارضة الديموقراطية. من هذه الأحزاب التي شاركتنا أمسِ في المعارضة ما هو لاييكيٌّ وربما مُعادٍ للدين. فهل هذه المعارضةُ التي ستكون خصمنا أو عدوَّنا رجْس من عمل الشيطان، أم هي حليف لنا ضد «دين الانقياد»؟ هل الديموقراطية التي تنفي كما ننفي أن يكون للحاكم حق الطاعة بدون عقد يلزم الطرفين خطوة إيجابية نحو أهدافنا، أم هي باطل نحاربُه كما نحارب الظلم الموروث؟ هذه أسئلة جوهرية للسائرين في طريق الحكم الإسلاميين، نجيب عنها تِباعـًا بحول الله في متن الكتاب. نحتفظ هنا بهذه الحقيقة: وهي أن الوعي الديموقراطيَّ وقاعدته «حقوق الإنسان» كفر «بدين الانقياد»، ودين الانقياد هو داؤنا العميق.

إننا بحول الله مُقْدِمون على الدخول في سياق التحول من الحكم الاستبدادي إلى الحكم الشوري. وإن إحكامَ الخطى في مراحل التحول مقدمةٌ صحِّيَّةٌ للثبات على منهاج إعادة البناء. بحاجة لإعادة البناءِ نظامُنا السياسيُّ الموبوء الموروث، بحاجة إليها اقتصادُنا المخرُوب ومجتمعنا المنهوك. بحاجة إليها على الأخص النفسية الخانعة المنقادة، نفسية الجماهير السَّلْسَةِ القياد، العالَةِ على أبَوِيَّةٍ

سلطوية، التي قد تنتفض في «مظاهرات الجوع» لكنها قلما تنكر المنكر الجاثم على الصدور، منكر الحكم الفاسِدِ.

أيْن ذهبت القوة الإرادية الاقتحامية التي حملت جيلَ الصحابة رضي الله عنهم محامِلَ الجد والرجولةِ فخرقوا جدارَ العصبية القبلية وجدار العادات وجدار كل موروث مُثَبِّطٍ؟

إن تلك القوة الاقتحامية لَقَّحَهُمْ بها الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له. والإيمان يتجدد بشروطه. وأمامنا هذا الإرث الثقيل بثِقْلِ القرون وثقل الواقع الغالب وتثاقل النفوس: ألا وهو دين الانقياد.

يتناول حكيمنا ابن خلدون رحمه الله الحديث عن دين الانقياد ونشوئه في بداية النظام الحاكم، ثم في مراحل ضَعفه، ثم في مرحلة مزاحمة الدولة المستَجَدّة للنظام الهَرِم الذي تلاشت عصبيته وقوته العسكرية حتى لم تبق له دعامة تمسكه إلا الوهم القائم في نفوس المحكومين وهو «دين الانقياد».

ما أدق وأعمق ما يقول مفكرنا الكبير! إذ يصف انتقال هيبة الدولة من أسباب الخوف والرهبة إلى أسباب العادة المغروزة والوهم النفسي. قال رحمه الله: «إن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلَب للغَرابة، وإن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخَر في أعقابٍ كثيرين ودُول متعاقبةٍ نسيت النفوس شأن الأوّليّة، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغةُ الرياسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم قتالهم على العقائد الإيمانية، فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة».

قال رحمه الله: «بل كأن طاعتَها كتابُ الله لا يُبدّل ولا يُعلم خلافُه».

ويقول رحمه الله عن الدولة في شيخوختها بعد أن تبددت قوة عصبيتها فلم يبق لها من سند إلا الطاعة العمياء: «وربما طال أمَدُها بعد ذلك فتستغني عن العصبية

بماحصل لها من الصبغة في نُفوس أهل إيالَتِها، وهي صبغةُ الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقِل أحد من الأجيال مبدأها ولا أوّليتها. فلا يعقِلون إلا التسليم لصاحب الدولة».

بماذا ندخل على الساحة من جديد إن تركنا «الصبغة» الانقيادية المرضية ولم نعالجها بالتصحيح الشرعي؟ إن المسلمين اعتادوا الطاعة للحاكم، وقيلَ لهم كما قيل لآبائهم وأجدادهم منذ قرون: إن طاعة أولي الأمر من طاعة الله ورسوله. وانطبعت في نفوس الأجيال خُطَبُ الجمعة التي ترفع «أمير المؤمنين» و«ظل الله في الأرض» إلى مراقي العصمة، ورسخت في أذهانهم ومخيلاتهم تهاويل الحفلات «الدينية» المصنوعة لتزيين صورة الحاكم وتقديسه.

لن نكون إلا معارضةً من المعارضات تنتقد الحكم وتطعن في كفاءته إن لم نتعرض لأصول الحكم الجائر باعتباره خرقا في الدين وانتحالا تزويريا لقداسة الدين قبل كل شيء. ويأتي اعتراضنا على الظلم جزءا من معارضتنا الكلية.

أهم العوائق في كسب المعركة ضد الأنظمة القائمة المستقرة العائق النفسي المتمثل في الوَلاء الراسخ تعطيه الجماهير لنظام مألوف تفضله على حَدَثٍ مُسْتَجَدٍّ، أو الوَلاء المتذبذب الشاك المتحول بسرعة مع رياح الدعاية الرسمية.

قال عالمنا ابن خلدون رحمه الله: «والدولة المستقرة قد صيرت العوائدُ المألوفةُ طاعتَها ضروريّةً واجبة [...]، فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجَدّة. وتُكَسِّرُ من همم أتباعه وأهلِ شوكته. وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة في طاعته ومؤازرته إلا أن الآَخرين أكثر. وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة.

قال: «فيحصل بعض الفتور منهم. ولا يكاد صاحب الدولة المستجَدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة».

قلت: لا يكاد يقاومه مُناجَزَةً عاجلة لأن إزالة العائق النفسي من ساحة المعركة تطلب وقتا طويلا. ولا يستطيع الحق الناهض، أو القوة السياسية الجديدة في تحليل ابن خلدون، أن يستأصل القديم المألوف إلا بمعالجة طويلة.

قال: «فيرجع [صاحب الدولة المستجَدة] إلى الصبر والمطاولة حتى يتضِحَ هرمُ الدولة المستقرة، فتضمحل عقائدُ التسليم لها من قومه، وتنبعث منهم الهِمم لصدق المطالبة معه، فيقع الظفَر والاستيلاء».

قلت: إن الجماهير المسلمة، كغيرها من الجماهير، تثور في نفسها النقمة على الظلم، لكن الظلم إذا تقنع بالدين وتسربل بسرباله قد يُقنع الناس لآجال وأجيال أن الحاكم أبٌ حنون واجب الطاعة وأن الحاشية وحدها هي أم الخطايا المسؤولة.

البيعة وطاعة أولي الأمر

تُقْتَضَى الطاعةُ للدولة المستبدة بالقسر، وفي سلك القهر والإكراه والقمع ينتظم أمرُها. وفي دولة القانون الديموقراطية يكون للقانون سلطان يفرضه، وقضاء ينطق به، وحُرمة في النفوس يتكِئ عليها، ومصالح يرعاها كل واحد متدرعا بالقانون، وشعور بالانتماء يُقَوِّي باعِثَ الاعتزاز بالدولة وقانونها. وبوجود الطاعة للقانون أو الخضوع الاضطراري له يستقيم حال المجتمع وتستقر الدولة وتحفظ الحقوق.

في دولة القانون الديمقراطية يَحْتَرِمُ الحاكم والمحكوم، طوْعا بباعث الوطنية والمدنية أو إلزاما بقوة القانون، «عقدا اجتماعيا» كما يقول روسو الفرنسي. وهو عقد وهمي ضِمني.

وفي دولة الإسلام الشرعية تَكون الطاعة التزاما من جانب المحكوم في مقابل التزام الحاكم باتباع الشرع بموجب عقد حقيقي صريح يتم الاتفاق عليه في بيعة لها قواعدها الشرعية وموجباتها ومُبْطلاتُها.

يعرف العلامة ابن خلدون البيعة الشرعية فيقول: «اعلم أن البَيعة هي العهدُ على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يُسَلِّم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به على الأمر في الـمَنْشَط وَالـمَكْرَه. وكانوا إذا بايعوا الأميرَ وعقدوا عهده جعلوا أيديَهم في يده تأكيدا للعهد. فأشبه ذلك فِعلَ البائع والمشتري».

والبَيعة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت بيعتين: بيعة إسلام وبيعة جهاد. فأما بيعة الإسلام فيدخل بها المرء والمرأة في دين الله، ويكون النكوص عن شرط التوحيد رِدّةً، كما يكون الإخلال بشرط من شروطها الأُخرى معصية. وأما بيعة الجهاد فهي أخص، وهي عهد يعطيه الرجال المؤمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إليه، وأن يجاهدوا معه، وأن ينصروه.

تلك بيعة تخرج الرجل والمرأة من الكفر إلى الإسلام، وهذه تميز المؤمنين المستجيبين لدعوة الله ورسوله الجهادية عن بقية المسلمين.

وتُسَمَّى بيعة الإسلام بيعة النساء لقول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1].

تُسَمَّى بيعةَ النساء حتى لو تعهد بها الرجال. قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: «باب بيعة النساء»، وذكر فيه حديث عُبادةَ بنِ الصامِت رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم -ونحن في مجلس-: «**تُبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وَفّى منكم فأجرُه على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له. ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله. إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**». فبايعناه على ذلك.

هذه البيعةُ خاصة بزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبيعة الجهاد والطاعة التي يتعاطاها الحاكم والمحكوم في الحكم الإسلامي ليست مجرَّدَ عقد سياسي مدني، بل هي عهد بين ذممٍ مؤمنة تندرج فيها شروط بيعة النساء باعتبارها الشروط الأساسية، وتضاف إليها الشروط التنظيمية الأخرى، من ضمنها قول الحق في كل الظروف، أي معارضة المنكر. ففي مقابل واجب الطاعة الذي تحمَّله المبايع واجب آخر يوازنه هو واجب قول الحق.

روى الشيخان وغيرهما عن عُبادةَ رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العُسر واليُسر، والمنشَطِ والـمَكْرَه، وعلى أَثَرَة علينا، وعلى ألاّ ننازع الأمرَ أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لَوْمَةَ لائم».

---

(1) سورة الممتحنة، الآية 12.

هذا الصحابي الأنصاري رضي الله عنه بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين، مرة بيعة النساء، ومرة بيعة الطاعة والجهاد. وذلك أن الأنصار من الخزرج وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في العقَبَةِ الأولى فبايعوه على الإسلام، ثم جاءوه في العام القابل، فتعاهد معهم على أن يهاجر إليهم فينصروه، وكانت بيعة العقبة الثانية بيعة جهاد. نقف عندها لنعلَم أن البيعة ليست شكلية من الشكليات، وإنما هي أمر يُبرَم في غاية الجدية والصرامة.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يبلغ رسالة ربه عز وجل وهو بمكة تحوطه عناية الله المتمثلة في حماية عمومته من قريش. لما جاءه الخزرج والأوس إلى العقبة صحبه عمه العباس، وكان يومئذ لا يزال على دين قومه لما يسلم. وأراد العباس أن يتوَثق لابن أخيه، فقال للوافدين: «إن محمدا مِنَّا حيث قد علمتم. وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه. فهو في عز من قومه، ومَنَعَةٍ في بلده. وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم، واللحوقَ بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموهُ وخاذِلوه بعد الخروج به إليكم فمِن الآنَ فدعوه!»

قال ابن إسحاق رحمه الله: فتكلم رسول الله صلى لله عليه وسلم فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام. ثم قال: «**أبايِعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**». وقال أبو الهيثم بنُ التَّيهان: يا رسولَ الله! إن بيننا وبين الرجال يعني يهود يثرب حبالا وإنَّا قاطعوها. فهل عسيتَ إن نحنُ فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجِع إلى قومك وتدَعَنا؟

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «**بل الدَّمَ الدَّمَ! والهدمَ الهَدْمَ! أنا منكم وأنتم مني: أحارب من حاربتم، وأسالـمُ من سالمتم**».

وقال العباس بنُ عبادة بنِ نضلة وهو من الأنصار: هل تدرون عَلامَ تبايِعون هذا الرجل؟قالوا: نعم! قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترَون أنكم إذا نُهِكتْ أموالُكم مُصيبَةً، وأشرافُكم قتلاً أسلمتموه

فمن الآن! فهو والله إن فعلتم خِزيُ الدنيا والآخرة! وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه. فهو والله خير الدنيا والآخرة!

قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا؟ قال: الجنة. قالوا: ابسُط يدك! فبسط يده فبايعوه.

إنها إذاً صفقة يتعهد بمقتضاها المجاهد أن يبذُل مالَه ودمَه في سبيل الله تعرضا لرضى الله، واستجلابا لخير الدنيا والآخرة. خير الدنيا والآخرة. ليس شيء من قضايا المؤمنين حركةً سياسية دنيوية مقطوعة عن الحياة الحقيقية في الدار الآخرة، ولاَ شيء من سعي المؤمنين المجاهدين يُلفت المؤمنين المجاهدين عن مطمح سعادة الأبد إلى زينة الدنيا وتنافساتها.

البيعة الشرعية قُربة عالية بين أطرافٍ طُمُوحُ كل منهم متعلق بالله وباليوم الآخر. فلما استولى أبناء الدنيا، ملوك العض، على الحكم أصبحت البيعة مصادرة قسرية لذمة المسلمين، يُكْرَهون عليها إكراها، ويقيّدون إليها بقيود باطلةٍ شرعا، لكنها قيود لها فاعلية عملية لأن المقيَّد لا يفقه في دينه، أوْ لأن اجتهادَ الفقيه، وله اعتباراته، ساقه إلى «دين الانقياد».

بدأ معاوية بن أبي سفيان بالإكراه على بيعة ابنه يزيد، فكان السيف الـمُصلَت هو ضامِنَ الوفاء. في عهد العباسيين التمس الحاكمون ضامنا آخر، فاستحلفوا الناس على الوَفاء لبيعة الصبيان في الخِرق، واستوعبوا الأيمان كلها فيما سمَّوْه «أيمانَ البيعة»، يحلف الرجل بالطلاق والعِتق وما إلى ذلك.

قال ابن خلدون رحمه الله: «لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الوُلاَة عليه ورأوها قادحة في أيمان البيعة، ووقع ما وقع من مِحنة الإمام رضي الله عنه».

ثم تدهور الحكم على رقاب المسلمين، واستحكم السيف متمكنا بقوته وبفتوى شرعية الاستيلاء ووجوب طاعة «من غلب عليهم بالسيف»، فاستحالت

البيعة إلى نوع من الحفلات التهريجية يُقدم فيها القربان الرمزي للحاكم الذي أصبح يستعبد الناس لشخصه من دون الله.

يقول مؤرخنا رحمه الله: «وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكِسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل [...]. واستُغْنِيَ بها عن مصافحة أيدي الناس [...] لما في المصافحة لكل أحد من التنزّل والابتذال المنافِيَيْن للرياسة وصون المنصب الملكي».

قال رحمه الله مخاطبا من يقرأ ما بين السطور ومن يقاسم لوعة علمائنا على ضياع حقائق الدين: «فافهم معنى البيعة في العُرف (يعني بيعة تقبيل الأرض أمام الأكاسرة المستكبرين)، فإنه أكيد على الإنسان معرفتُه، لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه. ولا تكون أفعالُه عبثا مَجّانـًا».

قال: «واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك. والله القوي العزيز».

قلت: الله القوي العزيز، به سبحانه الاستعانة على اقتحام العقبة من وهدة الإكراه والتزوير إلى بيعة الخلافة الثانية. لا إله إلا هو.

أُنشوطةٌ في الأعناق

يكون الماضي، واجتهاد الماضين (في شؤون الحكم خاصة)، وتزوير الماضي، أُنشوطَةً في أعناقنا، ووهنا في نفوسنا، وخَوَراً في عزائمنا، وبلبلة في فهمنا إن نحن استقينا العلم من مخاضات تاريخ المسلمين في مراحل تدهوره. إن نحن لم نرتفع إلى المرحلة التأسيسية لنواكب البناء النبوي الراشدي وننفُذَ إلى الاستبصار الضروري لنبْنِيَ على المنوال الأول.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر قبل نزولها عن أحداث نقْض عُرا الإسلام. وهو نبي الله يأتيه الوحي بما شاء الله من مكنونات الغيب. فهو عليه الصلاة والسلام أخبر بكَلِمِه الجامع بما يقع، وعدَّل وشهِدَ حين أخبر أنها ستكون بعده خلافة نبوة ثلاثين سنة. وجرَّح وقبَّح حين أخبر أنها بعد الخلافة تتحول ملكا عاضا وجبريا. وما العض والجبر إلا إكراه الناس على طاعة الحاكم ببيعة مزورة، أو بتقبيل الأرض على الأسلوب الكسروي. «فاعتبر ذلك في نفسك».

خارجَ استحضار أنه صلى الله عليه وسلم نبي يخبر عن الغيب لا يَتَبَيَّنُ لنا وجه الحق في الأحاديث الكثيرة التي تحث على الطاعة للأمير ولو فعل وفعل ولا يتبين لنا وجه الحق فيمن هم أولو الأمر الذين أُمِرْنا بطاعتهم. إن غاب عنا خبر الغيب، وإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم به قبل وقوعه، نوشك أن نتناول الوحي المقدس وكأنه نص بشري محصور في أبعاده البشرية. فلا فِقهٌ يُرجى ولا هدى ولا كتاب منير.

اتفق الشيخان على رواية حديث هذا نصه عند البخاري عن حذيفة رضي الله عنه قال: لقد خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما ترك فيها شيئا إلى قيام الساعة إلا ذكره، عَلِمه مَنْ عَلِمَهُ وجهله من جهِله. إنْ كنتُ لأرى الشيء قد نسِيته

فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجل إذا غَاب عنه فرآه فذكره». أخرجه رحمه الله في كتاب القدر، باب ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾.

والأحاديث كثيرة رواها صحابة مختلفون فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إخبارات عن أحداث مستقبلية بعينها أو عن أحداث الفِتن يسردُها لهم سردا. أهمها فتنة الدجال ونزول عيسى عليه السلام.

في إطار إيماننا بالغيب الذي أخبر به من لا ينطق عن الهوى نتلقى أحاديث الأمر بالطاعة للحكام لنفهمها كما فهمها الصحابة، وكلهم ثقة، بأن ما يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم توجيه معين في حالات مُعينة لا نص حرفي مجرد عن الأحداث.

فمن الصحابة من أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكسر سيفه ويلزَم بيته إن حدثت فتنة، ومنهم من أمره أن يسمع ويطيعَ مهما فعلوا به. لذلك نجد منهم رضي الله عنهم طائفة اعتزلوا الحرب بين إمام الحق علي كرم الله وجهه وبين الفئة الباغية التي قادها معاوية بن أبي سفيان، لم يعرفوا أنها حقا الفئة الباغية حتى قَتَلت عمارا الذي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تقتله الفئة الباغية.

من الذين اعتزلوا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. فلما رأى مقتل الشهيد عمار تأسف على أنه لم يقاتل في صفه. عبد الله بن عمر بايع يزيداً بالإكراه كما قرأنا في رواية الطبري وبايع مروان وبنيه. وعلى موقفه في طاعة «من غلبهم بالسيف» اعتمد الإمام أحمد رحمه الله. وقد روى أبو يعلى أن الإمام كان يستشهد بقول ابن عمر: «نحن مع من غلب». وهي كلمة قالها أثناء غزو مسلم بن عقبة (ويسميه السلف الصالح مسرف بن عقبة) المدينة واستباحته إياها ثلاثا وهتكه فيها وسفكه. كان ابن عمر يصلي تارة مع هؤلاء وتارة مع هؤلاء فلما سألوه قال: نحن مع من غلب.

وما هذا الموقف المخالف من النقيض للنقيض مع موقف الإمام حسين بن علي الذي خرج على يزيد كما خرج عليه قراء المدينة من الصحابة والتابعين إلا اجتهاد في تطبيق أوامر النبي صلى الله عليه وسلم. كلٌّ فهمها حسب ما عنده من توصية شخصية أو تأويل رَعَى فيه مصلحة الأمة. مثال ناصع آخر يفسر المواقف المتناقضة ما بين خارج غاضب ومذعن للقدر وللوصية النبوية هو موقف الإمام حسن بن علي رضي الله عنهما. كان مع الحسن وصية خاصة إذ قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين**». وكذلك كان، حيث اصطلح مع معاوية من حيث تأبَّى حسين وامتنع.

في عموم الأحاديث الكثيرة التي أمرت بطاعة الأمير ولو جار توجيه إلى الكفِّ عن سفك الدماء وحمل السلاح بين المسلمين. وعلى هذا العموم اعتمد من اعتمد من المجتهدين لتغليب جانب الطاعة، مع الميل إلى التساهل في جانب حملة السيف حتى حكَم فأُطِيعَ ماجِنونَ مُلحدون مثل الوليد بن يزيد، وحتى احتل في حياة المسلمين اللاحقين «دين الانقياد» مكان دين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويحتج اللاحق بأنَّ عبد الله بن عمر وأنس بن مالك كانا يصليان خلف الحجاج.

الوليد الخليع الفاجر الملحد أخرج للناس جارية سَكرى صلت بهم الصبح أربعا. وهو الذي فتح المصحف يوما فقرأ فيه: «وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ»[1] فأنشد بعد أن مزق المصحف:

تهددني بجبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

أين تقف حدود الطاعة، ومتى تجب، ومتى تحرم؟ تلك ظروف اجتهد فيها كلٌّ حسب حيثياته وفهمه وإمكاناته. ولا بد لنا من الاستقلال في فهم الأوامر

(1) سورة إبراهيم، الآية 15.

النبوية في عصر انزلق فيه الحكام من تُخوم الفسق إلى مجاري الكفر، فهم دعاة على أبواب جهنم يهددون بنسف الدين من أساسه.

والنصوص إن فهمناها في إطارها الغيبي وتعليلاتها المطلقة معنا ليست ضدنا. أخرج الإمام أحمد وابن ماجة والطبراني بإسناد جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**سيلي أموركم بعدي رجال يطفئون السنة ويعملون بالبدعة ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها**». قال الصحابي: فقلت: يا رسول الله! إن أدركتُهم كيف أفعل؟ قال: «**تسألني يا ابنَ أم عَبد كيف تفعل! لا طاعة لمن عصى الله!**»

وفي خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه بـ«**يا ابن أم فلان**» زجر على عادة العرب في التخاطب.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بطاعة من نبايعه صادقين مختارين لا من أكرَهنا على البيعة واستحلفنا بأيمان بدعية. عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه ما استطاع**». الحديث رواه مسلم وأبو داود. «**أعطاه ثمرة قلبه**» يعني الاختيار الصادق.

أحاديث أخرى من التي تأمر بالطاعة إنما جاءت موصية بمحاربة العصبية العرقية التي كانت، ولا تزال، آفة عربية. ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله**». رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه. فمن أطاع ناقصا في الدين أو عصى أميراً لعصبية أو استنكاف من النقص المزعوم عند العبد الحبشي فشرط «**ما أقام فيكم كتاب الله**» يكذبه ويلعنه.

والأحاديث الموصية بحفظ وحدة المسلمين والدخول في الطاعة نفهمها، في إطارها الغيبي وفي ظروفنا وإمكاننا، فهما آخر غير فهم من يبرر بها الأمر الواقع. هذا حديث يشير بوضوح تام إلى أن الحق ليس مع العصبية بل ضدها. وكل

حكم يعتمد على السيف فهو عصبية. وكل طاعة لغير أهل الشورى فهي انضواء تحت راية عِمِّيَّةٍ. روى الإمام مسلم والنسائي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات مِيتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّةٍ، يغضَب لعَصَبَةٍ، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقُتِل فقِتلةٌ جاهلية. ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي بعهد ذي عهدها، فليس مني ولست منه**».

إن الفهم الحرفي والفهم التبريري سِيانِ في قلب الحقائق. وما هي إلا الإرادة تكون صادقة في نصر شرع الله فتبصر التوجيه الإلهي النبوي بَصرا صحيحا، أو تعجز فتتلهى عن الوِجهة الصحيحة وتصطنع فهما تحُدُّه النفس الواهنة الغثائية، وتحُدُّهُ الفتنة الغالبة.

الحدود المقبولة شرعا لفجور الحاكم، جاءت الوصية النبوية بطاعته إن لم يتعهدها، هي الحدود الفاصلة بين هضمه لحق فردي لهذا أو ذاك من المسلمين، وبين هتكه للدين.

سأل سلَمةُ بن يزيد الجُعفيُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا نبي الله! أرَأيتَ إن قام علينا أمراءُ يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو الثالثة فقال: «**اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ماحُمِّلْتُمْ**». رواه مسلم والترمذي عن وائل بن حجر رضي الله عنه.

لعل في إعراض النبي صلى الله عليه وسلم عن السائل استنكارا أن ينزل المسلمون إلى التنازع الخسيس على الحقوق، لأن الأصلَ أنه لا يُؤَمَّر على المسلمين إلا العدل المنصف. ثم كان الجواب حاسما لتغليب الاستقرار على الفوضى كيلا يكون النزاع الشخصي على حق ضاع مدعاة لخرم الجماعة.

وفي الزجر عن تعليق الإمارة وطاعتها على المصالح الفرديّة جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب**

أليم: رجلٌ بايَع إماما، فإن أعطاه وفّى له، وإن لم يُطعه لم يَفِ له». الحديث رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه أخلاقية عالية تكون البيعة فيها «ثمرة القلب» وتكون الطاعة مساهمة إيجابية في دعم الشرعية مع التجرد التام عن المصلحية الوصولية. ما أحوجنا لهذه الأخلاقية في زمن شراء الأصوات وترويج الوعود الانتخابية. والله ولي المؤمنين

من هم أولو الأمر الواجبة طاعتهم؟

لن يكون سيرنا المستقبلي سليما إن لم نتعلم من دروس ماضينا. لا، ولن نكون إلا خابطين في ظلماء أحداث تتقاذفنا أوجُهاً إن لم نستهد بالإخبار النبوي الغيبي الذي بشر بالخلافة الثانية بعد مراحل العض والجبر.

ولكي تكون خلافة على منهاج النبوة علينا نحن أن نتبين في كتاب الله وحديث رسوله من هم أولو الأمر الذين إن أعطيناهم صفقة يدنا وثمرة قلبنا لن يستحيلوا جبارين عاضين. علينا أن نأطرُهم على الحق أطرا بعد اختبارهم وأن نحملهم على شرط «إن استقمت فأعينوني وإن أسأت فقوموني». وعلينا قبل الاختيار أن نتوخى من هم من أهل الأمانة والقوة والدين بحيثُ لا نُضطر يوما إلى نقض ما أبرمناه بالأمس. ففي النقض المتكرر مس بالهدف الإسلامي في الاستقرار، كما أن طلب الاستقرار بأي ثمن كان الذريعة التي منها دخل «دين الانقياد» على الأمة.

من شباب الصحوة الإسلامية من نفضوا يدهم نفضا نهائيا من الولاء للحكام المتأمرين على المسلمين. وهذه إيجابية كبيرة، فهم نقضوا الباطل من أساسه. لكنهم كثيرا ما يبنون على غير أساس حين يؤمرون على مجموعة محلية أو قطرية أميرا يعطونه البيعة والطاعة، ويعدون مجموعتهم جماعة المسلمين من فارقها مات ميتة جاهلية، ويكفرون المجتمع كله أو جله، وينغلقون في حرفية النصوص، وفي دوائر تنظيمية لا تلبث أن تعشش فيها أنواع الهوام السلوكية مثل العنف المبدئي والإعجاب بالرأي والرؤية من زاوية متشائمة للعالم والمستقبل.

في أفق الخلافة الثانية الموعودة ينبغي أن يكون بناؤنا في امتداد النبوة والخلافة الأولى لا في خط الملك العاض الذي نسميه «خلافة» أموية وعباسية وعثمانية افتياتا على رسول الله صلى الله علي وسلم الذي سماها غير ذلك. نبني إن شاء الله في أفق وحدة الأمة على البيعة والطاعة لأولي الأمر منا، لا في حدود التجزئة

التي فرضها علينا تاريخ الفتنة والانحطاط والاستعمار فزدناها نحن فداحة وتشتتا بالتقوقع في بيعات الحي والقرية والمدينة والقطر، لا نرى من ورائها من ميدان.

إن كل تعاهد بين المؤمنين على نصر دين الله ما دون البيعة الخلافية إنما يُلْبَسُ ثوبي زور إن أطلقنا عليه اسم «بيعة». ولا بد من تعاهد وتوثقٍ مجزَّءٍ في مراحل البناء. فلا نُغْمِضْ على أنفسنا بالتسميات تطلق على غير مدلولها الشرعي. لأننا بذلك نحبس أنفسنا ومستقبلنا في يد أشخاص لم نوَلِّهِم إلا أمْرَنا نحن المنغلقين في خصوصياتنا، ونتوهم أنهم هم أولو الأمر، قد برئت ذمتُنا، وقامت في وهمنا الضعيف المشتت قائمة الإسلام.

في قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] مشروعية أولي الأمر، والصفات اللازمة فيهم، والمرجعية المصدرية لأعمالهم. فلا بد أن يكونوا «منا» وإلينا لا فَوْقَنَا وعلينا. ولا بد أن يكونوا من أولي «الأمر» كما يفسر القرآن الكريم «الأمر» : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[2]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْر﴾[3]. ولا بد أن يكون ما يطلبون فيه طاعتنا طاعة لله ورسوله إذ لا طاعة لمخلوق أبدا في معصية الخالق.

القرآن الكريم يشرح بعضه بعضا، فيحصُر «الأمر» فيمن اكتمل فيه أهلية العلم بما يأمر الله ورسوله، وأهلية الانبثاق عن الاختيار والشورى بين المؤمنين. ومع ذلك نشأ خلاف واسع في معرفة من هم «أولو الأمر». طائفة من العلماء منهم أبو هريرة رضي الله عنه قالوا: هم الأمراء. وطائفة إمامهم جابر بن عبد الله رضي الله عنه قالوا: هم العلماء. انشطار يعكس انفصال السلطان عن القرآن. الوضع الصحيح هو قول عكرمة: المقصود هم أبو بكر وعمر. نفهمه على أنه تمثيل لا تخصيص. فمن جمع العلم والحيازة لرضى المؤمنين وشوراهم كما جمعهما الشيخان كان هو ولي الأمر الواجب الطاعة.

(1) سورة النساء، الآية 58.
(2) سورة الشورى، الآية 35.
(3) سورة آل عمران، الآية 159.

ورجح الإمام الشافعي رضي الله عنه القول بأن أولي الأمر هم الأمراء، واحتج لقوله بأن قريشا كانوا لا يعرفون الإمارة ولا ينقادون لأمير، فأُمروا أمرا مؤكدا بطاعة الأمير، إخراجا لهم عن أنانيتهم الجاهلية.

في نص القرآن الكريم أن الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإمارة هو أن يتلُوَ على الجاهليين الجاهلين آيات الله، وأن يزكيَهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فتلك جاهلية سِمَتُها الجهل والأنانية دخل عليها الإسلام ليعلمها فتخرج من الضلال إلى الهدى، وليأمُرَها فتنتظم على الهُدَى لا تبقى فوضى.

ولمستقبل الخلافة الثانية مجتمعات فتنوية العلمُ فيها شتات والطاعة الرسوبية الانقيادية فيها داء مُزمن. يتجدد الإيمان فيها لتتعلم علما جامعا، ولتسمع كلام الله وسنة رسوله فلا تطيع إلا «أولي الأمر» الذين تتوفر فيهم المواصفات القرآنية.

وأولو الأمر الناهضون ببناء الخلافة الثانية لا بد أن يقوموا إليها كما قام إلى الأولى أمثال أبي بكر وعمر، وأن يكونوا من أبناء الآخرة كما كانوا لا من أبناء الدنيا. لا بد أن يكونوا من معرفة العالم وما جد فيه، ومن معرفة الأهداف الإسلامية وكيف تحقق في هذا الزمان والمكان بالمكانة العالية. شرط إماري لازم. وشرط آكَدُ هو أن تكون دنيا من يتصدى للحكم منتظمة انتظاما إيمانيا، وإلا فكيف يُنظم أمْرَ الناس مَنْ أموره هو فُرُطٌ!

وقد وصَفَ سلفنا الصالح هذا «الانتظام الإيماني» في مثل قول معاذ بن جبل رضي الله عنه: «يا ابن آدم! أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج. فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر بنصيبك من الدنيا فانتظمها انتظاما. وإن بدأت بنصيبك من الدنيا فاتك نصيبك من الآخرة وأنت من الدنيا على خطر».

أبناء الدنيا لا يصلحون لنظم أمر المسلمين في غد الخلافة الثانية وإلا لكانت ملكا وعضا. تحت الملك العاض والجبري انزوى من سماهم الإمام الغزالي

رحمه الله «علماء الآخرة» من زهاد وعباد وصوفية. وتركوا الساحة لفقهاء الفتوى يعانون الأمرّين. ولغد الخلافة الثانية نحتاج لعباد الله الخاشعين لله الأمناء على دين الله الأقوياء على البناء. نحتاج لمن يسعى ليُبقيَ على آخرته لا لمن يكدح ليبْقَى في السلطة. نحتاج لمن يأخذ من الدنيا بلاغا لآخرته، قد خرق طموحه الدنيا وزينتها فهو مع قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾[1].

«الأمر» في الإسلام غدا لا يُعطى للحريص على الرئاسة، ولا يُسمح لصاحب الأمر أن يتفلت من مسؤولية الدنيا، تمنعه من التفلُّت المراقبة العامة التي تعين من استقام وتقوم من أساء. وما يضمن ذلك إلا اختيار الربانيين العلماء الخبراء الجامعين لصفتي القوة والأمانة، خوفهم من الله عز وجل ومن مسؤولية يوم الحساب يمنَعهم من الزيغ حيث لا تراقبهم عين الحسيب المقوم بالمعارضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وليس لذلك إلا من تشبه بأبي بكر الذي قال له الصحابة: نفرض لك بُرْدين إن أخلقتهما وضعتهما وأخذت مثلهما. وظهرك [أي دابتك] إذا سافرت، ونفقتك على أهلك كما كنت تنفق قبل أن تُستخلَف. فقال: رضيت.

ليس لذلك إلا من تشبه بعمر بن الخطاب الذي رأى أهل العراق يرققون الطعام فقال: لو شئتُ أن يُدَهْمَقَ [يُلَيَّن ويُجوَّد] لي كما يُدهمق لكم! ولكنا نستبقي من دنيانا ما نجده في آخرتنا. أما سمعتم الله عز وجل قال لقوم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[2]؟

ليس لذلك إلا من تشبه بعثمان بن عفان الذي يبيت لربه ساجدا قائما، وبعلي الإمام الذي كان يتململ في محرابه ويمسك لحيته ويخاطب الفانية قائلا: يا دنيا غُرّي غيري!

(1) سورة القصص، الآية 83.
(2) سورة الأحقاف، الآية 19.

«علماء الآخرة» الفارون بدينهم من الدنيا لا يصلحون للأمر، كما لا يصلُح إلا للإمارة الفرعية الخبيرُ المستورُ الذي لا تُعرف له تقوى. الجَلَدُ والتقوى، الخبرَة العملية والتطلع الإيماني الإحساني. ذلك جمع تعوَّذ الفاروق عمر من تفرقه إذ قال: «أعوذ بالله من جلَد الفاجر وعجز التقي».

العالم العامل. ومن العلماء من تضعُف به قدراتُه العملية، أو ضيق طبعه، أو قُصور أفقه، أو عجزه عن التعامل المثمر مع الناس.

وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وصية لنا إذ قال للصحابي الفاضل أبي ذر عندما طلب إليه إمارة: «**يا أبا ذر! إنها أمانة! وإنها يوم القيامة خزي وندامة! إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**». رواه مسلم وأبو داود عن أبي ذر رضي الله عنه. وقال له: **يا أبا ذر! إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي. لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين! ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم**».

ذلك أدنى أن لا نُحَابِيَ في الحق، وأن نختار من أهل السابقة في الجهاد وأهل الحظ من الله أقدرَهم على تحمل المسؤولية. ذلك معنى «**إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**». والله ولي المؤمنين، لا حول ولا قوة إلا به العليم الحكيم.

واجب المعارضة

لا يحق في دولة القرآن للقاعد المرتاح في اللامسؤولية أن يحاسب أولي الأمر المحمَّلين بالأثقال. شرط «إن استقمت فأعينوني وإن أسأت فقوموني» يلزم الطرفين، لا يلزم طرفا واحدا بينما يجلس الطرف الآخر لإحصاء الأنفاس. من لا يعين أولي الأمر على الاستقامة ليس له ولا عليه أن يُقَوِّمُ. وكيف يقوم غيره من هو على عِوَج؟

إنما تصبح المعارضة واجبا في جو من المسؤولية العامة الشاملة، جو التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر.

وهي معارضة لا تَحُطُّ رحالَها في البسيط السياسي المنفعيِّ الدنيوي الذي يأخذ الحاكم بمعايير الجدوَى وتحقيق المصلحة لا تتجاوز ذلك. هذه المعارضة والمحاسبة على الجدوَى والإنجاز وجه واحد من وجهي المعارضة. وهي واجبة في شروط المسؤولية العامة الشاملة وفي جو التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر. لكن أخذ الكافة للكافة، ومحاسبة الحاكم والمحكوم بالمعيار الأخلاقي الإيماني الشرعي هو المطلوب.

أخذ ومحاسبة يَنْظمان «نصيب الدنيا» بمنظور «نصيب الآخرة». ولا سبيل إلى ذلك ما لم يكن الآخذ والمأخوذ من المؤمنين بالله واليوم الآخر، بينهم عهد الله، وذمة الله، وشرع الله، والبيعة والوفاء، والطاعة في المعروف، والإعانة على الحق. ليسَ مجرد «عقد اجتماعي» مدني سياسي.

المسؤولية العامة الشاملة لكل مرافق الحياة، الملزمة للمسلم والمسلمة كلٍّ في ميدانه، يُفصلها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كلكم راع ومسؤول عن رعيته. فالإمام راع ومسؤول عن رعيته. والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته. والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها. والخادم في**

بيت سيده راع وهو مسؤول عن رعيته». قال الراوي: فسمع هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم، وأحسب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته. فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**». أخرجه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

هنالك الذهنية الرّعوية الغثائية الموروثة، ذهنية القطيع الذي ينتظر ببلادة وكسل ما يُفعَلُ به. وهنالك المعارضة السياسية اللامسؤولة التي تستبيح لنفسها تزوير الحقائق وتضخيم الأخطاء دون أن تتحمل هي من الأعباء نصيبا، ودون أن تنصف أو تخاف الله.

طرفان ذميمان ووجهان مشوَّهان. وسيلقى الإسلاميون في طريقهم إلى الحكم ثم بعد استيلائهم عليه تحالفا بين الوجهين الذميمين. ففي مراحل تنظيم الحركة الإسلامية وزحفها يلتقي قمع الحكام الظلمة بسكون الجماهير المنقادة، بل بإنكارها لأهل الحق وإذعانها للدعاية المقاتلة «للمتشددين». وبعد استيلاء الإسلاميين على الحكم لن يَعْدَموا من الغوغائيين الديماغوجيين، من الطبقة المسيسة المحترفة، مَنْ يناصبهم العِداء وينصب الأفخاخ ويُحمِّلُ الحكم الإسلاميّ الناشئ تبعات ما اقترفته أيدي الظالمين من قبل.

وقد استعملت كلمة «الديماغوجيين» قصدا لأسمي داء عصريا باسم عصري لا يناسبه غيره.

إن المدافعين الثوريين عن حقوق الشعب إنما يريدون من الشعب «انقيادا» آخر يصفق لهم ويرفع شعاراتهم ليستغلوا «المخزون النفسي» الديني لدى الجماهير الإسلامية كما تُسْتَغَلُّ الدفائن النفيسة. ونحن نريد من هذه الجماهير أن تستيقظ لما يطلب إليها دين «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» لتتحمل مسؤوليتها فاعلة غير مفعولة، مراقبة كلاًّ في ميدان مسؤوليته، معارضة منتقدة.

من خصائص «المخزون» المدفون أن يحَوِّل معنى الواجبات الدينية الأكيدة تحويلا نحو السهولة والاستقالة. فترْكُ ما لا يعني يُؤوله إسلام الانقياد إلى التخلي

عن السياسة. و«**كلكم مسؤول عن رعيته**» يفهمه أولا على أن الناس مثلُ السوائم يرعاهم الحكم، ويفهمه ثانيا على أنَّ من أساء إلى رعيته فلا مسؤولية عليه إلا بين يدي الله تعالى يوم القيامة. وهو في الدنيا حر لا رقيب عليه.

هذا الفهم العامي الركودي الاستقالي المائت من أسباب غثائيتنا، وما كرر لنا المعلم المعصوم الناطق عن الوحي صلى الله عليه وسلم كلمة «مسؤول» في الحديث تسع مرات إلا ليَرْسَخَ عندنا المعنى العميق الساري في كل مناحي الحياة في الدنيا والآخرة للمسؤولية. فالإثم القلبي مقترنا بالذنب والجريمة والتفريط في الواجب يسأل عنه العباد يوم القيامة وأمرهم إلى الله. لكن المنكَر المعلَنَ والسيئة الجهرية يجب أن يُسأل عنها مقترفها أيا كان على كل المستويات، وأن يُعارَض وينتقد.

فيما بيننا وبين المعارضات الحزبية السياسية المناوئة للحركة الإسلامية التعارض جلِيٌّ، ويوَدُّ المتقربون للإسلام «المخزوني» والمتربصون والمنافقون لو يظفَرون بمعارضة من جانبهم غير مسؤولة، يدفعوننا نحن للمسؤولية لِرَأْبِ ما صدعوه وليتفرجوا على فشلنا بعد أن ينصبوا لنا الأشراك. يجب أن نحصُرَهم لتكون معارضتُهم لنا في الوضوح والمسؤولية وبمعيار الإسلام الذي لا يعارض السياسة الفاسدة في التسيير السياسي فقط، لكن يعارض الفساد الأخلاقي والانحراف العقدي والتسيب السلوكي والتغرب الفكري.

وفيما بين الفصائل الإسلامية، والتعدد في الاتجاهات والاجتهادات أمر واقع، قد يَستصعِب البعض أن يكون اختلاف وتعارض. ويسود لدى الإسلاميين في الجملة التصور الإجماعي التواق إلى وحدة لاَ يُسمَعُ فيها همسٌ مخالِف. وهو تصوُّرٌ تخلفي مما تركته قرون السكوت تحت طائلة السيف من بصمات في نفوسنا. فتحت السيف لا يكون إلا إجماع الموافقة إمّا «لعجز الطالب» كما يعبر ابن تيمية رحمه الله وإمّا لحفظ وحدة وهمية، وتحت الرماد الجمر المتقد.

ينبغي أن نقبل الواقع الطبيعيّ بصدر رحب، واقعِ وجود الخلاف عند الإسلاميين، وأن نعالجه المعالجة البناءة، وأن نَفْسَح المجال للرأي والرأي

المخالف. ويتوقف نجاحنا في الدعوة والدولة على قدرتنا وحكمتنا في تصريف الخلاف من خلال قنوات معارضة صادقة غير منافقة، صادعة بما عندها لا منطوية على الكمد.

وما هذه الخلافات بين الصحابة رضي الله عنهم التي أدت إلى المقاتلة بالسيف إلا صنعٌ من صنع الله تعالى لنعتبر ونتعلم أن الموافقة الصامتة لا تكون إلا بين الأموات أو المقهورين المسلوبين صوت الحرية.

في ظل دولة القرآن ينبغي أن ترتفع هامات الصدق وقول كلمة الحق لكل من أخلّ بمسؤوليته من راع في إمارته، وراعية في بيتها، وخادم ومخدوم، ومدبِّر عام، وعامل خاص. في عموم وجوب قول الحق ومعارضة الباطل نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له : إنك ظالم! فقد تُوُدِّعَ منها**». رواه الإمام أحمد والطبراني والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

لم يكن الصحابة على عهد النبوة والخلافة الأولى إمعاتٍ، بل كانوا يستنشقون رَوْحَ المسؤولية، ويتقدمون بالمبادرة الإيجابية. أحياءً غيرَ أموات.

تَرَبَّى على المعارضة وسماع النقد وطلب النصيحة عمر وأمثال عمر. لذلك قدَّم شرط «إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني». ولذلك كان يقول: «رحم الله امرأ أهدى إليَّ عيوبي».

لـمّا نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بَدْراً في مواجهة قريش ووقف جيش الإسلام أهمَّ وقفة وأبلغها أثرا في تاريخه، والنبي صلى الله عليه وسلم قائد، والخطر مُحْدقٌ، والتجربة جديدة، لم يكن الصحابة رضي الله عنهم كَمّـًا صامتا وعَدداً حسابيا. إنما كانوا رجالا لهم رأيهم واجتهادهم وشخصيتهم، ولولا ذلك لما كانوا هم هم، ولما كانت بدر هي بدر. قام الحُبابُ بن المنذر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله! أرأيْتَ هذا المنزلَ؟ أمنزلٌ أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه. أم هو الرأي والحرب والـمَكيدة؟

قال ابن إسحاق: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**بل هو الرأي والحرب والـمَكيدة!**»

قال الحُبابُ: يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل! فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزِلَه، ثم نُغوِّر ما وراءه من القُلُبِ، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لقد أشرت بالرأي!**» وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يقبل الصواب، ويستمع إلى الرأي المخالف، ويصبِر لجفاء الأعرابي ولمعارضات عمرَ بن الخطاب (وكم كانت له من معارضات)، ويشجع المبادرات البناءة، ويحمل المسؤوليات للأمير والمأمور، والرجل والمرأة. «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**».

صلى الله وسلم وبارك على أبي القاسم معلم الخير. وعلى آله وصحبه، وإخوانه وحزبه، ممن لا تلين قناتهم في الـمُلـمّات، ولا يتخاذلون في المهمات.

«القطب الأعظم في الدين»

هذا تعبير الإمام الغزالي رحمه الله، يقصد بالقطب الأعظم الركن الركين من الإيمان: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغيير المنكر إلى معروف بقوة اليد واللسان، ولا أقل من إضمار السخط على المنكر بالقلب. القطب هو قلب الرحا الذي حوله تدور، فشبه واجب القيام ضد المنكر ومعارضته ومحاربته بقلب الدين الذي يختل توازن الدين باختلاله.

قال رحمه الله: «فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيئين أجمعين. ولو طُوِيَ بساطُه وأُهْمِل علمُه وعمَلُه لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمّت الفَترةُ، وفشَت الضلالة، وعمت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخَرق، وخَرِبت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعُروا بالهلاك إلا يومَ التّنادِ». [1]

وذكر رحمه الله من شروط إقامة هذا الركن الأساسي من الدين: التكليف والإيمان، والعدالة، والإذنَ من الإمام، والقدرة على النهوض به.

فالتكليف مفهوم إسلامي إيماني يعبر عن روابط العبودية لله عز وجل وعن روابط العباد المكلفين فيما بينهم، يتساءلون عن حق التكليف ويتحاسبون ويقيمون حدود الله على من أخل بالتكليف الشرعي. والإيمان والعدالة شرطان في المكلف بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إن المسلم لا كلفة عليه إلا بأركان الإسلام الخمسة، وناقص العدالة لا يؤتمَن على فريضة عامة يدور على سلامة تنفيذها صلاح الأمة. وإذن الإمام والقدرة شرطان تنفيذيان، لأنه إن تصدى كل مكلف عدل لتغيير المنكر مستقلا باجتهاده ومبادرته يوشك أن تعُم الفوضى، لا سيما في عصورنا التي عم فيها الجهلُ بالدين، وعمَّتْ البدَع

(1) الإحياء، ج2، ص269.

والمناكرُ، فإن لم تُنَطْ مُهِمةُ تغيير المنكر بجهة عالِمة حكيمة تُعَرِّف المعروف والمنكر فهي الفوضى. وهي استعمالُ كلِّ مَنْ حمَت في صدره غَيرة عن حق أو جهل أو تعصب قدرتَه في الانتقام، وإذاً يكون ما أفسدَ بغيرته العمياء أكثر مما أصلح.

كان الإمام الغزالي رحمه الله، في إبان مقاومته لِفِتَنِ الفلسفة والعقائد الباطنية متوجها للمهمة التقليدية التي تفرغ إليها علماؤنا منذ افترق السلطان والقرآن. وهي مُهمة مقارعة أهل الأهواء والمذاهب الضالة. فكانت هذه حدودَ تكليفه وقدرته على تغيير المنكر والأمر بالمعروف. يدافع عن «الخليفة» المستظهر العباسي، يرى في وجوده الرمزي سدا منيعا ضد المنكر الأكبر المتمثل في العقائد الكفرية.

فلما كان في أواخر عمره، في مرحلة تأليفِ «الإحياء» وما بعدها، توسّع تصوُّره للمنكر والمعروف، ورأى في حكم الظَّلَمَةِ المنكرَ العظيمَ الذي تجب معارضته ومقاطعته. وهكذا يظهر لنا الوجهُ الخفيُّ لِما عاناه علماؤنا طيلة قرون الحكم العاض والجبري من غُصَص وما تأسفوا عليه من فوات القدرة والفرص. وفي آخر حياته رحمه الله، اعتزل الغزالي الدنيا وأهلَها فرارا بدينه، وأملا في أن يُربي أجيالا تحتفظ بعدَه بجذوة الإيمان متقدة.

قال رحمه الله: «الدخول عليهم [على الحكام الظلمة] فهو مذموم في الشرع. وفيه تغليظات وتشديدات [...]. الداخل على السلطان متعرض لأن يعصيَ الله تعالى إما بفعله أو بسكوته، وإما بقوله، وإما باعتقاده. [...]. إن سجد أو ركع أو مَثُلَ قائما في سلامه وخدمته كان مكرما للظالم». (1)

ويفصل الإمام رحمه الله برنامج مقاطعة الظلمة، فلا يجوز قبول هداياهم، ولا غَشَيانُ أسواقهم، ولا التعامل مع قضاتهم وعمالهم، ولا استعمال ما بنوه من قناطر ورباطات ومساجد وسقايات.

ويقصد الإمام بالظلمة المستولين على الحكم بالسيف، وكانوا في زمنه السلاطينَ السلاجقة. كان لهم السلطان الحقيقي، ولم يكن «للخليفة» العباسي

(1) الإحياء، ج2، ص125 وما بعدها.

إلا الخطبة والبيعة الشكلية. وقد كتب سنجر السلطان السلجوقي إلى الإمام يطلب إليه أن يدرس في مدارس نيسابور وطوس فامتنع وكتب إليه: «إن كل من ينطق بكلمة حق في هذه الأيام تعاديه حتى الأبواب والجُدران. وأنا سلمت الدنيا لأهلها. [...]. والمقصود أن يُوَضَّحَ الحالُ، وأن تُعفوني من التدريس في نيسابور وطوس حتى أعودَ إلى زاويتي الآمنة، فإن الأيام لا تتحمل كلامي»[2].

ومن زاويته رحمه الله كتب إلى فخر الملك وزير سنجر يقول: «اعلم أن هذه المدينة أشرفت على الخراب والقحط. [...]. فأغث! فأغث رعيتك! لا، بل أغث نفسك، وارحم هرَمك، ولا تضيع رعيتك [...]. وإلا فأقم المصيبة والمآتم. [...]. فعلاج هذه المصيبة ماءُ العين لا ماءُ العنب!».

موقف الغزالي رحمه الله وتطوره مِن مقارعة البدع والضلالات في حيز سمح به السلطان نفسه نموذج لفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حدود إمكانيات ذلك الزمان. ولا يمكن في غد الإسلام والخلافة الثانية أن نفهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حيزهما الضيق الذي تقلص إليه عمل من سبقونا بإيمان رحمهم الله، حاصرهم السلطان فتخصصوا في ملاحقة البِدع والضلالات (وهي مهمتهم على كل حال وواجبُهم) وتركوا السلطان الجائر يرتع في الدين.

بعدَ أن نعتبر بالغزالي وتطور موقفه، نرجع إلى النبْع النبوي لنستقي.

يقول الحبيب المصطفى المعلم صلى الله عليه وسلم: «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». الحديث رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وروى الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده، لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولَتنهَوُنّ عن المنكر، أو ليوشِكَنّ الله أن يبعث عليكم عقابا منه. ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**».

(2) فضائل الأنام، ص42.

الأمرُ العليُّ جاء بتغبير المنكر، لابمجرد النهي اللفظي عنه. والوعيد الشديد لمن لم يفعل ذلك يُؤْذن بعقاب من الله عز وجل، حتى إنه سبحانه، وهو الرؤوف بعباده الرحيم، لا يستجيب دعاء من لا يفعل ما أُمِرَ.

وجاء وعيد أشد في قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[1]. قال رسول لله صلى الله عليه وسلم يفسر لنا كيف اعتدى بنو إسرائيل بتركهم التناهي عن المنكر: «**إن أولَ ما دخل النقض على بني إسرائيل أنه كان الرجلُ يلقَى الرجلَ، فيقول له: يا هذا! اتق الله فيما تصنع! فإنه لا يحل لك! ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض**». الحديث رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وقال فيه الحبيب المعلم صلى الله عليه وسلم: «**كلا واللهّ لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُن عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يَد الظالم، ولتأطُرنه على الحق أطرا**». وهو حديث صحيح.

حديث يرسم لنا خطوط مقاطعة أهل الباطل فُرادى، ومقاطعتهم بالإضراب العام حين يكونون قوة حاكمة غاشمة ونكون نحنُ قوة معارضة منظمة فقيهة في دينها الذي يهدد باللعنة من رضي بالمنكر وأهله وآكلهم وشاربهم وقاعدهم.

ويرحم الله الغزالي، فقد فصل ما يجب على المؤمنين من مقاطعة الظلمة، فكان ذلك الفقه الذي بقي دفينا في الكتب زفرة حرَّى في زمانها، زفرة من عالم مجاهد آل به تطاوُل أهل الباطل واستعلاؤهم في الأرض إلى الانزواء مع «علماء الآخرة».

ولغد الخلافة الثانية لا بد أن تكون قوة التغيير فقيهة في دينها، عارفة بـ «القطب الأعظم» فيه. لكن لا يكفي العلم بما هو المعروف والمنكر وتعليم ذلك للناس حتى يتوقوا إلى المعروف ويكرهوا المنكر. لا يكفي أن نكون قوة سياسية يلتف

(1) سورة المائدة، الآيتان 80-81.

حولها الشعب، ويصوت لها، ويرفعها لسدة الحكم. بل لا بد أن نحصِّل على قدرة التنفيذ، وأن نبنِيَها حتى نكون قوة إرادية تغير بالفعل، وتفعل بوازعي القرآن والسلطان.

وإنه لقتالٌ شديد بين الحق والباطل، لا يحيى الحق إلا بإماتة الباطل، أو على الأقل حصرِه في نَفَقِ الصَّغَارِ. وعلى المرتبة الإيمانية الإحسانية الأخلاقية لجند الله، وعلى نموذجية سلوكهم وتفانيهم في نصرة دين الله، يتوقف نجاح الخطة. فإنه لا يُقيم دينَ الله في الأرض إلا مؤمنون جسمهم وجهدهم هنا وطموح روحهم في الآخرة.

قال الله تعالى يسرُد لنا صفات الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر: ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللِه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللِه فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللِه وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(2).

لا غنى للإسلاميين عن قوة الرفض والمعارضة قبل الوصول إلى الحكم وبعده لدحض الباطل ومقاطعة أهله ودك أصوله. ثم لا يتأتى أيُّ تغيير وبناء وإحقاق للحق إلا إذا كان جند الله مؤهلين التأهيل الإيماني العلمي التنظيمي العملي التنفيذي الذي تندمج فيه الخصال الروحية الأخلاقية بالقدرات العقلية التدبيرية، وتوجهها. وبشر المؤمنين. والله ذو الفضل العظيم

(2) سورة التوبة، الآيتان 112-113.

المعارضة والتعددية

كان المنافقون في المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لقُوا الذين آمنوا قالوا: آمنا. وإذا لقوا اليهود حلفوا لهم أنهم معهم. فأنزل لله تعالى فيهم قوله من سورة المجادلة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ ﴾[1] إلى قوله عز وجل: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[2]. فجعل سبحانه السمة البارزة لحزب الشيطان توليهم للكافرين واستحواذ الشيطان عليهم حتى أنساهم ذكر الله.

ووصف سبحانه في نفس السياق حزب الله بأنهم قوم لا يُوادُّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

فيكون الوَلاءُ للكافرين والتحيز إليهم الصفةَ الواحدة الكافية لتعريف حزب الشيطان، والولاءُ للمؤمنين والتحيز إليهم صفةَ حزب الله. ألا إن حزب الله هم المفلحون.

ويُذكر الأحزاب، بالجمع، في القرآن الكريم، يُقصَد بهم جمع الكفار أعداءِ الأنبياء عليهم السلام. فمن تكرارِ «حزب الله»، «حزب الشيطان»، «الأحزاب» على مسامع المسلم تتخلّق عنده مشاعر النفور من الأحزاب، بالجمع، ومشاعر الوحدة «لحزب الله» مقابل حزب الشيطان.

ويقرأ المسلم، أو يسمع من الواعظ والفقيه، حديث افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة فيرسُبُ في ذهنه كراهية التعدد، والضيق بالخلاف، فلا يكون عنده مُتسع لقَبول الرأي المخالف. من ها هنا تتميز في وعيه

(1) سورة المجادلة، الآية 14.

(2) سورة المجادلة، الآية 19.

وزعمه «الفرقة الناجية»، وما عداها ففي النار. ولا أظن أن الفكر المسلمَ، والفكرَ الإسلامي بالذات، بحاجة إلى تصحيح المفاهيم العملية السياسية كما هو بحاجة إليه فيما يخص الخلاف ومعالجته بالمرونة والرفق الضرورين للتعايش مع طوائف الناس ومع الفصائل الإسلامية المخالفة في الرأي والمذهب والموقف السياسي.

لفقه حديث الفرق الثلاث والسبعين يُراجَعُ الكتاب النفيس «الاعتصام» للإمام الشاطبي رحمه الله. ففيه كلام رفيق معتدل وعلم غزير.

ولتوسيع دائرة فهمنا وتليين المتخشِّبِ من عقولنا نُسائِل السيرة النبوية لنعرف هل كان حزب الله النموذجي الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشاد بفضله القرآن الكريم وجعله لنا أُسوة ومستندا كتلةً واحدة مُصمتة، وهل كان الرأي واحدا.

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعترض عِيرَ قريش استشار المسلمين. فقام أبو بكر ثم عمر ثم المِقداد فقالوا قولا حسنا عبروا به عن رأي المهاجرين. كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **أشيروا علي أيها الناس!** حتى قام إليه سعد بن معاذ سيد الأوس فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله! قال: **أجل!** فقال سعد رضي الله عنه كلمته الرائعة التي ختمها قائلا: «فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك».

نُمسك نحنُ أن الأنصارَ كانوا كتلة إلى جانب المهاجرين، وكان لهم رأي، وكانت لهم كلمة وموقف، يُعبِّرُ عنهم الناطق باسمهم كما يعبر الناطق بلسان المهاجرين عن رأي المهاجرين. والقرآن الكريم يذكر بالاسم السابقين الأولين من «المهاجرين» و«الأنصار». أمة واحدة متكونة من فئتين متآلفتين مستقلتين. وخارج المدينة قبائل موالية من أعراب المسلمين، لكل منها قيادتها ورأيها. وكلها من حزب الله منذ أعطت ولاءها لأهل الإيمان وقاطعت الكفار.

في غزوة الأحزاب كانت أحزاب الكفر -حزب الشيطان- تتكون من اليهود وقريش وغَطَفان وبني أسد ومن تبعهم. فلما أرهقوا المسلمين فاوض رسول الله

صلى الله عليه وسلم غطفان على أن يُعطيهم ثلث ثمار المدينة ويرجعوا عنه. وكتبوا بذلك كتاباً حتى لم يبق إلا الإشهاد. فجاء سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رئيسا قبيلتي الأنصار، الأوس والخزرج، فتكلما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعارضا رأيه في الصلح. فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معه «أحزاب» كما كان ضده «أحزاب»؟ بالمعنى المذموم للكلمة.

بعد بدر شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين في مصير الأسرى، فكان رأيُ أبي بكر موافقا لرأي النبي صلى الله عليه وسلم في مُفاداتهم. ففاداهم. وخالف عمر بن الخطاب ونزل الوحي بموافقة رأيه في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

مواقف صاغها قَدَر العزيز الحكيم سبحانه لتكون لنا دروسا نموذجية حتى لا تجرنا الحرفية والجهل بالنفوس البشرية وبالدين إلى تخشب سلوكي نعجز معه عن الحركة في العالم وعن التعامل السليم بين المسلمين.

إننا لا بد أن يُعارضنا المعارضون من «حزب الشيطان» ومن «حزب الله» المسلمين البريئين من الوَلاء الكفري. وسواء وصلنا إلى الحكم عن طريق ثورة كثورة إيران أو عن طريق انقلاب أو عن طريق انتخاب فلا محيد لنا عن التعامل مع الأحزاب، بالمعنى العصري للكلمة. وليس القمعُ حلاًّ لخلافنا مع المخالف، ولا زعمُ وحدة الكتلة الـمُصمتة المتَّفقة فيما بيننا أمراً ممكنا بالطبع أو الشرع.

مما أثْبَتَ في أذهان الإسلاميين تصورَ الوحدة الـمُصمتة لدى حزب الله ما خلّفه الأستاذ العبقري حسن البنا رحمه الله من فكر أبرزته مواقفه السياسية.

فقد دفَع بحركة الإخوان المسلمين في خضم الصراع السياسي في مصر الغلَيان، في مصر حزب الوفد، في مصر المؤامرات ضد القصر ومع القصر، في

(1) سورة الأنفال، الآية 68.

مصر الزعامات والتنافسات على المناصب. فكَرِهَ رحمه الله جو السياسة التعددية، وكره نوع الديموقراطية المتخلفة التي عايشها. وقبِلَ وجوهـًا من الديموقراطية.

يقول رحمه الله في رسالته إلى المؤتمر الخامس للإخوان المسلمين: «إن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الشوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة وعلى مسؤولية الحكام أمام الشعب ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال وبيان حدود كل سلطة من السلطات - هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق على تعاليم الإسلام ونُظمه وقواعده في الحكم».

لكنه يحكم حكما يائسا على الحزبية وتعدد الأحزاب ويتوق إلى حزب وحيد بارِئٍ من علل الحزبية التعددية. فيقول في «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي»: «لقد انعقد الإجماع على أن الأحزاب المصرية هي سيئة هذا الوطن الكبرى. وهي أساس الفساد الاجتماعي الذي نصطلي بناره الآن [...]. فهي ليست أكثر من انشقاقات أحدثتها خلافات شخصية [...] لا برامج لها ولا مناهج. [...] وإذا كان الأمر كذلك فلا ندري ما الذي يفرض على هذا الشعب الطيب المجاهد المناضل الكريم هذه الشِّيَع والطوائف من الناس التي تسمي نفسها الأحزاب السياسية. [...]

قال رحمه الله: «ولا مناص بعد الآن من أن تُحل هذه الأحزاب جميعا وتُجمعَ قوى الأمة في حزب واحد يعمل لاستكمال استقلالها وحريتها».

قلت: إن عمل هذا الرجل العظيم وفكره الرائد تركا أثرا ساريا في أفهام هذه الأجيال المباركة في الحركة الإسلامية. وكل عمل رائد وفكر وطيد إما أن يكونا مفتاحا لمزيد من التقدم في الفهم والممارسة، وإما أن يكونا «سلفا» إليه يَنتهي إدراك العقول المقلدة وفيه تنغلق.

وما من إمام من أئمتنا الصالحين إلا ويقول لسان حاله ومقاله: افعلوا كما فعلت، واجتهدوا لزمانكم كما اجتهدت، وارجعوا إلى مُنبَثَق العلم ومُنطلَق الوحي كما رجعت.

ومسألة الحزب الوحيد التي دعا إليها شهيدنا البنا رحمه الله كانت الحل الوحيد الذي تراآى له لفساد الطبقة السياسية في زمانه. كان صراع الإخوان المسلمين مع القصر، ومع الوفد، ومع الاحتلال الإنجليزي قتالَ الطهارة للعفونة، وحزب الفتوة المتوثبة لليأس الهرم، ومناهضة الحق للباطل. شاخ حزب الوفد في غرور زعامته الوطنية المعارضة للقصر الفاسد وللاحتلال الأجنبي. وشاخت فيه أوبئة الاستبداد الزعامي. فكان الأستاذ المجدد رحمه الله يروم صَهْر الأحزاب المتنازعة على الزعامة والمنصب والمال في وحدة يكون الإخوان المسلمون فيها هم الروحَ والجَسدَ.

وليست الهيئة السياسية الوحيدة المستبدة بالحكم إلا وجها آخر للاستبداد، ومطية لا تختلف عن الحكم الفردي للظلم. وسواء كان الحزب الوحيد منبعثا عن ثورة هدمت القديم، أو برز من معارك التحرير الوطني مكللا بمجد الأبطال، فهو من يومه قوةٌ مستبدة لأنه لا معارِض أمامها ولا رأي مع رأيها.

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي خشِيَ علينا أن تُبسط علينا «الدنيا» فنتنافَسَ عليها فتُهلكَنا ينطق على أهل الدعوة بالحق أنهم معرَّضون لداء الأمم كغيرهم من أهل الدولة والسياسة. وأي بسط للدنيا مثلُ احتكار السلطان؟

ثم أهي استفادة من التعددية الديموقراطية تُعرَضُ هنا على أهل الإسلام؟

إننا نكون أشد بلادة من ابن آدمَ القاتل السفاك إن لم نستفد من صواب أنفسنا وخطإها، ومن تجربة غيرنا ونتائجها. بعث الله لابن آدم القاتل غرابا، حيوانا أعجم، يبحث في الأرض ليُريَه كيف يواري سوأة أخيه. فاستوعب الدرس وتعلم من أقلَّ منه، وأحسنَ منه لأنه لم يقتل أخاه.

يُخشَى على الدعوة المرشحة على لسان كل ناطق وصامت للحكم أن تذوب في تيار السياسة. وأشد ما يكون الذوبان أن تخطئ الدعوة فتحتكر السلطان وتقمع كل معارضة وتسلك سبيل الحزب الوحيد الذي يشاهد العالم فضيحته في روسيا.

وما ربك بظلام للعبيد.

الفصل الرابع

تطبيق الشريعة

- المصلحة والاجتهاد
- الدنيا للآخرة
- وازعا القرآن والسلطان
- قانون التدرج، بل شريعته
- «باب من ترك قتال الخوارج للتألف»
- التائبون الحافظون

المصلحة والاجتهاد

إنه الغرق في لجج السياسة إن أقدمت الدعوة وقد وحدت صفوفها وتصرفت كما يتصرف الحزب الوحيد. تتحمل أثقال ميراث الماضي وحدها، وتزعم لنفسها وللناس أنها تتقمص آمال الشعب وتعكس إرادته وتنطق باسمه من دون الناس جميعا. إنها إن فعلت لن تلبث أن تتحول من فاعل محرِّك إلى مطية للأهواء والطموحات الشخصية عند أولئك الذين ينتظرون من يشق لهم الطريق ليتربعوا على كراسي الدولة. وعندئذ فسلام على الدعوة وأهدافها النبيلة. عندئذ تعود دورة الفساد دورانها، وينفر الشعب من مفسدي اليوم كما نفر من مفسدي الأمس الذين عارضناهم فكانت معارضتنا إياهم هي الرصيد المعنوي الذي رفعنا إلى ثقة الشعب.

الحزب الوحيد إما يجيء إلى الحكم متجملا بنضال تحريري، وإما تفرزه الدولة بعد انقلاب عسكري. مآلُه طال الزمان أم قَصُر، بعد فترة شباب يُونِعُ فيها الحماس وتُنْثَرُ فيها الوعود، إلى أن يصبح آلة بيروقراطية ثقيلة ملتصقة بالدولة، حاملة أوزارها. مآله أن يخنُق حرية الشعب ويُهمِدَ حيويته في محاولته لاحتلال المساحة السياسية بأكملها. مآله أن يثبط كل اعتراض، وأن يمنعه ويسجنه ويقتله، باسم إجماع شعبي هو وحدَه يترجم عنه. وعندئذ تعمل المعارضة في السرية، وتكشف عورات الحزب الدولة بدَل أن تُهديَ إليه عيوبَه.

إن الدعوة تُفْسِدُ رصيدها وشرعيتَها التاريخية إن هي تصدت للحكم جاهلةً بالديناميات الاجتماعية، والتقلبات في الرأي العام، ووجود معارضة للحكم بما أنزل الله. متى جهِلْنا هذا الواقعَ وتصرفنا بالاعتماد على القسر والقهر لا على الإقناع والحوار والمشاركة والتدرج فمآلُنا من حيث كونُنا دعوة ودولة أن نتبخر عند أول هزة أو ثانيها أو ثالثها. وفي انهيار الحزب الوحيد بروسيا وبأوربا الشرقية

وفي كل مكان العبرة لمن يعتبر. وذلك خراب عمِلَ فيه مِعولان: عدم صلاحية المذهب الاشتراكي وعدم صلاحية الأسلوب الاحتكاري للسلطة.

كلما ظهر للبادي والحاضر أن نجم الإسلام في بزوغ، وشمسَه في طلوع، احتدم الجدل حول تطبيق الشريعة، واشتغلت الجرائد والمجلات والكتب والمؤتمرات بالحديث والتعليق عن الشريعة والقانون، وعن التراث والمعاصرة، وعن الثابت والمتحرك، وعن الجامد والمتطور. وفي سوق الجدل حول الشريعة وتطبيقها يتقدم خصوم الشريعة وأعداؤها، وهم في أمْنٍ من طائلة «المتشددين» الأغوال، بتحفظاتهم وشكوكهم. هذه الأصوات ما نفعل بها عند وصولنا للحكم؟

كلمتُنا اليومَ وغدا هي أن شريعة الله هي تكليفُه للمسلمين والمسلمات. الإيمان بها كُلاًّ لا يتجزأ شرط في الإسلام. وتطبيقها على المجتمع، بل للمجتمع، واجبُنا متى قدرنا. كلمتنا أن ما ثبت من عند الله ومن سنة رسول الله أمرٌ مقدس وهداية ونور. لا نقبل زيادة في الشريعة ولا نقصا ولا تحفظا ولا استدراكا ولا إضافة.

التردد في قَبولِ شرع الله والدينونةِ لأمره والخضوعِ مطعن خطير في عقيدة المسلم، ومنقَصة مخلة بإيمان المؤمن. قال الله عز وجل: ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً** ﴾[1].

دينُنا الذي ندين الله تعالى به في نجوَانا ونعلنه فيَتَلاَقَى مع شوق هذه الأمة أن ترى لواء الإسلام مرفوعا هو أن تطبيق شرع الله كاملا مطلبٌ لنا لا نحيد عنه. وإلا انفسخنا عن ديننا. وبرنامجنا في الحكم الذي تحرك الشعب له فحملنا إلى الحكم مرجِعهُ ودعامته ووعدُه أن شريعة الله عدل ومصلحة وخير وأمن وعافية.

ما ثبتنا على إيماننا وسرنا بخطى الحكمة في طريق إحقاق الحق وبنائه لبِنَةً لبنة فالباطل من حولنا تفشَل جهودُه ويتلاشى مُرَكّبُه، وتضمَحلُّ جحافله. إن ثبتنا على

(1) سورة النساء، الآية 64.

خطى الحكمة وحركنا الشعب ليعَبِّرَ عنا، بطلاقة حريته، عن ولائنا جميعا لشرع الله وعن ثقتنا بأن في شرعِ الله ضماناً لمصالحنا جميعها، فإن أهل الباطل لن تغني عنهم فئتهم شيئا ولو كثرت. وإن الله مع المؤمنين.

ليس من شأننا، قبل وصولنا للحكم وبعده، أن نُنَقِّب عما في القلوب، ولا أن نصنف الناس في حزب الشيطان إن خالفونا، ما داموا لا يجهرون بعدائهم للدين، ولا يسخرون من شرعِ الله، ولا يتطاولون إلى المشاركة في حملة الكافرين على الإسلام وشريعته. يقِلُّ عاما بعد عام من يفعل ذلك. ويوم يكون السلطان بأيدينا إن شاء الله فلن تجد من يجرُؤُ على ذلك مهما أضمر ومكر.

لكن من شأننا، قبل وصولنا للحكم وبعده، أن نعلم أن طوائف المثقفين المغربين اللاييكيين المتجادلين في الشريعة وتطبيقها هم في الجملة أهلُ عقل يعادونَ النقل. هم مؤرخون متحيزون لا ينصفون، يَعْزون للإسلام عيوب المسلمين وأخطاء المسلمين وتجاوزات المسلمين. وبمعيار قيمهم العقلانية اللاّييكية يزنون الشريعة، وبمُضْمَر عدائهم للدين أو جهلهم به أو نفاقهم فيه يشيرون بأصابع الاتهام إلى هفوات المسلمين في تطبيقهم السَّيِّئ للشريعة ليُكَرِّهوا للناس الإسلام، منسجمين في ذلك مع الجوقة العالمية العدائية. فكل يد قُطِعت في حد، وكل فاجر جُلِد، وكل حائد عُزِّر في ماضي المسلمين وحاضرهم حجة على أن الشريعة همجية.

لا يتريث اللاييكيون ولا يتورعون ليميزوا في خطابهم وفي جدلهم بين شرع الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد وبين اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء وخطإِ البشر في الفهم عن الله ورسوله وفي تنفيذ ما أمر الله به ورسولُه.

هؤلاء المعارضون لنا، المرحَّبُ بهم ليُهدوا إلينا عيوبنا مشكورين، يعتقدون أن المصلحة إنما يضمنها العقل المتصرف على ضوء المكتسبات الإنسانية المتطورة في ميادين القانون والاجتماع والاقتصاد والسياسة. ويعتقدون أن نصوصا عُمْرُها

أربعةَ عشر قرنا لا يمكن أن تستجيب لمستجدات هذا العصر ومشاكله التي ما عرفتها الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرنا. أستغفر الله العظيم من نسبة عُمْر زمني لكلام الله العليم الحكيم.

الكيِّسون من هؤلاء، وربما المسلمون منهم المتقلصون في فهم دينهم، يؤيدون عقائدهم بأن الإسلام يدعو لاستعمال العقل. ويسردون الآيات المرشدة إلى التأمل في ملكوت السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وما خلق الله من شيء.

حين نقول نحن: الشريعة هي المصلحة وفي حدودها يجتهد العقل، يقولون هم سرا أو جهرا: العقل قبل كل شريعة، ولا مصلحة إلا ما يُسيِّرُه المجتمع ويقرره المجتمع. بل منهم من غرس جنَّاتِه خارج سياج الشريعة، فليس يرجو ثمارا إلا من شجرة الزقوم العقلانية.

أستعمل كلمة «العقل» موقتا بمدلول «العقل المعاشي» المشترك عندي، أمَّا هم فالعقل مُطلق عندهم، منه وإليه يبتدئ وينتهي كل شيء، لا خبرَ عندهم بالعقل الذي مجَّده الله تعالى في القرآن، وهو فعلُ القلب المؤمن بالله وبالآخرة وبالنبوّة وبالشريعة.

سنجد من اللاييكيين، وقد يكون منهم مسلمون ينطقون عن اقتناع، من يُشيد بالإسلام، ويتمدّح بأخلاق الإسلام، وروحانية الإسلام، وصفاء عقيدة التوحيد. كل ذلك ليخلُصَ إلى ضرورة تقديس الدين ورفْعه في منارات الأذان ومساجد الصلاة وتلاوة المصحف مخافةَ أن ندنِّسَهُ بالسياسة، أو نسيء إليه بإقحامه في مشاكل العالم. إنها اللاييكية مسيطرةً على الألباب. فصل الدين عن الدنيا باب من أبواب العقلانية، بل شرط من شروطها.

هل نُسقط من حسابنا، معشرَ الإخوان، هذا الفكر المنحرف عن الشريعة، الرافضَ في قرارة نفسه لتطبيقها؟ هل نمنع في غد الإسلام التعبير عنه؟ هل نكتم

أنفاس المعارضة لمشروعنا المنكرة لمبادئه ؟ هل نتجاهل الموقف المتكتل الملتف حول برنامجه؟

إن التشريع لدولة قائمة ومجتمع حي بمشاكله المتجددة خيارٌ بين بدائل متعددة أيها يحقق مصلحة الشعب. وإن تعزيز سلطان الدولة للتشريع، ووقوفها بجانبه لا يعطي التشريع فضيلة إن كان مَبناهُ غير فاضل، ولا يعطيه جدوَى إن كان أصلُه غير ثابت في قلوب الشعب، ولا يحقق به عدلا إن كان صدرُه نابعا عن الظلم. وإن الشركَ والد اللاييكية الهاجمة على الإسلام لظلم عظيم.

لذلك لا نخاف اليوم وغدا بحول الله مقارنة الآراء فيما بيننا وبين اللاييكيين أنصار العقل المعاشي ضامن المصلحة في اعتقادهم، كما يجب أن لا نخاف تعدد الاجتهاد فيما بين الفصائل الإسلامية وعلماء المسلمين بشروط الاجتهاد المعتبرة. وللشعب أن يختار وهو حر بين البدائل. والله على كل شيء وكيل.

الدنيا للآخرة

لوَّثَتْ خُلْطَةُ الجاهليين منا النفوس، وكدرت العقول، وتغلغل سَخَمُها إلى القلوب. فلا يغسل مرض الغثائية عنا إلا ماءُ القرآن، ولا يُذهبُ وسَخَ الفتنة الفكرية النفسية إلا صابون السنة. وبعدها نعرض ناقهنا لنلبسه لباس التقوى، ونعَطِّرَهُ بعطر الوحي، ونَفْتِقَ جيوبه ليتنسم نسيم الآخرة، وليرُوحَ رَوْحَ حب الله، ويتزين بزينة الله التي أخرج لعباده.

تلوثت الألفاظ والمصطلحات، وتداخلت المفاهيم، واشتبكت المعاني بمادية الثقافة الدوابية الأرضية المحيطة الغازية. فأنت تتحدث عن الشريعة كافلة المصلحة. وكلمة «مصلحة» في عُرف العصر الدارج لا رائحة فيها ولا في شيء مما يُنطَق أو يُكتب في حضن الجدَل الحضاري التنموي الثقافي للآخرة. فأنّى نتفاهم مع رواد نادي السياسة الجائحة؟

«وضعُ الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل». هذا كلام كان معناه واضحا لما كان الإسلام هو الشوكة والدولة، ولما كان أمرُ الآخرة وأمرُ الشرائع المنزلة إيمانا راسخا لا أطروحة للنقاش. العبارة للإمام الشاطبي رحمه الله، كتبها في أندلس الإسلام المتألق. وكتب أن «المقصِد الشرعيّ من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا».

لم تكن معاني العبودية لله عز وجل ومعاني الآخرة ومطالب الشريعة ومقاصدها ومصالح العباد مقولات هامشية عندما كتب فقهاؤنا الأجلَّة بلغة العزة والصفاء. وما كان ينطوي عليه المسلمون من بقايا الفلسفات التي حملها معهم عندما دخلوا في الإسلام أهلُ الآفاق لم يكن عاملا مُلَوثا. بل هضم الخطاب الإسلامي الصالح من تلك البقايا ولفظ الفاسد.

أما اليوم فطبول الدنيا وتزمير أبناء الدنيا ورقصات شياطين الدنيا على بابك، تُصِمُّ الآذان وترمي بشررها على الوجوه. فلا الخيرُ ولا الشر ولا المصلحة ولا المفسدة تقاس بمقاييس تعرفها الفطرة فتلينُ إليها، وتطمئن إليها النفس المؤمنة بالمعاد فتسلك بباعثها.

لذلك فالتحدث بلغة القرآن في عصر ساد فيه حديث الفلسفة والثقافة والفن واللذة والمنفعة و«السعادة» والمتعة والمردودية وتوابعها مَدخل صعب. ولذلك حَقَّ على الإسلاميين أن يُلحوا على ما كان مسكوتا عنه لبداهته في كلام سلفنا العلماء المؤمنين. وحَقَّ أن يتميزوا في العبارة، يقاتلون في صف الكَلِمِ القُرآنية السنية كل عوامل التلوث المعرفي.

يشترط علماؤنا الأجلة في المجتهد الذي يستنبط الأحكام، ويستنطق النصوص، ويراعي في الترجيح مقاصد الشريعة ومصالح العباد أن يكون عالما متبحرا في اللغة العربية، وأن تكون آيات الأحكام وأحاديثها محققة نُصبَ عينيه، وأن يكون على معرفة تامة بالحالة الاجتماعية الاقتصادية العُرْفِيَّةِ للعباد حتى يتمكن من القياس. وأن يعرف وجوه العلة ومسالِكها ليغطي باجتهاده المساحة الواسعة التي لم يغطها التشريع بنص قطعي.

وفصل فقهاؤنا الأصوليون العباقرة كيف تُفسر التكاليف الشرعية، على مراتبها، بِعِلَّةِ ضمان مصلحة العباد لكي تضمَن الضروريَّ من حفظ الدين والنفس والنسل والعرض والمال، ولكي توسِّعَ بالمقاصد الحاجية على العباد وترفع عنهم الحرج، ولكي تكمل بالأهداف التحسينية وتجمل.

وفصل سلفُنا الصالحون رحمهم الله كيف تمنع الشريعة بمقاصدها هذه السامية التهارُجَ والفساد وفوت المصالح في الدنيا، وكيف تعطي للمسلم والمسلمة الاستقرار والأمن والكفاية المعاشية لينصرف العبد إلى تهييء آخرته، يرى مستقبله بعد الموت هو القبلة وهو الغاية وما في الطريق إلى الآخرة تسهيلات ووسائل.

كان هذا واضحا معروفا غيرَ منكر في الخطاب السليم العزيز بسلامة الدعوة ورجالها رغم كابوس الدولة العاضة. كان المعين القرآنَ والسنة، لا يُداري في ذلك ولا يُماري إلا زنديق ملفوظ مرفوض. أما في يوم الإسلام وغده فالمصدر المعرفي للثقافة الدوابية السائدة المعارضة الـمُشاكِسة يفور من فلسفة سقراط و«سعادة» إبقور وسياسة ماكيافيلي ونضالية فولتير وحرية روسو و«أخلاقية» هوبز وستوارت مل وبنتام وعدالة ماركس.

الدين في سياق الثقافة الدوابية عامل مُدَجّن من عوامل الاستقرار الاجتماعي لا بأس بوجوده هناك وبقائه لتتسلى به العجائز. أو هو «أفيون» للشعوب يُحارَبُ ريثما تغيثه البرسترويكا فتعيده إلى دار الأمان في ركنه مع العناكب العتيقة.

الدين في نظر خصومنا اليوم وغدا من أبناء جلدتنا وغيرهم موروث ومخزون نفسي وما شئتَ. لكن المصلحة هي اللذة و«السعادة» و«الحياة» والفن. وما يكونُ من أخلاقية سلوكية وديمقراطية سياسية وأمن في العالم وحفاظ على البيئة وتطوير للعلوم والمخترعات ورعاية للصحة إنما هي وسائل لأنانيتي الفردية والقومية تُرْضَى بها الرغبات واللذات. ويقول لسان حال أولئك ولسان مقالهم: إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما نحن بمبعوثين.

يفصل علماؤنا الأصوليون رحمهم الله القول في مصالح العباد وعلل الأحكام ويمرون مرَّ الكرام بعلة العلل وشرط الوجود والصحة للمجتهد واجتهاده: الإيمان بالله وباليوم الآخر. وباليوم الآخر. وباليوم الآخر.

يمرون لبداهة الشرط. ونحن لكيلا يجرفنا التيار الفكري الحضاري الدوابي ينبغي أن نعلن إيماننا. وينبغي أن نصرح به. وينبغي أن نقاتل عنه. إن كان إسلامنا نائما عن معاني الإيمان فلن نعلن ولن نصرح ولن نقاتل حتى يستيقظ فينا الإيمان. وإن كان إيماننا قاصرا عن مطمح الإحسان فلسنا أولئك الذين يؤيد الله عز وجل بهم دينه. لسنا من حزب الله حتى نجمع الدين إسلاما وإيمانا وإحسانا.

قال الله عز وجل: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴾[1].

هنالك مقاصد الشريعة وهناك إرادة المكَلَّفِ. فإمَّا يكونُ المكلف مطيعا لأمر ربه، مريدا للآخرة، ثم طامحا لرضى الله، ثم طامعا في النظر إلى وجه الله. وإما يكون عبدا لهواه، ولذته، وأنانيته. ذاك يسعى للآخرة وسعادة الآخرة فهو مع الشريعة سامعا لها مطيعا واثقا أن فيها رعايَة مصلحته الكلية الواصلة بين الدنيا والآخرة. وهذا يسعى سعي الدنيا، فمن يخرجه من داعية هواه؟ وكيف نطبق له وعليه أحكام الشريعة؟ وما موقفنا منه اليوم وغدا وإرادتنا غيرُ إرادته، ومصدرنا غير مصدره، ومرجعيتنا غير مرجعيته؟

إن شريعة الله عز وجل خصصت للعباد نصيبهم من الدنيا، وجعلت للعبد من نصيبه في الدنيا ووسائلها مَرْكَباً يوصله إن آمن واتقى ونوى وأحسن إلى سعادة الآخرة. وإن توفيرَ هذا النصيب للعباد ضرورة لكيلا تفتنهم الدنيا بالفقر والمرض والجهل والحاجة عن مطلبهم الأخروي.

فبما نحن غدا إن شاء الله دولة فعلينا أن نحمل همَّ العباد ونعمل، وَعَيْنُ الرقباء والمعارضين تتربص، على توفير المعاش الكريم للناس.

وبما نحن قبل كل شيء دعوة فعلينا أن نحمل مع هم آخرتنا هَمَّ آخرة العباد. فما نحققه من خير ومصلحة في تدبير المعاش في إطار الشريعة ومصلحتها دعوة في حد ذاته وتأليف. وسيلة أخرى من وسائل الدنيا نستعملها للدلالة على سعادة الآخرة ومصلحتها وطريقها. للدلالة على الله الكريم الوهاب.

لاَ تذهبْ بنا الغفلة إلى التباري مع اللذاتيين في ميدانهم وبشروطهم. ذلك هو الذوبانُ الذي يهدد الدعوة.

(1) سورة الإسراء، الآيتان 18-19.

قال قوم قارون لقارون كما قص الله تعالى علينا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[2]. قال بعض المفسرين النابهين: أوصَوْهُ أن يتزود من نصيبه في الدنيا لآخرته.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسم لنا حدود ضرورات المعاش: «**من أصبح منكم آمنا في سِرْبه، مُعافىً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**». رواه الترمذي وابن ماجة والبخاري في الأدب عن عبد الله بن محصن رضي الله عنه.

العباد عجِلونَ قلِقون على الرزق، فتوفير نصيبهم الكريم العفيف من الدنيا يُفرِّغ قلوبهم من الهم اليومي العاجل لينصرفوا إلى طلب الآخرة.

علة العِلَلِ في الشريعة وأم المصالح وآخرة الاجتهاد هي إخراج العباد من داعية الهوى ليكونوا عباداً لله كما قال الله جلّ الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]. وعقبة الدنيا وهم الدنيا ومشغلة الرزق لا تُقتَحم بالإرادة المستعلية على الدنيا فقط، بل لا بد من مساعفة العبد بالنصيب من الأمن والعافية والقوت ليصفُوَ قلبه ويكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كانت الآخرةُ همَّه جعل الله غِناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقرَه بينَ عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**». رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

من يخبر بأمر الآخرة، من يَحْقِنُ بِهَمِّ الآخرة خلائقَ يعتقد الواحد منهم أنه عُلْبَةٌ هضمية، دودة أرضية للاستهلاك والمتعة؟ ومن يُرِدْ الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا.

(2) سورة القصص، الآية 77.
(3) سورة الذاريات، الآية 56.

وازعا القرآن والسلطان

كلمة سيدنا عثمان رضي الله عنه مشهورة إذ قال: «لَمَا يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن». والمعنى لهذه الكلمة يختلف حسب اعتبارنا لكلمة «ما» ظرفا مصدريا أو اسما موصولا.

قال أهل اللغة: «الوَزْعُ كفُّ النفسِ عن هواها». قالوا: «الوازع في الحرب: الـمُوَكّل بالصفوف، يَزَع من تقدم بغير أمره».

وزْع السلطان إذاً زجره للناس عن أهوائهم، وردعه إياهم عن المخالفات بقوة الإكراه. وبهذا المعنى يفهم عامة الناس الشريعة، يتبادر إلى أذهانهم كلما ذكرت الشريعة وتطبيقها الزجر والإكراه والعقاب، وتختلف إلى أخيلتهم صوَر البتر والقطع والقتل، وتضخِّم الدعاية الأجنبية ضد الإسلام وسوءُ تصرف من يقطعون ويقتلون على غير بصيرة وباسم الشريعة المخاوفَ في النفوس.

وفهمُ كلمة سيدنا عثمان رضي الله عنه خارج ظروف الفتنة التي سُفِك فيها دمُه، وإطلاقُها لمعناها باعتبار «ما» ظرفية مصدرية ميلٌ إلى اعتبار الزجر والوَزْع والحد أصلا واعتبار وازع القرآن فرعا. وهو قلب للحقائق. فإذا نظرنا إلى أن مولانا عثمان رضي الله عنه لفَظَ مثلَ هذه الكلمة في ظروف كثُر فيها من لا يزدجر بوازع القرآن كما كان العهد من قبلُ، كثر فيها «ما» لا يزعه القرآن كما وزع المهاجرين والأنصار، توجه لنا الفهمُ المستقيم إن شاء الله.

إن وازعَ القرآن في النفوس، ووازعَ خوف الله عز وجل والحياء منه، الكافَّين للأهواء عن المعاصي والموبقات هو الأصل. فمن لم يرتدعْ بإيمانه بالله وخوفه من عذاب الله في الآخرة وحيائه من ربه المنعم الحليم الكريم فسوْطُ السلطان وحد الشريعة وتعزير القاضي يسُدُّ في سلوكه ثغرةً انفتقت بانفتاق إيمانه. والأشخاص الذين يتناولهم وازِعُ السلطان ورادع الحد والتعزير هم الاستثناء من

جماعة المسلمين لا الأصلُ. وكلما كان وازعُ القرآن في القلوب أقوى كان حيّز وازع السلطان والحد والتعزير أضيق.

في المجتمع الإسلامي السوي يسأل العباد في تبتلِهم ومحاريبهم من الله عز وجل أن يلهمهم التقوى. قال سليمان بن داود عليهما السلام وهو يقدر نعم الله عليه إذ جعله خليفة في الأرض: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[1].

قال الراغب رحمه الله: أوزعني أن أشكر أي ألهمني لأزَعَ نفسي عن الكفران.

ويصِف الله تبارك وتعالى عبده الرشيد الذي يبلغ أَشُدَّهُ ويسمع وصية ربه بأنه العبد الذي يدعو: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2].

الواحد من ﴿ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ في قلبه باعث على طاعة الله ورسوله، باعث على الاستقامة وفعل الصالحات. وفي قلبه وازع عن معصية الله ورسوله، وازع عن المفاسد. فهو بين باعثه الإيماني ووازعه التَّقَويِّ الوَرَعيِّ. عبد لله عز وجل لا لهواه، عبد منيب تائب من زلاته مستغفر من لَمَمِهِ.

وجماعة المسلمين المحمولةُ على أكتاف المؤمنين الذين يعملون الصالحات يسودُها المعروف ويكِلُّ فيها المنكر، ويُزْجَرُ أهله كما يزجر الشواذُّ. إن وقع أحد المؤمنين في موبقة، وليس من المؤمنين معصوم حاشا الأنبياء عليهم السلام، أسرع إليه وازع القرآن في قلبه ووبخه وبكّتَه فندِم وتقَذَّرَ نفسه الملوثة بالمعصية. فتكون توبته وتطهُّرهُ منها عافية له وللناس جميعا من حوله.

هذا النوع من المؤمنين الخائفين من ربهم المستحيين منه، المتفكرين في آلائه، المراقبين لأفعالهم مخافة يوم العرض عليه، يكون زمامُ أنفسهم بيدهم، لا يكونون

(1) سورة النمل، الآية 19.
(2) سورة الأحقاف، الآية 14.

عبيدا لهواهم. هذا ماعِز جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعترف بأنه زنى ويطلب أن يقيم عليه الحد. لم يفضحه أحد ولا تجندت الشرطة والنيابة العامة والمحاكم لمقاضاته. إنما دفعه إلى الاعتراف وازع القرآن في قلبه ورغبتُه في تطهير نفسه بالتوبة والحد لينصرف إلى آخِرته راجيا المغفرة وحسن المآب.

وما هكذا شأنُ عبيد الهوَى، عبيد اللذة وعابدي «الحرية» كما يفهم الحريةَ الجاهليون. الحرية هي استقلال أنانيتي عن كل وازع أخلاقي أو ديني. لا يعرف «الأحرار» إلا عبودية شهوتهم، يحدها فقط القانون الوضعي الذي يقف مثلَ جندي المرور لكيلا تصطدم «حرية» هذا بحرية ذاك، ولكيلا تفسد شهوة هؤلاء و«مصلحتهم» اللذاتية الاستهلاكية بشهوة أولئك.

في المجتمع الإسلامي الـمُعافَى يَنْشَطُ وازع القرآن، ويرتبط المسلمون برباط البِر والتقوى، ويتعطل أو يكاد وازع الزجر والحد والعقاب. لما بويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة عيَّن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضيا. فلبث سنة لا يتقاضى إليه أحد. عرف المسلمون حدود الله فما تعدَّوْها. وقدَّروا نعمة الإيمان حق قدرها فصانوها بالعِفَّة. وعرفوا ميل النفوس إلى الشهوة، فاحترزوا من الهوَى والشيطان أن يغرياهم.

ما تشتهيه الأنفس من متاع الدنيا وزينتها ولذتها نهْبٌ مُقَسَّم مُباحٌ في شرع «الحرية» الدوابية. لا حد لحقك في النهب إلا ما يرسمه القانون وتزجر عنه العقوبة. لا حلال ولا حرام ولا إثمَ إلا ما منع غيرَكَ من المشاركة الديموقراطية في نهب اللذات.

أما في شرع الله عز وجل وحكمته، فالدار دار ابتلاء وامتحان، والآخرة، يراها المؤمن بعين قلبه يقينا، هي دار الجزاء والنعيم والجحيم. وقد أحل الله تعالى لعباده الطيبات، وحرم عليهم الخبائث، وأمرهم ونهاهم، وعرَّفهم المعروف وحببه إليهم، وكره إليهم الإثم والفسوق والعصيان. وركَّب فيهم الشهوة ليرى كيف يُصارع الواحِد منهم سلطان الهوى ليستخلص نفسه من رِقه، وكيف يتناهون

عن المنكر جماعة يَزَع بعضهم بعضا، ويَهْدي بعضهم بعضا، ويأخذ بعضهم بيد بعض. فما شذ عن هذا التماسك والتعاون على البر والتقوى يأتي وازع السلطان ورادع الحدود وزاجر التعزير ليكفه ويَثْنِيَهُ ويقاتله. ذلك كمال حكمته تعالى ودوام شريعته.

في شِرعة «الحرية» والمنفعة اللذاتية يتغير القانون كلما تحول الرأي العام من هوىً لهوىً. ويستكشف الإحصاء الاستطلاعي النسبة المائوية التي مع هذا الاقتراح أو ذاك. ويصوت البرلمان، وتختار المجالس الديموقراطية أيَّ الاقتراحات يُرْضِي الناخبين.

وفي شرع الله عز وجل ثوابت الحلال والحرام، وثوابت الأحكام القطعية. لا تبديل لكلمات الله وحكمته التي خلقت في الكون وفي الطبيعة البشرية ثوابتَ تُقابلها ثوابتُ الشرع. وتفضل سبحانه وتعالى على العباد بمساحة واسعة سكت عنها الشرع، فهي فُسحة المباح وعالم المتحول، يقابل بها الشرع ما في الكون وطبيعة البشر وأعرافهم من متحولات.

هنالِك وِجهةٌ لا يعرفها القانون الوضعي اللذاتي هي وجهة ما بين العبد وربه. غايَةُ القانون الوضعي أن يُسند تنظيماته وأوامرَه التنفيذية إلى مروءة المواطن و«مدنيته». بل تأتي زواجر العقوبات أصلا، والمروءة والمواطنة مكملين.

وِجهةُ المؤمن ربُّه، وآخرته، ورجاؤه في الله، وخوفه من الله، ورِعايته لحقوق الله، وحياؤه من الله، وقناعته بحلال الله عن حرام الله، وشكره لما أنعم به الله وأباحه الله.

مطالب ثابتة وبواعث إيمانية إحسانية لا تتحول، وبثباتها تسمو الشريعة الإلهية على كل الشرائع. وتُكَوِّنُ سماءً عالية يتطلع إلى سُموقها المسلمون فلا يزالون في رُقي دائم.

وازع القرآن في قلوب المؤمنين هو الشجرة المباركة أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء. ومن زعم أنه يرفع المسلمين من وهدتهم بتطبيق الحدود والزواجر فقط

كمن يستنبت في رمال الصحراء أشجار الفواكه. إذا لم يكن المؤمن هو ينهى نفسه عن الهوى، ولم يكن المؤمنون حاملي المجتمع يتناهون عن المنكر ويتآمرون بالمعروف فما يفعل وازع السلطان؟ لا سيما إن كان «ما» يزَعه السلطان أكثر من الكثير.

في المجتمع الإسلامي المُعافَى والسالك سبُل العافية يُسمَعُ بأذن القلب نداء القرآن، قبل وعيد السلطان، في مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1].

الفيصل في قضية إصلاح حال المسلمين ليس تطبيقَ الروادع الشرعية على فضاء خال، ليس حراسةَ مخزَن فارغ بقوة السلاح. الإصلاح أولا يكون بإيجاد ما فقده المسلمون من إيمان يزع الفرد ويربط الأمة بما لا يستطيع أن يربطهم به القانون الشرعي المفروض: ألا وهو التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر. بعدئذ يكون لوازع السلطان مَشغل. وإلى الله تُرجع الأمور. لا إله إلا هو.

(1) سورة النازعات، الآيات 34-40.

قانون التدرج، بل شريعته

رتَّبَتْ قدرة الله العزيز الحكيم في الآفاق وفي الأنفس أن النتائج لا تأتي قبل المقدمات، وأن الصيف لا يأتي بالثمرات وأنَّ الزروع لا تؤتي حصيدها قبل مطر الشتاء وشمس الربيع، وأن الناس لا يستجيبون لداعي الله ولا يدخل الإيمان في قلوبهم ولا تتألف صفوفهم إلا مع الوقت والصبر وطول المعاناة. ولذلك كانت التؤدة من أهم خصال النبوّة، وكانت أسوةُ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] سنة النبيئين وسنة من يتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

من سنة الدعوة التدرج في البناء، وعامل الوقت الذي تدل عليه «حتى» أساسي في القضية. وما وَسِعَ أمةَ الإسلام في مرحلة بنائها الأول يسعُها، بل لا يسعُها غيره، في مرحلة إعادة بنائها. تدرجت النبوة والخلافة الأولى بالناس من جاهلية سائبة لإسلام متمكن، وكذلك تتدرج إن شاء الله الخلافة الثانية بالمسلمين من غثاء شتيت إلى وحدة قائمة، ومن إيمان بال خَلَقٍ إلى إيمان متجدد، ومن كَمٍّ قاعد إلى جند مجاهد.

وليس يبني وازع السلطان وحده شيئا. ولا يُفيد الزجر والوَزْع والردع والعقوبة إن لم يكن في القلوب إيمان حي يكتنزه صاحبه كما يكتنز أعز شيء وأثمنه، يخاف أن يُسلَبَ نعمة هي حياته ومعناه. يسمع المؤمن والمؤمنة خبر الوحي أن المؤمن لا يزني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق ولا ينتهب، فهو دائما على حذر أن يتدنَّس سِرْبال إيمانه بمعصية، يزعه القرآن وتَزَعه السنة ويخاف وعيد الآخرة ويرجو رحمة ربه.

في المجتمع الإسلامي المؤمن حاملُوه الـمُحسنِ خِيارُه تكون المخالفة العلنية استثناء، وتكون العقوبة أقرب إلى التوبيخ العلني، قسوتُها في رمزيتها

(1) سورة الأنعام، الآية 35.

وفي مس شرف المخالف. المخالفون في مثل هذا المجتمع شاذُّون قد أحاطتهم اليقظة العامة المناهضة للمنكر بسياج من الحيطة، يحتقر أحدُهم نفسه أن يقع في محظور، إن لم يَرْعَوِ خوفا من الله ارعوَى خوفاً من الفضيحة.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن السائب بن زيد رضي الله عنه قال: كنا نؤْتَى بالشارب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمْرةِ أبي بكر وصدرٍ من خلافة عمر. فنقوم إليه بأيدينا ونِعالنا وأرديتنا. حتى كان آخر إمْرةِ عمر، فجلد أربعين، حتى إذا عتَوْا وفسقوا جلد ثمانين.

قال أهل اللغة: عتا بمعنى نَبا عن الطاعة وخرج. الأصْلُ الطاعة، والمطيعون هم القاعدةُ الاجتماعيةُ. والمخالف نابٍ خارج تدرَّج المسلمون في عقابه من ضرب بالأردية والنعال إلى الجلد كلما عز الإسلام وقوِي الإيمان واكتمل السلطان.

وبالتدريج تنزل الوحي والتكليف والأحكام. لم يكن بمكة سلطانٌ يزع المسلمين قبل الهجرة، ولم يُفْطَمْ المسلمون عن مألوفهم في الجاهلية إلا بالتدريج. جاء عراقي إلى أمنا عائشة رضي الله عنها فقال: «يا أم المؤمنين! أريني مصحفك. قالت: لم؟ قال: لعلي أُؤَلِّفُ القرآن عليه [أي أرتبه] فإنه يُقْرأُ غيرَ مؤلَّفٍ. قالت: وما يضرك أَيَّهُ قرأت قبلُ؟ إنما نزل أولَ ما نزل منه سورة من المُفصّل فيها ذكر الجنة والنار. حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزلَ أوّلَ شيء: لا تشربوا الخمر! لقالوا: لا ندع الخمر أبدا! ولو نزل: لا تزنوا! لقالوا: لا ندع الزنى أبدا!» الحديث رواه البخاري رحمه الله.

من الناس من يرى واجبا على الإسلاميين أن يبدأوا بالعقوبة أولَ ما يصلون إلى الحكم مُقدِّمين أن التنزيل اكتمل، وأنه لا يسَعُنا إلا التطبيق الكامل منذ أولِ يوم يحوز فيه السلطانَ أهلُ القرآن. مثلُ هؤلاء الصادقين الغائبين عن حقائق النفوس وعن أسرار الشريعة يستنبطون استنباطا تعسُّفيا يُلْغي سنن الله ويلغي العلة القياسية. وفي قول أمنا عائشة رضي الله عنها: «لَوْ قال كذا لقالوا كذا» فقه للأسباب والعلل لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شُكورا.

وَلَوْ بدأتَ يأيها الحاكم الإسلامي بالعقوبة وأنت ومن معك قلة تفيض من حواليها الجماهير لقالوا لك. ولو فعلت لنفَّرتَ والإسلام يبشر ويؤلف. «**يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**» حديث متفق عليه. ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن أولَ ما أسلمَ أهل اليمن أوصاهما قائلا: «**ادعُوا الناس، وبشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**» الحديث أخرجه الشيخان. قال: ادعوا الناس، ما قال: عاقبا الناس أولَ شيء.

«**إن هذا الدين يسر، ولن يُشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا**» حديث رواه البخاري.

إن فطام الناس عن عوائدهم ومألوفهم أشقُّ شيء على النفوس، لا سيما إن طال على الناس الأمَدُ حتى تمكن الهَوَى واستعبدَ الناس. ثم إن الله عز وجل حين حرّم وأحل لم يقطع على الناسِ السبيلَ إلى حق النفوس ونصيبها من المتعة في الدنيا، بل جعل فيما أحل من الطيبات عِوضا عما حظَر ومنع. وجعل قبلَ العقوبة الوازعة مكانا فسيحا للمطالب الغريزية، فيه ترتع حلالا طيبا. بل جاء الأمر لهذه النفوس أن تقتضي حقها. قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً**﴾[1]. وقال عز من قائل: ﴿**فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلالًا طَيِّباً**﴾[2]. وقال جلت عظمته: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللِه الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزَوْرك** [أي زائريك]**عليك حقا**». الحديث أخرجه الشيخان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ما. زاد مسلم: **فإن لولدك عليك حقا.**

(1) سورة المؤمنون، الآية 52.
(2) سورة النحل، الآية 114.
(3) سورة الأعراف، الآية 30.

لَمَّا بال الأعرابي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام إليه الصحابة ليعاقبوه قال الحبيب صلى الله عليه وسلم فيما قال: «**إنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**».

أفتكون أيها الأحبة «بعثْنا» بالتعسير والتنفير قبل أن نبني القاعدة الواسعة وقبل أن يستأنِس أعرابيُّنا بأنّ دينه يفطم عن الخبائث ويُحل الطيبات، ويقدم الطيبات، ويسعى للعدل، ويعمل ليأخذ كل ذي حق حقه؟ كيف تَقطَع الأيديَ في مجتمع يسودُه الجَوْرُ، مجتمعٌ يزداد فيه الفقير فقرا والغني غنِىً؟

إن جئنا بالعسر والمشقة إلى أهواء الناس نوشك أن يثور علينا الناس. قال الإمام الشاطبي رحمه الله في «الموافقات»: «إن مخالفة ما تهوَى النفس شاقّ عليها، وصَعْبٌ خروجُها منه [...]. وكفى شاهدا على ذلك حالُ الـمُحِبّين، وحال من بُعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممن صمَّمَ على ما هو عليه، حتى قال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ** ﴾[1] الآية. وقال: ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ** ﴾[2]، وقال: ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ** ﴾[3]. وما أشبه ذلك. ولكن الشارع إنما قصد بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه حتى يكون عبدا لله».

وذكر رحمه الله ما كان من عمر بن عبد العزيز صالح بني أمية الذي حاول أن يصلح ما أفسدوه رحمه الله. جاءه ابنه عبد الملك، وكان له بطانَةَ خير، وكان شابا متحمسا لإصلاحات أبيه، فقال يستعجله في تطبيق الحق وزجر الباطل: «مالك يا أبتِ لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أُبالي لو أن القُدور غَلَتْ بي وبك في الحق!»

فأجابه عمر العالم المجتهد (وهذا أندرُ من النادر في الملوك): «لا تعجل يا بُني! فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة. وإني أخاف أن أحملَ الناس على الحق جملةً فيدَعوه جملة، فيكون من ذا فتنةٌ».

(1) سورة الجاثية، الآية 22.
(2) سورة النجم، الآية 23.
(3) سورة محمد، الآية 15.

هذا هو الفقه، تجدَّد عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله فاهتدى إلى تعليل السيدة الجليلة أم المؤمنين رضي الله عنها. هي أفهمت عراقيا أعرابيا كيف تنزلت الأحكام بالتدريج لعله «لو قال كذا لقالوا كذا»، وهو يخاطب شابا مليئا بالغيرة على الدين وبالغضب على المظالم الموروثة لا يدري أن الحق إذا فُرِض على الناس جملة أنكروه جملة.

إنَّ تجذُّر العادات في الناس، في كل زمان ومكان، وتَمَكُّنَ الهوى حتى لَيُتَّخَذُ إلها لَعلّةٌ مانعة في يوم الإسلام وغده مما منعته في فقه الصحابة والتابعين. وإنما يُصلح آخر هذه الأمة ما أصلح أمرَ أولها كما قال إمامنا مالك رحمه الله. بالقياس السليم لا بالتقليد الأعمى. بمراعاة أحوال النفوس والزمان والمكان.

من الفقه الثاقب ما كتبه شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في كتاب «الفوائد» إذ قال: «الوصول إلى المطلوب [من الصلاح والخير] موقوف على هجر العوائد، وقطع العوائق. فالعوائد السكونُ إلى الدَّعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظمُ من الشرع. فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع. وربما كفروه، أو بدّعوه وضللوه، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم. وأماتوا لها السنن، ونصبوها أندادا للرسول. يُوالون عليها ويعادون. فالمعروف عندهم ما وافقها، والمنكر ما خالفها».

يا من يريد إحياء سنن ماتت وترويض نفوس زمامها في قبضة هوىً جامح بين عشية وضحاها! كان الله لنا ولك، إنه نعم الوكيل.

«باب من ترك قتال الخوارج للتألف»

العنوان الكامل للباب السابع من كتاب «استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم» من صحيح الإمام البخاري رحمه الله هو كما يلي: «باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه». فقه العنوان أن الإمام يقدم في اعتباره هدف تألّف الناس على الإسلام واستمالتهم إليه على عقوبة المخالفين. ولو كان المخالفون معاندين للدين يستحقون القتال.

وجاء رحمه الله بحديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن ذي الخُوَيْصِرَة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقسم فقال له: اعدِل يا رسول الله! فقال له: **ويلكَ! ومن يعدلُ إذا لمْ أعدِل!** قال عمر بن الخطاب: دعني أضربْ عُنُقَهّ! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعند الإمام مسلم حديث مثله عن جابر أن عمر قال: «دعني يا رسول الله فأقتلَ هذا المنافق! فقال صلى الله عليه وسلم: «**معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي!**»

الحديثان واضحان في أن الإمام يحافظ على سمعة الإسلام، ويكره مقالة الناس عنه، ويترك العقوبة للتألف ولئلا ينفِرَ الناس عنه.

في سياق الحديث عن تطبيق الشريعة وعن إرادة الإسلاميين المرشحين للحكم، الزاحفين إليه، نجد هذا الحديث وأمثاله من سنة خير البرِيّة صلى الله عليه وسلم، فنقف عنده بإجلال لنقِيَ أنفسنا والمسلمين والناس العطبَ. ولنتعلم عن أي شريعة نتحدث: أعن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم الرحيمة البانية، شريعة الدعوة إلى الله، أم عن شريعة الزجر والوزع والوعيد قبل أي كلام؟

يقول «الناس» إن الشريعة قديمة لا تستجيب لحاجيات العصر. وهي لِقِدَمها قاسيةٌ قسوة تلك العصور البدوية الصحراوية التي نشأت فيها. فهل تُرانا ننكمش أمام هذا «الرأي العام» الذي يصنعه أعداء الإسلام فننكرَ أن الشريعة فيها شيء من الحدود والغلظة على المجرمين؟ كلا والله! فالحدود المنزلة دين من الدين واجبة التطبيق. لكن في تدرجها، وفي مكانها من الكل الشرعي. هي جزء من الشريعة لا كلُّها. هي سياج حامٍ للبستان، ليس السياجُ هو البستان.

الحدود الشرعية والعقوبات واقيات وزواجر تحفظ بناء الدين من الهدم، ومقاصدَه من سطو المعتدين. فمن جعل في حسابه الزواجر مرتكزا للبناء فقد جهلَ الدين. ومن حدث نفسه بتعطيل شيء منها جهلا وتأويلا فقد ضل. ومن جحد شيئا منها فقد كفر. ليكن هذا مقررا عندك سيدي!

بعد هذا فالشريعة الدعوة، الشريعة البناء، يسر وتبشير ورحمة وتقديم في الاعتبار للكلي على الجزئي ولمصلحة الإسلام وسعته على عقوبة الأفراد. إلا أن يكون في مخالفة الأفراد تهديد للحِمَى يَرجَحُ ضررُه على مصلحة التألّف.

في كتاب الله تعالى 6236 آية، منها ثلاثون تفصل الحدود والعقوبات. واتفق علماء الأمة على أن الحدود المقدَّرة في الشرع ستة، واختلفوا في أخرى.

اتفقوا على أن المرتد يُحد، والقاتل العامد، والشارب، والزاني، والقاذف، والسارق وقاطع الطريق.

فأما المرتد فردته تهدِّدُ ركنا أساسيا من مقاصد الشرع وهو حفظ الدين. والقاتل يهدد مقصد حفظ النفس، والشارب يهدد حفظ العقل، والزاني والقاذف يهددان حفظ النسل والعرض، والسارق وقاطع الطريق يهددان الأموال.

شرعت الحدود لدفع الضرر الآتي من أمهات الجرائم والخبائث. وأحاط الشرع بيِّنَةَ الزنى بشروط مشددة مَيْلاً لتبرئة المتهم. فإن لم يتوفر أربعة شهداء يصرحون بطل الحد. وإن نكص أحدهم أو بعضهم أقيم عليه حد القذف. فلا

تجد في سجلات الإسلام على عهد عافيته إلا حالات نادرة جدا لحد الزنى يحكيها الأجداد للأحفاد.

تشدد الفقهاء المالكية في الحدود وعُرفوا بذلك. وجمهور الحنفية والشافعية والحنابلة على أن السارق لا يُحد إذا سرق من مال قريب من آبائه أو أبنائه، أو سرق من غير حِرز، أو سرق من شريك، أو من بيت مال المسلمين إن كان له فيه حق، أو سرق أحد الزوجين من زوجه، أو سرق في وقت الغلاء والمجاعة.

كل هذه الاحتياطات تغليب لجانب دَرْء الحدود، وجانب العفو، وجانب الستر. وإن الله عز وجل أوصى أولياء القتيل بأن لا يسرفوا في القتل قصاصا في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾[1]. جعل له سلطة واختيارا أن يقتُل القاتل أو يأخذ منه الدية، ثم أوصاه أن لا يقتل وأن يعفُوَ، فالعفو أقربُ للتقوى. روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن حَبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «فلا يسرف في القتل» أنه قال: «بينة من الله أنزلها ليطلب وَلي المقتول القوَدَ أو العَقْلَ». القوَدُ الدية يدفعها الجاني، والعقل الدية تدفعها العاقلة، وهي قَرابة الجاني وعشيرته.

جعل الله عز وجل بشِرْعته السمحة أسوارا بين الناس وبين العقوبة. سور وازع القرآن في قلب العبد، وسور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسور ستر المسلمين بعضهم بعضا، وسور دَرء الحدود بالشبُهات، وسور الشفاعة في الحدود قبل وصول الخبر للقاضي، وسور العفو، وسور ستر الإمام على الجناة، وسور وصية الله تعالى بأن لا يُسْرَفَ في القتل. وفي الآخرة يناجي الحق سبحانه بعض عبيده بما جنوا ثم يسترها ويغفر. وهو الغفور الرحيم.

في البخاري: باب إذا أقر بالحد ولم يبين، هل للإمام أن يستر عليه؟ أورد فيه أن رجلا اعترف للنبي صلى الله عليه وسلم بحد وجب عليه، فحضر الصلاة. فلما صلى الناس قال الرجل: يا رسول الله! إني أصبت حدا فأقم فيَّ كتاب الله!

(1) سورة الإسراء، الآية 33.

قال صلى الله عليه وسلم: **أليس قد صليت معنا؟** قال: نعم! قال: **فإن الله قد غفر لك ذنبك!**»

اعترف ماعز بالزنى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرض عنه ويقول: **لعلك لمست! لعلك غمزت! لعلك نظرت!** كل ذلك ليلقنه العذر. وقال صلى الله عليه وسلم: لرجل يُدْعَى هَزّالاً بلّغ عن ماعز: **يا هزال! لو سترته بردائك كان خيرا لك!**

وقال صلى الله عليه وسلم: «**لا يستر عبد عبدا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**». رواه مسلم عن أبي هريرة. وحديث: «**ادْرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله. فإن الإمام أنْ يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة**». رواه الترمذي عن عائشة مرفوعا، وهو موقوفا على عمر بن الخطاب أصح. وهو حديث لقِيَ قَبول الأمة، فالحدود تُتَجَنَّبُ ما أمكن تغليبا للبراءة على التجريم.

والتعافِي في الجنايات مطلوب. قال رسول الله صلى الله علي وسلم: «**تعافَوْا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب**». رواه أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو.

وبلغ من كراهية النبي صلى الله عليه وسلم للأخذ بالعقوبة أن سعد بن عُبادة سأله قائلا: أرأيت لو أني وجدت مع امرأتي رجلا: أَأُمْهِلُـهُ حتى آتي بأربعة شهداء؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **نعم!** أخرجه مسلم ومالك في الموطإ عن أبي هريرة رضي الله عنه. وزاد مسلم وأبو داود: قال سعد [وقد سمع نهي النبي عن قتله]: بلى والذي أكرمك بالحق! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اسمعوا إلى ما يقول سيدكم!** وعند البخاري أنه قال: «**أتعجَبون من غيْرة سعد! لأنَا أغيَرُ منه، واللهُ أغيرُ مني**». ومع غيرته صلى الله عليه وسلم الشديدة على محارم الله، أثبت الشرط الشرعي، أربعة شهداء، لكيلا تجرف الغضبيَّة الرحمةَ والرفقَ بالخلق.

وبعد، فإن في تطبيق الحدود مصلحةً للأمة لِما تدفع عنها من أخطارٍ تهجم على الدين والنفس والعقل والعرض والمال. وفيها مصلحة للمحدود لِما تطهره من رجس عمله، ولِما تجنبه بعذاب وقسوة عابرين عذاب الآخرة. ذلك كما يفعل الطبيب بالمبتلى. قال الإمام الشاطبي رحمه الله في «الموافقات»: «وكون هذا الجزء [من العقوبة] مؤلما وشاقا مُضاءٍ لكون قطع اليد المتآكلة وشرب الدواء البشيع مؤلما وشاقا. فكما لا يُقال للطبيب إنه قاصد للإيلام بتلك الأفعال فكذلك هنا، فإن الشارع هو الطبيب الأعظم».

عند شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله فقه غاية في الرفق والحكمة فيما يتعلق بالحدود، أوْرده في أول الجزء الثالث من كتاب «إعلام الموقعين». ذكر أن إنكار المنكَر له شروط أهمها أن المنكَر لا يُزال إن خيف وقوعُ أعظَمَ منه. ولا شك أن ما فعله ويفعله في زماننا بعض الحكام من الإسراف في القتل والبتر، يطبق ذلك على من لا سندَ له في عالم المحسوبيات والوسائط، مُنكر نكير.

وذكر رحمه الله الأدلة على أن الحدود لا تطبق في الغزو، واستشهد بإسقاط عمر بن الخطاب حد السرقة عام الرَّمادة. وذكر كيف غرّم عمر رجلا جاءه بغلمان سرقوا لأنه يستعملهم ويجيعهم. أقام عليه العقوبة لا على الغلمان.

وتحت عنوان «التائب يسقط عنه الحد» جاء ابن القيم رحمه الله بقصة رواها الإمام النَّسائي رحمه الله عن امرأة عدا عليها رجل فزنى بها، فاستغاثت فأغاثها رجل. ثم مر جماعة فقبضوا على الـمُغيث. فاتهمته المرأة عند رسول لله صلى الله عليه وسلم. فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بحده قام الجاني الحقيقي فاعترف. فعفا عنه صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: ارجمه! فقال صلى الله عليه وسلم: **إنه قد تاب!** هكذا الرأفة بمن تاب وبمن صلى مع الجماعة فغفر الله له.

قال ابن القيم معلقا على هذه القصة: «وأما سقوط الحد عن المعترف، فإذا لم يتسع له نطاق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأحرى أن لا يتسع له نطاق كثير من الفقهاء. ولكن اتسع له نطاق الرؤوف الرحيم [...]. ولا ريب أن

الحسنة التي جاء بها من اعترافه طوعا واختيارا خشيةً من الله وحده وإنقاذا لرجل مسلم من الهلاك وتقديم حياة أخيه على حياته واستسلامه للقتل أكبر من السيئة التي فعلها. فقاوَمَ هذا الدواءُ ذلك الداء. وكانت القوة صالحة فزال المرض. وعاد القلب إلى حال الصحة. فقيل: لا حاجة لنا بحدك!»

والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

التائبون الحافظون

الأسوار في المجتمع الغثائي مهدومة. فلا واعظ الله في القلوب يزجر النفوس الأمارة بالسوء، ولا الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولا الجار والقريب والصاحب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا الدولة تحُد من غُلُواءِ أهل الفجور.

وَضَعَنا على سِكة قانون الربح واللذة والتسيّب الخلقي قهر الاستعمار وسلطان التقليد لحضارة دوابية غالبة. فنحن فراغ وخراب، ونحن قطار تائه على درب الضياع.

لم يبق من البناء إلا آخرُ سور هو هذا الإسلام الفردي الوِراثي، هذا «المخزون» في الأعماق. ولم يبق من التوجه الذاتي إلا بصيص من النور. وما يصح لنا بناءٌ غداة إعلان الحكم الإسلامي إن لم نبدأ باستصلاح البقية الصالحة، وما تَسْلَمُ لنا وجهةٌ إن باغتْنا القطارَ التائه بزجرةٍ تقفه وتقلبه.

في بلاد المسلمين فئات من أهل الكفاءات العملية، من أساتذة معلمين وقضاة ومحامين وأطباء ومهندسين وأدباء وصحفيين. ومن رجال المال والأعمال والإدارة والسياسة.

من هؤلاء مُحنّكون ذَوُو خبرة لا غِنى لنا عنهم البتةَ. ومنهم من كان بالأمس ضالعا، بحكم الانجراف والضرورة، في الرضى عن السوء والمشاركة السلبية فيه. فهل نبدأ تطبيق الشريعة بإقامة الحد على الشبهة والانتقام، أم نبدأ بفتح أبواب التوبة، لا تُقْصِي التوبة إلا رؤوس الفتنة ومُسَعِّريها؟

كنا في سياق الفتنة جميعا، فلندخل جميعا بالتوبة في سياق الصلاح، في سياق الشريعة. وليس العقاب وآياته الثلاثون من جملة 6236 آية إلا جزءاً يسيرا جدا من الرسالة القرآنية الرحيمة.

آيات الله عز وجل تُعَلِّمُنا بتنويع الخطاب وتدويره أنَّنا خلْقٌ لإله قادر مقتدر عليم حكيم ضار نافع رؤوف رحيم ملك واحد لا شريك له. وأننا إليه نحشر، يحيينا ويميتنا ثم يبعثنا ليوم لا ريب فيه. ويحاسبنا على أعمالنا ويجزي ويعاقب. ويقرب إليه من أخلص ويبعد من خان. ويرفع الدرجات ويُردي الظالمين في جهنم.

تعلمنا آيات الله عز وجل أن الله تعالى خلق هذا الكون الدنيوي بما فيه من انسجام ونظام، وتناقض وتدافع، وبحار وأنهار، وسماء وأرض، وزمان وتاريخ، وغرائز جُبل عليها البشر، لغاية ابتلائنا هنا لنتميز بأعمالنا وعقائدنا وإيماننا وعدمه ليوم الحساب وما بعده من خلود في الجنة أو في النار. أعاذنا الله من النار.

في هذا السياق الكلي القرآني ندخل نحن وفئات المسلمين بالتوبة. وعندما تصح لنا التوبة نصبح مؤهلين لأن نُحسَبَ مع الذين أنعم الله عليهم فحفظوا حدوده هنا واستحقوا الجنة في الآخرة. ندخل بالتوبة نحن والمسلمون المتجددون معنا، أو المتعايشون مع حكمنا بما معهم من إسلام وإيمان، أو مروءة وخبرة وإتقان، في سياق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين﴾(1).

هذا السياق يصف المؤمنين الأقوياء الأمناء المؤهلين لحفظ حدود الله. من جملة وسائل الحفظ العقوبة. وما هناك شيء يستحق الحفظ إن لَمْ نَبْنِ على التوبة، ولم نَغرِسْ بذر العبودية لله عز وجل في القلوب، وحمدَه على نعمة الإسلام نستشعرها ونعتز بها، ولم نصطفَّ في المساجد مع الراكعين الساجدين نتعلمُ الخُضوع لعظمة الخالق جل وعلا، ونشاركُ الجماعة في الخشوع لجلاله، تغشانا روحانية المسجد، وتجللنا هيبة الأذان واستقامة الصف. من المسجد، من بين

(1) سورة التوبة، الآيتان 112–113.

الراكعين الساجدين، نخرج خمس مرات في اليوم بثوب من الإيمان جديد، وبنية متجددة، وعزم يتقَوَّى، ومشاركة تحفِز، ووازع قرآني حي.

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من رغِبَ عن سنتي فليس مني**». ورغبتُنا المُشفقة من القطيعة في اتباعه صلى الله عليه وسلم تهدينا إلى نقطة البداية عندما يحين الوقت لاجتماع السلطان والقرآن في مسؤولية أهل المسجد.

ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّلَ مَقدَمه إلى يثرب مهاجرا؟ هل بنى محاكم وأصدر قانونا للعقوبات وعين قضاة؟ لا بل بدأ ببناء المسجد مستعجلا. وسقفه بجريد النخل. فلما راجعه الصحابة رضي الله عنهم في شأن السقف يريدون تقويته قال: «**بل عريش كعريش موسى، خُشيبات وثُمامٌ. الشأن أعجل من ذلك!**».

أعجل من أن يحتمل الانتظار، وأعجلُ في حق راحلٍ للآخرة يخشى أن يفوته في برنامج بناء الحيطان والسقوف صلاة يوم في الجماعةً.

وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه الشريفة في البناء. فانتهض المهاجرون والأنصار بنشاط لحمل اللَّبِنِ والمشاركة. وقال قائلهم:

لئِن قعدنا والنبيّ يعمل ... لذَاكَ مِنَّا العمَلُ المُضلَّلُ.

وصاروا يبنون بنشاط وينشدون والنبي صلى الله عليه وسلم يردد معهم:

لا عيش إلا عيش الآخره ... اللهم ارحم الأنصار والمهاجره.

للنهضة الثانية، نهضة الخلافة على منهاج النبوة، نحتاج رجالا، ونساء، أقوياء أمناء، مسلحين بالعلم والخبرة والكفاءة العملية ليحملوا للعالم رسالة الإسلام، ليُغيروا وجه العالم، ليُجيبوا عن الأسئلة من الحجم الضخم التي يطرحها العصر على الإنسانية، ليقاوموا في مقدمة المستضعفين طغيان الرأسمالية العاتية التي تستعبد أربعة أخماس الإنسانية ليعيش القلة المستعلية في الترف واللذة.

وما يغير وجه العالم من لم يغير نَفسه. ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1]. وما يغير النفوس الخارجة من تَوِّهَا من حضن إسلام بالٍ إلا توبةٌ على منهاج النبوة. لا أقصد بالتوبة مجرد الندم على ذنب والكف عن معصية. لكن التوبة العميقة التي تقلب كل الموازين، العقلية القلبية الأخلاقية السلوكية، وتوجه التائب وِجهةَ الآخرة، وتستنقذه من عبوديته لهواه وأهواء الناس، وتُخْلصهُ لله عز وجل خالقِه ورازقِه. التوبةُ بهذا المعنى قلب دولة كما يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمهُ الله. قلبُ دولة النفوس، لا مَسْعَى من دونها لقلب دولة الباطل في العالم.

برنامج التوبة من كفر لإسلام بسَطَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخطبتين الأوليين في مسجده. وهو برنامج صالح لتوبتنا مع المسلمين من فتنة الإسلام الراكد والإيمان الخَلَقِ لإيمان مجدد مجاهد فاعل مغير.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته الأولى بعد أن حمد الله وأثنى عليه: **أيها الناس! فقدِّمُوا لأنفسكم! تَعْلَمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ أحَدُكم، ثم لَيَتْرُكَنَ غَنَمَه ليس لها راع. ثم ليقولَنَّ له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسول فبلغك؟ وآتيتك مالا وأفضلتُ عليك؟ فما قدمت لنفسك؟»**

«التوبة قلب دولة» أيها الأحباب! هي وضع الدنيا في سياق الآخرة، هي نظم الدنيا في سلك الآخرة، هي الذكر الدائم لله عز وجل والمصير إليه، ثم العمل الجاد الدائب في الدنيا للآخرة. عقيم هو الإيمان بالمصير إن لم يحفز على العمل الصالح.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته الثانية، في «بلاغه الثوري» رقم 2 أستغفر الله. قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «**إنّ أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى. قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر [...] أحبوا ما أحب الله. أحبوا الله من كل قلوبكم. ولا تَمَلُّوا كلام الله وذكره. ولا تَقسُ عنه قلوبكم**». كذا نقل الخطبتين ابن إسحاق رحمه الله.

(1) سورة الرعد، الآية 12.

بلاغ تربوي عمادُه حب الله عز وجل، والتمسك بكتابه، ودوام ذكره. بلاغ رحمة يخاطب القلوب ويحذرها من القسوة التي تعتري من لا يذكر الله، ولا يحب الله، ولا يجعل كتاب الله وتلاوته والعمل عليه عمدة حياته. وذلك البلاغ هو الخطاب الدائم للإنسان، للمسلم والمؤمن. لا تغيير يُرجَى لمن لا تدفعه صحبة أهل المسجد والمحافظة على الجماعة وعلى مجالس الإيمان إلى المداومة على ذكر المصير وذكر من بيده النفع والضر والجنة والنار سبحانه. هو القائل: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّه ﴾[2]، أي من عدم ذكره أو قلة ذكره. نعوذ بجلالك لا إله إلا أنت!

(2) سورة الزمر، الآية 21.

الفصل الخامس

العمران الأخويُّ

- عمران، وأخوي
- خصائص العمران الأخوي
- الـزكـاة
- في المال حق سوى الزكاة
- البِـر والبذل
- العدل والتنمية
- النـفـط

عمران، وأخوي

أستعمل «عمران» ولا أستعمل «حضارة» حرصا على أن لا تختلط المفاهيم على قاصدين مسلمين سِكَّتُهم إلى المستقبل الدنيوي والأخروي يجب أن تكون واضحة.

فكلمة «حضارة» يترجم بها العربي الكلمة الفرنجية «سفلزسيون» التي تكسوها الأنفس الـمُعجبَة بزينة الدنيا وبَهْرَجِها حلة من الهيبة والجلال. ومدلولها ماديٌّ دنيوي محض. لا تُنْبئ عن شيء من معنى الإنسان ومصيره. لا تنبئ عن البعث والجزاء والخلود في الدار الآخرة. فهي خِداعٌ.

قال أحد «علماء» الاجتماع يعرِّفُ «الحضارة»: «الحضارة تشمل الوسائل المنفعية المادية للحياة الإنسانية الاجتماعية. الحضارة لها طابعٌ عقلاني يفرضه تقدم الظروف الطبيعية المادية للعمل والإنتاج والتكنولوجيا».

هذا تعريف من بين عشرات التعريفات التي يتفنن فيها خاصة الألمان. وقد وضعتُ بين هلالين كلمة «علماء» احترازاً من الخلط. إنما العلماء المؤمنون بالله وباليوم الآخر، الذين يخشون الله، ويطيعون الله، وينصرون الله ورسوله. أولئك هم الصادقون. وفي بقية هذا الكتاب إن شاء الله أستعمل كلمة «فضلاء» لوصف أهل المعارف الدنيوية بنَعْت يعترف بما معهم من مروءة يقدرها الإسلام ويعترف بها دون أن يتجاوز بها حدها. وقد كان أسلافنا يقولون: «الفاضل إبوقراط» و«الفاضل جالينوس». لا يقولون «عالم» إلا لأهل القرآن.

أستعمل «عمران»، لا أستعمل «حضارة» لأن الحضارة «وسائل منفعية مادية للحياة». ولا يعرف الـمُرَصِّفون للحضارة آخرةً ولا يعترفون برب حتى يكونَ بين قُصُودنا وقُصودِهم معنىً مشترك تجمعنا معهم عليه كلمتهم المترجمة «بحضارة».

كان ابن خلدون رحمه الله يضع كلمة «حضارة» في مقابلة «بداوة». وكان يستعمل كلمة «عمران» للتعبير عن الازدهار الاقتصادي من زراعة وتجارة وبناء.

قصدي بالعمران يشمل المدلول الخلدونيّ لـ«عمران» والمدلول العصري لـ«حضارة» مربوطَيْن بتوجّه القاصدين المعمِّرين المتحضرين على منهاج السكة المستقبلية العابرة من الدنيا للآخرة، مربوطين بمعاني عِمارة المساجد الواردِ فيها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾[1]. مربوطين بالكلمة القرآنية التي بلغ بها العبد الصالح سيدنا صالح عليه السلام قومه بمراد الله الشرعي من المؤمنين إذ قال لهم : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[2].

القاعدة «الطبيعية المادية للعمل والإنتاج والتكنولوجيا» هي القدرُ المشترك بيننا وبين أبناء الدنيا. وهم في عصرنا متمكنون من هذه القاعدة مستقرون في الأرض مستكبرون فيها. وهم ممكور بهم لطغيانهم في الأرض بغير الحق، تقودهم التكنولوجيا إلى حيث لا يعلمون. أما نحن فدعوة الله عز وجل لنا للاستخلاف في الأرض، ووعده لنا بالتمكين فيها متى وفينا الشرائط الكونية الشرعية حافزٌ معنوي إيماني قوي لنزاحم أبناء الدنيا في الأرض، ونزحزحهم عن القيادة، ونقيم دين الله عز وجل، ونأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونحكم بالعدل، ونَحنُوَ على الإنسانية بالإحسان.

في مقابل حضارتهم المادية التائهة يقترح علينا الإسلام، ويجب أن نقترحَ نحن على البشرية، مشروع مجتمع أخوي، عمران أخوي، لا مجرد حل إسلامي بديل. بديلٍ له، شاء أم أبى، ملامحُ الـمُبدَلِ منه وحدودُه.

رائدُ اقتراحنا ومشروعنا وأملنا، بل يقينِنا، قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن

(1) سورة التوبة، الآية 18.
(2) سورة هود، الآية 60.

قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[3].

شرط الوفاء أن نكون له سبحانه عبادا عابدين، لا عبادا للدنيا وزينتها، لا خدَمَةً لهوانا ولذتنا، لا عبيدا للدنيا والدرهم والقطيفة والشهوة والغضب والميل والبغض وسائر ما يحرك الحضارات الأرضية وأهلها.

وأقصد بكون العمران أخويا احتضانه الأخوة الموصوفة في الشرع بين المسلمين والمؤمنين، المأمورَ بها من قِبَله.

عمران العدل والإحسان ينبغي أن يبسُط للأخوة بين التائبين المتحررين من سياق الحضارة المادية والقانون الوضعي والمعَاشِ الغابوي بِساط الرحمة. قال الله تعالى يوجه تعاملنا مع من جاء من شرك لإسلام: ﴿**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾[4].

إقامة الصلاة ليسَ مجردَ أدائها، بل القيام بشرائطها، من أول شرائطها تشييد أركان الإسلام في حياة التائب من شرك أو من إسلام وِراثي بالٍ. ثم الانتهاء عن المنكر لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. بانتهائه وكفه نعلم هل هو مقيمٌ للصلاة أم منافق مُندس.

ثم من شرائط دخول التائب في نطاق أخوتنا الزكاة. وهي المساهمة في الحد الأدنى من التكافل الذي يطبَع العمران الأخوي.

«**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن فَرّج عن مسلم كُربة فرج الله عنه بها كُربة من كُرب يوم القيامة. ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**». حديث رواه الشيخان والترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم.

أُخُوة بين مسلمين تضُمُّ إليها التائبين في أمان وخدمة متبادلة ورحمة وعفو وستر.

---

(3) سورة النور، الآية 53.

(4) سورة التوبة، الآية 11.

وتحيط بهذه الأخوة الحانية وتكلأُها أخوة بين المؤمنين. والمؤمنون، لا المسلمون، هم المخاطبون بالقرآن الحاملون أعباءَ المجتمع الأخوي. الرباط بينهم قلبي إيماني. التأليف بينهم عميق الجذور كالشجرة الطيبة تثمر للمسلمين التائبين وللناس أجمعين ثمار العدل والإحسان والبر والعطاء الأخوي والأمن والعفو والستر. وتفريج الكُرب والخدمة وقضاء الحاجات.

قال الله عز وجل يخاطب حمَلَة الأمانة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللِه جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللِه عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[1].

هذا التأليف القلبي بين المؤمنين، وتلك الأخوَّة الحانية الخادمة العادلة المحسنة بين المسلمين هما المِيزتان الظاهرتان، يراهما المراقب من خارج ويعيشهما العضو الحامل و المشارك.

بين المواطنين في المجتمع القانوني روابط مصلحية ينظمها قانون وضعي لا غير. وبين المسلمين ينبغي أن تلُف المواطنةُ الإيمانيَّةُ المواطنة الجغرافية السياسية القومية برداء الرحمة، رحمةِ: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾.

هذه المواطنة المزدوجة يشير إليها ويُشَرِّعُها قول الله عز وجل عن الأنصار الذين آووا النبي صلى الله عليه وسلم وإخوانهم المهاجرين ونصروا وأنفقوا وأحبوا: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

﴿تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾. لو تبوأوا مع الآخرين الدار فقط لكان الكل مواطنين يجمعهم الوطن وتملي عليهم ضرورة التعايش قوانين وضعية لحفظ المصالح. لكنهم تبوأوا الدار وتبوأوا الإيمان كما تبوَّأهما من هاجر إليهم. وبهذا التبوُّءِ الثنائي كانت الأخوة التي أثنى الله عز وجل عليها ونقرأ عنها بإعجاب في السيرة.

(1) سورة آل عمران، الآيتان 102-103.
(2) سورة الحشر، الآية 9.

تبوّأ المكان بمعنى استوى فيه واستقر. فكيف الاستقرار في الإيمان إن كنا نَعرف الاستقرار في الأوطان؟ هذا هو السؤال المحوري دائما. نمسك من هذه الآيات في سورة الحشر أن هؤلاء الأنصارَ المحمودين المشكورين وُقُوا شُحَّ أنفسهم. شح النفس بخلها وانقباضها. فصفتُهم الأولى المؤهِّلة هي خروجهم من عبودية النّفس وهواها إلى عبودية الله تعالى. بهذا الخروج نعرف من تاب «التوبة قلب الدولة»، ومن يحمِل العمران الأخوي. والله ولي المؤمنين.

خصائص العمران الأخوي

ما السبيل إلى الوطن الإيماني المشترك؟ وكيف يتبوأه المسلمون ويستوون فيه؟ إذا ظفرنا بالمنهاج النبوي لهذه المواطنة القلبية فقد ظفرنا بمفتاح أقفال الطبيعة البشرية، وظفرنا بالعلاج الناجع لداء الأمم، وكدنا نبرَأُ من داء الأمم. وأي شتيت من البشر كان أبعد أن يتألف ويتآخى ويكون خير أمة أخرجت للناس من قبائل العرب بمكة والمدينة وجزيرة العرب على عهد البعثة؟ كما بوأهم الله عز وجل الدار والإيمان باستجابتهم لداعيه محمد صلى الله عليه وسلم كذلك يبوئنا نحن الآخِرينَ. إن شاء وهو الملك الوهاب.

المواطنة القلبية الإيمانية بين المسلمين هي أم الخصائص في العمران الأخوي. سِمَتُها النفسية السلوكية الإقلاع عن حب الدنيا والتحررُ من العبودية للهوى. وبهذا الإقلاع والتحرر ينقلب موقف المسلم رأسا على عقب من المِلكية الأنانية لمتاع الدنيا، وتنقلب ذهنيته، وينسلخ من عادات المنكر، ومن الشرك بالآلهة التي يعبدُها الإنسان المشرك والغافل من دون الله: الشحِّ والمصلحةِ الخاصةِ والربحِ واللذةِ والمالِ والجاهِ.

«**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» حديث نبوي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه. «حب الدنيا رأس كل خطيئة، وحبك الشيء يُعْمِي ويُصم». كلمة للحسن البصري رحمه الله. ومتى خرج المسلم بتوبة انقلابية من سجن الدنيا وحبها أفلت من قبضة سَجّانه وكان كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه حين قال: «**مالي وللدنيا! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**». الحديث أخرجه الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

المتحرر من وطن الشح المتبوِّئُ دار الإيمان بصير بالدنيا والآخرة وبالمسلك بينهما كما كان الإمام علي كرم الله وجهه القائل: «ارتَحلَتْ الدنيا مُدبرةً، وارتحلت

الآخرة مُقبلةً. ولكل واحدة منهما بنونَ. فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا. فإن اليومَ عملٌ بلا حساب، وغدا حساب ولا عمل».

إن لكل مذهب سياسي عقيدة عليها يبني قواعده. الرأسمالية تبني على عقيدة المصلحة الفردية الأنانية كما فلسفها هوبز ولوك وروسو ومونتسكيو وغيرهم. هي عقيدة الإنسان الدوابي الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ابن الدنيا الأثير عندها، الفاعلِ فيها بالجدوى الرهيبة التي حولت الكوكب الأرضي والفضاء إلى حديقة له هو زينتها وثمرتها من دون الناس. وللاشتراكية عقيدتها الفاضلة نية لأنها تعلن غضبها على الأنانية الرأسمالية وتريد المساواة والعدل وإنصاف العامل. لكنها تهدمت منها القواعد، فالاشتراكية منذ اليوم حُلم راود أبناء الدنيا، فهناك أطلال تاريخية لمحاولاته سينساها التاريخ.

والتحدي أمام أبناء الآخرة، إن هم حقا انقلبوا على أنفسهم بتوبة كاملة، يتمثل في التصرف العملي المنتج المعطي في مِلْكيّة الدنيا التي جعلنا الله الخالق الرزاق المحيي المميت الباعث الوارث رب الجنة والنار مستخلفين فيها. هو سبحانه أمرَ ليُنفِّذَ أمرَه عبادُه بالاختيار لا عبادُ الهوى والشح إذ قال: ﴿ **آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾[1] وقال آمرا أهل السجن الموقنين بأنهم في قاعة الامتحان بين يدي الموت والبعث والجزاء: ﴿ **وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾[2].

المال مال الله وأنت مستخلَف فيه مأمور بإنفاق الخير. يبقى هذا القول فكرةً مجردة وكلمة تلوكها الألسن الغافلة، لها جاذبيتها إلى سماء الأحلام. أو تتحول على يد أبناء الآخرة مُواطِنِي الإيمان عقيدة راسخة وقاعدة عملية تطبيقية تُعَرِّي المِلْكِية الشُّحِّيَّة الأنانية عن القداسة التي تضفيها عليها الرأسمالية. من سماء الوحي والأمر الإلهي، وعلى أرض الإسلام، وفي أركان المسجد وصف الصلاة ومجالس الإيمان وحِلق العلم، تنزل حقائق الاستخلاف ومسؤولية

---

(1) سورة الحديد، الآية 7.

(2) سورة النور، الآية 33.

المؤمن المشرَّف بأمر ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ إلى أداء الأمانة لأهل الأرض وإيتائهم من مال الله في مزاحمة شديدة لأبناء الدنيا الفاعلين الناجحين الرأسماليين، وفي قيادة المستضعفين في الأرض المنتظرين لعدل وإحسان، دلاَّهُمْ الوعد الشيوعي الاشتراكي بغُرور ولم يَفِ بشيء.

الوعد الاشتراكي كان بالقصد والفلسفة أملا فُتح زمانا في وجه العامل لينصفه الرأسمالي الآكلُ عرقَ جبينه الماصُّ دماءَه، المنتزِعُ فائضَ قيمة عمله. وذهب الأمل ورُدِمَ في رُكام الخراب. فالرأسمالية الشرسة تهدد الإنسانية بالمخلب والناب. والـمُستضعفون، ومن أضعفهم المسلمون السامعون بالصحوة الإسلامية المتطلعون لحكم إسلامي منقذ، ينتظرون عقيدة قوية وقاعدة أصيلة وشريعة مقدسة وطرائق عملية إجرائية تحقق العدل والإحسان. العدل. العدل. العدل. والإحسان.

يسودُ العالَمَ علاقات تجارية باردة مميتة، علاقات الحِساب والربح المادي، واستثمار رأس المال، واللا مبالاة بالإنسان. ويَسود المدينة الصناعية الكبيرة، ومدنَ القصدير، وبوادي الفقر، بؤْسُ العامل الذي حولته الآلة الصناعية لَولَبا من لوالبها، وحوله بؤس البطالة صعلوكا مخدرا، وحوله استبداد الثري المحلي دابة للحرث والحمل والجوع والتناسل في حظائر الهوان.

من أرض البأساء يتطلع المستضعفون إلى رحمة يأتي بها إن شاء الله المقتحمون للعقبة: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾(3).

يتطلعون إلى تكافل اجتماعي، إلى أخوة باذلة، حانية، محبة، تأسو الجراح وتُطلق السراح. شرع لنا القرآن الكريم هذا التكافل بقوله جل وعلا : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(4).

---

(3) سورة البلد، الآيات 12-16.
(4) سورة النساء، الآية 36.

ووصف لنا رسولُه الكريم صلى الله عليه وسلم مَثَلَ العمران الأخوي في قوله: «**مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطفهم مثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**». رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

من أرض البأساء تتطلع الإنسانية الأسيرة في قبضة أبناء الدنيا الفاعلين المؤثرين المتمكنين في الأرض وأرزاقها وخيراتها وأهلها. فما هي الشروط السياسية العملية لتحويل مجْرى الأحداث في مصلحة المستضعفين بقيادة أبناء الآخرة المستخلفين؟

ما هي الشروط لإقامة عدل الإسلام في الأرض؟

في مراحل زحف الإسلاميين إلى الحكم تعترض إرادتَهم عوارض العقائد العلمانية الدنيوية، ويثبط عزائمَهم قعود السواد الغثائي، ويقلل من فاعليتهم قلة التجربة وضخامة الإرث الخرابي النفسي الأخلاقي الاقتصادي الذي خلفه ذرية الفتنة. وتمضي وَفقا لسنة الله في الكون والأنفس فترة تطول أم تقصر قبل أن يقبَل الكافة حُكم الشريعة الإسلامية، وقبل أن يَستقر السلطان في يد أهل القرآن، وقبل أن تكون الشورى هي القاعدة المقررة المعروفة المعززة لنظام الحكم.

هذا هو الشرط الأساسي لإحلال العمران الأخوي، بل لبدايته، محل «الحضارة» الغابوية: الاستقرارُ على الشورى.

ثم يأتي شرط المشاركة العامة في تنظيم الجهود لبناء القاعدة الاقتصادية الضرورية ليكون لنا، في يدنا، من مال الله ما ننفق ونُؤتي. فإنه إن عمنا الفقر، وجرَّتنا التبعية في ذيل قطار الرأسمالية، وأرغمت أنوفنا المديونية، وخاننا العجز العلمي التكنولوجي، وتسربت من بين أصابعنا رؤوس أموالنا، لن نستطيع العيش مع أبناء الدنيا الناجحين، قانونهم التنافسية بلا حدود.

شرط ثالث يمليه الاستقرار الشوري وتمليه بداية نجاح الجهود وتنظيمها، هو شرط اتضاح الأهداف. إن كانت الشريعة ومقاصدها وأوامر الله عز وجل

وأمثلة السنة آلةَ مُعارَضَةٍ على لساننا قبل وصولنا إلى الحكم واستقرارنا فيه، فهي بعد ذلك قواعد مُلزمة وتكليف وحِمل، يرى الله عملَنا ورسولُه والمؤمنون، والمسلمون والناس أجمعون، وينتظر الكل ويتربص الكل. ما كان في الصحف مسطورا، وفي الصدور أملا مطمورا، وفي العقول خطة سابحة في المثالية، يجب أن يصبح برامج حكيمة، قابلة للتطبيق، آخذة في التطبيق، جارية تفرض نفسها بوجودها في عالم الكم والعدد.

وهذا يتكامل مع الشرط الرابع، وهو شرط ملاءمة الوسائل المتاحة للأهداف الإسلامية العمرانية الأخوية. العالَمُ يعج بالوسائل المالية المادية العلمية الصناعية. هي في مُعظمها رهينةٌ في يد أبناء الدنيا. وما فضَلَ منها فوقع في حوزة المسلمين فهو مسخر لأهداف المستكبرين في الأرض. فعُدَّتنا لأسلمة العلوم والخبرات ورأس المال الشارد منا توازي أو تكاد في الأهمية عُدتَنا لفرض الأهداف الإسلامية وتحبيبها وإنجاحها.

وكل ما نحققه إن شاء الله من نُجح في هذه الميادين يكون للمسلمين والمستضعفين عربونَ أخوة، وعطاءً تأليفيا. كان الفاروق عمر رضي الله عنه عطل في زمانه عطاء المؤلفة قلوبهم لتقديره انتفاء العلة. فلم يرَ أن يُعطيَ أحداً شيئا ليحبب إليه الإسلام. العلة في زماننا قائمة بالناس، واقعة بهم، فما نحققه للكافة من خير هو دعوة واجبة. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الزكاة

التأليف الاجتماعي في العمران الأخوي تأليف عضوي تندمج فيه المصلحة الفردية في الصلاح العام، ويعود فيه الصلاح العام على الفرد بكل ما يصون أخوته من عوادي الزمان. مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطُفِهم مثلُ الجسد. ووظائف أعضاء الجسد مُرتَهَنٌ صلاحُها بصلاح الجسد، كما أن وظيفة الجسد محكومة بصلاح أعضائه. تضامن وتبادل يحكي التكافل الذي فرضه الله عز وجل على المسلمين ولهم.

ولم يَكِلِ الشرع المقدس مسألة التضامن في حضن الإسلام لِعواطف التراحم والتواد والتعاطف هكذا مُطلقةً، فالدنيا الشاغلة قد تُنسي الحقوق التي ليس وراءَها طالب. لذلك فرض الله عز وجل حدا أدنى من التضامن هو الزكاة. وشدد في فَرْضِيَّتِهِ، وجعل أداءه ركنا من أركان الإسلام، أوعَد من ضيعه بخزي الآخرة، وأسند إلى الدولة الإسلامية واجب مراقبته وأخذه واقتضائه والمعاقبة الشديدة لمن أضاعه أو منعه أو جحده.

على المال حق لله تعالى يؤديه المتمول المتملك الغني للفقراء. أداؤه امتحان للشح المغروز في الإنسان، يفلح الإنسان إن وُقي شحه وبرهن بأداء الزكاة أن دنياه مُسخَّرة لآخرته. فيما بين العبد وربه يؤذِّن مؤذن الفلاح: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾[1]، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[2]. وفيما بين المسلمين، قلوبهم في سماء التواد والتعاطف وأقدامهم على أرض الواقع، يخاطب الشرع إمام الأمة: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[3]. وازع القرآن يبشر مُؤتيَ الزكاة بطهارة النفس وفلاح الآخرة، ووازع السلطان وكيل القرآن يقول: هات! ومن وراء «هات» الإلزام الصارم.

(1) سورة الأعلى، الآيتان 14–15.
(2) سورة الشمس، الآيتان 9–10.
(3) سورة التوبة، الآية 104.

الصدَقة المزكية المطهرة هي الزكاة بشروطها الشرعية ونِصابها. من تزكَّى بها وبالصلاة وذكر الله طَهُرَ. ومن ادَّعى زكاةً وَتبجَّحَ بأنانية شحيحة فآية ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[1] ترده إلى مرتَع الدِّيَكَةِ المنتفشة. «الصدقة برهان» كما جاء في الحديث. وكل من ادعى خيرا من المتمولين مع شاهد شحه وغائب عطائه فإنما هو كذاب. وشرط الدخول في الأخوة الدينية والمواطنة الإيمانية هو: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾[2].

هذا الحديث عن الوجه العبادي التربوي الإيماني لفريضة الزكاة.

أما الحديث عن وظيفتها الاجتماعية العمرانية فنربطه بالوجه العبادي الإيماني ربطا محكما كيلا تذهب بنا غفلة المقارنة الأرضية بين ما عندنا وما عند غيرنا إلى تجريد الزكاة من مغزاها التطهيري الفَلاَحي الأخروي لنتقدم في معرض الإنجازات التاريخية «بالسبق» الإسلامي إلى تضامن اجتماعي أصيل لم تصل أوربا إلى بعضه إلا منذ ثلاثة أو أربعة عقود. وعندئذ فنحن في مَساق لاييكيةٍ من نوع خاص، اختلست من الشريعة روحَها ونصَبَتها في مضمار التكافُؤ والنِّدِّيّة والسبق جنبا إلى جنب مع قوانين البشر.

في مجتمعات البشر، عندما تحفظ القبلية وبدائية العيش القوم من التبعثُر في المدينة، يكون التضامُن بين ذوي القربى وبين أفراد الأسرة والقبيلة حقيقة اقتصادية اجتماعية ماسكة. ولا يزال بين المسلمين تضامن من هذا النوع لسلامة الفطرة، وقرب العهد بسلامتها، ولاحتفاظ الشرائح الشعبية المسلمة ببعض فضائل الإسلام الاجتماعية.

الآن يُطرح السؤال على الأمة، باديها وحاضِرِها، وبإلحاح وبُؤس ويأس: هل لنا مكان في عالم التحوُّل التّقاني والكواكب الصناعية وشرود العلوم والاختراع بالإنسان وتدفق المعلومات الحاسوبية بلا حدود؟ أمام منجزات العصر قد يبدو

(1) سورة النجم، الآية 31.
(2) سورة التوبة، الآية 11.

لبعض المفكرين من أبناء جلدتنا اللاييكيين الغرباء عن عقيدة الإسلام ومذهبه الحديثُ عن الزكاة وشرعها حديثا عتيقا متخلفا «ماضويا».

الأمة الإسلامية المحافظة على بعض فضائل الإسلام تراوِدُها أصوات من ذات يمين الإسلاميين الممَجِّدِين للدين الفخورين بسبقه، وأصواتٌ من ذات شِمال المتخففين من كل دين، يركَبُهم الذهول المتسائل عن وسيلة للحاق بركب الحضارة الطائرة، ويُفْزِعهم تهديد المستقبل للأمة بالزوال والانسحاق والانمحاق في التيار العالمي المتموج.

من لنا بالهدوء والسكينة حتى نسمع كلام الله وكلام رسول الله لا يستفزنا ضجيج العالم وهوَسه وسرعته! من لنا بالطمأنينة القلبية لنبصر أمر الآخرة من خلال حجاب الدنيا، ولننظم شؤون الدنيا بمعايير الآخرة، معايير الدين القيم!

الزكاة هي «النمو الحاصل عن بركة الله تعالى في الأمور الدنيوية والأخروية». هكذا قال الراغب رحمه الله. لا انفصال عنده وعند أمثاله بين بركة الله في الدنيا وبركته في الآخرة.

المال مال الله وأنت أيها الإنسان، أيها المسلم، مستخلف فيه، راجع إلى ربك لتؤدي الحساب. إنا لله وإنا إليه راجعون. إن زعمت أن المالَ مالُك جاءتك آية: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ ﴾[3] فردتك إلى ربك وَذكرتك أنك لو كنت موصوفا بشيء من صفات الملك لما جاءك الموت ففصلك عن مِلْكك لا تستطيع له ردا. أنت لا تملك نفسك ولا تملك حياة ولا موتا، فكيف تملك ما عداك؟ في المال ومِلكيته وزوالها بزوالك موعظة تذكرك بالآخرة وبرجوعك إلى ربك في يوم لا ريب فيه.

وفي هذه الموعظة تتجلى بركة الله الأخروية، تسمع: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيم ﴾[4]، فتخاف المَعادَ وتغلب شح نفسك وتؤدي فريضة دينك وتتزكى وتفلح.

(3) سورة النور، الآية 33.

(4) سورة التوبة، الآية 34.

لكنك إن حلقت في سماء الروحيات ردتك آيات الله عز وجل وأوامره إلى أرض التكليف، فأخبرك أن المالَ مالُك، واشترى منك سبحانه واستقرض. وأخذتْ منك حقَّ الله يدُ السائل والمحروم والفقير والمسكين. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾[1]. ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[2]. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّه قَرْضاً حَسَنا﴾[3]. ﴿إِنَّ اللَه اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[4].

على أرض التكليف، والمسؤولية عن المِلْك، والشراء والإقراض، والنصاب الشرعي، ومستحِقِّ الزكاة، والعامِل عليها، ومقاتلةِ الإمام مانِعَها، وصرفها في وجوهها، تتجلى بركة الله الدنيوية لتضمن للمسلمين خير الدنيا وكرامة العيش، ولتقيهم ذل الحاجة والمسألة. فهم لا يتلقون تبرعا وإنما يتقبلون حق الله المترتبَ في ذمتك دَينا لا يسقط بالتقادم ولا بالموت، ولا تُعفيك منه أعذار.

الزكاة فرض في كل مال نام. هدفها إغناءُ المستحق لسَنَتِه، بل كفايتُه لمدة عمْره كما هو مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ومذهب طائفة من الفقهاء، بنوْا على قول الفاروق عمر رضي الله عنه: «إذا أعطيتم فأغْنُوا». وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معلم عمر وحجة الفقهاء يعطي الجزيل ويغني السائل. وقد أعطى رجلا ما بين جبلين من إبل وغنم سائمة.

الزكاة في ظل الخلافة الثانية إن شاء الله ينبغي أن تتجدد حيويتها، ويتوسع نطاقُها، وأن تستخلص من خصوصية الفريضة الفردية الاختيارية التي يؤتيها أو يمنعها من يشاء لتصبح واجبا عاما، وسياسة للدولة، ومصدرا للمال قارا.

إن اقتصاد المسلمين، في ظل التبعية للاقتصادات القوية الفاعلة في العالم، يشكو من جملة ما يشكو النقص في رأس المال، وكسل الرساميل الموجودة،

(1) سورة المنافقون، الآية 9.
(2) سورة البقرة، الآية 188.
(3) سورة المزمل، الآية 20.
(4) سورة التوبة، الآية 111.

وعجزها عن المشاركة في التنمية، وهروبها من بلاد المسلمين إلى حيث يغذوها الربا ويُسَمِّنُها. يسمنها رأْيَ العين، وهي المنفوخة الممحوقة.

فإلى جانب وظيفة الزكاة الضمانية التوزيعية حيث يصيب منها الفقير والمسكين وسائر الأصناف الثمانية المذكورة المفصلة في القرآن، ينبغي أن تقوم الزكاة بوظيفة التوفير والتجميع والاستثمار والتنمية. في أصل فرضيتها على المال النامي حافز على استثمار المال مخافة أن تأكله الزكاة. وفي فقه إغناء الممنُوح مَدْرجةٌ للتوفير والتنمية. وقد قال فقهاؤنا رضي الله عنهم بأن صاحب الحِرفة يُعْطَى من الزكاة ما يجهز به حرفته كائناً ما كان.

في عصرنا اجتهد فقهاء آخرون شكر الله سعيهم فأفتَوْا بتوسيع وِعاء الزكاة حتى لا يظَلَّ حيث تركَها السلف الصالح الذي لم يكن يعرف إلا الاقتصاد الزراعي البِدائي المنحصر في الإبل والغنم والقمح والشعير. قعَّد هذا الفقهَ الأستاذ يوسف القرضاوي في كتابه القيم «فقه الزكاة» بانياً على اجتهاد الفقيه أبي زهرة رحمه الله والفقيه عبد الوهاب خلاف رحمه الله وغيرهما.

وقد تقدم بالعلة القياسية الفاتحة لتوسيع وِعاء الزكاة لتشمل الثروات المعدنية والبحرية والفلاحية والتجارية والصناعية. وأتى بالدليل والسوابق الموجبة للزكاة على الدُّخُول القارةِ مهما كانت. وقاس على النقد المستندات المالية وأسهُمَ الشركات. ولو كان المستحقون يُعْطَوْن أسهما لأحرزنا من الزكاة مشاركة في رأس المال تكون فتحا لنا. والله الغني وأنتم الفقراء.

في المال حق سوى الزكاة

في هذه الفقرة أعرض إن شاء الله للعبرة صورة مثال لفطرة إنسانية نفضت عن نفسها، أستغفر الله العظيم، نفض الله سبحانه عنها غبار الغفلة وفض عنها خاتم الجحود. رجاء جارودي النصراني الشيوعي الفيلسوف سابقا، المقبل المدبر، المؤمن الشاك، المثبت وُجودَ الخالق، المماري في طاعته وطاعة رسوله، السابح لا يزال في مفهومياته العقلانية، المدافع بحماس وصدق عن حقوق المسلمين في فلسطين. هداه الله.

جاء راجعا من حضارة بلاها عن قرب وعرفها في العمق وخبرها فعافها ولفظها وفضح معايِبَها. بدت لفطرته المُطلة من تحتِ الركام ملامح غامضة للحق فعبَّر عن مطمحه في سياق نَقده لحضارة هو من أبرز أبنائها. ويستشف القارئ من نُصوصه بقايا الحيرة والخوف من الموت، والانعدام التام لذكر الآخرة. مطاعنه في الحضارة الغربية ترجع إلى جهلها بالله وقسوتها على الناس. دخل جارودي الإسلام كما يدخل اللاجئ يَنْشُدُ في الإسلام المفارقة «transcendance» وينشد المجتمع التضامنيَّ «communauté».

فهل تجلت لبصيرته المتعطشة سِكَّةُ المستقبل الذي ينشُدُه وهو لا يذكر الآخرة كأنه لا يعرفها؟ أم هل يتلقى عن مثله إلا الغموضَ مَنْ يستشهد بالفيلسوف المشهور الذي أسلم عقلُه لكنه لا ينطق إلا عن مكنونه الفلسفي الذي يبحث عن «المفارقة»، لا يسمي من له الأسماء الحسنى سبحانه إلا أحيانا؟

يقول جارودي في مقدمة كتابه «وعود الإسلام»: الإسلام هو النظرة إلى الله والعالم والإنسان التي تحدد للعلوم والفنون ولكل إنسان ومجتمع مشروعَ بناء عالَم إلهي بشري لا تنفصل ألوهيته عن بشريته. عالمٍ يتضمن البعدين العظيمين: «المفارقة والمجتمع التضامني».

ويقول: «آن الأوانُ لنَعيَ أن نمط التنمية الغربيّ الذي يسوقنا إلى حياة بلا هدف وإلى الموت، يحاول أن يبرر بنموذج ثقافة وإديولوجية في طيها جراثيم الموت تصوُّراً ممسوخاً للطبيعة باعتبارها مِلكا لنا يمكننا أن نتصرف فيها ونعبث. [...] تَصوُّرٌ لا رحمةَ فيه للعلاقات بين الناس، مبنيٌّ على مصلحة فردية بلا كابح. [...]. تصور يائس للمستقبل، ليس فيه المستقبل إلا امتدادا كَمِّيّا للحاضر، بلا هدف إنساني ولا تقاطع إلهي. بدون أي شيء يتعالى على هذا الأفق ليعطي لحياتنا معنى وليصرفنا عن الموت».

كيف يتراآى لفيلسوف راجع من الحضارة الجاهلية «مستقبل يعطي لحياتنا معنى ويصرفنا عن الموت؟» الموت إذاً نهاية. الموت إذا هو الشر المطلق كما يعتقد ذلك الدهريون!

وكيف يحُل المجتمع التضامني الأخوي الذي يُناغي خيال الشيوعي الراجع من إديولوجيته محل المجتمع الرأسمالي ما لم تنفتح أقفال الشح عن النفس البشرية المتقمصة لأنانيتها؟

وكيف تنفتح هذه الأقفال ما لم تنفتح لعين الإيمان سكةُ المستقبل الأخروي؟ أم كيف يؤمن بالآخرة المسلم الذي يدور في فلك المحاضرات و«الثقافة الإسلامية»؟ لم يجد من سِلعة رائجة بين المسلمين المثقفين إلا إسلاما ثقافيا. لَمْ يزاحم في صف المسجد ولم يجلس مجلس المتعلم ليذكر الله مع الذاكرين.

قال الإمام الفاروق عمر رضي الله عنه: «تفقهوا قبْلَ أن تُسَوَّدوا». لأنك إذا جلست مجلس الـمُعَلِّم قبل أن تحذِق أبجديات العلم توشك أن تتوسد جهلك في القبر. ومن يصرف عنك الموت الذي تفر منه وهو ملاقيك؟

إن عمل المسلمين لآخرتهم، وحرصهم على أن يُقدموا لآخرتهم كما أوصى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول خطبة له بأول مسجد أسس على التقوى هو الضمانة لبناء العمران الأخوي الذي تحِن إليه الفِطَرُ المتطهرة. وإن اقتحام الدنيا إلى الآخرة هو النتيجة لإيمان بمستقبل أخروي فيه لقاء الله وجزاء

الله ومغفرة الله ورحمة الله وجنة الله ورضى الله والنظر إلى وجه الله. جل الله لا إله إلا الله.

بهذه النظرة المستقبلية الإيمانية الإحسانية التي لا يشكل الموت فيها شرّا بل مرحلة، وبوازع السلطان الراشد الذي يحسُب حساب الدنيا والآخرة يعطي المسلم من ماله حق الزكاة، ويعطي حقا فوق الزكاة، ويعطي مقدما لآخرته بلا شح.

لا يمكن أن نحوِّل الاقتصاد الفردي الرأسمالي الغابوي إلى اقتصاد إنساني آدمي يحمي الضعيف ويصون ذا الحاجة واليتامى والمساكين إذا لم يتبوأ المسلمون دار الإيمان، وإذا لم تكن الشورى مناط السلطان، يُختار بالشورى الأعلمون الأتقون المقتحمون للعقبة. وما أدراك ما العقبة؟

اختلف فقهاؤنا الأقدمون هل في المال حق غير الزكاة، وكل أدلى برأيه وبَسَط أدلته. وتفرَّدَ من بين فقهائنا رحمهم الله الإمام ابن حزم بالدفاع القوي عن وجوب حقوق في المال غير الزكاة. ولو لم تكن له إلا هذه لغطت على حِدَّته وجرأته على الأئمة العظام. غفر الله لنا وله وللمسلمين.

والمِساحة التي يخطها ابن حزم للنفقات الواجبة فوق الزكاة واسعة مَطَّاطة لا يكاد يتيَسر لسلطان المسلمين مراقبتها. فسرد أدلة اجتهاده رحمه الله رجاء تطبيق مستقبلي تُتَاخِم فيه حدودُ وازع السلطان مشارفَ وازع القرآن، وتتوسع إليها، وتشتد في طلبها لتوفير الخير لساكني العمران الأخوي.

قال رحمه الله: «وفُرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرُهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ولا في سائر أموال المسلمين. فيُقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يُكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة. برهان ذلك قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾[1]»[2].

(1) سورة الإسراء، الآية 26.
(2) المحلى، ج6، ص156 وما بعدها.

وذكر رحمه الله من الأدلة حتى قال راويا بسنده إلى الإمام مسلم الحديث النبوي العظيم: «**من كان معه فضلُ ظهر فليعُد به على من لا ظهر له. ومن كان له فضل من زاد فليعُد به على من لا زاد له**». قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحدٍ منا في فضل».

وروى بسنده عن الفاروق رضي الله عنه أنه قال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرتُ لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين». قال: وهذا إسناد في غاية الصحة والجلالة.

وبسنده روى عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه قال: «إن الله تعالى فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم. فإن جاعوا أو عَرُوا وجَهِدوا فبمنع الأغنياء. وحقٌّ على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه».

قلت: ما أحرى حديث النبي صلى الله عليه وسلم في بذل الفضول وعزمة عمر وتثقيل الإمام علي مسؤولية الأغنياء أن تكون لنا دليلا عمليـاً لنذَوِّبَ بالتدريج الفوارق الطبقية البغيضة بين الأغنياء والفقراء، في دار الإسلام وفي العالـم!

قال رحمه الله: وعن ابن عمر أنه قال: «في مالك حق سِوَى الزكاة». وعن أمِّ المؤمنين عائشة والحسن بن علي وابن عمر أنهم كلهم قالوا لمن سألهم: «إن كنت تسأل في دم مُوجع، أو غُرْم مُفظِع أو فقر مدقِع فقد وجب حقك».

قال: وصح عن أبي عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة رضي الله عنهم أن زادهم فَنِيَ، فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم في مِزوَدَيْن وجعل يقوتهم إياها على السواء.

قال: فهذا إجماع مقطوع به من الصحابة رضي الله عنهم. لا مخالف لهم منهم.

وقال: ولا يحل لمسلم اضطُرَّ أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحب لمسلم أو لذمّي. لأنَّ فرضا على صاحب الطعام إطعامُ الجائع.

[...]. وله أن يقاتل عن ذلك. فإن قُتل فعلى قاتله القَوَدُ، وإن قَتَلَ المانِعَ فإلى لعنة الله، لأنه منع حقا، وهو طائفة باغية.

هذه جولات رائعة في فقه الإنفاق لفارس من فرسان العلم. وفي الكتاب والسنة أدلة كثيرة تؤيد هذا المذهب السديد. منها قول الله عز وجل: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[1]. قال ابن عمر رضي الله عنهما: كانوا يعطون شيئا سِوى الزكاة. ومنها وعيد مانع الماعون في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.[2] قال الصحابة رضي الله عنهم: الماعون: عارِية الفأس والقِدْر. يحرم أن تمنع جارك استعمالها. وسِّعْ هذا إلى أدوات العمل والإنتاج، وإلى المرافق ذات النفع العام، ينفتح لك باب الاجتهاد لمجتمع تضامني تكتسب فيه الملكية الخاصة، وهي الأصل في حدود شرط الاستخلاف، مرونة وأداء لوظيفتها الاجتماعية.

ومن الأدلة قول النبي صلى الله عليه وسلم في حق الضيف: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه: جائزتُه يوم وليلة. والضيافة ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة**». رواه البخاري عن أبي شريح العدوي.

وفي كتاب المساقاة من صحيح البخاري رحمه الله: «باب حلب الإبل على الماء». جاء فيه بحديث نبوي يقول: «**ومن حقها أن تحلب على الماء**». معناه أن لبنها يُعطى للواردين على البئر من رُعيان وغيرهم.

وفي حق الجار يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره**». الحديث رواه مالك ومسلم عن أبي شريح.

وعند ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ثلاثٌ لا يُمنعن: الماء والكلأ والنار**». هذا باب فتح لك اجتهادا في تعميم الخير في عصر شحت فيه المياه، وهُدِّدَتْ المراعي والغابات وطغى النِّفط في البلاد. ﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[3].

(1) سورة الأنعام، الآية 141.
(2) الماعون، الآيات 4-7.
(3) سورة البقرة، الآية 243.

البر والبذل

البِرُّ هو «التوسع في فعل الخير» كما قال علماء اللغة. والبذل العطاء بلا منع ولا صون للمال. وفي كلمة «بذل» معنى ابتذال المِلك وامتهانه. وذلك دليل على أنه لم تبق للمال في القلب حرمة، وأن قيمته بدت تافهة منذ قارنه المؤمن بثواب الآخرة الباقي. فيرجع بنا الاعتبار إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر، على هذا الإيمان مدار التحول للفرد والمجتمع. لا يمكن للمسلمين أن ينتظروا تغيير ما بهم حتى يغيروا بتجديد إيمانهم ما بأنفسهم من عقدة حب الدنيا والشح بها، وإيثارها على الآخرة دار البقاء.

قرأنا في الفقرة الماضية شكوى رجاء جارودي من حضارة المادة التي ليس لها إلا «تصور يائس للمستقبل، ليس فيه المستقبل إلا امتدادا كميا للحاضر». وقرأنا انتظاره أن يعطي الإسلام للعالم معنى «وليصرفنا عن الموت». وقرأنا تَوْقَهُ لعالم «إلهي بشري لا تنفصم ألوهيته عن بشريته». وطرحنا السؤال: كيف يتحقق أمل الفيلسوف الغيورِ على فلسطين مع انسداد أفق الإيمان بالآخرة. فإن من ينتظر من الإسلام أن يصرفه عن الموت ذو حُلُمٍ ليس ذا إيمان. «ماضوي» لازق بالأرض كل من انغلق عن عين قلبه أفق الآخرة. والسؤال المحوري دائما: كيف يتجدد الإيمان، كيف يدخل في القلوب الإيمان بالله وباليوم الآخر؟

بيد أن في عُرْضِ أفكار الفيلسوف الباحث التواق درسا لنا وللفلاسفة المثقفين من بني جلدتنا الذين يقترحون في كتبهم ومحاضراتهم وأحزابهم مستقبلا للمسلمين ذا وجه إنساني لكنهم يُوَلّون ظهرهم للإسلام.

قال في كتابه «وعود الإسلام»: «المفارقة transcendance والمجتمع التضامني communauté». أليس هذان هما خُلاصة الإسهامِ الذي يمكن أن يقدمه الإسلام لاختراع مستقبل ذي وجه إنساني؟ في عالَم أعْدَمَتْ فيه

المفارقة وهدمَتْ فيه المجتمع التضامُنِيّ الفردِيَّةُ الأنانيةُ ونموذجٌ جنونيٌّ للتنمية، فأصبح العيش في الحالة الراهنة لا يطاق، وأصبحت الثورة على النمط الغربي غير ممكنة».

عند الرجل علمُ الخبير بما هو الداءُ: الفرديةُ الأنانية التي حاربها من زاوية النقد الاشتراكي يوم كان منظر الحزب الشيوعي في فرنسا. لكن ليس معه إلا هاجسٌ تفاؤُليٌّ بالإسلام وما يأتي به الإسلام، يعبر عن هاجسه بلغة عقله الفلسفية التي ينطق بها لسانه بكلمات فرنسية مطموسة ترجمناها بـ«المفارقة» و«المجتمع التضامني».

شظايا أمل حقيقي جمعها الفيلسوف من حطام خيبته في تجربته النصرانية، وقد كان كاثوليكيا طول حياته، ومن خراب ما ساهم في بنائه من النظرية الشيوعية. عقل يَعُجُّ بالتناقضات كما يعُج بها عقل المغربين من أبناء جلدتنا الذين نطمع أن نحاوِرَهم.

إن إيقاظ وازع القرآن في قلوب المسلمين، وتقويته، وتسليحه بعلم ما فرض الله عز وجل وما أمر ونهى لهو العمل الوحيد لتجاوز ما في عقول المسلمين من تناقضات، وما في نفوسهم من هزيمة أمام الموت، وما في حياتهم من بؤس مرده إلى الكراهية والشح والجبن والقعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بطرحنا كيف نوقظ الإيمان ليدخل في القلوب ويحيِيَها نطرح إشكالية كيف ننتقل من منطق الأنانية الفردية إلى مجتمع المحبة والتطوع والعطاء والرخاء والعدل والإحسان. بكل معاني الإحسان. وبكل معاني العدل. لا إحسان بدون عدل. ولا عدل في العالم إلا على يد المحسنين.

يقول الله عز وجل في تعريف البِر والدلالة على طريق «التوسع في فعل الخير»: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ

بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[1]

بعد الإيمان بالله وباليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين تأتي الصفة البارزة في سلوك الأبرار: إيتاءُ المال على حبه. يغلب حب الله وإيثار جنابه على حب الدنيا فيطرده. ولا يُنال البِرُّ ما لم يحدث هذا الانقلاب في القلب. وما لم يخرج للعِيان بحيثُ يراه الناس برهانا لهذا الانقلاب على صورة عطاء يدلنا على أن المسلم امتهن متاع الدنيا الفانية وُثوقا بما عند الله سبحانه. قال الله تعالى: **﴿ لن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾**[2].

قال حَبر الأمة ابن عباس في تفسير «ليس البر...»: ليس البر أن تُصلوا ولا تعملوا. فهذا حين تحول المسلمون من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود.

كذلك يرعى الإسلاميون حقوق البر والعدل غداة توليهم الحكم إن شاء الله رب العالمين حين يتحملون عبء التكليف الاجتماعي الأخوي العدلي الإحساني. فمن مسجد الصلاة، وهو المحضن الشرعي لتجديد الإيمان، تنطلق رحمة البر والبذل والعمل الصالح. إن كنتَ مؤمنا مسلما فهات! هات حق الزكاة، وحقا غير الزكاة، وبرا واسعا تتطهر به ويتطهر المجتمع من أرجاس الشح والظلم والفقر والمرض والجهل.

والنفس ما لم يتبطنها الإيمان لا تُرخِي قبضتها على المال. وفي قهرها على إرخاء القبضة تدريبٌ لها على الإيمان. روى الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ: أن تُعْطيَه وأنت صحيح شحيح، تأمُلُ العيش وتخشى الفقر**».

إن بناء المجتمع العادل الأخوي الذي يحلُم به الفلاسفة ويحِن إليه المسلمون لا يمكن أن يقوم عليه السلطان والدولة بوازع القهر والإلزام. يؤول الأمر إن

(1) سورة البقرة، الآية 176.
(2) سورة آل عمران، الآية 91.

فعلت الدولة إلى نوع من الاستبداد لا يحقق عدلا ولا خيرا. ومن خيبة الأمل هذه رجع صاحبنا جارودي الذي انتفض زمانا بسماع الشعار الشيوعي الهادر: «يا عمال العالم اتحدوا!». واتحدوا وبنَوْا هيكل الدكتاتورية البرولتارية، وبنوا دولة عظمى تراها بعد نيف وسبعين سنة تتهاوى وتسقط وتفشل.

إن التطوع الإيماني المنبعث من أعماق إرادة كل مسلم ومسلمة، حبا لله واحتسابا ورحمة بالخلق، لهو الوسيلة المؤسِّسَة للعمران الأخوي. المؤسِّسَة لا المكملة. البِر، والراعي المسؤول عن رعيته على كل المستويات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل المستويات، والشورى على كل المستويات. تلك هي القاعدة التي إن لم تُؤَسَّسْ على التقوى في صدور المؤمنين والمسلمين يكن بناء الدولة خرابا ووعودُها سرابا.

وقد أحاطت الشريعة المحمدية حياة المسلمين بواجبات وحقوق وآداب من شأنها إن رَعاها المسلمون، إن رعتها الدعوة، أن تحيل حياة الناس من يأس لرجاء، ومن بؤس لرخاء. وأن تفتح أمام الإنسانية سِكة الأمل في مستقبل أرضيٍّ «ذي وجه إنساني». وما إلى ذلك من سبيل إلا أن تُفتَح عين قلب العباد على المستقبل الأخرَوي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إياكم والظنَّ! فإن الظن أكذبُ الحديث. ولا تحَسَّسُوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تَدابَروا. وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذُلُه ولا يحقِره. التقوى ههنا، التقوى ههنا!** -ويشير إلى صدره- **بحسْب امرئ من الشر أن يَحقِر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمُه وعِرضُه ومالُه. إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صُوَركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**». رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

للمسلم حرمة في مجتمع البر، له كرامة، له حقوق، له رعاية، له رصيدٌ يُؤديه إليه الكلُّ عطاءً ومحبة. روى الشيخان وغيرهما عن البَراء بنِ عازب رضي الله عنه

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بسبع ونهاهم عن سبع. أمرهم بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار القَسَم، ونصرِ المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام». الحديث.

هذه الدعوة المُلحة المفصَّلة إلى كفالة المسلم وصيانة حرمته حيا وحفظ عهده ميتا لا تريد للمسلم أن يكون مكفولا عالة على المجتمع خاملا يمد اليد ليتلقى الصدقات. بل تريده نشطا منتجا ليكونَ هو المعطِيَ المقدِّمَ لآخرتهِ لا السائِلَ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اليدُ العليا خير من اليد السفلى. وابدأ بِمَن تعولُ. وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً. ومن يستعِفَّ يُعِفَّه الله. ومن يستَغْنِ يُغنِه الله**». رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

البداية في العطاء والبِر بمن يعولهم المرء من أفراد عائلته توزيع للجهد على خطوط لا تنازع الفطرة ولا تناهضها، بل تقويها وتؤيدها. وقد قرأنا في سياق «ليس البر...» أصناف المستحقين لعطائنا من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين. وندب الإسلام إلى صلة الرحِم فجعلها وصلةً عظيمة. كما أوصى باليتامى والأرامل والعجزة. فللطفولة من رعاية الإسلام المكانة الحانية. وما أحوج عصرنا، يأيها المسلمون، لمن يَمُدُّ يد الرحمة لأكثرَ من أربعين ألف طفل يموتون يوميا في العالم. الإحصاءُ ووسائل العصر منادٍ للرحمة من خارج، فانهضوا يأيها الأبرار ولَبُّوا بباعثكم القلبي.

نظم الإسلام كفالة الوالدين وجعلها من أعظم الحرمات والقُرُبات والواجبات. «رضى الله في رضى الوالدين». هذا حديث شريف. ونظم الوقف ليكون صدقة جارية يلحق ثوابها الواقف إلى الآخرة. وأوصى بالصدقة على الميت. وأوصى بالبنات أن يُرَبَّيْن بعطف وسخاء.

إن البذل أصل أصيل من أصول الدين: بذل واسع يشمل الماديات والأدبيات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كل سُلامى** [كل مفصل في الأصابع] **من الناس عليه صدقة، كلَّ يوم تطلع فيه الشمس: تعدِل بين الاثنين صدقة. وتعين**

الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة. وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة. وتميط الأذى عن الطريق صدقة». رواه الشيخان عن أبي هريرة. والله يجزي المتصدقين.

العدل والتنمية

العدل أم المصالح التي يقصد إليها الشرع. هو صُلب الدين، وحوله تُطيفُ همومُ المسلمين، وبه بعث الله الرسل والنبيئين، مبشرين ومنذرين.

عامة المسلمين يرجون من نجاح الإسلاميين في الحكم أن يتحقق لهم من العدل في قسمة الأرزاق وتوفيرها ما لم يحققه اللبراليون والاشتراكيون. وخاصَّةُ الإسلاميين الذين يتهافت الحكم نحوهم يحملون هم التنمية والتمويل وتسيير دواليب الدولة. من أين؟ وكيف؟

والله عز وجل يريد لأولئك ومن هؤلاء عدلا شاملا في حقوق العباد الدنيوية ييسر لهم أمور آخرتهم. لا معنى للعدل الدنيوي إلا من كونه تيسيراً للمسافر يصون مسيرته إلى الدار الآخرة أن يفتنه عنها هم الرزق وظلم الناس.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

القسط العدل بمعناه الشامل: العدل الاستقامة في حقوق الله وفي حقوق العباد. فرضٌ أكيدٌ به بعث الله الرسل يدعون إليه. وأنزلَ معهم الكتاب والبينات تؤكد الدعوة وتلح عليها. وأنزل بأس الحديد المتمثلَ في وازع السلطان ليُفرَض العدل بقوة الدولة إن استهان الناسُ بصوت الدعوة.

في الفقرات السابقة أشبعنا الحديث في البناء النفسي والاستعداد القلبي الإيماني والجوِّ الإحساني الملائم لازدهار العمران الأخوي. ذلك لأسبقية الدعوة على الدولة اعتبارا ومنزلة. ولا قاعدة لدولة القرآن إلا دعوة القرآن. وفي

(1) سورة الحديد، الآية 25.

حديثنا عن العدل هنا يرجع الاعتبار والأسبقية لعمل الدولة الإلزامي ولصرامتها في تطبيق الشريعة طوعا وكرها ببيان القرآن وبأس السلطان. لأن العدل هو عماد العمران، أخويا كان أو مدنيا قانونيا.

عدل الحاكم في أحكامه عمادُ السلطان الشوريِّ وشرطُه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾[1] وعدله في القسمة هدفه الأول، وأمرُه اليومي، وواجبه الدائم. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2]. والبغي في القسمة من أعظم البغي.

أمرٌ إلهي مؤكد. ما جاء تكليف في القرآن بصيغة «أمر» كما جاء في شأن العدل. وما خالف العدل من قول وعمل فهو من أمر الشيطان ووسوسته. ما خالف العدل من قول وعمل فهو استخفاف بجوهر الإسلام وإضاعةٌ للمقصد الدنيوي الأسمى من الشريعة.

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ : «هذه الآية جامعة لجوهر الإسلام ومختلف شرائع السماء». وكتب ابن القيم شيخ الإسلام رحمه الله في بداية الجزء الثالث من «إعلام الموقعين»: «إن الشريعة مبناها وأساسُها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالحُ كلها، وحكمة كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجَوْر، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل. فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه».

العدل ظل الله لا الجبارون الظالمون.

(1) سورة النساء، الآية 57.
(2) سورة النحل، الآية 90.

العدل المنشود من الإسلاميين يوم يتسلمون مقاليد السلطان هو عدل يستقر به المجتمع، وتتضافر به الجهود، وتتوحد عليه الأهداف، وتسخر له الوسائل. وما قدمناه في الفقرات السابقة من فضائل العطاء والإنفاق والبِر فمشروط مربوط بتوفير الوسائل. لا بِرَّ، وهو التوسع في فعل الخير، إن لم يكن الحد الأدنى من الخير موفورا. هذا الحد الأدنى هو العدل وهو التنمية. لا يُنفِق المُعْدِمُ ولا المضيق عليه ولا المسلوب من حقوقه. إنما النفقة والبِر من وُجْدٍ لا من فَقْدٍ. وهدف التنمية نلتقي عليه مع طوائف الأحزاب السياسية التي حول التنمية تُزْجِي الوُعودَ للشعب.

فإن كان الإسلاميون يوما ما وهم على الهامش ينتقدون الظالمين وما يفسدون في الأرض، ويُلقون في وجه الظلم محاضرة تشجُب قصوره ورُشاه ومحسوبيته وفشله فإنهم يوما ما سيجدون على كاهلهم عبء الدولة ومسؤولية إنجاز ما لم ينجزه الظالمون. وعندما يلمسون أن الحديث عن العدل والتلويح بالعدل وواجب العدل في عالم المجردات إنما هي رياضات في الفراغ يدركون أن التنمية وتوفير الأرزاق وتمويل المشاريع وإدارة الاقتصاد وتعبئة الطاقات والتنافس في السوق العالمية أوْلويات ضاغطة لا مُتَنَفَّسَ دون التفرغ لها، ولا عدلَ قبل ترويمها. وترويمها مشروع مستديم لا عملية سحرية.

من حضيض تخلفنا الاقتصادي الدنيوي نستمع إلى رجل احتل مع قومه بحبوحة التنمية، فتبَصَّرَ في عيوبها ما لا يتبصره المتطلع من السفح. درسٌ ثمين يقدمه لنا رجاء جارودي الفيلسوف الذي يرجو من الإسلام أن يخترع مستقبلا ذا وجه إنساني، ويخشى على حضارة قومه الموتَ لأنها تيه بلا غاية. فهو في الحقيقة حين يتحدث عن أفق إسلامي «يعطي لحياتنا معنى ويصرفنا عن الموت» لا يقصد موت الأشخاص، إنما يقصد موت الحضارة الشقية، في نظره ونظر العقلاء، بتنميتها التائهة. درس ثمين لنا نحن المقبلين على خوض معارك التنمية لكيلا يجرفنا التيار الدنيوي فنصبح من الخاسرين.

قال رجاء: «إن الاقتصاد المنبثق عن مبادئ الإسلام على النقيض من النموذج الغربي للتنمية. هذا النموذج الذي يمثل فيه الإنتاج والاستهلاك الغاية في حد ذاتها: الاستهلاك أكثرَ فأكثرَ، الاستهلاك بسرعة متزايدة، استهلاك أي شيء، من مفيد وغير مفيد، ومن ضار وقاتل. استهلاك دون اعتبار الغايات الإنسانية.

قال: «الاقتصاد الإسلامي في مبدئه القرآني لا يهدف إلى التنمية بل إلى التوازن.

قال: «فهو لا يمكن أن يشبه بالرأسمالية [على النمط الأمريكي مثلا]، ولا بالمجموعية collectivisme [من النوع السوفياتي مثلا]. ميزة الاقتصاد الإسلامي الأساسية أنه لا يطيع آليات عمياءَ لاقتصاد يحمل في نفسه غاية نفسه. ميزة الاقتصاد الإسلامي أن يكون منتظما بغايات أعلى، إنسانية إلهية بلا انفصام. لأن الإنسان ليس إنسانا حقا إلا بخضوعه للألوهية». انتهى كلام رجاء.

من الله عز وجل الأمر الشرعي التكليفي بالعدل والإحسان والأخوة بين المسلمين، والرحمة للعالمين خاصة المستضعفين. أمر قرآني بلغهُ الرسل عليهم السلام. وأمر آخرُ منه سبحانه أمراً كونيا هو وجود عالَمٍ يضِجُّ بالحركة للرأسمالية فيه وللسوق القِدْحُ الـمُعَلَّى. قدَر من قدَره علينا أنْ نخوض غماره، وننافس، ونزاحم بالمناكب، ونقاوم آلياته العمياءَ في اعتبار الشرع، الحكيمةَ البصيرة عند من يعلم أن ما أنزلَ علينا من ربنا حق، شرعا تكليفيا كان أو قدَراً ابتلائيا.

من حضيض تخلفنا نتطلع إلى ما عند سكان بحبوحة الدنيا، يشقَوْنَ كما يشهد عقلاؤهم بالوفرة التي لا غاية لها، ونشقَى نحن في الدنيا، معنا غايات لا وسائل لها، لهم هياكل إنتاجية وليست لنا، لهم أنظمة متطورة تشارك بفعالية في إقامة المشروع الصناعي العالمي وتسييره والاستفادة منه. لهم تحكم في العلوم والصنائع يُسَخِّرون الكون، سماءَه وأرضَه. لهم تِقَانِيَّةٌ سريعة التطور. لهم أبناك مزدهرة بزهرة الربا. لهم بُرصات تلعب بثروات الأرض. لهم أجهزة الربوط خادمةً مطيعة. لهم حاسبات إلكترونية تغطي بشبكتها وجه الأرض. هم في دوامة الشغل وضجيج الحضارة وإيقاع العمل وزحمة الوقت.

أما نحن ففي دوامة أخرى تتكون من سُلوب ما لهم وعُكوسها: الفقد والفقر والعجز والبطالة والتبعية. حتى لنكاد نكون رهطا من الربوطات الخادمة المطيعة، أو عجلات مسخرة في دولاب المشروع الاقتصادي العالمي الذي يديرونه.

هَمُّ التنمية يسيطر على العالم، عالمٍ تطغى فيه الشهوات العارمة بهم، وتطغى بالمستضعفين منا الحاجة والجوع والكبت والمغلوبية.

هم يرتعون في بحبوحة الاستهلاك، دع عقلاءَهم وعقلاءَنا ينتقدون الحضارة الاستهلاكية ما شاءوا وشئنا. فذلك لا يغير من واقع حرمان المستضعفين في الأرض شيئا. المستضعفون في دوامة الإعانات الغذائية التي تحبسها الدُّوَل المتخمة أو تقف دعمَها الدول المحلية فتقوم مظاهرات الجوع في مصر والسودان وتونس والمغرب والجزائر. المستضعفون في دوامة العجز المالي، في هزاتٍ دورية تعصف بالاستقرار وتبدد الجهود.

المستضعفون في قبضة المديونية المتراكمة، في ذمة الدولار يرتفع وينخفض، في حوزة أسعار الفائدة الربوية تقرَّرُ في لندن وواشنطن فيغَصُّ بها مستضعفو الأرض.

المستضعفون يطمحون للتنمية واللحاق بركب الصاعدين على متْن قمة التاريخ: الرأسمالية. إن كان العقلاء والفلاسفة يدركون أن أولئك الصاعدين مشرفون على هاوية، ينتظرون من الإسلام اختراع ثورة ومستقبل لإنقاذ حضارة غاربة، فإن المستضعفين في الهم الدائم المقيم من شروط إعادة جدولة الديون، وشروط التقويم الهيكلي، وشروط التكييف مع السوق العالمية.

إنها معركة متعددة الواجهات، من طبيعة الداخل فيها أن ينشغل بمصارعة الوسائل عن نداء الغايات. فإن كانت الدولة سيدة الدعوة واستمرت تبعية الشرع للطبع كما هو الحال تحت الحكم الفتنوي فلن يؤسس أحد، ولو تسمى إسلاميا، إلا اضطهاداً جديدا. والله غالب على أمره. ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

النفط

أكتب هذه السطور ليلة الأحد سادس عشر ربيع الأول سنة 1411 وقد مضى على غزو صدام حسين للكويت شهران وأيام. وحشود الأقوام الكافرين مخندقة في جزيرة العرب. لأول مرة في التاريخ يغزو الكفار جزيرة العرب.

تحدثنا في فصول هذا الباب عن الإرادة الذاتية والوزن الذاتي والقوة الاقتحامية للمسلمين وللإسلاميين المشرفين على تولي الحكم، وأوشكنا أن ندخل في الباب الثاني الذي نرى فيه كيف تصطدم إرادتنا بحقائق العالم الصلبة. تكون هذه الفقرة بمثابة المدخل المبكر لتلك المطالعة في صفحات العقبات الخارجية.

كشف غزو الزعيم القومي البعثي عن مَغْمَزِ الضعف في جنب المسلمين، وعن البطن الرخو في كيانهم: ألا وهو وجود أنظمة عاتية جبارة في سدة الحكم ببلاد المسلمين. وجها لوجه يقف الـمُلْكُ العاض ممثلا في سلاطين النفط والملك الجبريُّ ممثلا في الزعيم الجبار. وتحتشد جنود الغرب بزعامة أمريكا لتنصر حلفاءها الدائمين بعد أن تنمر للغرب حليف الغرب إلى الأمس القريب.

كان صدام لثمان سنوات مخلب القط وحربة القتال التي وجهها العدو الكافر إلى صدر الثورة الإسلامية بإيران. أغدق على زعيم البعث الأسلحة الفتاكة بلا حساب، وأغدق عليه الإشارة، وفتح له خزائن الأسرار الصناعية حتى أتى على جهود المسلمين وسفك دماء مآت الآلاف من المسلمين.

وراودته أحلام الوحدة التي هي شعار البعث القومي، بل شطر من الشعار. سقط النصف الثاني (الاشتراكية) منذ هزيمة الزعيم الأول للقومية العربية عبد الناصر، ومنذ اندثار الاشتراكية في العالم منذ شهور، فلم يعد يجسر على ذكر الاشتراكية إلا عديمو الحياء من الأذناب في بلاد المسلمين.

تمسلم الزعيم البعثي في بعض أطوار حربه لإيران، ينعت الثورة وأصحابها بأنهم فرس يقاتلهم البطل العربي المسلم. وصلى في التلفزيون. وهو اليوم يفتتح «قادسيته» الثانية برفع شعار العدل، يُهيب بالمسلمين الفقراء أن ينهضوا لاستخلاص نفطهم من يد العدو، ويهيب بالمسلمين الغيارى على دينهم أن ينهضوا لمقاومة احتلال البقاع المقدسة رافعا شعار الجهاد.

لا نتقدم بين يدي القدَر الإلهي وما ندري ما يفعل الله عز وجل بعباده إذ أقام طاغية يقاتل طاغوتا. نتتلمذ للقدر وننتظر ما تسفر عنه معركة هي من أقوى وأعمق الهزات في تاريخ المسلمين الذين ذاقوا المذلة والهوان على يد المستكبرين في الأرض، يتحالف مع المستكبرين أزلامُ الحكم العاض الجاثمين على الصدور الممتصين لدماء الأمة، اللاعبين بمقوماتها الحيوية، من أهمها النفط.

وحول النفط قامت هذه القيامة. طرح الزعيم العربي بكل قوة وشجاعة مسألة العدل بين المسلمين، ورافع أمام الرأي العام ضد أمراء العرب المستبدين بثروة هي حق لكل المسلمين. كلمة حق نطق بها عاشق للبطولة التاريخية، لا ينقص من صدقها كونُ من نطق بها بدد ثروة طائلة من عائدات نفط العراق في تجهيز جيش قُتل في صفوفه وأمام صفوفه مليون مسلم.

وإلى حماية منابع النفط جاءت أمريكا تسعى بخيلها ورَجْلها، ومعها دول العالم. هبت دُولُ العالم لتحمي القانون الدولي ولترد غزواً يخرق قاعدة من قواعد الاستقرار والأمن والسلام في العالم: هي قاعدة الإبقاء على الخريطة السياسية التي خطها الاستعمار كما هي. خطها لتلائم مصالح الاستعمار، ومن الخطة أن يتولى النفط أمراءُ سامعون مطيعون، هم مسخرة العالم ونادرة المجالس، ونموذج الفساد في الأرض. اهتزت المشاعر واضطربت العقول ووَجفت النفوس لَما طرح الزعيم العربي المسألة الجوهرية في حياة الاقتصاد العالمي: النفط. من له الحق في النفط؟ وما السعر العادل للنفط؟ ولِم يتحكم غيرُ أولي الحق في النفط؟

ظهور النفط في بلاد المسلمين آية من آيات الله العظمى في هذا العصر. في بلاد العرب وحدهم من المخزون المؤكد للنفط أزيدُ من ثلاثة أرباع موجوده في الأرض. إذا أضفنا نفط إيران ونفط الجمهوريات المسلمة فيما كان من قبلُ الاتحاد السوفياتي فقد تجاوزنا الثمانين بالمائة بكثير.

أن يكون النفط في اقتصاد هذا العصر بمثابة الروح من الجسد آية كونية فريدة. وأن يكون معظمُ مخزون النفط في العالم، لخمسة أجيال أو ستة مقبلة، والله أعلم، في بلاد المسلمين آية ابتلاء أعظم.

الصحوة الإسلامية على موعد مع انحسار الثورية، وبروز القانونية الدولية، وتهيُّؤ العالم لنظام جديد بعد طول المواجهة بين العملاقين العالميين وبعد انتهاء الحرب الباردة بين روسيا في خراب وأمريكا أعتى ما كانت. فماذا يفعل المسلمون الصاحون بالنفط وحول النفط؟

إنها فرصة العمُر، فرصة الأجيال. طرحَ القدر الإلهي مسألة النفط بقوة قارعة على يد صدام، وأبرز على المسرح العالمي، مكشوفةً صارخةً، حقائق اللعبة السياسية التي تتدرع بالقانونية لتقول للمسلمين: النفط لنا ولحلفائنا الأمراء! فكيف يجيب الإسلاميون ذوو الإرادة والتوكل على الله العزيز الحكيم يوم يتولون السلطة؟ أيقومون في وجه العالم، وهم الضعفاء العُزْل، ويحاربون ليفرضوا الأسعار العادلة بعد أن يطردوا السلاطين الخونة؟ أم يلتمسون في القانونية الدولية ظهيرا من خلفه يرعَوْن مصالحهم في تعايش وسلام؟

الصحوة الإسلامية على موعد مع عزمٍ مُبَيّتٍ من جانب الدولة العظمى الوحيدة الصائلة في المسرح بعد انهيار روسيا. الدولة العظمى زرعَت على مقرُبَةٍ من منابع النفط خفيرا مخلصا شرسا هو دولة إسرائيل. ما دولة إسرائيل في الحقيقة إلا امتداد للدولة العظمى. ومراهنتها على خفيرها وعلى الاحتلال المباشر الدائم أوثق عندها من حلفائها السلاطين.

بعد حرب رمضان سنة 1973 بتاريخهم وضع وزيرُ خارجية الولايات المتحدة اليهوديُّ كسنجر سياسة بموجبها تسلك الدولة العظمى أحد خيارين: إما تُحيِّد البترول وإما تحتل منابع البترول. كان شعار هذه السياسة «الزيت أو الطوفان!». وأقر الكونغرس الأمريكي هذه السياسة. وعمل بالخيار الأول، خيار التحييد، بعد أن اغتال الملكَ فيصلاً رحمه الله.

فيصل الشخص المسلم تأثر بحرب رمضان، وجاش في نفسه ما جاش في نفوس الجند المصريين الذين قالوا «الله أكبر» فجالوا جولة مع اليهود ومَنْ وراء اليهود. وعمل فيصل على رفع أسعار النفط يحارب بما معه من سلاح. وكان السلاح ماضيا أحدث الأثر البالغ في اقتصاد المستكبرين.

فاغتالوا فيصلا رحمه الله، وذهب الشخص، وبقي النظام الوراثي رأسُ كل البلايا. وسَمَّى كسنجر جولة فيصل «الدرس الكبير».

الآن بعد سبع عشرة سنة تطبق الدولة العظمى الخيار الثاني: احتلال منابع النفط. والأدهى في المسألة أن تخِفَّ إلى المكان مدعوّة «معزومة» مرغوبة، وأن تُدْفَعَ لها تعويضات أتعابها مسبقا. والمسكوت عنه أرباح الرأسمالية من «تحييد» النفط. التحييد بلغة اللعبة الاستكبارية يعني أن يتحكم المحتل في جسم النفط وأسعاره بما يخدم الاقتصاد السيد. السيد مع بروز اليابان؟

عادت إذا هجمة صدام بالعرب والمسلمين إلى مرحلة الاستعمار المباشر. استعمارٍ محسَّنٍ منقح تدفع فيه المصاريف للسيد على طبق نقي دون أن يلوث يده بعناء تسيير الأقوام المتخلفة المحتقرة، ودون أن تتعرض مصالحه لنوبات الجنون التحررية التي فسح لها المجالَ أسلوبُ الاستعمار الجديد الذي يعبئُ بعض الأقوام ضد بعض، فإذا بالبعض يتصنع ويتسلح ويبارز.

بالاحتلال المباشر يضمن الأمريكان مصالحهم النفطية وهم في فجوة من الملامة الدولية. بل وهم في فجوة ومناعة، لأنهم يقودون إرادة مجلس الأمن

ويسيطرون على اللجنة الخماسية فيه التي لها حق النقض والإبرام. رأيُهم الرأي منذ أحنت روسيا الهام لتلتقط بعض فتات المائدة الرأسمالية.

هجمة صدام مكنت الأمريكان من عقد صفقات سلاح ما سبق لها مثيل مع سلاطين النفط. وهو أسلوب لانتزاع أموال المسلمين لتكدس الأسلحة تأكلها الرمال ولا تستعمل أبدا ضد العدو الحقيقي للمسلمين.

الاحتلال المباشر مساهمة أمريكية جديدة في مجهود توطيد الكيان اليهودي بفلسطين. مجهود يوازن مجهودَ الروس الذين فتحوا أبواب النزوح ليهودهم لتتكتَّل في فلسطين قوة تحلُم أن تستعيد خيبر ويثرب بعد أن تقيم دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات.

الحركة الإسلامية في كل هذا هي العدو، يجب تطويقه وإبادتُه. وتتعلم أمريكا من غوغائية البعثيين ومن سلامة طوية المسلمين أن نداء الجهاد هو النداء الذي يُحسَبُ حسابه. وهو الخطر المهدد.

دروس للطائفية الشيعية من حرب أولى سعَّرها صدام ودبرها القدرُ لتعلمنا وإياهم أن عقيدتنا الوحدوية يجب أن تنسينا الخلاف الطائفي. ومواجهة ثانية بطلُها رغم أنفه صدامٌ ننتظر ما تسفر عنه وما يلقننا بها القدر من دروس. لنا مع الله عز وجل يقين واحد: هو أن العالم في مخاض لميلاد الإسلام الجديد. ولله ملك السماوات والأرض.

الفصل السادس

الوحدة

- عقيدتنا التوحيدية
- التجزئة الاستعمارية
- التوحيد بالاقتصاد
- وحدة بالقوة، وحدة بالمحبة
- قومة، لا ثورة
- الوَلاية الجامعة
- «جماعة المسلمين»

عقيدتنا التوحيدية

مما قدّمه الزعيم القوميُّ صدام لدى غزوه للكويت حُجة الوحدة العربية التي يريد إعادتَها لتصحيح التجزئة الاستعمارية البريطانية التي قطعت أوصال البلاد العربية.

والتوحيد القومي عقيدة راسخة في المذهب البعثي إلى جانب الشعارين المؤسسين: الحرية والاشتراكية. عُدِّلَ الثالوث العقَديُّ منذ حين بعد سقوط الاشتراكية فأُبْدِل بالاشتراكية إسلامُ التلفزيون.

أما إسلام المسلمين لِربِّ العالمين المطيعين لما جاء به الأنبياء والمرسلون فعقيدتهم التوحيد الخالص للرب الخالق الإله الرزاق الحي القيوم الباعث الوارث، عقيدةٌ تُوَحِّدُ في الوجدان الخلقَ أجمعين وتدعو إلى وحدة الأمة الإسلامية لتبرز في العالم شاهدة على الناس، حاملة لرسالة التوحيد، مبلغة إياها نيابة ووراثة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

بالتوحيد العقَديِّ خاطب الله عز وجل في كتابه الأمم من قبلنا، وبه خاطبنا معشر أمة الرحمة. قال جلَّ شأنه: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾[1]، إله واحد، وخلق واحد، وأمم مرجعها جميعا إليه سبحانه، ومصدرها منه. يَعْرِفُ ذلك بالفطرة المخبتون، اللَّينون، الخاضعون لجلاله، الذين بقيت فطرتُهم غضة لم تَتَيَبَّسْ بالشرك الجاهلي ولا بالفلسفة الإلحادية. تعرف ذلك الفطرة فتذكر الله، ويأتيها من بني جنسها «المذكِّر» نبيا رسولا أو داعيا إلى الإيمان.

(1) سورة الحج، الآيتان 32-33.

الفطرة ميراث عقَديٌّ متسلسل من آدم عليه السلام، أورث بنيه الإيمان بالله وباليوم الآخر كما أورثهم خصائصهم الجسمية والغريزية والعقلية. وأرسل خالق آدمَ من طين سبحانه وتعالى مذكرين قالوا للأجيال ببساطة المبلغ وأمانته ما أُوحِيَ إليهم من وحدة الخالق الإله، ومن حقيقة الرجوع إليه بعد الموت، ومن ضرورة الإسلام له. قال تعالى يعلم محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم المذكرين النبيئين: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(1).

ما هذا الكتاب سجالٌ فلسفي، ولا مُتسَع فيه للجدل في أصل البشر، ولا للحديث مع أصحاب الفِطَرِ المطموسة الذين يجحدون وجود الخالق ويوغلون في الكفر لما أوغل الاكتشاف العلمي في الاطلاع على أسرار الكون العجيبة. ولا مُتسع للكلام هنا مع الداروينيين التطوريين المتخلفين عن ركْب العِلْمِ، وقد انفتح لأهل العلم من آيات الله في الخلق ما يدحض النظرية القردية.

نرجع إلى الفطرة لنسمع بأذن الفطرة وقلبها وحْيَ الله عز وجل للرسل عليهم السلام حيث قال لهم: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾. ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾(2) وحيث قال جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً ﴾(3). أمة النبيئين والمرسلين أمة واحدة. وأمة المؤمنين لا افتراق بين أجزائها العضوية. لكن الناس في فَتْرَةٍ ما بين المذَكِّرين، وفي ضمور الإسلام في القلوب، يتقطَّعون أمرهم بينهم زُبُراً. أي قطعا خلافية مذهبية قومية وطنية قبلية. إسلامُها في حكم العدم لتلاشي عقيدة التوحيد عندها.

الإسلام جامعٌ مُوَحِّدٌ للمسلمين على معرفة الخالق المحيي المميت الباعث الديان سبحانه، وعلى طاعته. ومظاهر الفُرقة بين بني آدم ترجع إلى سبب عميق كامن تحت تصادم المصالح الاقتصادية والنزاعات السياسية والتنافسات القومية:

(1) سورة الأنبياء، الآية 107.
(2) سورة الأنبياء، الآيتان 92-93.
(3) سورة المؤمنون، الآيات 51-53.

هذا السبب هو جفاف القلوب من الرحمَةِ، وهي الرحِمُ الجامعة. نجد هذا السبب مطروحا واضحا إن قرأنا آيات الله عز وجل في القرآن وآياته في الكون وسنته في التاريخ قراءة ثُنائية قدَرية شرعيَّةً. القراءة التاريخية تشتغل بالنزاعات في عالم الأسباب لا تتفتح عين قلبها لتُميّزَ مراتِب الـمُدْرَكَات من آيات الله في الكون يقابِلُها ويكشف أسرارها آياتُه سبحانه الشرعية الأمرية المنزّلَة على رسله عليهم السلام. وإذاً فلا يكون القرآن دليلَ عمل لمن يقرأ هكذا.

قال الله عز وجل: ﴿ لَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم ﴾[4]. إرادتُه سبحانه الكونيةُ غيرُ أمره الشرعي التكليفي. أمره الشرعي أن يكون الناس أمة واحدة موحدة على الإسلام الذي جاء به الرسل عليهم السلام. وقدره سبحانه الكوني أن لا يكونوا أمة واحدة، وأن يختلفوا ويتقطعوا زُبراً بما كسبت أيديهم وبما حادوا عن الفطرة وعَصَوْا ربهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[5]، المشيئة القدرية أن يكون من الناس مؤمنون مطيعون، مخبتون لله رب العالمين، متوحدون على عقيدة الرسل المذكرين الجامعة. وأن يكون مخالفون مختلفون متقطعون زبرا. المتقطعون أخطأوا مَصَبَّ الرحمة، ولذلك خلقهم. وخلق الرحمن الرحيم الأمة الواحدة المستجيبة المطيعة لخلاف ذلك. والتكليف واحد، والعباد منهم سامع وأصَمّ، مسلم وكافر، مطيع وعاص. تلك حكمته تعالى فيما خلق وقدّر وأمر.

الإيمان بالقَدَر إيمانا لا يُخل بتحمُّل التكليف ولا يشُل فاعلية الـمُكلَّف ولا يعطل مسؤوليته هو عقيدتنا السليمة التي لا غِنى لنا عن استحضارها ونحن في غمار التاريخ. هي ذكر الله عز وجل وسط المعركة، فإن فكَّرْنا لوحدة المسلمين، وعملنا لها، وتوسطنا عالَم المتناقضات السببية غافلين عن معنى الكون والخلق

(4) سورة المائدة، الآية 50.

(5) سورة هود، الآية 118–119.

والخلاف والكسب والقدر كنا من جملة الزُّبُر المتقطعة ليس لها من عمق العقيدة والوعي ببلاء الله ما يمسكها وما يعطيها ميزة الأمة الشاهدة الحاملة للرسالة المبلغة عن رب العالمين. جل وعلا.

﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[1]. قال قتادة عن المرحومين المقصودين في هذه الآية: «هم أهل رحمة الله، أهلُ الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم. وأهلُ معصيته أهلُ فُرْقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم».

الجماعة من التفرق رحمة من الله عز وجل وقدَر مقدر. وهي في حقنا معشرَ المكلفين أمرٌ شرعيٌّ، إسلامُنا مَخرومٌ حتى يلتئم شملُنا ونكونَ أمة واحدة. الجماعة في حقنا مطلَبٌ شرعي ومكسَب يجب أن نشمر لتحقيقه ونجاهد ونخوض معارك مع القُوى المعاكسة المادية الخارجية والنفسية الذاتية والعدوة المعترضة.

قال الله جلت عظمته يخاطب المؤمنين: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللِه جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[2] روى الإمام الطبري رحمه الله بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض**».

التمسك بهذا الحبل القرآني عِصمة من التقطع. ممدود من سماء الوحي إلى أرض الواقع، يمنع المجاهدين المعتركين سمُوُّ مَحتِدِه من السقوط. ممدود بالذكر الحكيم والتذكير من مولد الفطرة ومنشإها إلى فروعها، يمنع هذا الامتداد الفطري عن التسيُّب في «أصالة» قومية عرقية أو «معارضة» إيديولوجية يلتمس عندهما المتقطعون جامعا يلُمُّ شَعَثَهم.

الأسباب التي فرقت هذه الأمة شيعا وقطعتها زُبراً ترجع إلى إفلات حبل الفطرة من يد المسلمين، وإلى ارتخاء أيديهم عن عروة القرآن. ولا بد أن نُجمل أسباب الفرقة ونحن على أبواب البحث عن الوحدة والعقيدة التوحيدية، لنقابِل الصلاح بالفساد وعوامل القوة والجمع بعوامل الضعف والتقطع.

(1) سورة هود، الآية 118.
(2) سورة آل عمران، الآية 103.

ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة المسلمين على الأخوة، وألَّف الله عز وجل بين قلوبهم رحمة منه جُلَّى. ثم سار المسلمون على منهاج النبوة مع الخلافة الراشدة. ثم انتقضت العروة العليا من عُرا الإسلام، وهي عروة الحكم، بالانقضاض الأموي. فبدأ المسلمون يتمايزون عربا وموالي، عجما وفرسا. وتمزقت العقيدة القرآنية الموحدة في صدور الناس فظهرت الثلاث والسبعون فِرقة. وتركبت على العصبية الطائفية أنظمة حكم حايدت الحكم العاض المركزي وقاتلته أو احتوته. فمن زيدية باليمن وصُفارية بفارس وفاطمية بمصر وسامانية بما وراء النهر وبويهية ديلمية وسلجوقية تركية وأتابكية حاضنة. إلى ما لا يُحصى من مُزَق.

وهجم الصليبيون والتتار في ذلك العصر. واستعان الحكام العاضون بالمشركين بعد أن انمحت الذاتية الإسلامية فلم يبق إلا السياسة الواقعية. استعان الفاطميون بالصّليبيين على الأيوبيين، واستعان ابن العلقميِّ الرافضيُّ بالتتار على العباسيين، واستعان ملوك طوائف الأندلس بالقشتاليين والفرنجة. ويستعين اليوم سلاطين النفط بأمريكا وحلفائها.

هذه مظاهر الفرقة وموجز خبرها. والأمر القرآني موجه إلينا لنتوحد، نقرأه بشارةً في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3]. روى السديُّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو شاء الله لقال: أنتم خير أمة فكنا كلُّنا. ولكن قال: كنتم فهي خاصة لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ومن صنع مثلَ صنيعهم».

عن منهاج محمد وأصحاب محمد، صلى الله على محمد وآله وصحبه، نبحث. كيف نكون مؤمنين موصولين بحبل الفطرة، معتصمين بحبل الله، مجاهدين في سبيل الله؟ كيف يتجدد هذا الإيمان بعد بلاه، كيف تتوحد الأمة بعد تقطعها. اللهم رحمةً بها تؤلف قلوبنا إنك أنت الرحمن الرحيم.

(3) سورة آل عمران، الآية 110.

التجزئة الاستعمارية

خلَّف رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته «جماعة المسلمين» وهم أمة راشدة مسؤولة مؤهلة لحمل عِبْء الرسالة والتبليغ. كانوا أمة بكل معنى الكلمة، كانوا خير أمة أخرجَتْ للناس. الأمة لغة: «كل جماعة يجمعهم أمر واحد، أو دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد. سواء كان ذلك تسخيرا أو اختيارا». التسخير لمِثل أمة الطير المسخرات في جو السماء. والاختيار والإرادة المسؤولة لمثل المهاجرين والأنصار الذين جمعهم دين واحد وتبوأوا الدار والإيمان في دار الهجرة، وقد هذبتهم الهجرة والنصرة.

وخرجوا للناس أول ما خرجوا لحرب أهل الردة في أطراف دار الإسلام. ثم انبعثوا بقوة لنشر دين الله في الأرض. قال ربعي بن عامر في مجلس رستم وقد بعثه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه للتفاوض قبل واقعة القادسية: «الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام». رواه ابن جرير الطبري رحمه الله.

لم يكن وعيهم بوجودهم ومهمتهم في الدنيا وعيا سلبيا يحدده وجود الآخرين المعادين المغايرين، بل كان وعيا إيجابيا فاعلا في الدنيا منبعثا لتبليغ رسالة الله للإنسانية. وعلى ذلك أخرجتهم للناس تربية المسجد والاعتصام بحبل الله في صحبة رسول الله الذي قال لهم: «**بلغوا عني ولو آية**»، وقال لهم: «**إنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين**». بُعثتم!

وَصَفَ مغزى هذه البعثة عمرو بن العاص لصاحب الإسكندرية، فقال القبطيُّ الأمير: «إنَّ رسولَكم قد صدق، قد جاءتنا رسلنا بمثل الذي جاءكم به رسولكم، فكنا عليه حتى ظهر فينا ملوك. فجعلوا يعملون فينا بأهوائهم، ويتركون أمر الأنبياء. فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه، ولم يتناولكم أحد إلا ظهرتم

عليه. فإذا فعلتم مثلَ الذي فعلنا، وتركتم أمر الأنبياء، وعملتم مثل الذي عملوا بأهوائهم خُلِّيَ بينكم وبيننا فلم تكونوا أكثر منا عددا ولا أشد قوة». رواه الطبراني.

كان الصحابة رضي الله عنهم دعاة يعملون بأمر الأنبياء قبل ظهور الملوك في هذه الأمة وقبل بدء النقض في كيانها. وعَمَلُ الأنبياء و«المبعوثين» من أتباعهم يمشي في الأرض على هَدْيِ أنَّ الإله واحد وأن الأمة الإنسانية واحدة، كُلِّفَ خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ رسالة الله للعالمين، لم يُحْصَرْ أمره في زمان أو مكان.

كانوا دُعاة ينتشرون في الأرض مجاهدين مبلغين محررين: فكانوا جندا لا كالجنود، وقوما لا كالأقوام. قال في وصفهم عربيٌّ مشرك لقائد عجمي: «بالليل رهبان وبالنهار فرسان. ولو سرق ابن ملكهم [هكذا ظن أن لهم ملكا] قطعوا يده. ولو زنَى رُجِمَ لإقامة الحق فيه». أخرجه ابن جرير في تاريخه.

وشهد الأقوام بأنَّ المسلمين جاءوا محررين. اندفعوا على عهد أبي بكر وعمر في ثِنْتَيْ عشرةَ سنة فحرروا ما يسمى الآن سوريا وإيران والأردن وفلسطين والعراق ومصر. لم يحبسهم إلا جبال طوروس وصحراء ليبيا. قال ميخائيل الشامي أحدُ بطارقة النصارى: «إن إله الانتقامات [...]. رأى شر الروم [البيزنطيين] الذين كانوا ينهبون بقسوة كنائسنا وأديرتنا أينما حكموا. وكانوا يعاقبوننا بلا رحمة. فجاء من الجنوب بأبناء إسماعيل ليحررنا بهم [...]. لم يكن هذا خيراً قليلا لنا لنتحرر من قسوة الروم ومن شرهم وغضبهم وحسدهم القاسي، وأن نجد أنفسنا في راحة».

وحتى بعد ظهور الملوك في الأمة، والأمة في عزها، بقي معنى الرسالة المحررة باعثا جوهريا في الصدور. قال المؤرخ الإسباني بلاسكو إبانْيِزْ: «كانت إسبانيا عَبْدَةً لملوك يشتغلون باللاهوت ولأساقفة يشتغلون بالحرب. فكانت إسبانيا تفتح ذراعيها مرحبة بالغزاة [المسلمين...]. وفي سنتين استولى العرَب على أرض اقتضى استردادها منهم [بعد ذلك] سبعة قرون. لم يكن ذلك الغزو استيلاء بقوة السلاح، لكن كان مجتمعـاً جديدا تتأصل جذوره القوية في كل

الاتجاهات. كان مبدأُ حرية الضمير مبدأ مُحبباً إليهم. وهو الحجر الركنيُّ الذي عليه تبني العظمة الحقيقية للأمم. كانوا يقبلون في المدن التي يحكمونها كنيسة النصراني وبيعة اليهودي». [1]

كان في وعي الصحابة والتابعين بإحسان، وفي فقه علمائنا، أن أمة الإسلام شطران: أمةَ الاستجابة وهم من دخلوا في الإسلام فعلا، وأمة الدعوة وهم سائر الناس، يُرجى دائما أن يستجيبوا، ويجب على المؤمنين دائما أن يبلغوهم رسالة الله.

ودار الزمان دورته وانحدر وزن المسلمين السياسي بانحدار رسوخهم الإيماني. وانحلت عراهم وتفككت بنيتهم. فما وجد الاستعمار الغربيُّ منذ قرن ونصف حين بدأ غزوه لنا إلا أمة قابلة للاستعمار، فيها بقية من روح المقاومة السلبية، لكنها عاجزة عن مقاومة التحدي الـمُغيرِ لفقدها الـمُقَوّمَ المعنويَّ، وهو كونها خير أمة، وخير أمة أخرجت للناس لتنبعث وتبلغ وتفعل في العالم لا لتنكمش وتتماوت وتتحامى الاتصال والتفاعل والتعارك مع الناس.

لم يكن نقص الأمة في العتاد والسلاح وتخلفها المادي العاملَ الأساسيَّ في هزيمتنا أمام الاستعمار الغربي. كان عاملا من العوامل يأتي بعدَ فقدنا للوعي الرسالي وبعد تفككنا الغثائي وبعد ما فعله فينا داء الأمم وهو البغي بيننا على مدى قرون طويلة.

احتل الاستعمار أرضنا بالقوة العسكرية، وسيطر على السياسة وحكم، ونهب اقتصادنا. لم يكن له باعث غيرُ النهب وإن كان الإنسان الأبيض تذَرَّع دائما بأن له رسالة حضارية في العالم، يحسن إلى الشعوب الملونة حين يخرجها من «البدائية الهمجية» إلى الحداثة لتتروّحَ رَوْحَ العصر.

الاستعمار في فكر ماركس «أداة التاريخ غيرُ الواعية» ينقل الشعوب المتخلفة، ومنها المسلمون الرازحون تحت «الاستبداد الشرقي»، من نمط إنتاج فيودالي إلى نمط إنتاج رأسمالي برجوازي. فالاستعمار نِعْمَ الأداةُ التقدمية.

(1) هذان النقلان عن كتاب جارودي «وعود الإسلام»، طبعة لوسوي 1981، ص37 و38.

هذه الأداة العمياء حقا، البصيرة فقط بمصلحة الناهب، تشكلت بطبع الـمُغِيرين البرتغال والفرنسيين والإنجليز والطليان والهولنديين والإسبان. من استعمار مباشر مبيد، أو استيطاني مَريد، أو تجاري عتيد. لكن كل أنواع الاستعمار تلخصت في احتياش الأقوام الأوربية جُزْءاً من أجزاء التراب، خُطت حدودُه على مائدة المفاوضات بين الذئاب، وجُزِّئت بمقتضاه الشعوب المغلوبة. وهكذا جُزِّءَ العالم الإسلامي من أطرافه، ثم أصبحت التجزئة شيئا فشيئا هي قاعدة الوجود بعد انهيار الدولة العثمانية شوكةِ الإسلام رحمها الله.

العطب الفادح الذي أصاب المسلمين من جراء الاستعمار ليسَ نهبَ ثرواتهم ولا قتلَ رجالهم وتخريبَ ديارهم. العطب الفادح هو إقرار التجزئة في الواقع السياسي، وترسيخ الوعي التجزيئي في العقول والنفوس، وتمكين البنية التجزيئية في أرض الاقتصاد والإدارة، مشدودة إلى النظام الاستعماري الرأسمالي بأمراس من الفولاذ. كل قطر في إسارِهِ منعزل معزول مغلول محدود بِحدودٍ جغرافية سياسية وحدود نفسية وحدود اقتصادية، يرفرف فوق هذه الشظايا القطرية علَم قومي، ويغنيها أنغامَ الهزيمة التاريخية نشيد وطني.

الدولة القومية الوطنية التجزيئية هي اللاتُ والعُزَّى كما وضعها الاستعمار في الخريطة المحمية بقانون الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن وجحافل الأمريكان القابعين قرب منابِع النفط، قرب دولة بني إسرائيل المفسدين في الأرض، في مواجهة مع الزعيم القومي صدام الذي زعم أنه يوحد أمة العرب بالقوة. وما ذلت أمة العرب إلا منذ تخلت عن الوعي بأنها حاملة رسالة للعالمين، ومنذ انمسحت من فضائل الأمة القوية الأمينة على الرسالة.

على أرض المسلمين زرع الاستعمار دولة اليهود كما يُدفع الإسفينُ في جِسم خشبة ميتة يابسة يراد شقها وتشظيتها. دولة اليهود يجب أن يكون الوعي بمركزيتها في الفعل العدُوِّ هاجسا لنا دائما. فهي عنوان بارز للاقتطاع، رمز للتجزئة وبرنامج مقرر للتوسع من أرض القدس إلى أرض يثرب ومكة. أرض مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم.

العطب الأفدح من تجزئة الأرض هو تجزئة الفكر وزحزحة الإيمان والهيمنة الثقافية التي صنعت وتصنع من بني جلدتنا بدائلَ ونظائر للمستعمر، على شكل فكره وشعوره وبِزته ونمط حياته وشُغْلِ عمره، يَخْلُفونَه من بعد انسحابه.

فما تجد ممن يقاومون الاستعمار اليوم، بعد انقراض جيل المقاومة الأول، إلا منساقين وراء الحداثة، متدينين بنوع من «دين الانقياد»، يحسبون أنهم يدفعون عن أنفسهم عادية الاستعمار، وهم هُمْ دِعامةٌ من دعائمه، وأداة من أدواته، وعون من أعوانه، ووُكلاءُ لتجارته، وأوصياءُ على تَرِكتِهِ.

ليس المكر أن يحاربنا الاستعمار بعساكره هو وسياسته هو وماله هو. لكن المكر أن يحاربنا بعساكرنا وسياستنا ومالنا. وهذا ما حدث لما دفع العدو الظاهرُ العراق لخنق الثورة الإسلامية بإيران. وهذا ما يفعله العدو الظاهر عندما هب ملبيا استغاثة سلاطين النفط مستلما أجر تحركه مسبقا، أجرا مخصوما من أموال المسلمين المدخرة عنده، ومن سياستهم المصنوعة في دواوينه، ومن السلاح الذي يبيعنا إياه بالثمن الباهظ وقد كان على وشك أن يرميه للخردة منذ انتهت الحرب الباردة واستسلم الروس.

السؤال المطروح على هامش كل رزية تصيبنا، ومن أهمها التجزئة والوعي المصنوع المقبول بالتجزئة، هو: ما هي خصائص القوة الإيمانية الاقتحامية الكفيلة بأن تعيد الأمة إلى وحدتها حاملة رسالة رب العالمين؟ وما النصر إلا من عند الله.

التوحيد بالاقتصاد

عندك رسالة في غاية الأهمية والاستعجال، حمَّلتها رجلا كسيحا مقعدا مشلولا. ذلك مَثل أمة تزعم أنها تحمل رسالة الله للعالمين وليس لها من المنطلقات والمرتكزات الاقتصادية ما تستقر عليه الحياة وتطمئن إليه النفوس وتتغذى به الجهود وتتبلْور حوله المطامح. إنها سباحة في عالم الأحلام وملائكيةٌ بريئة أن يقلل المرء من أهمية العامل الاقتصادي عندما يتحدث عن الوحدة، كما أنها مادية سخيفة أن يتجاهل العامل الروحي الأخلاقي.

إن العدل في القسمة والقدرة على الإنتاج أساس بديهي لبناء العمران الأخوي. وما تُتَصوَّرُ أخوة على الإطلاق إن كان سكان الحي قاسيةً قلوبُهم لم تتبوأْ الإيمانَ فتلينَ برحمة الله لعباد الله. ولن تدورَ رحا القومة الإسلامية وآلياتُها، ولن يستقيم سيرُها، ولن يُحفظ ميقاتُها، ولن يجتمع هم المسلمين على وحدة إن كان الأساس الاقتصادي خِربـًا. كاد الفقْرُ أن يكون كفرا. كلمة لمولانا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وقد رواها الحافظ ابن حجر مرفوعة في «المطالب العالية».

نعتبر بالتكوين الصحابي لنسير على منهاج سويٍّ محرَّرٍ، منهاج بشرٍ كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وكانوا يتأثرون بما تتأثر به نفوس بني آدم من العوامل المادية. لم يكونوا ملائكة اقتعدوا سماء الشفافية. بعدها نرجع إن شاء الله لملابسات العصر مَلِيّـًا.

روى الإمام البخاري قصة المهاجر عبد الرحمن بن عوف لما نزل على أخيه الأنصاريِّ سعد بن الربيع فاقترح عليه الأخ الكريم أن يقاسمه ماله، وأن يطلق له إحدى زوجتيه ليتزوجها. فأبى عبد الرحمن وسأله أن يدُله على السوق. التقى كرم الأنصار ومِلْكِيَّتُهم للأرض بمبادرة المهاجرين وخبرتهم القُرَشِيّة بالتجارة،

فالتحم مجتمع كاسب كادّ مستعين بنِتاج عمله، كانت نيتُه أن يتعايش مع اليهود الفلاحين الحِرَفيين لولا أن خانت يهودُ العهود.

وأخرج البخاري رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اقترح على الأنصار أن يُقْطِعهم البحرين فقالوا: لا! إلا أن تُقطِع إخواننا المهاجرين مثلها! روى الحديث أنس بن مالك رضي الله عنه لما خرج من البصرة يشكو لعبد الملك بن مروان ظلمَ الحجاج. وتتمة الحديث قوله صلى الله عليه وسلم للأنصار حين أبوْا أن يستأْثروا على إخوانهم: «**إمّا لا فاصبروا حتى تلْقَوْني، فإنه سيصيبكم بَعدي أَثَرَةٌ**».

ماذا كان في نفوس الأنصار الذين مدحهم الله تعالى بأنهم يُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة، وبأنهم كانوا يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا؟ هل كان حساب المالِ غائبا عن أفقهم؟ هل كانوا جميعا نفوسا مطهرة من هاجس متاع الدنيا؟ أم كانوا ساعةً وساعةً؟ وكانوا منهم ومنهم؟

والمهاجرون؟ هل كانوا من جانب زُهدهم في الدنيا وسخائهم بها وإيثارهم التوكل على الله مثلَ أبي بكر الذي جاء بماله كله للنبي صلى الله عليه وسلم لتجهيز جيش العسرة؟ هل كانوا كلهم تُعَبِّرُ ألسنتُهم عن التوكل التام والتحرر الكامل من ثِقْلِ الهم اليومي فيقولون كما قال الصديق للنبي صلى الله عليه وسلم لما سأله: ما تركت لعيالك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله؟

روى الإمام البخاري رحمه الله عن أنس رضي الله عنه أن الأنصار قالت يوم حُنين وقد أَعْطَى النبي صلى الله عليه وسلم قريشا ولم يعط الأنصار: «والله إنَّ هذا لهو العجبُ! إن سُيوفَنَا تقطر من دِماء قريش! وغنائمُها تُرَدُّ عليهم!». فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فدعا الأنصار فقال لهم: «**ما الذي بلغني عنكم؟**» قال الراوي: وكانوا لا يكذبون. فقالوا: هو الذي بلغك! قال صلى الله عليه وسلم: «**أولا ترضَوْنَ أن يرجع الناس بالغنائم إلى بيوتهم وترجعون برسول الله صلى الله**

عليه وسلم إلى بيوتكم؟ لو سلكت الأنصار واديًا أو شِعْبا لسلكتُ واديَ الأنصار أو شِعْبَهم!».

وروى القصة ابن هشام رحمه الله مطولة، فيها ما راج من مقالات واضطراب في صفوف الأنصار يومئذ.

وما كان هذا من ضَعف إيمان الأنصار، حاشا وكلا. لكنهم كانوا بشرا، وكانوا متفاوتين، وكانت مقالة بعضهم تؤثر في بعض، وكان المال الذي يؤْثرون به إخوانهم عندما يكون في حوزتهم مَحط إغراء عندما يرونه يُستأْثر به دونهم. لم يكونوا جميعا كالرجل الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة، فتحايل عليه عمرو بن العاص وبات عنده ثلاث ليال ليعرف ما هي الأعمال التي فضلته. فلم يره يقوم بشيء من الليل إلا أنه إذا تَعارَّ (استيقظ) تقلب في فراشه وذكر الله وكبر حتى يقوم إلى الصلاة. فلما سأله عمرو عن الذي بلَغَ به ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما هو إلا ما رأيت! غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشا ولا أحسُد أحدا على خير أعطاه الله إياه. روى الحديث الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه.

ليس يعني كون الرجل من أهل الجنة أنَّ غيرَه من المسلمين من أهل النار. لكنه اتصف بسلامة الصدر والتجرد من الدنيا. وهي صفة يشترك فيها مع أصحاب الجنة الذين قال الله عز وجل عنهم: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾[1]. وما لهم أصحابُ الجنة لا يقيمون لغير ما هم فيه من نعيم حسابًا! جعلني الله منهم والمسلمين آمين.

وإلى حساب الأرض نعود لنتساءل عن الشروط الضرورية للمسلمين في هذه العصور كي يستقلوا باقتصاد غير تابع، وكي يُنَمُّوا مواردهم ويتصنعوا معتمدين بعد الله الغني الحميد على أنفسهم، متكاملين ما بين أقطار التجزئة ليكون التكامل الاقتصادي بدايةً لحركة التوحيد.

(1) سورة الحجر، الآية 47.

وما ضرورات الاقتصاد التي تلزم المسلمين بالتفكير في التكامل الاقتصادي إلا عصاً مِن عِصِيِّ القدَر الإلهي تسوقنا إلى الوحدة كما يُلهِبُ ظهورنا إليها الإسفين الصهيوني في قلب كياننا. إسفين لن نستطيع نزعه إلا بوحدة تقوينا، ولن نقوَى على الوحدة باقتصاد ممزق كتمزق أرضنا وفكرنا وإرادتنا السياسية. يتحكم في إرادتنا ويُقلِّبُ عزمنا كيف يشاء من يملك مفاتيح اقتصادنا، ومن يملك وسائل الضغط على الهياكل الهزيلة المنفردة.

ويكون تجميع رأس المال، وتخليص أموال النفط من قبضة الأبناك اليهودية الرأسمالية التي يجري إليها مجرى النهر الدافق إلى البحر العامق. كتب أحد المصرفيين الخبراء العرب في مجلة فرنسية أن العرب النفطيين استثمروا في الأربعين سنة الأخيرة عشرة ملايير دولار في بلاد العرب. واستثمروا في نفس الحقبة في أوربا وأمريكا وسائر الأرض ستمائة وسبعين مليار دولار. ولا شك أن هذه الأرقام لا تتناول الأموال السرية، والأموال «الشخصية».

تهريب أموال النفط وسوء تدبيرها وتبذير مردودها سبب مهم من أسباب تفكك اقتصاد المسلمين. فهي تحت حماية القانون الدولي الذي يكَشِّرُ عن أنيابه النووية ليحمي إمارات النفط. النفط مِلْكٌ خالص للدولة العشيرة، والدولة العائلة، والدولة الخيمة. وهو بهذه الخصوصية الفذة مال يتامى يتصرف فيه الكافل الخائن بلا رقيب ولا حسيب.

بعد تقدير هذا التحدي الضخم الذي سددهُ القدر في وجوهنا نلتفت إلى حساب المسافة التي تفصلنا عن الترابط العضوي الاقتصادي اللازم لكي تكون لنا سوق داخلية وإنتاج داخلي يغذيان قدرتنا على التعامل المعتبر في السوق العالمية.

إن النظام الدولي لا يعبأ بالكيانات الهزيلة، بل يطحن قدراتها بآليات تبخس المواد الأولية، وهي مُجمَلُ ما عند المستضعفين مثلِنا، وتلْحَسُها بسَوْمَةٍ مكسورة. ويصُب التبادل غير المتكافئ في المديونية، وتصب المديونية في الارتهان في آليات التعديل الهيكلي تحت رحمة، بل تحت نقمة، صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنتديات القروض الربوية الفاحشة.

برهنت برامج التنمية القطرية في بلاد المسلمين عن عجزها عن قيادة تنمية سليمة. من بين أسباب فشلها تبعيتها الوثيقة، وهي متفرقة، لهذا الجانب أو ذاك من الأسواق العالمية. وهل في العالم غير سوق واحدة؟

ومن بين الأسباب تحكم رأس المال الأجنبي المستقل في قراراته، يتخذ القرار في الوقت الذي يناسبه، وبالقدر الذي يناسبه، وفي الاتجاه الذي يناسبه. فهو يستغل حاجتنا الماسة لأموال نستثمرها في غياب أموال المسلمين المهرّبة والمنهوبة لكي يبني هناك ولكي يخدم الشركات الأمهات، لا يهمه مما يجري هنا إلا الربح العاجل.

وفي هذه الشروط لا يعتمد رأس المال الأجنبي وخادمُه القطري المحلي استراتيجية لبناء اقتصاد متكامل، بل يرصد مجهوداته لإنتاج الكماليات الاستهلاكية، وإنتاج الأجزاء الرخيصة هنا المطلوبة هناك، وتركيب الآلات المصنوعة هناك المصبوغة الملفوفة هنا.

وهكذا يعجز الاقتصاد القطري عندنا عن إشباع الحاجات الضرورية الأساسية. وبتشَوُّهِ البنية الاجتماعية المتأتية من التفاوت الفظيع بين الدخول تنكشف الساحة عن مجتمع استهلاكي غير منتج. يشده إلى مواطن القدرة الاقتصادية العالمية ألف سبب من أسباب التبعية. يشكل العرب أربعة في المائة من جملة السكان في العالم. استوردوا في سنة 1984 بتاريخ النصارى 18،5 بالمائة من الحبوب التجارية في العالم. والنسبة تزيد من سنة لسنة. وأراضي المسلمين شاسعة، وأذرعهم عاطلة، وعقولهم في إجازة، وأموالهم أين؟ ولا غالب إلا الله.

وحدة بالقوة، وحدة بالمحبة

بعث الله عز وجل المرسلين ليُحْيوا في الناس نداء الفطرة، ليبشروهم بأنهم لم يخلقوا عبثا وأنهم إلى الله راجعون، ولينذروهم يوما تَشخَص فيه الأبصار يوم لا ينفع مال ولا بنون. رسلُ الله رحمة للخلق، بشر من البشر، أوِدَّاءُ هيِّنون لينون. يمشون في الأسواق يتحببون إلى الناس ليحببوا إليهم الله. دعوة حانية ميسِّرَةٌ لا معسرة.

وكذلك علماء هذه الأمة ودعاتها، وظيفتهم أن يبلغوا ميسرين لا معسرين.

وَلَوْ كانت هذه كلَّ وظيفة الرسل وورثتهم العلماء الدعاة لكان الدين والتدين شأنا خاصا هامشيا كما يتصور الدينَ اللاييكيون الذين انتهى بهم الأمر إلى أن خلَّصوا الدينونة لقيصر من الدينونة للكنيسة. وإذاً لكانت الدعوة سعيا رَخوا في الأرض حالما.

الإسلام الخضوع لله عز وجل، والدينونة الكاملة له، والطاعة لأمره ونهيه. بعث الله عز وجل الرسل بالكتاب والبينات ليقوم الناس بالقسط، وليكونوا أمة واحدة، عباداً لله، يحكمون بينهم بالعدل ولا يتظالمون. وأنزل الحديد فيه بأس شديد. قال العلماء: ذكر سبحانه الحديد بعد ذكر الرسالة ليقوِّم من عدَلَ عن الحق بقوة الحديد. بقوة السلطان.

فالإسلام دعوة ودولة، يخدُم وازع السلطان وازع القرآن، ويسير في ركابه. يلتَمّ شمل الأمة في مركزها بالمحبة الأخوية، ويشتد ساعدها بقوة الدولة الحافظة القوية الأمينة.

وقد كتب المسلمون في عصرنا واشتغل أعداؤهم في الحديث عن الجهاد والقوة في الإسلام. الأعداء يرون أن الإسلام انتشر بالقوة الهجومية،

والإسلاميون يدفعون في وجه هذه التهمة فيردون الجهاد إلى حجم دفاع سلبي. والمسألة المطروحة هنا هي: هل تتوحد الأمة، ووحدتها عقيدة، دون استعمال القوة الإلزامية؟ نطرح هذا السؤال موازاة مع طرح صدام القومي. فإنه لدى هجومه على الكويت رفع عقيرته ينادي المسلمين إلى العدل، ويناديهم إلى الوحدة، ويناديهم إلى الجهاد لتحقيق الهدفين العزيزين على القوميين.

تعديل في الخطاب منذ تحول البعثيون دعاة إسلاميين على ضوء فجْرِ الصحوة الإسلامية، واستفادة من سقوط الاشتراكية وخراب دارها. فهو عدل لا اشتراكية. وهو جهاد لا عنف ثوري في خطابهم الجديد.

منذ نحو عشرين سنة كتب سعدون حمادي، وهو الآن شخص بارز في حاشية صدام، يعلق حواشيه على العقيدة المذهبية القومية التي تجمع بين الرومانسية الحالمة وبين استعمال العنف وسيلة لتحقيق الأهداف. ويفكر سعدون أن القومية الثائرة ستسير من تنازل إلى تنازل إن لم توطد العزم على استعمال العنف لتوحيد الأمة العربية بالقوة. وركز نقده على توقف أنور السادات في حربه مع دولة بني إسرائيل سنة 1973 بتاريخ النصارى، يرى أنها لو استمرت لكانت الفتيل الذي يُشعل لهيب الثورة في العرب ويصْهَرُهُم أمة واحدة. وها هو صدام اليوم يهجم على الكويت ويستميت ويطاول. وها هم العرب والمسلمون يلتهبون حماسا متجاوبا مع بطل يدعو للعدل والوحدة والجهاد.

وللقوميين في نظرتهم إلى القوة العسكرية ومكانها في التاريخ أسوة بما فعله جَارِبَلْدِي وبِسْمارك منذ قرن ونيف. وحَّدَ جارِبلْدِي الوطني المقاتل إيطاليا بقوة البندقية. ووحد بسمارك المستشار الحديدي لبروسيا إمارات الألمان بجحافله العسكرية.

عنصر مهم لم يُدْخله القوميون في تقييمهم ومقارنتهم: هو أن جاربلدي قاتل النمساويين والصقليين والبابا فأزاح ظلمهم عن القوم الطليان الراغبِ مُعظمُهم في الوحدة. وأن بسمارك حقق وحدة الألمان بالنار والحديد يدفع بهما العدو

الغازي من نمساويين وفرنسيين، وفي قلوب الألمان يومذاك كما هو الحال اليوم حنين إلى الوحدة عظيم.

أما القوميون العرب فعنفهم الوحدوي عارٍ عن الحقائق التي تبعث القوم بعضهم نحو بعض حتى لا تبقى إلا دفعة نهائية يلتحم على إثْرِها المتفرق، ويشتد بقوتها المنحل، وينصهر على نارها المتَفتت. العرب في العراق والكويت مسلمون، تحركت عامتهم وعامة المسلمين لنداء يخاطب قلوبهم بالعدل والوحدة والجهاد، ورأوا في البطل المنادي صورةً لصلاح الدين، لمحةً خاطفة في الضمير المنهزم. لكن ذلك العزم الراسخ والعقيدة الثابتة في الوحدة شيء لم تغرسه القومية في العامة، ولا ينْبُتُ لو حاولت. فلا تحصد من زرع العنف إلا مزيداً من التمزق. ونحن ننتظر ما الله فاعله. لا ربَّ غيره. [1]

وفي أفق الإسلاميين الغادين إلى سدة الحكم أن يُحِلُّوا الجهاد مكانته العزيزة، وأن يحرثوا في أرض الإيمان عند الخاصة والعامة عقيدة التوحيد، لُحمتها وسداها المحبة الأخوية والعدل والبذل، وحصنُها اللازم الضروري قوة الجهاد.

كان سيد قطب رحمه الله يغضَبُ على من يقَزِّمُ شأنَ الجهاد يدَّعي أنه حرب دفاعية. ويكتب في «معالم في الطريق» بأسلوبه الأبي: «المهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن «الجهاد في الإسلام» ليدفعوا عن الإسلام هذا «الاتهام» [اتهام أنه قتال هجومي] يخلِطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تُعَبِّدُ الناس للناس، وتمنعهم من العبودية لله [...]. ومن أجل هذا التخليط، وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة، يحاولون أن يحصُروا الإسلام فيما يسمونه اليوم «الحرب الدفاعية»». انتهى كلامه رحمه الله.

من هذه «التهمة» نتحول إلى تهمة لم يُدرك زمانها سيد قطب رحمه الله. هي اتهام اليساريين رجالَ الصحوة الإسلامية بأنهم عبيد القوة، وبأنهم يتعاملون مع

(1) وكانت هزيمة «أم المعارك» نكبة مدوية في تاريخ المسلمين، وجُرحا بليغا في جنوبهم (تعليق والكتاب تحت الطبع).

النظُم الرجعية وأمريكا ويتلقون منها المساعدات والسلاح ليقاتلوا عنها القوى الحية التقدمية، وليقفوا في وجه المدِّ الديمقراطي، ولينْسفوا آمال الاشتراكية.

وكان هذا الاتهام على أشُدِّهِ إبان احتلال روسيا ما قبل البرسترويكا لأفغانستان، وإبَّان تألُّق الجهاد الأفغاني المجيد.

هل كان للمجاهدين العُزْلِ في أول مراحلهم أن يتورعوا التورُّع البليد فيرفضوا أموال سلاطين النفط، وهم أحق المسلمين بمال المسلمين؟ أم هل نلوم بعض رجال الدعوة على اللجوء من اضطهاد الجبارين القتالين إلى حضن أنظمة لا تقتل الدعاة الفارين إليها بنيتهم الجهادية لكنها تتألفهم وتؤويهم، وإن كان ذلك بنية أخرى؟

كلا، لا نلوم ولا نبتئس. لكن نحذر من منطق التآلف مع منافقي الإسلام أن يجرف الدعاة في واد غير فجِّ الجهاد. ونحذر خاصة من «الغزو الثقافي» الذي تموله عائدات النفط لتسُلَّ الروحَ من جسم الدعوة، ولتعقِّمها، ولتُحيِّدَها، ولِتُؤَنِّسها وتدجِّنها، ولتبقِيَها راتعه في حجر الطغاة المنافقين لا تغزو ولا تحدث نفسها بغزو، إلا بغزو إخوانها المسلمين من عامة الأمة ومن خاصة الدعاة، في حروب مذهبية طائفية داخلية تؤجج النار في صفوف الدعوة.

جهاد منكوس معكوس، وعنف مخرب للوحدة مؤبِّد للشقاق والنفاق والوحشة لا الوفاق هو هذا الأسلوب الفج الذي تُعلمه مذهبية المكفرين المبدِّعين الناسَ بغير حق. أسلوب تأنس إليه وتطمئن أفئدة الذين لا يؤمنون إلا بمصلحة العشيرة والعائلة المالكة وحلفائها الذين يعلن عليهم صدام القومية بحق سخطه الثوري.

يقرأ الدعاة الأغرار ما يكتبه أئمة المسلمين من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فيؤَوِّلونه على ما يوافق هوى الذين طبعوا الكتب ونظموا المؤتمرات وآوَوا في الفنادق الفخمة وأغدقوا الإدرارات السلطانية. ويجردون مقالات الأولين عن ملابساتها في ذلك الزمان، وعن مقدماتها ونتائجها، وعما تخفيه الكلمات، لا يقرأه بين السطور إلا نابِهٌ لِما فعلته فتنة انتقاض عروة الحكم بالمسلمين علماءَ وعامة.

يقول شيخ الإسلام في «منهاج السنة»: «فإن الحاكم إذا ولاه ذو الشوكة لم يمكن عزله إلا بفتنة. ومتى كان السعي في عزله مفسدة أعظم من مفسدة بقائه لم يجز الإتيان بأعظم الفسادين لدفع أدناهما. وكذلك الإمام الأعظم. ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم»(1). ويستدل الشيخ رحمه الله بالأحاديث الصحيحة الآمرة بالسمع والطاعة.

يتساءل اليساري والقومي الثوري تساؤله الدائم: لماذا لا يتحول تدينكم قوة ثورية فاعلة تقاوم الظلم وتنازل الطغاة؟ لماذا تتفيَّؤون ظلال الأغنياء الأقوياء؟ ونُضيف نحنُ تساؤلا: لماذا تتخصصون في محاربة بدَع العامة الجاهلين في المعاصي الفردية أو الانحرافات الطفيفة وتُحْنُونَ الهامَ أمام سدنة البِدَع؟

الجواب الذي لا يفهمه اليساري الثوري هو أن في صفوف الدعوة صادقين سُذّجا أو وصوليين منافقين يتلقون إدراراتِ سلاطين النفط ومعها «كيفية الاستعمال» موصوفةً بيدٍ تعظمها مكانتها العلمية تقول: إن من غلبهم بالسيف لا يجوز أن يبيت المسلم ليلة دون أن يراه أميراً للمؤمنين. وتقول: إن حامل السيف لا يجوز في مشهور مذهب أهل السنة والجماعة الخروج عن طاعته.

لا يفقه الصادق الساذج أن ابن تيمية وعلماء الأمة كانوا يحافظون على ظَلَمَتهم لأن أولئك الظلمة كانوا شوكة حامية، ولواء عزيزا منتصرا، وحامية لوحدة المسلمين. أما هؤلاء الشتات المنهزمون الذيليون فما الحفاظ عليهم إلا تفويت لفرص الوحدة وإبقاء للفتنة على قواعدها. ولله عاقبة الأمور.

---

(1) منهاج السنة، ج2 ص87.

قومة، لا ثورة

ملأ الفارُّون من الكويتَ من عَجَزَةٍ ونساء وأطفال أسماعَ الدنيا من الشكوى مما تفعله العساكر الصدامية بالمسلمين من العذاب الوحشي الذي يَنْدَى له جبين الإنسانية. ولا غرْو فحَرقُ خمسة آلاف كرديٍّ في حَلَبْجَةَ بالأسلحة الكيماوية الرهيبة بأمر الرئيس صدام واسترخاص دماء مليون مسلم في الحرب المسعورة ضد إيران مدرسة ثورية علمت العساكر العنف الثوري. وتزامن العتُوُّ الصدامي مع إفساد اليهود في القدس ومذابحهم في أطفال الحجارة.

الثورة والعنف الوحشي توأمان. نظَّرَهُما ماركس ولينين وطبقهما ستالين وعبد الناصر. والمسلمون في تواريخهم يستعملون كلمة «ثورة» للدلالة على خروجٍ عنيف بغير حق. وفي كلمة «ثورة» إيحاء بالعجلة والعنف والاضطراب. ويستعمل مؤَرِّخونا كلمة «قومة» للإخبار عن الخارجين على الظلمة بحق. وكلمة «قومة» موحية بالقوة والثبات والثقة. لذلك نستعملها تميزا في الاصطلاح لنَنْتَقِدَ أساليب العنف وحرق الناس وبقْرَ بطون النساء وإطفاء السجائر في عيون بني آدم وما إلى ذلك من إفناء الطبقة البائدة وتسليط المخابرات.

يرى صاحبنا جارودي أن الثورة على النمط الغربي لم تعد ممكنة، وينتظر من الإسلام أن يخترع ثورة لها وجه إنساني تعيد للإنسانية الأمل في مستقبل غير يائس وتعطي لحياة الناس معْنىً. ومن بني جلدتنا الراكضون في الحلبة الثورية المهجورة خلف خيال اشتراكية ماتت، فما ثم إلا شبحُها يجري أمام الأخيلة المريضة مُضِيّاً ولا يرجعون!. ومجاراة بليدة.

نؤَصِّل بحول الله «القومة» بلا لَجلجة في المعاني القرآنية لكي نراجع ما سبق من فصول هذا الكتاب ولكي نؤسس ما بين أيدينا منها. ونبني نظرنا وتدبرنا على حقيقةِ أن صلاح آخرة الفرد هو الغاية من القومة، وأن صلاحَ آخرة الفرد

مرتهن بصلاح دنياه بمقتضى أن الفقر يكاد يكون كفرا وأن الظلم فتنة عن الدين. ونبني على أن صلاح دنيا الفرد مرتهن بصلاح دنيا المجتمع. ونبني على أن مرور الفرد من هذه الدنيا له مغزى ومعنى هو الابتلاء بالشر والخير، والعرض على مِحَكِّ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1] ودار الابتلاء هذه الدنيا قاعدتُها وشرطها التناقض والتدافع والسببية والمسؤولية. ثم الانتقال بالموت، وبعد الموت الدار الآخرة دار الجزاء، إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض أو إلى نار وَقودُها الناس والحجارة أعِدَّت للكافرين. اللهم أجرنا من النار وأدخلنا الجنة بفضلك.

بعد هذا نُجمل مضمون «القومة» ومنهاجها في سبع نقط أصلها ثابت في لفظ القرآن ومعناه، وتستقي المادة العملية من النموذج النبوي. صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

1. قومة الداعي تبتدِئ بقومة الرسول في قومه يخاطبهم بلسانهم على الرفق لا على العنف. وكل داع بعد الرسول لم يبدأ ميسرا لا معسرا، مبشرا لا منفرا، جامعا لجهد الصادقين لا مشتتا فما هو من القوة في شيء. ومن شأن القائم بالدعوة أن تعترضه عقبة المعارضة ممن ألِفوا ماضيَ الجاهلية وترَبَّوْا على ذهنيتها وأُشْرِبوا في قلوبهم أنانيتها والعبودية للهوى. تلك سنة ماضية نعرفها من سيَر الرسل عليهم السلام كما قال الله تعالى عن عبده محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾. [2] جاءت الآية في سياق حديث الجن للجن عن البِعثة والمبعوث. لِبَداً: أي متلبِّدين مُتَمالِئين على المقاومة والعِداء.

2. قومة الشاهد التي يدعو إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْط﴾[3]، ﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾[4]، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾[5] ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾[6] قومة لإحلال العدل محل الجوْر. عدليَّةٌ

(1) سورة الملك، الآية 2.
(2) سورة الجن، الآية 19.
(3) سورة المائدة، الآية 9.
(4) سورة النساء، الآية 134.
(5) سورة المعارج، الآية 33.
(6) سورة الرحمن، الآية 7.

نموذجية تخاطب الإنسان مِنْ قِبَلِ همومه الدنيوية من حيثُ تخاطبه دعوة القائم العبْدِ الرسول أو التابع «المبعوث» المبلغ من قبَل روحانيته.

3. قومة إلى الصلاة. وإقامة الصلاة. وما أمر الله عز وجل بالصلاة أو مدح المصلين إلا جاءت كلمة الإقامة. فالصلاة عماد الدين. هي العمودُ الفقري للدين. وأداؤها في المسجد والجماعة أساس البناء النفسي للمؤمن. لا يمكن إعادة ترتيب حياة المسلمين ولا تقعيد السياسة والاقتصاد والأخلاق على الأُسِّ الصحيح دون إقامة الصلاة. وإقامتها الوفاء بشروط الإسلام، والاغتباط بفرائضه، يجد في ذلك المسلمُ رَوْحَه وراحته، ومرتكَزَ أوقاته، وضابط ليله ونهاره، وناهيه عن الفحشاء والمنكر.

4. قومة الإحسان التي تزيح عن وجه الفطرة وعن صفحة القلب ما علق بها في الماضي وما يعلَقُ بها في المعافسات اليومية من غيْن الذنْبِ ومُلاحاة الخلق ومغريات الشهوات. ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾[7].

إقامة الوجه لله عز وجل والطلب القلبي الدائم، الذكر الدائم، لله عز وجل والخضوع له ومناجاتُه هي علائم اكتمال الدين. الإسلام تأسيس للأركان، والإيمان بناء وتشييد، والإحسان هو القبة. ومن مجموع الإسلام والإيمان والإحسان يتكون الدين. الدين مراتب ودرجات. يا من يستحلي السطحية الثقافية النضالية باسم الإسلام!

5. إقامة حدود الله. وذلك هو السياج الصائن لبناء الدين. ليس معنى إقامة الحدود تنزيل العقوبات على الناس في فراغ من المسؤولية عن هداية الناس، وتربية الناس، وتوفير الضروريات للناس، وتأمين حياتهم. إقامة حدود الله وحفظ البناء عملية لا معنى لها إلا في سياقها التربوي العدلي العمراني الأخوي الدالَّة عليه آياته تعالى: ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ**

---

(7) سورة الروم، الآية 29.

الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللِه ﴾[1].

6. القيام بأمر الله. قيام الدعوة على الدولة. على الشورى لا على العض والجبر. قيام أولي الأمر منا، العلماءُ الذين يخشَوْن الله ولا يخافون في الله لومة لائم. وفيهم يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «**لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيَ أمر الله وهم على ذلك**». رواه الشيخان عن معاوية بن أبي سفيان.

7. إقامة الوحدة. وهي القاعدة الضرورية لإقامة دين الفرد ودين الأمة للانطلاق في تبليغ الرسالة الرحيمة للعالمين، تأبيداً مبعوثيا تبليغيا لرسالة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وائتِماراً بأمره تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾[2].

هذه ملامح «القومة» كما نقرأها في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. أبْرَزُها في عين السياسي الذي يقرأ ليعرفَ ما يريده الإسلاميون الشورى والعدل والوحدة. لكن هذا المراقبَ يُخطئ الفهم إن تجاوز الدعوة إلى الله، والإخبار بالآخرة، والإيمان بالله وباليوم الآخر، والصلاةَ تقام في المسجد والجماعة، والحدودَ تُسَيِّجُ الحِمَى، والنموذجية الشهادية بين الأمم تُعلِنُ عن العمران الأخوي، والإحسانَ يتوج الدين. يخطئ الفهمَ من لاَ يشمَلُ تدَيُّنُه كل هذه الصالحات من العقائد والسلوك والأعمال. ويقعد لا يستطيع قياما. ويثور فلا تكون قومةً.

نجد الفهم الجامع، والقومة الشاملة، عند معلم البشرية محمد صلى الله عليه وسلم. ونجد عند الصحابة رضي الله عنهم التحلِّيَ بما شاء الله من خصال القومة، في حدود بشريتهم وأخطائهم وذنوبهم التي يستغفرون منها ويتوبون فيدخلون بالتوبة في سياق ﴿ **التَّائِبُونَ... الْحَافِظُونَ** ﴾. وفي بشريتهم وذنبهم وتوبتهم

(1) سورة التوبة، الآية 113.
(2) سورة الشورى، الآية 11.

وخطإهم لنا من الدروس ما يشجع ولا يثبط. فإن جئنا بمثالية نظرية للقومة غائبين عن الواقع الممانع وعن النقص فينا فلن تكون قومة، والقومة مجهود، القومة مراحل، القومة مهمة أجيال.

كنا قرأنا في الفقرة الفارطة عن الاستنقاع باسم السلفية، وفي ركاب التيمية النفطية، في تبديع المسلمين لتثبيت عرش السلاطين. وتلك قعدة ليست أخفَّ ما يتربص بالقومة الإسلامية.

ونقرأ هنا عن قاعدين لهم نفس المنطق وإن كان الموقفُ مغايرا. إنهم المتصوفة الهاربون من الدنيا، الخائفون على ضياع العقيدة كما يخاف ابن تيمية، المسالمون للغالب بالسيف كما يسالم.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: «فالذي نراه أن الخلافة منعقدة للمتكفل بها من بني العباس رضي الله عنه. وأن الوِلاية نافذة للسلاطين في أقطار البلاد. [...] ولو قضَينا ببطلان الوِلايات الآن لبطلت المصالح رأسا. فكيف يُفوِّتُ رأس المال في طلب الربح؟ بل الوِلاية الآن لا تتبع إلا الشوكة. فمن بايعه صاحب الشوكة فهو الخليفة». (3)

أين من يبايعه المسلمون باختيارهم؟ بل أين «جماعة المسلمين» القائمة بأمر الله؟ لِمَ مبايعة الظالمين؟

أجاب الإمام ضِمْنًا، وأعرض عن المشكلة تصريحا عندما فصل أمر المخالفين لأمر الله سبحانه إلى مخالفين في «العقد» (نقول اليوم: العقيدة) وإلى مخالفين في العمل. فهو يرضى رِضَى الـمُعْرِضِ المتطهِّر بالظَّلَمَة العاصين ليدفع عن الأمة خطر الزندقة والباطنية. قال رحمه الله: «ما يتضرر به الناس كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والنميمة، فهؤلاء الأَوْلَى الإعراضُ عنهم وتَرْكُ مخالطتِهم والانقباضُ عن معاملتهم [...]. والإعراضُ عنهم مؤكد جدا». (4)

(3) الإحياء، ج2 ص124.
(4) نفس المصدر، ج2 ص149.

هكذا يعتبر إمام عظيم من أئمة المسلمين الظلـمَ معصيةً من المعاصي في حجم الغيبة والنميمة. وهكذا تقلد الأجيال الناظرة في كتب الأقدمين مواقف أملاها هم ثقيل حمله رجال عظماء كشيخ الإسلام ابن تيمية وحجة الإسلام الغزالي رحمهم الله. والقومة من التقليد الـمُغْمَض، وإزاحةُ هيمنة النص الموروث ما دون قال الله وقال رسول الله أولوية من أولويات القومة. خاصة فيما يرجع للحكم. والله أحكم الحاكمين لا رب غيره.

الوَلاية الجامعة

«الولاية الآن لا تتبع إلا الشوكة». بهذه العبارة قدم لك الغزالي عذره وأوضح لك سبب إعراضه عن تلك العقبة التي زرعها القدر في ذلك الآن. ظروف لا قِبَلَ لعلمائنا بمقاومة اتجاهها. «الآن». وأنت في آنك لِمَ تقيسُ ما لا يُقاس؟

ويكتب لك ابن تيمية وصفا لحدود قدرته في زمانه وظروفه فيقول في «السياسة الشرعية»: «ومن كان عاجزا عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ففعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه والدعاء للأمة ومحبة الخير وفعل ما يقدر عليه من الخير لم يُكَلَّفْ ما يعجز عنه».

وأنت يا أخي لِمَ تقعد وليس للأمة شوكة عزيزة، وذوو السلطان في عصرك يخرِمون وحدة الأمة لا يجمعون؟

هل أنت معنا ومع الحديث المنهاجي الذي بشرنا بالخلافة الثانية بعد عهود العض والجبر؟ إن تكن نسيت هذا الحديث العظيم فارجع إلى فاتحة الكتاب.

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلّف لنا رسالة واضحة حافزة على القومة، وبرنامجا ومثالا حيا من فعله وفعل خلفائه الراشدين. هو، بأبي وأمي، أمامنا ينتظر أن نردَ عليه ليُفاخِرَ بنا الأممَ ويكاثر. «**أنا فَرَطُكم على الحوض**» حديث رواه الشيخان عن جندب بن عبد الله. والحوض يُسقى منه المسلمون السعداء عند مداخل الجنة يشخُبُ فيه مِيزابانِ من الجنة. على رأس الدرب، هناك في مستقبلنا الأبديِّ، منادي الله، داعيهِ الذي قام يدعو إليه. والأمة المجاهدة إن ألقت نظرة على الماضي التاريخي لتلك القومة إنما تفعل للاعتبار لكي يُقدِّمَ لآخرته كل فرد مقيم للصلاة قائم بالقسط عملا صالحا يجده بين يديه في الموقف عند الحوض.

فلِمَ تلبَثُ في الماضي يا أخا الإسلام وتتبَعُ طُرَيْقاتِ علماءَ أجلاَّءَ حبسهم الآنُ و«عجز الطالب» عن النهوض لِما لَم يكن القدَرُ وقَّته؟

القومة المطلوبة لا ينهض لها المشتغل بمعاصي العباد يقاتلها قبل أن يُعَلِّمَ، يهدِمُ ولا يبني. ولا ينهض لها المنعزل الـمُعرِضُ في زاويته عن العالم، المغتبطُ بمحبة طائفته، يتعلل بصحبته المنغلقة عن مواجهة مرائر الجهاد.

القومة على منهاج النبوة تريد تضافرا جماعيا على الجهاد، تريد توحيدا للجهود، وتناصرا، وتفاعلا من قريب مع الواقع، وقوة وتدبيرا وفعلا مقتدرا. وهذا ما تدل عليه كلمة ولاية بفتح الواو وكسرها. والوَلاية بين المؤمنين واجبة، وهي اللحام الكلي الجامع لوحدة المؤمنين حاملي الرسالة المخاطبين بالقرآن المتآمرين بالمعروف المتناهين عنه، الآمرين به غيرَهم الناهين، القائمين على تنفيذ المعروف وإحقاق الحق بعد دحض الباطل وإزهاق المنكر. ذلك أمر الله عز وجل أنزله إلينا في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

لا التوحيدُ بالاقتصاد ولا بالقوة ولا بالقومية ولا بقانون الدستور وقسَم الوطنية يستجيب للمعيار القرآني. بل الوَلاية هي اللحمة الجامعة، هي القاعدة العاطفية الإيمانية العملية للعمران الأخوي. وبها التمايُز عن الغير. ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[2]. وصفاتهم في وَلايتهم نقيض صفات المؤمنين، فهم ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[3].

بالوَلاية بين المؤمنين يتصل حبل المؤمنين جماعةً بحبل الله عز وجل، فيكونُ القوي العزيز سبحانه لهم نصيرا، ويكونون أحبته في الأرض يحبون فيه ويعادون فيه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ

(1) سورة التوبة، الآية 72.
(2) سورة التوبة، الآية 67.
(3) سورة التوبة، الآية 67.

وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ﴾[4]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾[5].

الإخلال بالوَلاية -وروحُها حب الله والحب في الله والبغض في الله- نوع من الردة. ارتكاس وانحلال. علامته أن يكون المرء ذليلا على الكافرين مستخذيا لهم، عزيزا على المؤمنين جبارا عليهم.

وفيما بين العباد وبين ربهم من علاقات، وفيما بين بعضهم وبعض، يأتي مفهومُ الوَلاية ليُميز فَرْقَ ما يجمع المؤمنين وما يضم غيرهم. فالوَلاية بين المؤمنين ليست من قبيل إضافة سياسية أو قرابة نَسَبِية تُلْحِق هؤلاء بأولئك. بل هي لُحمةٌ عقَدية وروح سارية وتناصر واجب. لا يتم إيمان أحد بدون تغلغل هذه الوَلاية في كيانه القلبي، يصدِّقُ هذا التغلغلَ الفعلُ والمشاركةُ والالتزام الجهادي بالنفس والمال.

قال أهل اللغة: الوَلاية، بفتح الواو وكسرها، تشمل معاني المحبة والقرب والنصرة والتدبير والقدرة والفعل والصداقة والاعتقاد. واختار الزَّجّاجُ رحمه الله تخصيص كسر الواو للدلالة على الإمرة، وفتحَها للدلالة على النصرة والنسب. وبفتح الواو قرأ نافع. وجاءت كلمة «ولاية» في موضعين من كتاب الله جل وعلا.

دَأَبَ السلف الصالح على استعمال لفظ «وِلاية» بكسر الواو لوصف العباد الذين خصهم ربهم برحمة منه فاتخذهم أولياءَ أحبابا مقَرَّبين سابقين. ومن الناس من يعتقد أن لا خصوصية هنالك، وأن لا وَليَّ إلا بالوِلاية العامة التي بها يتولى الله المتقين. ويقرأ قوله تعالى: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[6].

وليُّ الله كما عرفه المحدث الحافظ ابن حجر رحمه الله هو «العالم بالله تعالى، الـمُواظبُ على طاعته، المخلص في عبادته». انتهى.

(4) سورة المائدة، الآية 56.
(5) سورة الممتحنة، الآية الأولى.
(6) يونس، الآيتان 62-63.

والفقيه المحدث المشارك الشوكاني رحمه الله يبني على هذا التعريف المتحفظ المعمِّمِ، ثم يرتفع رويدا رويدا حتى يصل إلى مقارنة الولي بغير الولي كما يلي: «وليس لمن كان بالنسبة إليهم (إلى الأولياء) كالبهيمة بالنسبة للإنسان، أو الإنسان بالنسبة إلى الملائكة، أن يُنْكِرَ عليهم شيئا لا يخالف الشريعة». [1]

كان للإمام الشوكاني رحمه الله شمَّةٌ من الصوفية، فهو يقاوم من وراء الفقيه المحدث، ومن وراء النصوص، المنكرين على الأولياء. ولم يدخل رحمه الله في المعركة الحامية التي خاضها من قبله ابن الجوزي بِتَقَحُّمٍ وابن تيمية بما يشبه الإنصاف. رحم الله الجميع.

خرجنا عن الموضوع! كلا، بل ما كِدنا ندخل فيه! فإن قضية قرب العبد من ربه، وتقربه إليه بالفرض والنفل، هي بُغْيَةُ ذوي الهمم العالية. ووجود هؤلاء الربانيين بين ظهراني الأمة هو المِلْحُ الضروريُّ للطعام، والهواء المانح للحياة. فإن غاب عن همم المؤمنين طلب وجه الله، وإرادة وجه الله، وتعلق القلب الدائم بالله، فما سعيهم في الدنيا إلا سعيٌ يوشك أن تُفَضَّ حلقاته، وعِقْد يوشك أن تنتثِر خَرَزاته.

يعاني الإسلاميون اليوم ممّا يعانون، بل أكبرَ ما يعانون، التوقّفَ الشاك المستريب المتردد في مسألة الولاية الخاصة والسلوك والتصوف والكرامات وما يجري حول الموضوع من خلافات. وقد مات الشيخ سعيد حوى رحمه لله بعد أن راجع في آخر حياته، بعد عمرٍ خصب قلقٍ غنيٍّ بالمبادرات في حقل الدعوة، دروسَ تجربته ومنعرجات سلوكه، فأوْدَعَ في آخر ما كتب الوصيةَ الـمُلحةَ، يعبر عنها قلمه وقلبه وتخوفه على الدعوة، بالعودة إلى المنابع. والمنبع في نظره تجربة الإمام حسن البنا رحمه الله الذي اعترف في مذكراته بأن ما معه من فضل يرجع إلى لقائه بالصوفية وتلمذته لهم. ومطلَبُ سعيد رحمه الله إنشاءُ مدرسة لتخريج الربانيين. وكأنه اقتحم جدار الـمَدَافِعِ السلفية الموجَّهَةِ بحدة وعنف لكلمة «صوفية». كلمة توازي عند بعضهم الكفر والزندقة والضلال قبل أية مناقشة. زادُكَ يا هذا كتابُ مَثَالِب، وقلبك سالٍ، فأنَّى تتَعلم لتعلم!

---

(1) كتاب «قطر الولي على حديث الولي»، ص430.

لا أحب أن أطيل هنا في الموضوع. وقد كتبت بحمد الله كتاب «الإحسان» ضمنته زبدة خمس وعشرين سنة من تطارُح عبد مذنب على أبواب الكرم الإلهي. فهي شهادة هناك لأهلها. يا من قلبُه يعرف الشوق إلى مولاه!

وأرجع للإيمان والوَلاية بين المؤمنين. ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ شرط في قدر العباد المؤمنين على تجاوز أنانياتهم المفرقة، وتجاوز حبهم للهوى والشهوة، ليكونوا ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾. وتلك صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وصفهم الرب العلي بأنهم ﴿**أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**﴾.

إن وجَد السادة الصوفية حلاوة الحب في الله فقد فاتَهم نصفُ الحلاوة لإعراضهم عن الدنيا وأبناء الدنيا فلم يبغضوا في الله. على أن غيرَهم ما عرف حق المحبة كما عرفوا، وما وَجد كما وجَدوا. وإن ذهب الوَجْدُ ببعضهم إلى بعض الشطط فعاصمنا من المزالق شرع الله الذي عليه المعول.

وشرع الله قال بلسان الحبيب: «**ثلاثٌ من كُن فيه وجَد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما. ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار**». رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه مرفوعا.

وشرع الله يقول بلسان أحب الخلق إلى الله محمد المحبوب صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحب إليه من والِده ووَلده والناس أجمعين**». رواه الشيخان والنسائي عن أنس رضي الله عنه.

إذا كان في القلوب جفافٌ وتحجُّرٌ فذلك لنُضوب معين الإيمان وانسداد منابع الرحمة عنها. وكيف يدعي الإيمان من يتشكك في كل من يتحدث عن حب الله ورسوله؟ ألا ساء ما يحكمون. ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ**﴾[2].

(2) سورة البقرة، الآية 256.

«جماعة المسلمين»

وهل مع الصوفية من درس يُستفاد عافاك الله! يجيب الغريب: وهل من درس بعد علماء الحديث وعلماء الأصول والفقه يُحتاج إليه مع كفايتنا: الكتابِ والسنةِ؟

ولئن اقتنع المكابر بأنَّ اجتهادات المحدث والأصولي والفقيه ضرورة فأنى له أن يقتنع بأن الصوفية مجتهدون في الدين، في لب الدين وجوهره. ذلك أن الناظر بعقله في أحد العلوم النقلية أو العقلية يُحَصِّلُ معرفة الأحكام والعِلل، يكفيه التدقيق النظري والمقارنة بين النصوص. أما الناظر في كتب الصوفية فيجد وصفا لأعمال وأحوال ومواجدَ ونتائج، لا يحصُلُ من قراءته على كبير شيء إلا أن يتحرك فيه ما تحرك في الواصفين فينهضَ كما نهضوا، وتنقلبَ دولته، وتشتدَّ حَوْبَتُه، وتصدُقَ توبتُه، ويهجُرَ النومُ جفنيه، ويُحْرِقَ الشوق أحشاءَه حتى يسلُك كما سلكوا، ويقفَ بباب الله منكوسا رأسُه كما وقفوا.

حديث الصوفية عن السلوك والمقامات ليس علما يحصله العقل، لكنه عمل يبدأ من حركة القلب. والقلب تذهب به مواجده وترنُّحاتُه إلى الزحلقة فالتأرجح فالتدحرُج في التهويمات إن لم يُمسك توازنَه العقلُ المراقبُ للميزان الشرعيِّ. لذلك يجد الناقد الصاحي الخليّ مما يُكابدُه الهائمون في الشوق كلاما أشبه بكلام السُّكارى، فينفِرُ ويقشعِرُّ جلدُه ويكفِّرُ الطائفة جميعا لمقالة رُويتْ عن فلان، ولخرافية العامة وخزعبلات المشعوذين اللابِسينَ ثوْبَي زور اسم الصوفية.

وبعدُ فهي طرائق جانبية سلكها تقرباً إلى المولى الواسع المغفرة سبحانه أجيالٌ خلت، طُوِيَ عنها بِساط المحجة الجهادية الجامعة التي سلكها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فلا أدعوك أخي لسلوك فجٍّ ضيق في زماننا وما بعده وقد بَسَطَتْ لنا قدرة العزيز الحكيم الأمل في القومة إلى الخلافة الثانية، يَكُونُ الجهاد لتحقيقها، المرتبطُ بتحقيق العبودية، وبشرط الصحبة والذكر، المنهاجَ النبويَّ

السائر على خطى خير نبي وخير «مبعوثين» أخرجوا للناس. وما خلَّفه لنا السادة الصوفية وصفٌ لا يتقد لقراءته رماد الهمم الهامدة.

التعايش بين فصائل الإسلاميين أهل الصدق والإيمان ينبغي أن تؤَسَّسَ عُقُودُه وعهوده على الوَلاية الواجبة بين المؤمنين بشرط أن لا ينتصبَ بعض المؤمنين وفي يده سوءُ ظنه بالناس يتخذه مقرعة يحشر بها المسلمين في قفص الاتهام، كل من لا يقول مقالته فهو زائغ العقيدة. وقد قرأتُ في هذا العصر البِترولي كتاب دكتور يخرج الأشاعرة جميعا من حظيرة أهل السنة والجماعة ليبقى وحده وطائفتُه من المهتدين.

إنَّ ذات البَيْن الحالقَةَ للدين تشتعل أحيانا حَرْباً ضروسا بين الدعاة أنصافِ المتعلمين. فإن كان جمعُ الجهود وحشدُ المؤمنين تحت لواء الوَلاية الواجبة والتعاون على البر والتقوى أمرا ضروريا فإن تقديم الضّيّقين وإدخالَهم في الصف في جبهة إسلامية يُراد لها اقتحامُ العقبات لهو التثبيط للعزائم والتهييء لمستقبل الجَدلِ الذي لا ينتهي.

العناصر الصالحة للدخول في رابطة جامعة هم المؤمنون المتمتعون بمغناطيسية المحبة التي تجلُب وتيسر وتحبب. وبذلك أمرنا الحبيب صلى الله عليه وسلم حين قال: «**والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببْتُم؟ أفشوا السلامَ بينكم**». أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هنالِك تجمعات من الشباب الإسلاميين ممن يبدأ معركة التصويب مع نفسه، هنالك مؤمنون مكتمِلو الرجولة من أهل الحِنكة والتجربة والكفاءة، هنالِك دعاة واسعو الأفق والاطلاع على تاريخ المسلمين وحاضر العالم، هنالك تقاةٌ مُتحرجون خائفون أن يموتوا وليس في عنقهم بيعة فيموتوا ميتة جاهلية. هؤلاء ينبغي أن يتألفوا في كل قطر في رابطة إسلامية تتقدم إلى الأمة لتُعربَ عن الآمالِ المكبوتة ولترسُم خط المستقبل الإسلامي، ولتكون النواة لتماسك اجتماعيٍّ

حول لا إله إلا الله محمد رسول الله، بمقتضى الشهادة بالقسط على الأخوة والتسامح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«جماعة المسلمين» التي من خرج عنها خلع ربقة الإسلام من عنقه ليست هذا الفرعَ أو ذاك من هذه الفروع المباركة المنتظمة في جماعات عاملة مجاهدة. بل هي تكوين جماعي يقرُب من المطلوب شرعا كلما كان أقرب إلى توحيد الأمة في القطر، ثم توحيدها في الأرض. إن كانت نيةُ هذه الفروع المترابطة المتعاقدة جمعَ الأمة على الصفاء والقوة فهي، على تنوعها، حاملة لمعنى «جماعة المسلمين»، يكون الدخول فيها هجرة، ويكون التعاهد معها عِوَضا عن البَيْعة المنجيَةِ. وإن بعض الجماعات تستبق المراحل فتسَمِّي بيعةً أولَ كلمةٍ مُوافقةٍ و«التزام» ينطق بها الداخل. وما البيعة حقا وشرعا إلا بيعة مختار الأمة حين تجتمع وتتوحد وتكون لها دولة واحدة.

تحت لواء الوَلاية العامة الواجب بين المؤمنين يمكن أن تنطويَ وَلاياتٌ خاصة متعددة. لا مانع من ذلك شرعا. وقد كان بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم هذه الوَلاية الخاصة التي تُفْرِدهم من المؤمنين الذين لم يهاجروا. ويمكن أن نقيس على ذلك «هجرة» الإسلاميين إلى هذه الجماعة أو تلك، تربط المرءَ لجماعته روابطُ خاصة. لا تكون هذه الروابط قادحة في أهليته، بل بالعكس، إن كانت هذه الوَلاية الخاصة لا تحجُب عنه الوَلاية العامة ولا تمنعه من التعاون الواجب.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾[1].

هذه وَلاية خاصة يخرج منها من قال الله عز وجل فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾1.

لا تناقض في كتاب الله عز وجل. فعموم الوَلاية سارٍ بين كل المؤمنين بمقتضى قوله تعالى، وبشرط قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء

(1) سورة الأنفال، الآية 73.

بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾[1].

ما كفاهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر الشروط للتأهل للوَلاية الخاصة التي شَرْطُها الهجرة والنصرة. ولا أخرجت الهجرةُ والنصرةُ أهلها من الوَلاية العامة الواجبة.

قياسا على هذا يمكن، بل يُطلَب ويتأكد، أن تتألف في القطر رابطة عامة توحد على الوَلاية العامة الجماعات المترابطة بالهجرة والتنظيم، والشخصيات المحنكة من الأتقياء الصالحين. تكونُ هذه الرابطة وجهَ الدعوة في الميدان السياسي، وذراعها، وقوتها. وتبقى خصوصيات كل جماعة بشرط أن تَتَهَوَّى أسوار الممانعة والمنافسة، والمعاداة أحيانًا، التي تحكم العلاقات بين الجماعات الإسلامية الناشئة التي لما تُنضِجْها التجربة ولما توقفها قوة الأحزاب العلمانية وحجمها وتمكنها في الأرض على ضرورة رص الصف الإسلامي.

الرابطة المستحقة أن تسمى «جماعة المسلمين» هي المتألفة على أساس المحبة الوَلائية، ووضوح الأهداف والطرائق، وجَلاء الأفق التعاوني، وضبط الحركة، ووحدة القيادة، وشرط التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، وحرية الأفراد في اختيار السِّرْبِ الذي يهاجرون إليه.

ويمضي زمانٌ يدخل فيه الإسلاميون الحلَبَة السياسية على غير تجربة، فتُلزمهم الضرورةُ كما يُلزمهم الشرع ضمَّ الجهود والإمكانيات بعضَها إلى بعض في وجه العدو والخصم والصديق. وربما يمضي جيل كامل يكون فيه الإسلاميون قوة طارئة في الميدان لا تتميز للمراقب الخارجي.

ثم يمكِّنُ الله العلي القدير لعباده. ويومئذ لا حرَج، وينبَغي أن لا يكون حرج، بل أقول: ينبغي أن نتقبل حكمة التعددية وحكمة التعاقب على الحكم بين الفصائل الإسلامية. بل ينبغي أن نسعَى لتوطيد دعائم الشورَى على تعددية

(1) سورة التوبة، الآية 72.

المدارس والتنظيمات والآراء والمذاهب. وعلى تحمُّل أعباء الحكم، وهي ساحقة ماحقة، بالتتالي.

إنه درس مما تُلقيه إلينا سنة الله التي يعتبر بها الناظر في الاستقرار الديموقراطي.

قال أخي: وهل يجوز شرعا، وهل ورد النص بالاستفادة من أنظمة الكافرين؟ يجيبه أخي الآخر: وهل الحكمة إلا ضالة المؤمن أنَّى وجدَها فهو أولى بها! وأجيبه على صفحات هذا الكتاب بأن ربقة «دين الانقياد» حول عُنُقِنا لا تنفَضُّ إن لم نضع حدا للاستبداد، وإن لم نبن سَدّاً أمام النزعة الاستبدادية، وإن لم نُغلق الذرائع التي دخل إلينا منها الماضي ويهددنا بالدخول في المستقبل حكم السيف.

أَهَمُّ هذه الذرائع وهْمُ الكتلة الواحدة الوحيدة. الحزب الوحيد، والقيادة «الملهمة»، وتأبيد السلطان في يد الفاتحين المكللين بتاج العصمة.

ومن المسلمين المؤمنين المجاهدين من يظن أن الوحدة قائمة بالفعل، متمثلةٌ بلا منازعة تُقبَل، في هذا التنظيم الدعوي العالمي أو ذاك. إنه خط من حقه أن يتأمل ما آل إليه حزب العمال الاشتراكي العالمي الشيوعي. ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً** ﴾[2]. الله أكبر.

(2) سورة الإسراء، الآية 110.

الفصل السابع

المـرأة

- الحياة الطيبة
- المؤمنة مشرفة مكَـلَّفة
- الزوج الصالحة
- حافظة الفطرة
- المرأة والعمل
- المرأة والحرية
- العـزل

الحياة الطيبة

أصبحت المرأة، وحرية المرأة، وعمل المرأة، ومظلومية المرأة، رِهاناً في سوق السياسة حيثما برزت الحركة الإسلامية والتف حولها الشعب. الإسلام متهم في هذه السوق بأنه عدوُّ المرأة. بل إن أوَّلَ ما يُذكَر في وسائل الإعلام الغربية المعادية «للتطرف الديني» هو التهديد الذي يشكله «الأصوليون» على مستقبل المرأة.

ولعل بعضنا قبل أن ينبريَ للرد والدفاع، وقبل أن يدخل إلى قاعة الجدل، يخلَع عنه ثوب إيمانه بالله وباليوم الآخر ليتكلم عن «المرأة في الإسلام» بمقدمات منهجية مادية وبوسائل منهجية ليس فيها رائحة الإيمان بالله وباليوم الآخر. فإن كان بعضنا يفعل ذلك تنزلا ليدحض حجة عقلية قانونية بمثلها متجنبا «الغيبيات» التي يخشى أن يمسكه منها الآخر فهي هزيمة وتضييع للدعوة. وإن كان يفعل لغفلة قلبية وسطحية في الدين أو رِقة فهي كارثة.

هل غشَّى قلوبَ بعضنا سَخامٌ من عِشرة المظلمةِ قلوبُهم؟ أم أن إسلامنا أَمْسَى إديولوجية عصرية متطورة لا مكان فيها لذكر الله واليوم الآخر؟

إن المرأة كالرجل مُنادَيان في القرآن على السواء للعمل الصالح والجزاء الوِفاقِ في الدنيا والآخرة. وإنهما نقطتان تميِّزان مُنطلقنا في الحياة والفكر والسعي عن منطلَق الذين كفروا: الإيمانُ بالله وباليوم الآخر، ثم معنى مرور الإنسان من الدنيا. ومن العبث أن يظن ظان أننا بنزولنا إلى أرضية الماديّين لنقارعهم عليها ننال منهم شيئا. بل نتعرض للانجراف والانحراف. ففي منطقهم الدائر حول الحياة الدنيا، لا يؤمنون بالبعث، تكون اللذة والمتعة و«السعادة» هي المَطلَبَ لا غيرُ، وتكون المرأة والحرية في الزنى بلا حدود، والإجهاض وسائر «المكتسبات» الإباحية هي قمةَ الحضارة. وهذا منطق دوابيٌّ متماسِك.

واجب المؤمنين والمؤمنات أن يتحرروا من عقدة السكوت الـمَهينِ النفاقي عن قول الحق، وأن يتحرروا من الدائرة المغلقة الجدلية التي يفرض علينا بمقتضاها طرْحُهم لقضايا المرأة وكل القضايا شكْلَ الإجابة ومستواها وحدودها.

واجبنا إن كنا نؤمن بالله عز وجل وبمصيرنا إليه أن نبتدئ نحن بإخبار المسلمات والمسلمين بما أنزل رب العالمين. وإن كان في إيماننا باليوم الآخر مَنزَع لتشكيك المشككين فما نحن بالمؤمنين. القرآنُ ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[1] الإيقان درجة عالية من الإيمان. الإيقان أن تكون الآخرة نصْبَ عينك كأنها رأيَ العين. كيف يُكتسب هذا الإيقان أيها الأحباب؟ كيف يَنْتَسِبُ إلى القرآن وهديه من يغيب عنه ذكر الله ولقاؤه لحظة؟ حتى إذا حصل، والإنسان ينسى، فزِعَ ورجع وتَاب.

وعد الله تعالى أيها الأخ وأيتها الأخت الحياة الطيبة من عمل صالحا وهو مؤمن. قال جل شأنه: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2]. كونك رجلا أو امرأة ينوِّعُ شكل ابتلائك وامتحانك واختبارك في دار الامتحان هذه الدنيا. لكن جنسك لا يغير من جوهر الجزائية والمصيرية إلى الله عز وجل شيئا.

الحياة الطيبةُ جزاءُ المؤمن والمؤمنة هنا إن عملا صالحا وأقاما شرع الله في علاقاتهما. والحياة الطيبة في الجنة هي الجزاء الأوفى الأبقى. يتغير كل شيء في فكر المرأة والرجل وسلوكهما إن آمنا باليوم الآخر. وتنقلب دولتهما النفسية العقلية إن قويَ هذا الإيمان فصار يقينا. ذلك هو السبيل لدحض مغريات الفتنة الإباحية لا الدفاع الفكري المقارِنُ لجزئيات حجاب المسلمة وتعدد الزوجات وسائر ما يَنْقِمُه أعداء الدين على الدين من جراء انتهاك المسلمين لحقوق المرأة بالفعل، أو من جراء التحامُل والهيمنة الثقافية المادية التي تجعل المرأة موضوع

(1) سورة البقرة، الآيات 1-3.
(2) سورة النحل، الآية 97.

الشهوة المباحة، وزبونَةَ صناعات التجميل، ومحور الفن الخلاعي، ومُدِرَّةَ الأموال على صناع اللهو، ودميةَ الرجل.

الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة لمن آمن وعمل صالحا من ذكر أو أنثى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله لا يظلم المؤمنَ حسنة، يُعطَى بها في الدنيا، ويُثاب عليها في الآخرة. وأما الكافِر فيُطعَم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضَى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُعْطَى بها خيرا**». رواه الإمامان أحمد ومسلم عن أنس رضي الله عنه.

في الدنيا يتواصَلُ المؤمن والمؤمنة بكلمة الله، فتلك الحياة الطيبة. ﴿ **وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ** ﴾[3]. المرأة الصالحة للرجل الصالح نعمة ما مثلها نعمة: يتعاونان على دنياهما وأخراهما. «**الدنيا متاع** [أي امتداد قصير]**، وخير متاعها المرأة الصالحة**». حديث نبوي رواه مسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو.

طابت حياته وحياتها هنا لِمَا يَتيَقَّنان من أنها عبورٌ إلى دار البقاء، فيأخذان نصيبَهما من نَعمة الدنيا دون أن يستعجلا ما هو من شأن الآخرة: النعيم المقيم. وباليقين المسبق والجزاء المحقق تطيبُ آخرتهما.

أما الذين كفروا فينادون يوم القيامة: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ** ﴾[4].

ما بالُنا نتزَيَّن بلباس الإيمان خُفْيَةً ثم نَخِفُّ لنخلَعه عندما نجلس إلى مائدة الحضارة المستكبرة الفاسقة لنتنصَّل من وصمة «الغيبية»؟

للمرأة وخصوصية جنسها وجمالها وجاذبيتها معنى كونيٌّ مصيريٌّ، دنيوي أخروي، لا سبيلَ لإدراك حكمة الشرع فيما أمر ونهى بصددها من دون استحضاره والاستبصار به. هذا المعنى هو أنها فَصُّ زينة الدنيا وملخَّصُ شهواتها

(3) سورة النور، الآية 26.

(4) سورة الأحقاف، الآية 19.

للرجل، وملتقى أمانيه. فهي بذلك للرجل، وهو بذلك لها، السؤالُ العويصُ من بين أسئلة الامتحان.

التعلق الفطريُّ للذكر بالأنثى، وهيُامُ الرجل بجمال المرأة، وما تَغَنَّى به الشعراء في حبها، وما تقاتَل عليه الرجال لنيل رضاها أو لحيازة جسمها، إنما هو من أثر التزيين الإلهي المغروز في الفِطر، المجعولِ فيها فتنة واختبارا ليعلم الله من يخافه بالغيب، و﴿ **لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾[1].

زينَةٌ من الزينات هي المرأة، أعظمُها وأسبقُها. امتحان هي عسير لمن تجاوز حدود الله فيها فظلمها وهي الضعيفة، أو نَهَبَها وهي الجميلة، أو عبدَها وهي بشر.

كل ما على الأرض من زينة ابتلاء. قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾[2]. لكن المرأة هي الزينة على السبق والإطلاق. فاختيار الغريزة الهابطة مسلكا معها انحطاطٌ إلى الحياة الدنيا. واختيارُ شرع الله في معاشرتها، واختيارُها هي شرعَ الله في نظام حياتها، شَرْطا استحقاق للحياة الطيبة دنيا وأخرى.

قال الله تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾[3] فجاءت المرأة على رأس قائمة شهوات الدنيا.

وجاءت المرأة عديلةَ الدنيا بأسرها في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ. وإن الله مستخلفُكم فيها فينظرُ كيف تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء. فإن أولَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**». رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(1) الأنفال، الآية 37.
(2) الكهف، الآية 7.
(3) آل عمران، الآية 14.

لهبوط إيماننا بالآخرة نجاري الماديين في حديثهم عن المرأة، وننزلق إلى منطقهم طوعا أو كرها، ونجرد المرأة من معناها الوجودي لنتبارَى معهم ونقارِن المزايا التشريعية على بساط أرضيٍّ محض. وذلك عَمىً والعياذ بالله. قال الله عز وجل عن المشركين: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ ﴾[4]. ادَّارَكَ: نزل إلى أسفل مستوىً. وكما يدَّاركُ العلم بالآخرة والإيمان بها إلى دركة العمى كذلك يرقَى إلى درجة اليقين. سؤالنا الدائم: كيف يرقى؟

لقد خاطب الله جلت عظمته المؤمنات بمعنى وجودهن في الدنيا، وبمعنى الدنيا، وبمصير الآخرة، حين أمر رسوله بتبليغ هذا البيان لنسائه بالأصالة ولنساء العالمين بالمثال فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾[5].

بهذا البيان يجب أن نخاطب المرأة، ولا نترك أهل العقلانية والمادية والوجودية والتحررية يُملون علينا أسلوب الدعوة.

هو خيار مطروح للمرأة بين الدنيا والآخرة. إن اختارت الدنيا وزينتها وكفرت باليوم الآخر فعليها ما تولت من أوزار الحضارة المادية، تكون لعبتَها ودميتها وهي في الآخرة من الخاسرين. وإن هي اختارت الآخرة فلها نصيبها من الدنيا، وللرجل نصيبُه منها في كنف العفة والطهارة والمحبة والتآزر والتعاون على تعب الرحيل والعبور إلى دار البقاء. ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[6].

(4) النمل، الآية 68.
(5) الأحزاب، الآيتان 28-29.
(6) سورة يونس، الآية 44.

المؤمنة مشرفة مكَلَّفة

ما يُفيد أن نطارد ظواهرَ المخالِفات والقلوبُ منطوية على باطن الإثم؟ بل ما هو الضرر البليغ الذي تجترحهُ أيدي بعض الشباب يلاحقون النساء في الشوارع بالخشونة والأذى ليفرضوا عليهن عقد خرقة على رؤوسهنّ!

ما يعمل وازع الخشونة إن تقدم وبارز بالعداوة إلا أن يُنَفِّرَ المسلماتِ من دينهن، وأن يوطِّدَ سُمْعَة أنَّ الإسلاميين وحوشٌ ضاريَة. وما كلف الله عز وجل عامة المؤمنين أن يَعْنُفوا على الناس في مُنكر صغير إن كان العنف يلِدُ منكراً كبيرا. وأي منكر أشد من التعسير والتقتير بَدَلَ التيسير والتبشير!

إسلامهنَّ هو الأصلُ، والرفق هو المنهاج الإسلاميُّ، ووازع القرآن والدعوة أسبق. حتى إذا تُقُبلت فرائض الدين وبقيت الشاذات والشاذون كان لسلطان المسلمين أن يفرض آداب الشارع وأن يمنع التبرج بما يناسب.

إن نساء المسلمين كرجالهم أحوجُ ما يكونون إلى من يعلمهم أمر دينهم ويجدده لهم. وللمرأة كما للرجل حرية الاختيار بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة. فلا نقدم العقوبةَ على التعليم، ولا المؤاخذة على الإعلام. وإنَّ السكوتَ المُريبَ في وسائل الإعلام الحركية الإسلامية عن ذكر الآخرة والمآل والرحلة الضرورية وما وراءها في دار البقاء من جزاء وعذاب لثغرة شارعة إلى التيه في أدبياتٍ سياسيَّة تحليلية ثقافية مقارنة تُبعد المتلقي والمتلقية عن معاني الإيمان لتقربه إلى نضالية جوفاء.

ويُتْرَكُ حبل الشباب المنخرط في الحركة الإسلامية على الغارب. إن لَقِيَ في مسجد واعظا أصغى لحظة لذكر الله ورسوله واليوم الآخر، ثم انصرف بعد ذلك لاهياً قلبُه عن الذكر، منصرِفا عقلُه وهمُّه ويومُه وليلتُه للصراع. لا جرم أن يكون بأسُه على المرأة شديدا، وهي الضعيفة العاطفية السريعة إلى الرجوع

لو جلست إليها من بنات جنسها من تذكرها بالله وباليوم الآخر، ومن تطرح عليها الخيار بين زينة الدنيا وزينة الله، بين متاع الدنيا وجزاء الآخرة. وربما تجد من نساء المسلمين مَنْ توغلت في المادية الفلسفية أو في التبرج والتهتك لأنها لم تسمع عن خبر الآخرة، إن سمعت، إلا في نطاق ركن رسمي بارد يلقي فيه واعظ هامد جُمَلاً لا روح فيها. فإعلام هؤلاء النسوة وإخبارهن، وإخبارُ كل المسلمين مع التركيز على مسألة الاختيار المصيري، وباقتناع المؤمنين والمؤمنات القائمين على الدعوة، الخاشعين تقوىً لا تصنعا، هو المنهاج القرآني النبوي.

قال الله عز وجل لعباده: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[1].

اعلموا! واليقين باليوم الآخر يأتي في مرحلة لاحقة بمخالطة الشاردة عن ربها، اللاهية بشبابها وزينتها، للمؤمنات القانتات.

للنساء بطبعهن وَلوعٌ باللعب واللهو والتفاخر والزينة، وللرجال وَلوع بالتكاثر في الأموال والأولاد والجاه. وما كسرَ هذا التعلق مثلُ تعميق الشعور بالمآل. شبابُكِ أيتها المسلمة ونضارتُك وزينتك كمثَلِ غيث أعجب الكفّار (وهم لغةً الزّرّاع) نباتُه. فإذا به يوما قد اصفر وذبُل وسقطَ على الأرض حُطاما كما يسقط جسمُك وشعرُك وما تُكَحّلينَ وتُحَمّرين.

أين أنت من وعد الله عز وجل للمؤمنين والمؤمنات تشريفـًا لمن أطاعه؟ قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2].

(1) سورة الحديد، الآية 19.
(2) سورة التوبة، الآية 73.

في آيات معدودة يذكر الله عز وجل المؤمنات مع المؤمنين تأكيدا لمعنىً يُخشى أن يسبق لفهم الرجل المعتز بذكورته أن المرأة منقوصة الحظ منه. وإلا فكل خطاب للمؤمنين، تشريفا وتكليفا، فالمؤمنات في ضِمْن قصده، جريا على قاعدة العرب في لغتهم إذ يغلِّبُون الإخبار بالمذكر إذا كان المخاطبون رجالا ونساء.

من الآيات الناصة على المؤمنات بعد المؤمنين هذه البشارة العظمى التي تهفو إليها همم المحسنين والمحسنات أولياءُ الله وولياتُه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾(3) وقال: ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللُه النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾(4).

للنبي نور وللمؤمنين نور في ذلك اليوم المشهود، وللمؤمنات نورهن يسعى بين أيديهن وبأيمانهن. أي حياة طيبة هذه!

وللمسلمات تُفتح أبواب الاجتهاد في الدين، لا يسبِقُهُنَّ سابق إلا بالتقوى والعمل الصالح. فهن يَرْقَيْنَ على قدر ما ازددْنَ إيمانا وعملا صالحا. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾(5).

في مقابل الوعد الإلهي الكريم، ولتستحق المؤمنة المراتب العالية في درجات الآخرة، عليها أن تُوَثِّقَ اختيارها بتوبة تامة تلزمُ نفسها بعدها بما التزمت به المسلمات الداخلات في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: بايعنه بَيْعة فخَمةً مشهودة صارمة بما أخبر الله عز وجل به في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

(3) سورة الحديد، الآية 12.
(4) سورة التحريم، الآية 8.
(5) سورة الأحزاب، الآية 35.

إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

بَيْعة اختيارية رافِدها الاقتناع القلبي والحضور العقلي الذي يعرف قدر ما تتحمله الذمة من مسؤولية. ثم ترقَى المسلمة بمخالطة المؤمنات وبذكر الله والصلاة، وبالعمل الصالح، فتتحرر شيئا فشيئا من سلطان الهوى وسيطرة المحيط العَجَّاج بهوَس بنات الدنيا، فإذا بالاختيار الإسلامي يتفتق عن انضمام إيماني لله ورسوله وجماعة المسلمين. وحينئذ يكون شرع الله هو الـمُسْتمسَك، وما قضى الله ورسوله هو المعوَّل عليه المرجوعُ إليه، كما يليق بأهل الإيمان السامعين والسامعات، المطيعين والمطيعات لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾[2].

في المرحلة الثالثة من ترقي المؤمنة في معارج الدين يتحسس قلبُها، ويَهفو كيانها، وتتوجه إرادتها للتشبه بأمهات المؤمنين ذوات الصَّوْن والكمال، تتخذهن نموذجا. وتكون عندئذ بما رفعتها همتُها كالمخاطبة المشرَّفَة الـمُكَلَّفة بما شُرِّفن به وكلفن في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾[3].

هذه خطوات المسلمة من دنيا التسيُّب والزينة الدنيوية، من حضيض التبرج والتهتك، إلى مرتبة الطاهرات. وبخَطْوِهِنَّ -أيَّدهن الله!- يكون قد تأسس بيت

(1) سورة الممتحنة، الآية 12.
(2) سورة الأحزاب، الآية 36.
(3) سورة الأحزاب، الآيات 32-34.

تُتلى فيه آيات الله والحكمة، وتكون المسلمة المؤمنة المحسنة قد دخلت في الوَلاية العامة، لها فيها مكانُها الأصيل ووظيفتُها الحيوية، ومسؤوليتها العظمى. من الآيات التي نُصَّ فيها على المؤمنات آيات الوَلاية، تأكيدا على مكانة المرأة في واجب السهر على دين الله، وحَمْل العبء، ودعم البناء. قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

مشاركة المؤمنات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركنٌ أساسي من أركان الدين. وحُرْمتُها في المجتمع المسلم حرمة عظيمة، تكون إذايتُها، ومنعُها من الحماية المادية والمعنوية، وخدشُ كرامتها، موجباتٍ للعنة الله، والعياذ بالله. وقد قرَنَ الله عز وجل حرمة المؤمنات ووازَاها بحرمة المقام العالي: مقام الألوهية والنبوة. وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾[5].

ملعون من آذى الله ورسوله، ملعون من بَهَت المؤمنين والمؤمنات. والحفاظُ على عرض المسلم والمسلمة يحوطه التهديد بلعنة الله الدائمة، ويحوطه حد القذف في الدنيا، نكالا من الله.

ويؤكد كتاب الله تعالى حُرمة المؤمنات المحصنات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأنْجَشَةَ وهو يحدو بإبل عليها مؤمنات، فتَعْدُو الإبل وتُزْعج راحة الظعائن: «**رِفقا بالقوارير!**» شبههن لِلُطْفهن

(4) سورة التوبة، الآية 72.
(5) سورة الأحزاب، الآيتان 57-58.
(6) سورة النور، الآيتان 23-24.

وحساسيتهن بالأواني الزجاجية، سريعة العطب شفافة. فإن أحسنا دعوة المسلمات برفق وحدَب وصدق أشركنا في عملنا خيرَ من حافظن على الفطرة وحَمَين ظهر المجاهد. ولله عاقبة الأمور، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

الزوج الصالحة

لقلب المؤمن والمؤمنة تطلُّعه السماوي الملكوتي: يذكر ربه ويناجيه في غُرَرِ الأوقات، فإذا كأنه على متن رفرفٍ عُلْوِيٍّ أو كأنه مستوٍ فوق أجنحة ملائكية. ثم تنازعُه مطالب الأرض وحاجة النفس فلا يجد مستقرا إلا في الرّجعة إلى فطرته الطينية التي تفرض عليه مساكنة أهل الأرض بمقتضيات أهل الأرض.

لا يُقرُّ الإسلامُ على جنوحه من يُحاول التحليق فوق الحاجات الحسية كما لا يقر الانغماس في بهجة الدنيا وزينتها ولذاتها. روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن ثلاثة رهط جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يزعم أحدهم أنه يصلي الليل أبدا، ويزعم الثاني أنه يصوم الدهر ولا يفطر، ويزعم الثالث أنه يعتزل النساء ولا يتزوج أبدا. فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم منكرا: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له! ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقُد، وأتزوج النساء. فمن رغِب عن سنتي فليس مني**».

التزويج سنة، لا قرار للمرأة ولا للرجل ولا سَكَنَ إلا بائتلاف بعضهما ببعض. والمرأة خاصةً مهما انغمست في المتاع أو اتُّخذتْ أداة في سوق الأنوثة لا تفتأ تهفو نفسُها لبيت وزوج وأطفال. ومهما بلغت من نجاح في المجتمع وشهرة فأنوثتها في الحياة لا تكتمل ولا تكسب في نظر نفسها احتراما إلا إن جاءها خاطب طالب محب يُبَرْهِنُ لها أنها شخص عزيز كريم.

ذلك من آيات الله أن لا يسكُنَ الرجل ولا تسكنَ المرأة إلا مع نفس تقاسمها الخصوصية الحياتية. قال الله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾[1].

(1) سورة الروم، الآية 20.

بالمودة والرحمة الحميمين يتميز الزواج المطابِق بالقصد والفعل والتوفيق الإلهي للفطرة. وبهما لا بمجرد العَقْد القانوني يحصل الاستقرار في البيت، وبالاستقرار في البيت يشيع الاستقرار في المجتمع. الاستقرار أصْلُه ومثواه الزوج المؤمنة الصالحة الناظرة إلى مثال الكمال في خطاب الله عز وجل لنساء نبيه: ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾[1].

أصل الاستقرار ومثواه ومِرْساتُه الزوج الصالحة المنخرطة في سياق الاستقرار. فعل الأمر «قَرْنَ» يحمل معاني الوَقار والقرار، ومعانيَ الحياء والحشمة، ومعاني الثبات والوفاء. إذا لَم تجْرِ في قنوات المجتمع هذه المعاني منبعثة من كل بيت، متغذية من منابع القلوب الطاهرة الراضية بنصيبها من الحياة الدنيا ومتاعها وزينتها، فالمجتمعُ ساحة مفتوحة للنهب، أولُ منهوب فيها مظلوم المرأة العانس، أو المرأة المعتقلة في زواج فاشل رديء.

نحتفظ بالرباط الفطري القلبي الذي هو روح الزوجية: المودة والرحمة المتبادلين ينشأ عنهما الاستقرار والوقار. والمرأة فاعلة في هذا مُجلِّيَةٌ فيه مُقدَّمةٌ. من لطافة عواطِفِها تشتقُّ الرحمة بين الناس. مَنْ مِثْلُها يبرّ الوالدين، ويصلُ الرحِمَ، ويحفظ حق الزوج، ويصبر للأطفال، ويرعى حرمة الجوار، ويعطِف على المحتاج، ويكفُل اليتيم، ويُطبب المريض، ويحسن إلى الضعيف؟ فإن كانت المرأة محرومة من دواعي السَّكَن في بيتها، وكانت مشردة لا بيت لها ولا زوج، أو كانت تتقاذفُها رياحُ البهرجة في مجتمع الإباحية فما من قانون يعوضها عن فقْدها العاطفي، ما من ثروة تقوم لها مقام السعادة الزوجية.

نحتفظ بهذا وننظر مع الفقيه في الشروط الشرعية التي تحوط الزواج الإسلامي بسياج المنعَةِ. قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ

(1) سورة الأحزاب، الآيتان 32-33.

وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾[2].

بين الزوج والزوجة ميثاق غليظ بشهادة رب العزة جل وعلا. لا مانِعَ من أن تفهمَه رباطا عاطفيا والتزاما أخلاقيا. لكن الواقعية الشرعية كما يفهمها الفقيه تنزلك إلى حقائق الوقائع البشرية والضمانات الملموسة العملية. قال سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: الميثاق الغليظ هو الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان. ذلك أمر الله للأزواج أن يعاملوا الزوجات بالمفروض الإسلامي الإيماني الصائن لحقوق الزوجات من وراء الحب والكُرْه، في حالات الائتلاف والاختلاف، في رخاء العيش وانقباض الرزق، في غبطة الأنس أو أزْمة الطلاق. إمساك بمعروف من الشرع والمروءة والإنسانية أو تسريح بإحسان.

من الشروط العملية الواقعية لإنجاح الزواج استطاعةُ الزوج النفقة. «**يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءَة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاءٌ**». حديث رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعا.

التحصين بالزواج مقرون بالقدرة على النفقة، وإلا فالصومُ حَصانة بديلة كافّة عن الهيجان الغريزي.

من الشروط العملية لإنجاح الزيجة اختيار الرجل حليلته، وحريتُها هي القَبول والرفض. روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفَرْ بذات الدين تَرِبَتْ يداك!**».

اظفَرْ بذات الدين لدنياك، فذلك أَشْبهُ أن تكون الوفيَّةَ المخلصةَ. واظفر بذات الدين خاصة لآخرتك، فإنها زوجُك في الجنة، وإنها إن تكن ذات دين ترْقَ وإياها

(2) سورة النساء، الآيتان 20-21.

إلى أعلى الدرجات إن شاء الله. ومهما نقص من مالها وجمالها وحسبها فيما يزِنُه العُرفُ الاجتماعيُّ ففي الدينِ المبتغى الخالدُ بعد فناء الدنيا واعتباراتها.

وللمرأة أيضا قيل في هذا الحديث ضِمْنِيا: عليكِ بذي الدين تربت يداكِ! وبين أيدينا هنا معيارٌ لمراقبة تقدم البنيان في صرح العمران الأخوي: ذلك حين يغلِبُ اعتبار الدين في الاختيار كُلَفَ العُرف ومواضعاتِ العادة في تصيُّدِ ذات الجمال والمال والحسب، بقطع النظر عن كل دين.

روى الإمام مسلم وغيره عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الأيِّمُ أحق بنفسها من وَليها. والبِكر تُستأذن، وإذنُها صُماتها**».

في فُسْحةِ شروط الاختيار يعيش الزوجان المؤمنان في كَنف الرعاية المتبادلة، لكليهما مهمته وصِبغتُه ومسؤوليته: على الزوج القِوامة، وهي حماية الزوجة وصيانتها وجلب المصالح إليها. وعليها هي الحافظية، تحفظه في نفسها وبيتها وولده وماله. قال الله تعالى: ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ** ﴾[1].

من الواقعية الشرعية فتح الباب أمام النكاح لإغلاق ذريعة تفشو منها الفاحشة والسِّفاح. فمن ذلك طرح المواضعات الاجتماعية التي تقيم السدود في وجه الخاطب بإثقاله بالشروط التي ما أنزل الله بها من سلطان مثل التغالي في المهور. فإن كان الفقه النَّوَازِليُّ يُعطي للعُرْف مكانه في الاعتبار حتى لا تكون وحشةٌ بين الأسر المتصاهرة، فإن النص الشرعي يهدف إلى قذْف باطل العادة بحق العبادة. لذلك قيَّد التكافُؤَ بالدين والخلق عَبْرَ الطبقية الاجتماعية. روى الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلُقه فزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**». عريض! تأمل عرض انتشاره وفَشاره.

(1) سورة النساء، الآية 34.

في المجتمعات المعكوسة المنكوسة يُسَهَّل الزنى ويشجع وتُغَنِّى بِحُدائِهِ وسائلُ الإعلام الرسمية. ويُتغالى في المهور والتكاليف والشروط على الخاطب. فأي إفساد هذا! وليس هذا بأصغر العوامل في تفشي الزنى. ولعله بعد عامل الفقر والبؤس الذي يدفع بنات الناس للشارع يلتمسن لعائلتهن الرزق بكل وسيلة يجيء في مرتبة مع النماذج الانحلالية في وسائل الإعلام.

مما يعيبه أعداء الإسلام وخصومه على الشريعة الغراء تجويز تعدد الزوجات. أحيل القارئ على كتاب الدكتور مصطفى السباعي «المرأة بين الفقه والقانون»، فقد أحسن رحمه الله في عرض هذه القضية على ضوء الواقع.

وإن تعدد الزوجات لرخصةٌ من ربنا عز وجل الذي يعلم أن مجتمعا جهاديا كالمجتمع الإسلامي يستشهد فيه الرجال، وأن عدد المواليد الإناث قد يكون وافيا على عدد الذكور، وأن الزوجة الواحدة قد تعقُمُ وقد تمرض، وأن من الأزواج من لا تفي واحدة مع ما يعتريها من عوارض بحاجته. لذلك رخص بالتعدد، وألْجَمَ الغريزة الميالة للجموح بلجام: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[2].

ومما يعيبه الأعداء على شريعتنا الحكيمة جعلُ الطلاق بيد الزوج. فإن كان في فعل المسلمين مغمَزٌ، وفي تسرُّع بعض الأزواج في الطلاق، فليس ذاك عيبا في الشريعة التي جعلت الطلاق أبغض الحلال إلى الله، ولا في الفقه الذي أجاز للمرأة خاصة الفقه الحنبلي أن تشترط أن يكون طلاقها بِيدها. وفي دولة القرآن يمكن أن يقيد الطلاق في حالات الإجحاف البين بتمتيع المطلقة. فنص القرآن يفرض أو يستحِبُّ على خلاف للزوجة المطلقة قبل المِساس تمتيعا. وفَهِمَ من الأئمة والصحابة عبد الله بن عباس وابن عمر وعطاء وسعيد بن جبير والشافعي في أحد قوليه والإمام أحمد أن التمتيع حق لكل مطلقة. وبهذا نضع الزواج بين مثالي وازع القرآن وواقع وازع السلطان. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. والحمد لله رب العالمين.

(2) سورة النساء، الآية 128.

حافظة الفطرة

سبحان الملكِ الوهابِ الخلاق العليم البارئ المصور، جعل أحشاء الأم قرارا مكينا للإنسان في أطوار تخلقه العجيب، وجعل له في الأرض مُستقرا بعد ذلك إلى حين في كنَف رَحمتها ومودتها. من آياته العظمى سبحانه خلقُ الإنسان، ومن آياته العظمى ما جعل بين حنايا الأم من مودة للكائن الضعيف الغض المتوجِّه بكيانه الجديد كله إلى ما تلقيه إليه الأم من غِذاء لجسمه، المتشرِّب في طفولته إلى ما معها من دَرِّ القلوب وسَحِّ الإيمان إن كانت من أهل الإيمان.

جعل الله عز وجل حبلَ الفطرة ممتدا عبرَ الأجيال عن طريق الأمومة، مفتولا مُبْرَمـًا، شِقَّاهُ جسم الجنينِ ثم الطفل، وروحُ الطفل يحبو نحو الرجولة وينهض وله من قُدوة أمه وكلماتها البسيطة وإخبارها بحقائق وجود الله تعالى وخبر الآخرة زادٌ منه يستفيض عُمْرَه.

الفطرة الاستقامة الأصلية على الدين، علَّمَها آدم عليه السلام بنيه، وعلمتها أجيال بنيه وبناته ذريَّتَهم، ويبعث الله عز وجل الرسل كلما فترَتْ في الأقوام جذوة الإيمان ليبعثوها فيهم حية. والوالدان سفيران دائمان لوصل الرسالة الفطرية، خاصة الأم.

قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولنا معه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[1].

حنيفا أي مستقيما. والحنيفية سمحة سهلة بسيطة. لا يحتاج تلقينُ الإيمان للناشئ في حجر والديْه، خاصة أمِّهِ، لفلسفة واستدلال على وجود الله تعالى، وعلى معنى وجود الإنسان، وعلى موته ومصيره بعد الموت، وعلى الدار الآخرة وحقائقها. يكفي أن يُخبِرَه، وأن يجيب عن أسئلة بدَاهته، المصدَّقُ المحبوبُ

(1) سورة الروم، الآية 29.

الـمُحْسِنُ، أمُّه خاصة، فإذا بالإيمان يستقر في قلبه كاستقرار مادة الحياة موروثةً عن الوالدين.

هذه هي الجذور الفطرية السليمة للإيمان، فإن تلَوَّثت الـمُوَرِّثاتُ الإيمانية الفطرية في جيل نزل الجيل المولود مشوَّهَ المعنى كما تتشوه الخِلقة الجسمية بمرض المورِّثات الجسمية وفسادها. ويحتاج الأمر في الحالتين إلى تطبيب.

بعث الله عز وجل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين في أمة أمِّية، قريبة من حالة السلامة الفطرية، بريئةٍ مما كان في أمم الهند وفارس والروم من فساد في الفطرة وانسداد في مسالكها بالفلسفة والحملقة الفكرية اللاهية في الدنيا عن السُّؤال البديهي: من خلقني، ولماذا، وإلى أين مصيري بعد الموت؟ بعثه سبحانه إلى أمة أمّية، نِسبةً إلى الأم، لا تزال محتفظة ببقايا الحنيفية السمحة من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. دخلت الوثنية والشرك على الفطرة فشوّهتها، لكن الإقرارَ بوجود الرب الخالق الرزاق كان خبرا موروثا. غابت حقائق الآخرة وزعم المشركون العرب:﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾[1]، لكن المحَلَّ كان سرعان ما يتقبل الحق من النذير البشير لأن المحل لم ينشغل بفلسفة ملتوية على نفسها تنفُث السموم. إنما كانت دهريَّة ساذَجَةً تذروها نسائمُ التبليغ الصادق بِلا عناءٍ.

وحفظ الله عز وجل الفطرة في أجيال المسلمين، من أهم ما حفظ، بتربية الأبوين المسلمين المؤمنين. حتى نصل إلى عصرنا، وإلى ضَعْفِ المحفوظ من الفطرة عند أمهات الغثاء، وانحرافه عن الاستقامة الحنيفية، وتَسَرُّبه في رمال الفتنة ورماد المادية القاحل.

نَكْبَةٌ ورَقدة في الفطرة لا يمكن أن ينبريَ لها بقومة مُحْيِيَةٍ مقومة إلا أمهات صالحات قائمات بوظيفتهن الحافظية كاملة غير منقوصة. وإنك تجد أمهات الغثاء اللاتي ضيَّعْنَ على مَدَى أجيالٍ الجَديلة الـمَعْنويَّة من ضفيرة الفطرة

(1) سورة الجاثية، الآية 23.

يعتنين بدقة بما يرضَعُ الطفل ويلبَس ويُطبَّبُ. لكنهن عن نشأته الإيمانية ورَضاعِه الفطري في غياب مُذهل. الجسمُ يُدلَّلُ ويُنعم ويُصان، والروح تربيتها سائبة ناكبة غائبة. تنطق هذه الحالة الرديئة بِدهريَّة تَقّمصت الأم وظللت طفولة أبنائها وبناتها بقَتامِ الغفلة عن الله، وظلام الجهل بما أنزل الله، وضبابِ الحِياد والتجاهل واللامبالاة أمام السؤال الفطري المصيري الأخروي. لا تخبر الأم ولا يأبَه الوليدُ.

لو تأملتَ معي أخي، وتأملتِ أختي يا حافظة الفطرة تكليفا وتشريفا، كَم من جرائد ومجلات وكتب تنشر في العالم، وكم غابات تحصد ليصنع الورق، وكم آلات تدور، وكم أفلام تصور، وكم آلات تَبُث، وكم أجهزة تلتقط، وكم برامجَ وكم موظفين. كل أولئك لا يتحدث إلا عن الدنيا وزينتها ولعبها وعبثها وملذاتها وشهواتها وأزماتها وسياستها واقتصادها واضطراب أهلها وهَوَس حركتها. والأمهات جاريات في ذلك الضجيج، مغلوباتٌ فيه انغلاب الرجل. والدين في زاوية منسية، وأعظم نبإٍ في الوجود مسكوت عنه: ألا وهو نبأ البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار، وكون الدنيا دار مَمَر وامتحان واختبار. لو كان الناس عقلاء لاحتل هذا النبأ الصفحة الأولى الدائمة من اهتمام الكل. لكن الناس انطمست فيهم الفطرةُ وانبتَرت وانقطعت. ووصلُها، يا من اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، لا يكون إلا بحبل سُرِّيٍّ تُغذّين به الطفل في ليونته غِذاء الإيمان. وما في ذلك من كبير عَناءٍ، فالحُنُوُّ الفطريُّ والمودة والرحمة، وهن من لطائف خلق الله في قلب الأمهات، ميازيب توصِل الخَبَر على أقصر طريق وأصدقه وأبلغِه أثراً.

انطمست الفطرة في هذه الأعصار التكنولوجية الجنونية الراكضة خلف الاستهلاك والمتْعة والشهوة، وانغمرت وانغطست تحت رُكام دهرية مفلسفة معقدة. لا يُخِفْنا التواؤها وتعقُّدها من أداء مهمة الأبوين، ولا يُزِغنا تمشدقُها وحذلقتها عن الأسلوب الفطري: بثِّ كلمة الحق في الطفل في الوقت المناسب، بالبساطة المناسبة، من القلب للقلب. وذلك إن فعلنا، وفعلت الأم خاصة، كنزٌ

لا يفنى، وبذرة حية لا تلبث بإذن الله أن تترعرع شجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

جاءت الكشوفات العلمية والآلات العجيبة في عصرنا بصور السدائم في الأبعاد السحيقة للكون، وأخبرتها الرجَبِيَّات (الأميبات) بأن الحياة ظهرت بسيطة على هذا الكوكب الصغير، التافه بإزاء ملايير ملايير النجوم، منذ مليارين من الأعوام. وأنبأتها الحفريات أنه بعد مآت الملايين من السنين تطورت الرجبية وتركبت فظهر كائن معقد، تطور بعد كذا وكذا من ملايين السنين حتى صار سمكة، ثم زاحفة خرجت من البحر، ثم لَبونة تكيفت بالبيئة وصارعت التغيرات الحياتية حتى تسلقت الشجرة، وإذا على الشجرة قرد، وإذا القرد ينزل، أو ابنُ عمه، إلى الأرض، فإذا هو بشري، ويتطور حتى يصبح أنا وأنت. هذه هي الخرافية التطورية التي تشكل قاعدة «الثقافة العالمية».

تحت هذا الركام من المعلومات الصحيحة مُعظمُها في فرضيتها، العقيمةِ السقيمةِ في تعليلاتها وتنسيقاتها، تنطمر الفطرة، وبها ينشغل العقل المعاشي النشط عند غيرنا، الكليلُ عندنا. وسبحان الله! ها أنت مَوجود، فلمَ وإلى أين ما دامت عقلانيتك مُنبنِيَة على السببية والعلية والمقدمات تتبعها النتائج؟ ومَنْ أنت وما عقلانيتك ومن أين وإلى أين؟

ببساطة الحق، ونصاعة اليقين حين يتجلى للقلوب السليمة يخبرنا الله عز وجل عن حبل الفطرة في تدَلّيهِ من جيل لجيل. قال عز من قائل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[2].

(1) سورة إبراهيم، الآية 27.
(2) سورة الأحقاف، الآيتان 14-15.

شكرٌ لله تعالى على ما أنعم عليه وعلى والديه من نعمة الإيمان خاصة، ودعاءٌ بالصلاح لذريته، والجنة مثوىً للذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان. هذه هي القاعدة الفطرية.

وروى الشيخان وغيرهما واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه أو ينصراه أو يمجسانه. كما تُنتَجُ البهيمة بهيمة جمعاءَ. هل تُحِسُّونَ فيها من جدعاء!**» الحديث.

قال ابن الأثير رحمه الله في «جامع الأصول»: كل مولود من البشر إنما يولد في مبدإ الخِلقة وأصل الجِبِلَّة على الفطرة السليمة والطبع المتهيِّئ لقَبول الدين الحق. فلو تُرِك عليها لاستمر على لزومِها ولم يفارقها إلى غيرها. لأن هذا الدين حُسنُه موجود في النفوس، وبِشرُه في القلوب. وإنما يعدِل عنه من يعدِل إلى غيره لآفة من آفات الشر والتقليد. [...الفطرة] فطرة الله تعالى، وكونه متهيئا لقبول الحقيقة طبعا وطوعا. ولو خلّته شياطين الإنس والجن وما يختار لم يختر إلا إياها. وضرب [رسول الله صلى الله عليه وسلم] لذلِك الجمعاءَ والجدعاء مثلا. يعني أن البهيمة تولد سَوِيَّةَ الأطرف، سليمة من الجَدْعِ [وهو قطع الأنف] ونحوه. لولا الناسُ وتعرضهم لها لبقيت كما وُلدت سليمة». والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

المرأة والعمل

كتب الله جل شأنه على هذا الإنسان الراحل في الدنيا أن يسير على طريق محفوفٍ بالكبَد، وهو المشقة، مشروطٍ بالكَدْح، وهو السعي والعَنَاء. من جملة كبده وكدحه اضطرارُه للعمل كي يكسِب قوته وقوت عياله في عالم يقبض الله فيه الرزق ويبسُط، ويتظالم العبادُ ويتشاحُّون حتى يكونُ فيهم الباذخ المترَف والـمُعدم المنكَّبُ بخصاصته. من تظالم العباد وتشاحُحِهم أن تُضطر المرأة للعمل خارج بيتها عملا يشغلها عن وظيفتها الفطرية الجليلة.

أجلُّ عملٍ وأعظم كسب ما عم نفعُه وامتد خيره ودامت إفاضاته. ويموت المرء والمرأةً الصالحان فيبقى من كسبهما ما يُدِرّ البركات عليهما وعلى الناس، تطيب بغرسه حياتهما في الدار الآخرة، وتطيب بما زرعاه حياةُ الخلق هنا من بعدهما. ذلك إذا أنجبا ذرية صالحة موصولة الفطرة سليمةً حنيفةً بما رعَيا وربَّيَا. قال الله تعالى عن الإنسان المسلم: ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[1].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلا من ثلاثة: صدقةٍ جاريَةٍ، أو عِلْمٍ يُنتفَعُ به، أو وَلَدٍ صالح يدعو له**». رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذا كان هذا الولدُ، ذكرا و أنثى، من العلم والصلاح وبذل الخير بحيث يجمع الخصال الثلاث كان دعاؤه لوالديه أرْجى، وكانت عائدتُه عليهما أبركَ. وقد أمر الله عز وجل الولد الصالح، ذكرا أو أنثى، أن يدعُوَ لوالديْه، بعد أن أوصاه بهما تلك الوصية البالغة ليُرِيَهُما أيةُ مكانة يجب أن يُحِلَّهما من بِرّه ووفائه ورفقه. قال

(1) سورة الأحقاف، الآية 14.

جل وعلا: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾[1].

تعود إليهما تلك الرحمة التي أحاطا بها الصبي والطفل واليافع رحمة تُستَمْطَرُ على قبرهما بعد أن يكلأَهُما بِرُّ المولود المحفوظِ الفطرةِ برعايتهما. ﴿ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي ﴾ التربية المجدولة الطرفين، بل المثَلَّثَةُ الأطراف: تربية الجسم بما يليق من غذاء وكساء، وتربيةِ الروح بالحفاظ على سلامة الفطرة، وتربية العقل والمهارة ليكون المولود كاسبا عاملا لا عالة على الناس.

وللأم القَدْرُ الأوفر من بر مولودها بما عمِلَت وتحملت من كبد وكدح مضاعفين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل سأله: من أحق الناس بصحابتي؟ هذه الوصية الفاصلة: «**أمُّك!**». قال الرجل: ثم من؟ قال: «**أمك!**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك!**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**». رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ويشيخ الوالدان ويعجِزانِ عن الكسب فيتعيَّن على المولود الجهادُ الشفيق للعناية بهما. فرضـًا مفروضـًا لا تبرعا اختياريا. ولا خلافَ من أحد من الفقهاء في وجوب النفقة على الوالدين العاجزين، يؤديها المولود طوعا واعترافا وشكرا، وإلا يرغمه عليها السلطان في الدنيا، ويَبوءُ في الآخرة بإثم العاقين. وعقوق الوالدين من الكبائر الموبقات. نعوذ بالله.

هكذا يَحوطُ الأمَّ في المجمع الإسلامي السويِّ، ويَصونُها عن الابتذال في الخروج للكسب، فرضان: فرضُ النفقة الواجبة على الزوج، وفرضُ البر الواجب المحتم على الأولاد. وهي قبل زواجها وترملها في كفالة والدها فرضـًا واجبا، لاَ مِنْحَةً أبوية تطوعية. وانظر كيف يحث الشارع على البر بالبنات في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يومَ القيامة أنا وهو**» وضم أصابعه. رواه مسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه.

(1) سورة الإسراء، الآيتان 23-24.

صيانةٌ أخرى ورعاية إضافية تحنو على المسلمة لتتفرغ من أعباء الكسب خارج بيتها وتوظف في سعادة ساكنيه البِشرَ والعطاء والرحمة. ذلك ما ندب إليه الشارع وأكد عليه.

فمن حيث التَفَتْنَا إلى فرائض الشرع ومستحباته نجد كل ما يوجه المسلمة المؤمنة إلى وظيفتها الجليلة الأساسية، وما يفرغها من الهموم المادية.

ومن حيث التفتنا إلى واقع المسلمين، خاصة في عصور الاستهلاكية المتباينةِ فيها المكاسبُ تباينا فاحشا المتفشي فيها الفقرُ والبطالة إلى جانب الترف والتبذير، نجد ما يُؤلِمُ القلب ويحزن النفس. الضرورة تدفع نساء المسلمين المستضعفين للكسب خارج البيت. ومُجاراة الأوضاع العالمية والموضات الجاهلية تدفع الأخريات لامتهان وظائف تستهلك المرأة في غير ما خلقت له. وتتفكك الأسرة، ويهيم مجتمع المسلمين في درب الانحلال الأسروي الذي بلغ مداه في المجتمعات الغربية المصنعة الصاخبة المنحلة.

إن كان مطروحا على المؤمنة الاختيارُ بين الدنيا والآخرة، بين حياة الفطرة وحياة الاستهلاك، على مستوى الخطاب القرآني الشرعي، فإن الواقع يخاطبها بلغة الحاجة، ولغة التنافس، ولغة الفاقة، ولغة «كرامة المرأة العاملة»، ولغة الاستقلال الاقتصادي.

الواقع في بلاد المسلمين مُرٌّ عفِنٌ. وما يريده الإسلاميون للمرأة طويل المنال. لا يمكن أن نغير الواقع بين عشية وضحاها. وإنَّ وَمَضاتِ اليراعِ، وخفقاتِ الأمل الراجي للخلافة الثانية لن تلبث أن تصطدم غداً القريب بإذن الله بالحقائق الصلبة. لُب هذه الحقائق الظلْمُ الاجتماعي الناتج عن التسلط السياسي. والمرأة المضطرة للكسب خارج بيتها من أعمال لم تُخلق لها هي المظلوم الأضعف. وإنصافُها من الأوْلويات.

إن أمةً مشكلتها الحياتية الأولى هي الخروج من رِبقة التخلف لجديرة أن تستفيد من جهود كل أبنائها وبناتها. وللمرأة مكانها تحت دولة القرآن في وظائف

التعليم بمراحله لبنات جنسها، والتطبيب لهن، وسائر الأنشطة الاجتماعية، وغيرها مما لا يتنافى مع الحشمة والأخلاق والعفة والتقوى.

لكن أن تَملأ النساءُ دواوين الحكومة مختلطاتٍ بالرجال، متبرجات مختليات بالرئيس والمرؤوس، عاقدات المواعيد التطبيقية لما يشاهد في الأفلام الخَلاعية! هذا منكر.

وأن يترك الأطفال للخادمة ولمراكز الحضانة تُطعمهن الأيدي الأجيرة طعام الحرمان العاطفي! هذا ضياع لأجيال نريدُها مُفعَمةَ الجسم بفتوة لا تنشأ إلا بثدي الأمهات، عامرة القلب بإيمان فطري لا تتأهل للحفاظ عليه وتأسيسه إلا رحمة الأمهات، متوثبة الهِمة إلى معالي العزة بالله والعزة للأمة، عزةٍ لا يمكن أن تتولد في أحضان الخادمة ومراكز الحضانة وشارع البؤس.

إننا وإياهم، أعني وُكلاء الحضارة الجاهلية بين ظهْرانَيْنا، في صراعِ قِيَمٍ، أينا ينجرف وينهزم. وقد ربحوا أشواطا. وهم اليومَ يسلحون هجمة شرسة على ثغر عزيز من ثغور الأمة يحشُدون خيل الغَواية ورَجلَ التطورية ليُجهزوا على ما تَبَقَّى من حصونه: المرأة المسلمة.

من عجائب الموافقات أن أوجست كونت الفيلسوف الوضعي الفرنسي رائد «علم» الاجتماع له رأي حصيف في صون المرأة عن الابتذال في العمل خارج البيت. يرى واجبا مقدسا على الرجل أن يكفيها نفقاتها لتتفرغ لإسعاد أهل بيتها. ويرى أن على الهيئة الاجتماعية أن تكفُلها في مادياتها الكفالة التامة. إنه فيلسوف تطوُّري لا يُنْفِقُ من حضارته إلا كلمة منه إليه لدحض رأيه هذا: فكر تجاوزه الواقع!

ولبرتراند روسل، الفيلسوف الإنجليزي المعاصر -هلك منذ قريب- هذه الكلمة في حق المرأة العاملة التائهة الزائغة باستقلالها الاقتصادي. قال: «إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة. وأظهر الاختبار أن المرأة

تَتَمَرَّدُ على تقاليد الأخلاق المألوفة، وتأبى أن تظَلَّ أَمَةً لرجل واحد إذا تحررت اقتصاديا». أي عدو للمرأة هذا! أم أي ناصح لمن يلتقط الحكمة!

إن المسلمين مسافرون على قطار الإنسانية، لا يمكن أن يَقِفوه ليبنوا لأنفسهم سِكة إلا أن يُعدوا القوة على المدى البعيد. وفي أثناء الإعداد نرى تطور الاقتصاد ووسائل الإنتاج من مَكْنَنَةٍ وروبوط وإعلاميات، ويخلق ما لا تعلمون، تجري بالبشرية إلى تقليص أوقات الشغل على العاملين والعاملات. وهم منذ الآن يحسبُون لوقت فراغ الناس فيم يوظف، لا يهتدون إلى غير الإجازة والمرح والسياحة. ونحن إلى تحرير المرأة من الشغل الفاتن يجب أن نُخطط، وعندئذ يُطرَحُ عليها الاختيارُ بين الدنيا والآخرة وهي خارجَ قبضة الحاجة والفاقة والتمثل «بكرامة المرأة العاملة» واستقلالها المزعوم.

قال سيد قطب رحمه الله في كتابه «معالم في الطريق»: «حين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية الجيل الجديد، وتُؤْثِرُ هي -أو يُؤْثِرُ لها المجتمع- أن تكون مضيفة في فندق أو سفينة أو طائرة! حين تنفق طاقتها في «الإنتاج المادي» و«صناعة الأدوات» ولا تنفقها في «صناعة الإنسانية»! لأن الإنتاج الماديَّ يومئذ أغلى وأعز وأكرم من «الإنتاج الإنساني»، عندئذ يكون هذا هو «التخلف الحضاري» بالقياس الإنساني... أو تكون هي «الجاهلية» بالمصطلح الإسلامي!

قال رحمه الله: «وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع... متخلف أو متحضر... جاهلي أم إسلامي».

خطابٌ حي من يَراعٍ حي. ويبقى ما يكتبه الشهداء رمادا خامدا هامدا إلا أن تستثير منه همم الأحياء بالحياة الدنيا شرارةَ الفعل، وحافز القومة، وروح الاستشهاد. ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1].

(1) سورة آل عمران، الآية 169.

المرأة والحرية

ماذا يعني أن تختار المرأة الآخرة على الدنيا، وأن تستحبَّ مرضاة الله تعالى على مرضاة هواها؟ أهي البِطالة والعَطالة والاستقالة من أعباء الدنيا، والخروج من دائرة النشاط الحياتي؟ نذكر بهذا الفهم الزَّهاديِّ لنؤكد في منظور القومة ومستقبل بناء الأمة أنَّ اختيار الحياة الطيبة على الحياة الدنيا يعني مزيدا من العمل الصالح المثمر الذي تزكيه النية الجهادية والتعاون الجماعي على البر والتقوى، فيصدر من كل مؤمن ومؤمنة مساهمة فعالة منتجة تقتحم العقبات وتتقدم ولا تُحْجِمُ.

والمسلمات، والمسلمون، في ديار الإسلام قد اختاروا كما اختار أمهاتهم وآباؤهم من قبل، وورثوا كما ورثوا، الإسلام دينا، ورضوا بالله عز وجل ربا. إلا الشاذين ممن انقطع عنهم حبلُ الفطرة وانقطع بهن.

وإلى هؤلاء الراضين والمنقطعين يجب أن توجَّه جهودُ العمل الدعوي. وإلى النساء المسلمات ينبغي أن تصمُد جهود الأخوات الصالحات إلى الإيمان ومقتضياته الوَلائية. عليهن أن ينصُرْن الدين وأن يأمرن بالمعروف وأن ينهين عن المنكر في بنات جنسهن أوّل شيء. فما وقع من العطب في نساء المسلمين، وما جلبته عليهن موجة «تحرير المرأة»، بل تحديرها بالدال، هو عطب في التصميم، وتخريب في الأساس لا في الأطراف.

ولئن كان تفرغ الأمهات لتنشئة الأجيال المؤمنة وحفظ الفطرة سليمة من أسبق المهمات المستقبلية، فإن تربية الأمهات تكون الشرط الأسبق والمطلَب الأوثق. وذلك ما يجب أن تُفْرغ فيه جهود المؤمنات المنتسبات للدعوة ليسْدُدن ثغرات تركها في نسائنا الجهل الموروث، والفقر المثبط، ومرض الفطرة.

نرى بأسف من المؤمنات المتعلمات الصاحيات لإيمانهن من تَصرِفُ وقتها وثمرَةَ وفائها في الملاسنات والمحاورات الثقافية في المحافل السياسية وإزاء

طائفة المتعلمات الممسوسات الحائرات اللاهجات بشعارات «تحرير المرأة»، بينما السواد الأعظم من المسلمات الشعبيات أمهات جيل الغد مطروحات في حيِّز الكم المهمل.

نرى بأسف أن نساء الدعوة يتعلقُ همُّهُنّ، بل يُعَلّقُ تعليقـاً مما يُقلِّدْنَ بدون شعور المرأة العصرية، بتسلق السلم التنظيمي في جماعة الانتماء ليصبحن مسؤولات. ومن الجماعات الإسلامية ما يتبارى في صنع «مناضلات إسلاميات» يخْجَلُ نظيراتهن المتبرجات اليساريات من جُرأتِهِن في الحوار وثقافتهن السياسية وإبانتهن في الخطاب.

وقليلا ما نرى مؤمنات منصرفات للجهاد الحقِّ في واجهة ليس لها غيرهن: واجهةِ العمل المتواضع الدؤوب مع المسلمات في الميدان، لا في المناظرات البهرجية. لا أقولُ إن واجهة الحوار مع المثقفات والكتابة في الجرائد الإسلامية والمجلات عمل لا يجدي ولا يليق بالمؤمنات أن يلتفتن إليه. بل أعطيه من الأهمية ما يستحق، لا أجعله كل الـمُهِمِّ.

وهناك في بيوت المسلمات، وفي كل صَقْع نَبَذَتْهُنَّ فيه حاجة الكسب وحركة المجتمع، ثغرة من ثغور المسلمين لا يَسُدُّها إلا المؤمنات. يُعَلِّمْنَ الأساسيات، يُصَحِّحنَ البديهيات، يُطَهِّرْنَ الجذور، يُقَلِّمْنَ الفروع الخبيثة، بصبر وتؤدة ومتابعة. يُعلمن النظافة والكياسة في الحياة الاجتماعية كما يعلمن الوضوء والصلاة والعقيدة. يُلقِّنَ مبادئ الاقتصاد المنزلي وتربية الطفل ومعاشرة الزوج والبِر بالأقارب وخصال الإيمان. يحاربن الأمية الدينية محاربتهن الأمية الأبجدية.

بدلَ النشاط الحركي السياسي الذي يقوم عليه المؤمنون، يتفرغ المؤمنات للعمل العيني الميداني التربوي. فمن هناكَ تبدأ هزيمة الدعاة والداعيات للتطورية التقدمية الإلحادية الاختلاطية، لا في معارض اللَّسَانة والعروض السياسية. هناك يحرز النصر أو تُخْسر الحرب. إن الرهانَ مصيرُ أجيال الأمة، وكسبُ الأمهات إلى صف الإيمان هو المعركة الحاسمة. الحاسمة.

بدأ التخريب في الأساس منذ سبعين سنة ويزيدُ، منذ كتب قاسم أمين وأضرابُه بخجل أولا ثم بجسارة متطاولة عن «تحرير المرأة». لبراليون ثم ماركسيون سياسيون ومتحللون إباحيون أثناء ذلك قالوا كلهم كلمة أبناء الدنيا للمرأة المسلمة التي كانت، ولا تزال، المظلومة الأولى في المجتمع الفتنوي الغثائي. وزينوا لها وبينوا، وصبروا وثابروا، وصنعوا زعيمات «محررات» حتى آل الأمر إلى ما نرى والألم يحز في أنفسنا من انحلال وتفسخ. خربوا الأساس، المرأةَ الأمَّ، فإقامة بنائه واجبكنَّ يا أخواتي، ليس لذلك غيرُكن، البَتَّةَ البتة!

قال المخربون مع قاسم أمين وبزعامته: «من المستحيل أن يقع إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسَّساً على العلوم العصرية الحديثة. وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت، وسواء كانت مادية أو أدبية، خاضعة لسلطة العلم». والعلم عند اللبراليين والشيوعيين من بعدهم هو التطور. يقول قاسم: «إن نتيجة التمدن هي سَوْق الإنسانية في طريق واحدة، وإن التباين الذي يشاهدُ بين الأمم المتوحشة أو التي لم تصل إلى درجة معلومة من التمدن منشؤه أن أولئك الأمَمَ لم تهتد إلى وضع حالتها الاجتماعية على أسس علمية».

قلت: درجة الكمال الاجتماعي التمديني عنده هو ما وصلت إليه أوربا والمرأة الأوربية، «خيره وشره» كما قال طه حسين. وذلك بقطع النظر عن كل هدف غيرِ التقليد التَطوُّريِّ، وبالانقطاع عن كل دين لأن الدين ينافي العلم.

ويفرض قاسم سائلا يسأله: ما نهاية هذا التطور الذي يسوق المرأة في أطوار الكمال التمدني؟ فيجيب: «ذلك سر مجهول ليس في طاقة أحد من الناس أن يعلمه [...]. وإنما نحن على يقين من أمر واحد: وهو أن الإنسانيّة سائرة في طريق الكمال. وليس علينا بعد ذلك أن نَجِدَّ السَّيْرَ فيه ونأخذَ نصيبنا منه».

قلت: إلى المجهول «الكمالي» يا عشاق حرية المرأة!

وتستفحل الدعوة التطورية والهجمة على التقليد، والمقصود الدين، فيندفع حتى بعض الأزهريين لينفُوا عن أنفسهم التهمة ويبرروا في حَلَبة التقدمية التطورية

التي يسحب فيها قاسم وأضرابُه المرأة. ويكتب خالد محمد خالد المتمركس يومئذ في كتابه «من هنا نبدأ»: «القاعدة هنا هي التطور، والشذوذ هو الرجعية والانتكاس... فكل زحف إلى الوراء مهما يتسم بحسن النية وسذاجة القصد ليس سوى رذيلة في ثوب تنكريٍّ خداع. وليس هناك إثم أشد، ولا خطيئة أفحش، من مقاومة التطور وإخضاع مستقبل الأمة لجهلها القديم».

قلت: لو كان خالد يومئذ ينتقد الفتنة الموروثة من ظلم وما جره الظلم على الأمة لكان مصيبا. لكنه نظم قصيدة التمدح بالتطورية في عرض الحديث عن الفضيلة والغَيْرة، يعُدُّ الفضيلة والعفة والغيرة على المرأة كيدا عليها وإهدارا لكرامتها. ويعد ذلك وَلاءً غيرَ مشروع لتقاليدَ باليةٍ.

وتاب خالد بعد ذلك، كما رجع مصطفى محمود الذي كتب قبل رحلة رجوعه من الإلحاد إلى الإسلام ما يلي من وَقاحات في كتابه «الله الإنسان». قال، وبئس ما قال: «والخير والشر خضعا لناموس التطور. فتغيرت معاني الرذيلة ومعاني الفضيلة. كانت المرأة رمزاً للشيطان، وكانت الغريزة الجنسية خطيئةً تحمل أوزارَها المرأةُ وحدها. فأصبحت المرأة نصفا مكملا للرجل. وأصبحت الغريزة الجنسية حالةً فسيولوجية تُنَظَّم لصالح المجتمع ومَسَرَّة أفراده».

قلت: المرأة عندهم نصف مكمل، والحالة فسيولوجية محض. وما يهلكنا إلا الدهر! فلا خطيئة في الاتصال الجنسي ما دامت المرأة النصف المكمل على بساط التكامل الفسيولوجي. ولا يزال في خطاب التطوريين، بل عم البلاء حتى خطاب الإسلاميين، ما يبرئ الساحة من كل التبعات حين يُتحدث عن «الاتصال الجنسي» حديثا محايدا علميا. لا عن الزنى والفاحشة. فتلك أوصاف عتيقة!

رجع خالد ومصطفى بعد سكرة التقليد الأعمى. ونشاهد في الخمس السنوات الأخيرة تفكك الإمبراطورية الشيوعية وسقوط إديولوجيتها التي كانت السند الوطيد للتطوريين المعجَبين بالدولة العظمى محررة الشعوب محررة المرأة. ورجع جرباتشوف زعيم الثورة عن الشيوعية.

فيكتب عن المرأة نظرية «رجعية» ويقول: «على مدَى أعوام تاريخنا الرهيب البُطولي لم نُعْط الاهتمامَ الكافيَ للحقوق الخصوصية النوعية للنساء، ولا لحاجتهن باعتبارهن أمهاتٍ ومديراتِ بيوت، ولا لوظيفتهنَّ في تربية الأطفال. إنهن يشتغلن في البحث العلمي، وتستأثر بهن أنشطة إبداعية، ويعملن في أوراش البناء، وفي الإنتاج والخدمات. فلا يبقى لهن ما يكفي من الوقت لتحمل مسؤولياتهن في البيت، وليعتنينَ بشؤونه الداخلية، ولينشئن أطفالهن، وليُشِعْنَ جوا طيبا في الأسرة. اكتشفنا أن كثيرا من مشكلاتنا المتعلقة بسلوك أطفالنا وناشئتنا، وبأخلاقياتنا وثقافتنا وإنتاجنا، من أسبابها ضَعف العلاقات الأسرية، والإهمال للمسؤوليات العائلية.

قال: «هذا نتيجة عكسية لنيتنا المخلصة، المعقولة سياسيا، أن نجعلَ النساء مساويات للرجال على كل صعيد. [...]. ماذا يجب أن نفعل كي يكون في إمكان النساء التفرغ أيضا، من جديد، لرسالتهن النسوية الخالصة؟»

قلت: ونحن ماذا يجب علينا يا أخواتي الصالحات؟

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾[1]. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

(1) سورة الزمر، الآيتان 16-17.

العزل

نزلَ الأمر الرحمني والتوجيه الصمداني للمولودين والوالدين، يُعَلِّمُ الناشئة بالخطاب المباشر المُلِحّ، ويعلم بالإشارة والتلميح والتضمين من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وهو الأسلوب الأكثر بلاغة الأعمق أثراً. قوله عز وجل للناشئ: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[1] دعوة تكررت في القرآن بعبارات أوضحت للمولود سبب الشكر الواجب للوالدين، ووجْهَ اختصاص الأم بالنصيب الأوفر من الاستحقاق، وأسلوبَ التعامل، وطرائق البرِّ بهما إن بلغا «عندك» الكِبرَ.

وفي قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ بلاغ للوالدين ليعلما أن واجبهما وسبب استحقاقهما ليس أن يكونا وعاءً مفعولا للقدر الذي يُبرز من بين الصلب والترائب المخلوق المولود، بل السببُ ما يقومان به من التربية، تربية الجسد بالعناية المادية الصحية الغذائية، وتربية الروح والعقل والكفاآت الإنسانية والخصال الإيمانية والمروآت الخلقية والمهارات الكسبية.

﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ تنويه بجُهد الوالدين الإرادي وبصبرهما على الطفل واليافع والشاب حتى يستقيم على جادة الفطرة ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾[2].

﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ طُغْراءٌ على حاشية تاج الكرامة الذي يتوَّجُ به الوالدان في الدنيا لِما أنجبا من الذرية الصالحة للناس، وفي الآخرة جزاء لِما وفَيا بحق الفطرة، ولِمَا دَعا جيلٌ صالح لجيل قبله في تضامن يرضاه الله عز وجل ويباركه. هذا

(1) سورة الإسراء، الآية 24.
(2) سورة الأحقاف، الآية 14.

لا الصراعُ التطوريُّ بين الأجيال، ينقطع حبل التواصل، ويكون الانقطاع الثوري معيارا للتقدم ونبذ العتيق.

يُصبح التضامن الإيماني والتواصل عرقلة وانتكاسا إن كان التقليد للآباء والأجداد أعمَى لا يقدُرُ قدْرَ الخطإ والصواب. وذلك حين ينتصب شبح الآباء والأجداد حاجزاً بين الأجيال الناشئة وبين مصدر الوحي، وحين تتحجر الأجيال الصاعدة على وضع موروث تنبطح أمامه عاجزة عن تحقيق عبوديتها لله عز وجل في الزمان والمكان المتغيرين المتقلبين.

يحدث هذا الانتكاس إذا أنجب الآباء والأمهات ذرية غثائية كثيرة العدد قليلة الغَناء.

يستعمل العرب فعل «أنجب» للدلالة على ضدين: أنجبَ من النجابة وهي الفضيلة والكرم. وأنجَبَ من النَّجَب وهو قِشر الشجر.

المطلوب من المؤمنين أن يكونوا أقوياء، أشداء على الكفار رحماءَ بينهم، علماءَ، عاملين، أمناء، خلفاءَ في الأرض، مجاهدين. والحث على صفات المروءة وخصال الإيمان وأخلاق الإحسان كثيرة في القرآن والسنة. كلها تستنهض المؤمنين والمؤمنات للتحلي بصفات العباد المقتحمين للعقبة، الحاملين للرسالة، العالمين بقدرها، العاملين على تبليغها، المتفاعلين مع زمانهم ومكانهم بإيجابية المستخلَفين في الأرض، الموعودين بالتمكين، المجاهدين لنيله.

صفات مطلوبة تشير إلى النوعية والكيف أكثر مما تشير إلى الكثرة والكم. تشير إلى آثار التربية الفاعلة أكثر مما تشير إلى التناسل المبثوث. تشير إلى الإنجاب الفضيلي الكرمي، لا تتماشى مع الإنجاب القِشْري الغثائي.

المسلمون اليوم مليارٌ ونيف، تبارك الله أحسن الخالقين. هم اليومَ جوهر العالم المستضعف، أمة مغلوبة مقهورة مُفَقَّرة. وهم صفوة العباد المحافظون من بين البشر جميعا على حبل الفطرة في درجة من السلامة والعافية. ورثة الأنبياء ومزرعة الصديقين والشهداء والصالحين.

وهم أيضا وفي نفس الوقت غثاء كما وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. لما أخبر أصحابه رضي الله عنهم بزمان، كان يومئذ مستقبلا وهو اليوم حاضرُنا، تكون فيه الأمة مأكولةً مغلوبة. سألوه: «ومِنْ قِلَّةٍ نحن يومئذ يا رسول الله!». قال: «**بل أنتم كثير، لكنكم غثاء كغثاء السيل**». الحديث

غيرُنا من المهتمين بالإحصاء والاقتصاد في إطار التحليل الاقتصادي والاستشراف المستقبلي يتحدثون عن التضخم الديموغرافي وعن ورطة العالم الفقير في دوامة التكاثر وسلسلة الفقر وإفناء الموارد وتصحير الأرض وإفساد البيئة. وهذه ظواهر لا ينبغي أن تغيب عن وعينا، ولا ينبغي لعقولنا أن تحجم عن مواجهتها بواقعية. فهي أفقنا اليومَ وغدا، لا يكفي أن نُلقي تبعاتها على الغير.

لكننا لا نقف مع الإحصائيين الديموغرافيين على عتبة الدنيا، بل نجلس إلى الوحي، ونسمع خبره، ونستجيب لندائه، ونمتطي رَفرَفه لنحلق إلى الآخرة ونستشفّ ما تكون الأمة هنالك: أتكون غثاء يخْجَلُ الجيل فيها من تفاهة الأجيال، أم تكون هنالك كما كان الصحابة هنا ﴿**كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ**﴾[1] ؟

نستمع إلى الوحي يُهيب بنا للجهاد لنكون خِيَرَةً بالفعل والأثر في العالم. وهذا يقتضي نوعية وكيفا أكثر مما يقتضي تكاثرا عدديا.

ونقرأ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم المشجِّعَ على التكاثر والعدد فلا نفهمه خارجا عن شرطية النوعية. وإلاَّ كان التناقض بين التنديد بالغثائية وبين طلب الكثرة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تزوجوا الوَلودَ الوَدودَ فإني مكاثر بكم الأمم**». الحديث أخرجه أبو داود والنسائي عن معقل بن يسار رضي الله عنه.

على الساحة الإسلامية، مِلْءَ الكتب والصحف والمجلات والندوات، نقاش حاد حول تحديد النسل وتنظيم الأسرة. تلتهب حوله العواطف، وتتنوع الفتوى،

(1) سورة الفتح، الآية 29.

ويحتدم الخلاف. آخِر التطورات في هذا الموضوع الحيوي صُدور فتوى من علماء الأزهر بالجواز. ولم تَحْسِمْ هذه الفتوى النزاع. وكيف تحسمه وعلماؤنا الأفاضل على الهامش لا خبَر عندهم لبعدهم عن الحكم بهذه المعضلة الكاوية، معضلة حمل أجيال فقيرة متخلفة عاجزة أعباءَ أجيال متوالدة متكاثرة فاغرة أفواهها للغذاء والدواء والمدرسة والسكن والعمل.

مما كتبه أحد فضلاء علمائنا في الموضوع: «إن تنظيم الأسرة وتحديد النسل فكرة أمريكية صهيونية استعمارية شيوعية إلحادية دخيلة علينا كمسلمين. فأمريكا التي تعطينَا بغير حساب لتنظيم الأسرة تقرضنا بفوائد ربوية متفاقمة للمشروعات الأخرى».

نعم، يدخل في حساب الآخرين من أعدائنا، سَفيرتُهم الرأسمالية الاستكبارية، ضِيق الموارد في الأرض. يريد جشعهم أن لا تحولَ كثرتنا دون استمتاعهم بها واستئثارهم. لكنْ من قِصر النظر أن نحيل المعضلة السكانيّة بالخطابة المناضلة على مجهول أمريكي صهيوني شيوعي. إن كان ذلك يُهَدِّئُ من غضبنا في لحظات الفراغ من المسؤولية فإنه لا يحُلُّ المعضلة التي سَتواجه الإسلاميين في الغد القريب أوَّلَ ما يصلون إلى الحكم.

أيبيح الشرع تحديد النسل؟ أيجوز أن يُنجب الوالدان بمقدار؟

لا يمكن للإسلاميين أن يبارزوا في ساحة الصراع الشرس على الموارد الطبيعية في ديارهم وعلى منابع النفط إلا ومعهم من الله ورسوله برهان. ولا يجوز للإسلاميين أن يغفُلوا عن المطلب النوعي الكيفي الذي يفرضه الشرع ويكونُ به التأثير في العالم ليعطوا للثقل السكاني العددي ما ليس له من أهمية إن كانت الكثرة غثاء. بل يكون هذا الثقل عبئا ينوء بالأمة حِمْلُه فيتأبد تخلفها، وتبقى كمّـًا مفعولا به على الزمان.

عقد البخاري رحمه الله في كتاب النكاح من صحيحه: «باب العزل». أورد فيه أربعة أحاديث عن جابر وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما تفيد أن

الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعزلون والوحي ينزل. وما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن سألهم: «**أوَ تفعلون؟**» قالوا: نعم! قال: «**ما من نَسَمَةٍ كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة**». ليس هذا زجرا عن العزل، بل هو إيقاظ لحاسة الإيمان بالقدر، وكسبُ العبد مطوي في القَدَر. للعبد الحرية فيما أباحه له الشرع، لا يُعد اتخاذه لسبب منع الحمل جُحوداً للقدر كما لا يُعَدُّ اتخاذُه لسبب الحمل، وهو الزواج، جحودا له.

وقد نقل ابن عبد البر رحمه الله أن لا خلاف بين العلماء في أنه لا يُعزَل عن الزوجة الحرة إلا برضاها. معناه أن التسبب في الحمل أو عدمه باختيار الزوجين وتراضيهما. إن طالبت الزوجة بحقها في جِماع كامل كان ذلك فيصلَ الاختيار.

كيف يُجيز الفقه الإسلامي وتبيح السنة اعتبار مصلحة امرأة ولا يتسع الفقه والسنة لاعتبار مستقبل أمة؟

يستند المانعون لتحديد النسل على حديث جُذامةَ عند مسلم قال فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم عن العزل: «**ذلك الوأْد الخفيُّ**». هناك حديثان آخران عند الترمذي والنسائي يقول فيهما اليهود عن العزل: إنه الموءودة الصغرى! فيُطَمْئِنُ الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه قائلا: «**كذبت اليهود، لو أراد الله خلقه لم تستطع رده**». وقد أفنى العلماء أعمارا للتوفيق بين الحديثين المتعارضين. أحسن الأقوال في الموضوع توفيقُ البيهقي بأن حديث جُذامة عند مسلم يُحمل على التنزيه.

سؤالنا نحن لمستقبل الخلافة نطرحه على الدعوة والدولة: كيف نوفق بين النوعية والكم؟ كلاهما قوة إن اجتمعا. والله غالب على أمره. ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

الباب الثاني

عالم في مخاض

الفصل الأول

رياح التغيير في العالم

- «أبواب كل شيء»
- نظام جديد للعالم
- الشرف الدولي للإسلام

«أبواب كل شيء»

نطرق الباب الثانيَ من هذا الكتاب مستفتحين رحمة العزيز الوهاب سبحانه. في الباب الأول منه تحدثنا عما يريده الإسلاميون وما يخالج ضمائرهم الحية من أمل إحياء المائت وإيقاظ الوسنان وبناء المهدوم وجدْل المنقوض. وهنا إن شاء الله نعرض بإيجاز العقبة التي تعترض تلك الإرادة وتمنعها وتشكل أمامها الحاجز. ما طبيعة هذه العقبة؟ ما مركَّباتها؟ ما معالمها؟ ما حركتها؟

في هذه الفقرة الأولى نتساءل: ما معناها؟ لأننا إن فقدنا ونحن نقتحم العالَمَ الـمَهْوُوسَ اهتمامنا الأخرويّ الإيماني فلن نكون إلا ناساً من الناس، يطوينا التاريخ طيا، وتبتلِعنا الأيام ابتلاعا، وتستحيل إرادتُنا نبضة من نبضات هذا العالم المضطرب في مخاضه، يلِد غدُه نشئا غيرَنا يُحمله الله عز وجل رسالة تبليغ دينه إذ نكصنا عنه وفقدنا الأهلية بفقدان المعنى وضمور الإيمان.

في فصول الباب الأول تصفحنا العوامل الإيجابية للحركة الإسلامية وللأمة المسلمة. وتصفحنا خاصة العوامل السلبية ليكونَ نقدنا لهذه الذات المنتعشة الصاحية مقدمةً لإصلاح الفاسد وتصحيح الوجهة.

ذكرنا كيف نُؤَصِّلُ حركة التجديد في ربط العبد بربه عز وجل برباط العبودية، وكيف نحرره بالتربية المسجدية من ربقة سلطان هواه. وذكرنا كيف خيّمَ «دين الانقياد» على تاريخ الأمة، وكيف انتقضت عُرا الدين وانتكست أعلام الشورى. وتعرضنا لانفصال الدعوة عن الدولة، بل طردِ الدولة الدعوة وإرهاقِها وتهميشها حتى أصبح الدعاة غرباءَ مهجورين ظنينين. وألْحَحْنا على وجود خطر يهدد الدعوة بالاضمحلال والذوبان إن تحول الدعاةُ إلى حكام وسياسيين يشغلهم تدبير الدولة عن مهمتهم الأولى، وهي تربية أجيال خير أمة أخرجت للناس،

يصعد الجيل اللاحق على درجة من سبقه إلى أن يَستوي جيل الوحدة والخلافة الثانية على مثل ما كان عليه جيل الخلافة الراشـدة الأولى. إن شاء الله.

وكان رائدَنا فيما كتبناه بفضل الله الحديثُ المنهاجيُّ الذي أخبرنا فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بما كان مَطويا في ضمير الغيب لزمانه، وبما أصبح بعضُه وراءَ ظهرنا من تاريخ، وبعضه لا يزال أمامنا نطلبه بالعزم والجزم والثقة الصامدة. أخبرنا من لا ينطق عن الهوَى أن بعد النبوّة خلافةً على منهاج النبوة، وأن بعد الخلافة الراشدة ملكا عاضا فجبريا، وأن بعد الملك خلافة على منهاج النبوة. فمن كان من ذراري المسلمين المغربين ينظر إلى المستقبل من وراء تخمينات الحساب وترتيبات الخَرْصِ، فنحن بحمد الله نمضي على هُدىً من وعد الله ورسوله. ونحسُب ما هو أمام أقدامنا وما في أفقنا حكمةً شرعية.

ومن كان من التراثيين ينظرون إلى وراءَ ليلتقطوا من ذخائر الحضارة الإسلامية العتيدة ما به يُسندون طموحا قوميا أو يبررون انتماء وأصالة وفخرا، فنحن نقرأ الوحيَ الخالِدَ: ماضينا وحاضرنا ومستقبلُنا على ضوئه نقرأه، وبأنواره نستجليه، وعلى منهاجه نبني ونُعد القوة. بحول الله وقوته، إنه القوي العزيز.

إن شريعة الله عز وجل الخالدة بها صَلُح أمر الخلافَة الأولى، وبها يصلُح مشروعُنا. وإن العمرانَ الأخوي، وهو مطلَبُنا الاجتماعي السياسي، على مَهْيعِ تحقيقه تتوحد الأمة، وبحافز ضرورة التوحيد تجتمع جهود القومة.

وإن استمرار المباني الغثائية في النفوس والعقول وطرائق التفكير والسلوك مُنحَدَر يجب أن نقِفَهُ. وإن بناء القوة الاقتحامية التي تقود الأمة في جهادها وتصعد من الوهْدة وتتوسط هذا العالَم الصاخب المضطرب ثابتةَ الخطى حتى تكون يوما ما طليعة الإنسانية ومحرر الإنسان وناشرَ العدل في ربوع الأرض، والشاهدَ على العالمين بالقسط، لا ينهض له من تحجُبه حقائق اليوم عما يسير به منطق التاريخ لغد. وسنة الله وراء ما يبصره الأنام.

ولا ينهض لبناء القوة الاقتحامية وإنجاح مسعاها بتوفيق الله العلي القدير من يَستبد بعقله وبإرادته وحركته وعيٌ تاريخي لا أفق له غيرَ المستقبل الأرضي للبشر، يُساهم في النزاع مع الناس إلى وِجهة لا تُعرَف. إنما يقتحم العقبة من خرقت عين إيمانه ونظرة إحسانه وأذنُ تلمذته للوحي كلَّ كثيف من أوهام الكون وحقائقه الصلبة. وإنما يبني القوة الاقتحامية ويُعتَمَد ركنا من أركانها من يتطلع للدار الآخرة راجيا طامعا خائفاً مستغفرا تائبا عابدا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر حافظا لحدود الله.

أمامَه الوعد الذي لا يُكْذَبُ، وعلى رأسه تخفق ألوية المجاهدين في سبيل الله، وفي ضميره تتألق أنوار البشرى بالنصر هنا والفوز هناك. نصْره المرجوّ إحدى الحسنيين، والفوز في الدار الآخرة أمله في الله الملك الوهاب.

يجب على المجاهدين المقتحمين أن يعرفوا العالم، وأحداث التاريخ، وسبَبِيَّةَ حركته، والقوى المؤثرة فيه، كما هي لا كما يصورُها الطموح الجامح أو الأملُ المكبوت أو اليأس اليائس.

ولا يكون المجاهدون على خُطى الأولين من النبيئين والخلفاء الراشدين إلا إن انتسق العلم بالأسباب والتاريخ وحركة الكون والإرادات المتدافِعة فيه في نَسَقِ الإيمان بسنة الله تعالى وحكمته وفعله المطلق وإرادته الكونية.

يستنهضنا الشرع وتبشرنا بشائره. فعلينا النهوض للكسب والعمل والاجتهاد. وذلك حق على المكلف الموفق. وتَبَصُّرُه بما يعوق نهضته ويعرقل خُطاه ويقاوم إرادته متروك لاجتهاد عقله، يكايد الناس على الأرض، ويخاصم، ويصالح، ويقدم، ويؤخر. هو مسؤول عن اجتهاده، موصوم بإخفاقه.

لكنه يتميز عن الناس بحضوره الدائم، وذكره الملازم، لإرادة الله عز وجل في خلقه. يتدبر آيات الله التي يُظهرها في الآفاق والأنفس على ضوء الآيات التي أنزلها بالحق. وبذلك لا يضطرب خَطوُه، ولا ينقطع حبله، ولا تُهْزَم عزيمته لما في الكون من تناقض ظاهر، ولما يعتري ساكنيه من

شدة ورخاء، من حرب أو سلم، من كفر الكافر وإيمان المؤمن، من إفساد المفسد وإصلاح المصلح.

يسير في ضباب الشك أو ظلمة الجحود من يغيب عنه أن الله جلت عظمته خلق الخلق ليبتلي الخلق. ويتساءلُ الغافل: لماذا تفوَّق علينا أعداء الله، نرى عندهم البسطة في العلم والرزق ونحن فقراء متخلفون؟ لماذا تتعمق الهوة بيننا وبينهم في كل ميدان؟ لماذا يتعسر علينا ما يتيسر لهم؟ وفي ضِمْن التساؤل اتهامٌ للقدَر والحكمة. كما أن في القعود عن الجهاد لإعداد القوة زعماً أن ذلك رضىً بالقَدَر مسؤوليةً لا عذرَ عن تضييعها.

كيف إذاً نصطحب الإيمانَ بالمقدور والحكمة ونحن نخوض غمار المعارك؟ كيف نقرأ في الآيات الكونية التاريخية والآيات الحِكمية من سنة الله بعينين لا بالعين العوراء؟

القراءة المفتوحةُ البصيرةُ لمخاض العالم، وتحولاته العجيبة وتقدمه العلمي الصناعي المذهل، وإغداق القدرة الإلهية على أبناء الدنيا من كل شيء نجدها في قوله عز وجل لنبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

لا يفُتُّ في عضد المجاهد الماضي لموعود الله ورسوله هذا الفرْقُ الهائل بيننا وبين الناس. إنها سنته سبحانه في الأمم. نَسُوا ما ذُكِّروا به ففتح الله عليهم أبواب كل شيء ابتلاءً بين يدي ما هو به عليمٌ من أخذٍ أو إمهال أو هداية يستعملنا فيها إن شاء. بيده الخيْر، وإليه المصير، وهو على كل شيء قدير.

(1) سورة الأنعام، الآيات 42-45.

قال تعالى: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2]. عليهم لا لهم. عليهم اختبارا وكيدا. مثلها قوله سبحانه عن الأمم المتقطعة زُبُرا بعد أنبيائها: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[3].

عليهم لا لهم هذا الفيض العجيب المذهل من الأشياء والكشوف العلمية والإبداعات والسيطرة الظاهرة على الكوكب الأرضي وخيراته وفضائه.

ولنا لا علينا يكون كل نصر نحققه بجهادنا الدائب لنتعلم منهم ونستخلص ونوطن عندنا ونستنبت. بإذنه ورحمته، تعالى جَدُّ ربنا وتبارك.

لنا لا علينا إن نحن تمسكنا بمنهاج من خاطبه الله عز وجل بقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾[4]. فتحنا لك.

لنا إن شاء الله لا علينا إن تخطَّى إيمانُنا دار الامتحان مع سعينا الجهادي فيها، إن حطت طيور دعائنا على أغصان طلب المغفرة والثواب، إن ارتفعت آمالنا للنظر إلى وجه الملك الوهاب.

ذلك تمام النعمة على العباد فرادى، وذلك تمامها على الأمة، بتبليغ رسالة الله العزيزة. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. سبحانه.

---

(2) سورة الأنعام، الآية 44.
(3) سورة المؤمنون، الآيتان 55-56.
(4) سورة الفتح، الآيات 1-3.

نظام جديد للعالم

مما فتحه العزيز العليم عليهم من فنون الابتلاء في هذا الطور التاريخي تسارُع الأحداثِ وجريانها بما لم يكن في حُسبان الحاسبين. فبعد نهاية القرن الرابع عشر الذي عرف الغزو الاستعماري، وعرف حربين كونيين، وعرف استقرار العالم على ازدواج المعسكرين الشيوعي والرأسمالي، وعرف بزوغ الصحوة الإسلامية، وعرف حركات التحرر الوطني، ها هو القرن الخامس عشر يدُق طبولَ النصر على رأس الرأسمالية المنتصرة في موكب أحداث تحمل بشائر تغيُّرٍ حثيث واسع هي في آخر المطاف بشائر النصر للإسلام. إن شاء الله العلي العظيم.

في العشر الأولى من هذا القرن سمعَ العالَمُ بدهشة فرقعة الثورة الإيرانية، ومجد المقاومة الأفغانية، وآية أطفال الحجارة. على عتبة العشر الثانية نعيش خلخلة النظام السوفياتي وتحرر أوربا الشرقية، ثم هجمة الزعيم القومي صدام حسين وتحفز العالم كله لمحاصرته.

انتهت الحرب الباردة بين العملاقين الخصمين بالأمس، فأمريكا المخدوشة الوجه بماضيها البغيض في دعم الأنظمة الاستبدادية، المسؤولةُ عن زرع الدولة اليهودية في أرض الإسلام وتسليحها، تكشف عن نياتها الاستعمارية الكَلِبة بنزولها في أرض النفط، أرض الإسلام المقدسة.

توحدت الحضارة الأوربية، بقيادة هذه الأمريكا المعادية للإسلام أشدَّ ما يكون العداء، بعد ذوَبان التناقض العسكري والإديولوجي. انهارت الشيوعية وبرهَن تخاذلُها أمام رأسِ المالِ على أن التاريخ يصنعُه الاقتصاد أكثر مما تصنعه القوة العسكرية. ففي المعسكر الشيوعي سابقا مراجعة وإعادة نظر في تمويل السلاح، وفي الدبلوماسية، وفي الاستراتيجية، وفي الأحلاف. وفي المعَسْكَر

الآخر، قل في الجناح الآخر للحضارة الأوربية الأمريكية، توجُّهٌ لتوطيد نظام عالَمي جديد توَدُّ الولايات المتحدة الأمريكية لو تكون عميدتَه الوحيدة الزعيمة. لولا أن مديونيتها وعجزها المالي الفادح وسمعتَها وعادتَها تُمسكُ بتلابيبها إلى الوراء. فهي تتخذ الأمم المتحدة قُفازا لإدارة سياستها تحت شعار حقوق الإنسان وحرية الشعوب والشرعية الدولية.

هناك بالفعل ملامح نظام عالمي جديد وخطوط توازن عالمي جديد هو في طور التكون. أوضاع تنقلب ليرتفع أغنياء العالم: ألمانيا واليابان وأمريكا.

استعادت الدولتان المهزومتان عسكريا في الحرب العالمية الثانية قوتهما على طريق التفوق الاقتصادي. ففي أفق النظام العالمي الجديد منابِر جديرٌ أن يعلوَ فيها صوت الأغنياء القادرين المستحوذين على خيرات الأرض بالإبداع والتقانة على كل صوت. وما تحركات الولايات المتحدة الأمريكية وتقلبها في الأرض إلا محاولة للبقاء على رأس القافلة. لا تزال لذلك الليث الهرم، نمرِ الوَرق، أنياب.

النظام العالمي الجديد يتألق في أوْجِهِ المنظور بريق المارْكِ والينّ، يَنْخَرُ اقتصادهما في اقتصاد الدولار ويَسْحَبُهُ. ولن يلبث التفوق الأمريكي الذي تتيحه سَعةُ رقعة البلاء، وتنوُّعها، وحجم سكانها أن يتجَرَّر في الذيل. فمنذ الآن يتفوق اليابانيون ويتقدمون في بعض الميادين بعقدين من الزمان أو أكثر. ومنذ الآن تبرهن التكنولوجيا الألمانية التي تعتمد الصناعة المدنيةَ على تفوقها وسبقها لِتقانة التساقطات العسكرية.

سؤالنا المحوريُّ هو: كيف يتصرف الإسلاميون في الحكم مع هذه التطورات الجديدة؟ وما هي الأسئلة التي يطرحها عليهم التطور السريع، خاصة في تسابق أمم العالم للديمقراطية وفي بروز الأمم المتحدة بوصفها فاعلا رئيسيا في استراتيجية ما بعد الحرب الباردة؟

الديمقراطية الـمُعلنة في غرب أوربا وشرقها يردد أصداءَها في الأرض الحجَر والـمَدَر، هل تقتصر على مصلحة ذلك المعسكر الكافر المعادي للإسلام؟ هل يعوقها المانع الجنسي القومي من عبور الحدود إلى ديار المسلمين؟ أم إن حظهم وحظ المستضعفين في الأرض الرزوح تحت كلكل الاستبداد المحلي والعدوان الخارجي؟

ما حظ المسلمين من انفراج النظام العالمي الجديد؟ ماذا يمكن أن ينتظروا من قيادة الأمم المتحدة وهي تركيب يسكنه الجن الأمريكي وتحركه إرادة الخمسة المتحكمين بحق الفيتو؟

المسلمون هم خزَنةُ القدَر الإلهي على النفط، والنفط هو عصَب الاقتصاد العالمي، وعلى النفط تتحلب أفواه الأمم الغالبة. قضية منطقية ما نتيجة مقدماتها في عالم الغد، وفي سياسةٍ عالمية تُدَبَّر في غياب الإرادة الإسلامية الحرة، وبمُمَالَأةِ الحكام العاضينَ الجبريين؟

أسئلة ومعادلة نجد في صميمها الإمساك الشديد بيد القهر العسكري الأمريكي لمصادر المسلمين الحيوية. يد تُنزل الجنود الأمريكيين في الأرض المطهرة قرب البيت الحرام، ويدٌ تخنق بالديون والاستحقاقات والبرمجات.

نفس القوة العجوز المهزومة في فتنام ولبنان تحمِي اليوم محميتين على منابع النفط: محميةَ دولة اليهود، ومحميةَ دولة سلاطين النفط. وللمسلمين خارج المحميتين سوءُ المصير. منذ بضع وأربعين سنة يعيث اليهود فسادا في أرض فلسطين، وتُصدر الأمم المتحدة القرارات فيحبسها في مجلس الأمن الحق الأمريكي في الرفض، أو تتجاهلها الدولة اليهودية مطمئنة إلى سنَدِهَا هناك. ومنذ هجم الزعيم القومي صدام عل الكويت جنَّدَت أمريكا العالم كله، وانتضت الأمم المتحدة في ثمان وأربعين ساعة سلاحَ المقاومة والمحاصرة بإجماع لم يسبِق له مثيل.

هذا يدل على أن النظام العالمي الجديد وجه جديد لنفس الهيمنة الاستكبارية. فالقارونية الرأسمالية لها أنياب هي اليوم أكثرُ حِدة من أي وقت مضى، وأكثر تلهفا على ما في أرض المسلمين من هذه الثروة الفريدة: النفط. القارونية الرأسمالية لها أنياب ذرية، فهي جَذلَى بمستقبل لا تنغصه المعارضة الشيوعية الآفلُ نجْمُ نظامها.

الظلم الواقعُ على عالم المستضعفين لا يزال القاعدة. كلما ازداد الاقتصاد الرأسمالي ازدهارا ازدادت حالة المستضعفين في الأرض سوءا. ازدهارهم كارثة مدمرة لنا ولمن على الأرض، سُكانِها وبيئتِها.

في عنق المستضعفين حبلُ مشنقة تشده أو تُرخيه الهياكل المالية الرأسمالية. المديونية كلمةٌ عنوانٌ في زمن النظام العالمي الجديد على حال المستضعفين.

كان المستضعفون، على عهد التقابل والتضاد بين الشيوعية والرأسمالية، يجدون مُتنفسا بين العملاقين. أمريكا كانت تدعم الطواغيت فتجد الشعوب المقهورة سلاحا ونصيرا استراتيجيا عند الدولة العظمى التقدمية السوفياتية. أما اليوم فالوِفاق بين شرق الجاهلية وغربها وحَّدَ السياسة بما لا يُبْقي متنفسا للمستضعفين.

كان الحِلف الغربي ضدَّ الشيوعية مُحَرِّكَ «الناطو» وعامِلَ التلاحم بين الأغنياء الأقوياء. أما اليومَ فالمحرك في النظام العالمي الجديد هو العِداء للإسلام. الإسلام هو «دولة الشر».

كان الرئيس الأمريكي السابق ريجان منذ بضع سنوات يصف الاتحاد السوفياتي بأنه «دولة الشر». وقد انتهت تلك الدولة إلى السقوط في أحضان عدو الأمس. وبذلك فقدت الحضارة الرأسمالية مِرآة تعكِس لها حقيقتها لترى وجهَ نفسها في عدوٍّ مطلق، في «دولة شر». ولا تجد الحضارة المادية في تاريخ عِدائها للإسلام، ولا في حاضر استعمارها لمنابع النفط، ولا في مستقبل تخوفها من الصحوة الإسلامية «دول شر» أشرَّ من الإسلام.

ليكن هذا ثابتـاً عندنا. فالدولة اليهودية القابعة في ديارنا مذكِّرٌ كاف، مذكر حاضر، مذكر مؤلم، مذكر جارح، مذكر قاتل، بمعاني العداء الأبـدي في صدورهم. وصدق الله العزيز العليم قال: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

إذا ثبت هذا عندنا، فلنتيقن معه أن اختزال التاريخ وتلخيص موقفنا في شعار «أمريكا الشيطان الأكبر» مُقابِلَ نظرتهم إلينا بعين العائذ من «دول الشر» لن يتقدم بنا خطوة في طريق تحررنا.

لا بد لنا أن نعرف العدُوَّ، ولا بد لنا أن نعرف سبب عدائه، وجذور عدائه، وتكتيك عدوانه. ونكون أغبياء إن لم نستعمل النظام العالمي والحقوقية الدولية لنكسِبَ من خلالها بعض المعارك.

نتأكد أولا من قوتنا الذاتية، وعلاج أمراضنا الذاتية، وتحرير إرادتنا الذاتية. وكل ذلك تعرقله إن قدرَتْ قوى العدوان. علينا أن نجاهد حتى نغلبَهم على أمرنا. وأثناء ذلك وبعده ننزل إلى «ساحة المعارك الأساسية» بنيةٍ اقتحامية وبأهداف تحريرية.

كان نكسون الرئيس الأمريكي السابق يقول عن حقوق الإنسان: «إنها ساحة المعارك الأساسية». ذلك كان شعارَهُ على عهد الحرب الباردة. في العبارة اتهام للسوفيات بما يعترف به السوفيات الآن من أنهم ظلموا العباد.

علينا بعون الله أن ننازل الجاهلية العادية على المستضعفين على أرضية هذه «المعارك الأساسية» بالوسائل التي نصَبُوها من قوانين دولية وأعراف وشعارات. إن نازلناهم ونحن جميعٌ صفُّنا، ملتئمةٌ إرادَتُنا، عالٍ قصدُنا، فلن نعدَم من الله تعالى التوفيق. إنه هو العلي القدير.

---

(1) سورة البقرة، الآية 120.

الشرف الدولي للإسلام

الكلمة للأستاذ حسن البنا رحمه الله. قال في رسالة «نحو النور»: «وقد يظن الناس كذلك أن نظم الإسلام في حياتنا الجديدة تباعد بيننا وبين الدول الغربية، وتعكر صفو العلائق السياسية بيننا وبينها بعد أن كادت تستقر. وهو أيضا ظن عريق في الوهم، فإن هذه الدول إن كانت تسيء بنا الظنون فهي لا ترضى عنا سواء تبعنا الإسلام أو غيره. وإن كانت صادَقتنا بإخلاص وتُبودِلَتْ الثقة بينها وبيننا فقد صرح خطباؤها وساستها بأن كل دولة حرةٌ في النظام الذي تسلكه في داخل أرضها، ما دام لا يمَس حقوق الآخرين.

قال رحمه الله: «فعلى ساسة هذه الدول جميعا أن يفهموا أن شرف الإسلام الدولي هو أقدس شرف عرفه التاريخ، وأن القواعد التي وضعها الإسلام الدولي لصيانة هذا الشرف وحفظه أرسخ القواعد وأثبتها.

قال رحمه الله: «فالإسلام هو الذي يقول في المحافظة على التعهدات وأداء الالتزامات، ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾[1]. ويقول: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[2] ويقول: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ﴾[3]. ويقول في إكرام اللاجئين وحسن جوار المستجيرين: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾[4].

قال رحمه الله: «فالإسلام الذي يضع هذه القواعد ويسلك بأتباعه هذه الأساليب يجب أن يعتبره الغربيون ضمانة أخرى تضمن لهم حقوقهم. نقول إنه

(1) سورة الإسراء، الآية 34.
(2) سورة التوبة، الآية 4.
(3) سورة لتوبة، الآية 7.
(4) سورة التوبة، الآية 6.

من خير أوربا نفسها أن تسودها هذه النظريات السديدة في معاملات دولها بعضها لبعض. فذلك خير لهم وأبقى!»

قلت: هذا كلام رجل مؤمن يعمل على نصاعة المبادئ. رجل حكيم مجرب لا تستفزه سياسة الاحتلال الاستعماري الذي حاربه بشرف.

في ظروف أخرى يكتب مؤمن آخر، هو سيد قطب رحمه الله، في استعلاء على كل جاهلية، لا يهمه أن يهادن ولا أن يُسْمِعَ المستجير. وكذلك ينبغي للعلماء أن يخُطّوا بجلاء ووضوح الخط الفاصل بين الإيمان والكفر وهم في فراغ من شؤون التعامل الدولي.

في ظروف أخرى وزمان آخر ينتصب مؤمن آخر، رمزاً للرفض المطلق لدولة الكفر «الشيطان الأكبر». لا يتلجلج في إعلان عِدائه. إنه الإمام الخميني رحمه الله، الذي خرج من سنوات طوال عاشها في المعارضة المطلقة والرفض الجذري، فلم يأبَهْ بمبادئ التعامل الدولي في الإسلام ولا في غيره، علما منه أن الساسة الجاهليين لا يتصرفون إلا على ضوء مصلحتهم في حدود ما تتيحه موازين القوى والأمر الواقع. كان الإمام رحمه الله غائبا عن مسؤولية رجل الدولة، حجبتها عنه رسالة رجل الدعوة الثائر الحانق. ولم يتعلم خلَفُهُ رحمه الله حدود التعامل الدولي إلا بعد عشر سنوات من الحرب والمقاطعة والضغوط والاضطرابات. إنها ثورة.

في ظروف أخرى، ومكان آخر وزمان، اضطُرَّ المجاهدون الأفغان أن يتلقَّوْا المساعدات والسلاح من الولايات المتحدة ومن سلاطين النفط. وليس في عملهم مِساس «بشرف الإسلام الدولي» خلافا لمن جلس على فراشه ينتقد.

نحن في غد الإسلام إن شاء الله بين المبادئ الثابتة، وبين حكم الاضطرار، وبين حِكمة علَّمَتْنَا إياها التجربة وعلمتها إخواننا الشيعة. على ضوء قول الله عز وجل نلتمس مسلك الحكمة والرزانة لنعامل بالقسط والبِر مَن عاملنا في حدود معقولة بالمسالمة، ولنحارب بلا هوادة من قاتلنا في الدين. قال عز من

قائل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

إن هيمنة «الشيطان الأكبر» إلى زوال في أفق المستقبل المنظور. ذلك أن العالَمَ يتمخض عن كيانات متعددة يُعلن عنها ما نشاهده من ثورة التكتلات الاقتصادية السياسية، ومن ثورة التقانة المذهلة، ومن ثورة الديمقراطية التي صرعت النظام الاشتراكي وأنهت عهد التقاطب الثنائي بين عملاقي أمس.

انتهى عهد الهيمنة الثنائية، وعهد التوازن النووي والأحلاف الكبرى العسكرية. لا يتحدث عن حلف عسكري إلا أمريكا التي تريد أن تطوق «دولة الشر» الإسلامية لتدرأها عن منابع النفط.

في الأفق القريب تظهر وحدة أوربا الغربية ذات الوزن الهائل تتوسطها ألمانيا الموحدة عملاقة اليوم والغد. وربما يتوسع التكتل الأوربي على المدى المتوسط ليكوِّن «البيت الأوربي» الذي كان يلهج به زعيم تصفية الاشتراكية جرباتشوف. هنالك تكتل البحر الهادي بزعامة اليابان من حولها «النمرات الأربع». هنالك تكتل جنوب شرقي آسيا. هنالك تطلع دول كبيرة مثل الصين والهند والبرازيل.

في نظام عالميّ يتراءى في الأفق قِوامُه القوة الاقتصادية يمكن للمسلمين أن يحتلوا المكانة الشريفة بعد أن تنحل عنهم الأقفال التاريخية. منها قفلان لا ندري أيّهما يقصفه القدَر الإلهي أولا: الحكم العاض المتمثل في سلاطين النفط وأضرابهم، والحكم الجبري المتمثل في الزعامة القومية التي تقول كلمة الحق بشجاعة لكن من مواقع الباطل.

كثير من محتملات المستقبل رهن بصلابتنا واستقرارنا. فليس التاريخ مسرحا، وليس المسلمون الصاحون المجاهدون نظّارة على الهامش. وليس في

(1) سورة الممتحنة، الآيتان 8-9.

القانونية الدولية التي يستند إليها العالَم اليوم ليُبْقِي النفطَ في أيد سخية بأموال المسلمين وكنزهم التاريخيِّ الثمين ما يمنع الشعوب الإسلامية من زلزلة الأنظمة الفاسدة المقفلة. بتماسك الإرادة الإسلامية الوحدوية، وبمشروعها الواضح في مبادئه وأهدافه و«شرفه الدولي» يمكننا أن نتصدى للتحدي الداخلي. أيدي التكتلات الدولية، الحالية والمستقبلية، تمكنت من التكنولوجيا، بل تمكنت منها التكنولوجيا، فهي القائد الأعمى لحضارة عمياء. وهي هي طِلبَتُنا نحن العاطلين عن العلوم والصناعات.

ولا يمكن أن نستنقذ التكنولوجيا من أيدي الباخلين بها، ولا أن نستأنسها فنسميَها بلساننا «تِقانة» إلا إن تكتلنا. ولا تكتل يمكن أن نحققه ما دمنا حبيسين في السياجات القومية. ولا مخرج لنا من ربقة القوميات الضيقة إلا بالحكم القرآني: حكم الشورى والعدل.

يقول المعاند: كيف نطبق حلولا عتيقة يقترحها كتاب عتيق على مشاكل جديدة في نظام عالمي متطور؟ جوابنا أن كلمة الله عز وجل الخالدة تأمرنا باقتحام العقبة وبخوض غمار الدنيا لا التنكُّبِ عنها. ومهما كانت تكوينات هذا العالم وأطواره فهداية القرآن الثابتة إن استنارت بها إرادة جهادية صامدة واثقة بموعود الله، عالمة بحكم الله، صامدة تحت بلاء الله، هي القائدة إلى نصر الله.

ولا يمنعنا تمسكنا بالمبدإ القرآني وشرعه النبوي وشرف الإسلام الدولي من التعلم من سنة الله وما يحدثه سبحانه في كونه على يد العباد، فتحاً منه عليهم، وجناية منهم وإفسادا، أو مجاهدةً مُنْجية عزيزة. لا يمنعنا بل يحُثنا. ومرونة الاجتهاد في حدود الشرف الإيماني هي لنا التكتيك. ولا نحيد إن شاء الله عن الهدف الاستراتيجي: الخلافة الثانية بمنهاجها وشروطها. ونستعمل المصطلحات الحربية «التكتيك والإستراتيجيا» تذكيرا بأنها معركة، لا يُخرجها عن طبيعة المعارك تحوُّل الأساليب من استعمال سلاح الإماتة الحسية إلى استعمال سلاح القتال الاقتصادي.

إن خريطة العالم السياسية المحمية بقانون الأمم المتحدة التي لا محيد لنا عن التعامل الدولي في ظله موضوعة لمصلحتهم لا لمصلحتنا. ليستقِرَّ هذا عندنا!

وضَعَ هذه الخريطةَ استعمارُ أمسِ. وهو اليومَ يقود القافلة البشرية من وراء ستار مجلس الأمن الدولي بمنطق اقتصادي. لا فائدة من استعمار الأرض بعد أن أثبتت حروب الاستقلال الوطني، وحروب فتنام وأفغانستان وأنغولا والكمبوج وغيرها أن الشعوب المستضعفة تقاتل وتنتصر. احتلال الاقتصاد أجْدَى وأنفع. احتلالُهُ باحتكار المال والمعلومات والتكنولوجيا والعلوم. وبالتحكم في أسعار الفائدة الربوية. وباستعمال مشنقة الديون وأُنشوطة إعادة الجدولة. وبالتقويم الهيكلي. وبالمساعدات المشروطة. وبآليات السوق التي تديرها الشركات عابرة القارات. وببخس أثمان المواد الأولية، وإغلاء أثمان المواد المصنّعة. وباللعب بالأثمان والنقد لتبقى الشعوب المستضعفة تابعة خانعة يجود عليها الأغنياء الأقوياء نقطة نقطة باستثمارات كلما كانت الاستثمارات نهبا سافرا.

هذا منطق الاستعمار الاقتصادي، وهذه أسلحته. إلاَّ أن تقرر الدولة الآفلة، أمريكا، أن تعيدها جَذَعةً فتحتلَّ منابع النفط بعد أزمة صدام.

والمسلمون من بين سائر المستضعفين هم الهدفُ الـمُمَيَّزُ لكُرْهِ الغرب وعِدائه. والرأسماليةُ غربية ولو تعددت السِّحْناتُ والجنسيات. هذا الكره المتأصل المتجدد بعد ثورة إيران وأخطاء ثورة إيران يجب أن لا يستفزنا.

كتبت جريدة «لوموند دبلوماتيك»[1] تصريحا لموريس شمت رئيس أركان حرب فرنسا، قال: «عديد من البلدان (يعني الشرق الإسلامي وشمال أفريقيا) تعاني من الضغوط الداخلية التي يمارسها الأصوليون. وتعاني من تفاقم التوازنات السكانية والاقتصادية. ولَدَى هذه البلدان قوة عسكرية مهمة لا تَحْسُبُ لها حسابا المراجع العسكرية». وصرَّحَ وزير خارجية ما كان يسمى الاتحاد السوفياتي يوم 6 مارس 1990، قال في فِينّا يخاطب الغربيين ويحرض على المسلمين: «في الجنوب من

(1) غشت 1990.

أوربا (يعني دائما الشرق المسلم وشمال أفريقيا) وفي الجنوب الغربي من آسيا إمكانيات لعلها تكون أقوى من إمكانياتنا».

وقال الله جلت عظمته: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾[1]. والله غالب على أمره. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(1) سورة الطارق، 15-17.

الفصل الثاني

حقوق الإنسان

- بلاغ للناس
- «نظيرك في الخُلُق»
- الإنسان المعذب في الأرض

بلاغ للناس

دين العصر وكلمته وتسبيح ضميره. أُسُّ الديمقراطية مضمونها ومعناها. تلك هي صيحة حقوق الإنسان في عصر قاحل شديد على الإنسان.

حقوق الإنسان هي «المسرح الحقيقي للمعركة» كما كان يقول رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نكسون عندما يريد أن يُجَرِّم الاتحاد السوفياتي بما جناه الثوار الشيوعيون، وبما اقترفه ستالين، وبما أفرزته حضارة الجولاج من دكتاتورية حمراء لا رحمة في قلبها. واليوم نسمع صوت الضمير الإنساني في صفوف القادة السوفيات الملتحفين مع جورباتشوف بفضيلة جديدة عندما يُنَدِّدُ بهمجية ستالين وشاوشسكو في تناغم كامل مع صوت البشرية جمعاء.

أمحايدون نحنُ في معركة حقوق الإنسان أم مُتَلَقُّونَ أم معنا رسالة؟ ومن أين لنا بمصداقية لنقول كلمتنا ونحن في قفص الاتهام؟ الإسلاميون إرهابيون قبل كل مناقشة! والشريعة الإسلامية همجية صرفة! هذا حكم أعدائنا حين يصنعون لأنفسهم من أوهامهم ومن أخطاء بعضنا «دولة شر» يَنْصِبونها غرضا تاريخيا لسهام كراهيتهم المتأصلة.

وما ينبغي أن نتصدى للموضوع بنفسية المتهم، همُّه أن يرفع عن نفسه التهمة. لن نرفع صوتَنا باعتزاز حامل البشرى لعالم كئيب إلاَّ إن كان إيماننا وثيقا بأن حقوق الإنسان ليست على لساننا ولا في تاريخ سلفنا الصالح مُناشدَةً لفظيَّة ولا حُمُولةً إديولوجية يتخفف منها المرء عندما يغيب المراقب وتسنح الفرصة. بل إن تكريم بني آدم لنا دين.

إن تكرمة الإنسان، وإنصافه، وكشفَ الظلم عنه، وتحريرَه من العبودية للعباد دينُنا وعقيدتُنا. لنا في الموضوع أصالَةُ شَرْعِنَا، لا ننقل نقل البليد من ألواح

غيرنا ولا نتنازل عما رسمته شريعتنا. كلمة الله عز وجل تقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[1]، وشرحنا العَمَلِيّ لهذا المبدإ القرآني ينبغي أن يكون إعلاءً لمطمح الإنسانية بالإنجازات العملية لا بالمشاحنات الكلامية.

وذلك تحدٍّ من أعظم التحديات. خاصة وحقوق الإنسان في مجتمعاتنا الغثائية العَضِّيَّة الجبرية مخروقة خرقا شنيعا بدائيا، ليس على خروقها من مساحيق الحضارة وتنكيرها ما يُخفي همجية الفعل كما عند غيرنا.

على أن غيرنا لا يكادُ يُخفي من احتقاره للإنسان واستهانته بحقوقه ما تكشفه الأحداث كل يوم. فإنسانٌ واحد من العالم المشرَّف، عالَم المستكبرين، تقوم الدنيا وتقعد لخبر شوكةٍ أصابته في أحَدِ تخوم العالم. مذابح الفلسطينيين في صَبْرا وشاتيلا، وتقتيل أطفال الحجارة يعرض على أنظار العالم كل مساء: أخبارٌ دارجة! أسيرٌ واحد يهودي يُفدى بكذا مائةٍ من الدجاج الفلسطيني: أمر لا يحتاج لتعليق. الكلب الأمريكي المُدلل ينال من كرامة المجتمع الاستهلاكي ما يعوض الضمير الغربي عن مشاهد البؤس والجوع والهياكل العظمية في مجاهل أفريقيا.

بعض البشر في ملة «حقوق الإنسان» أكثر إنسانية من بعض. يفصل بين الدرجتين اللون والقومية والانتماء والجغرافيا والدين: معايير للتمييز سقطت الإديولوجيات وبقيت ثابتة.

كيف نُسمع صوت «شرف الإسلام الدولي» للعالم ومنطقُ العنف يسوق بعض المسلمين لحجز الرهائن؟ كيف نُقبل على العالَمِ ببشرى الإسلام ونحن شعوب عزلاء مظلومة؟ ما جرّ بعضَ المسلمين للعنف؟ ما زيَّنه لهم؟ ما حَملهم عليه؟

إن الضمير الإنسانيّ المناديَ بحقوق الإنسان عن إخلاص وصدق حقيقة واقعية من وراء الوضع السياسي الظلمي الذي يجعل بعض البشر أكرم من بعض في ميزان الأرجوحة العالمية. مع هذا الضمير نتناجَى ونتجاوب. معه نتخاطب

(1) سورة الإسراء، الآية 70.

لنرفع مطمح الإنسانية إلى حقها الأزلي الأبدي الذي لا تُكَوِّنُ الحقوق المتعارَف عليها إلا حلقاتٍ من سلسلته. لا قيمة لما توفره حقوق الإنسان «المتعارف عليها دوليا» للإنسان من كرامة وسعادة في الدنيا إن انقطعت دون حقه الأخروي.

ينادي الضمير الإنساني المستيقظ بحق الشعوب في تقْرير مصيرها، وبالحقوق المدنية، والسياسية، والاقتصادية. ينادي بحق الإنسان في الحرية والعدل، بحق المرأة والطفل، بحق العمل والصحة والتعلم، بحق السكن الكريم، بحق المرضى والعجزة. وكل ذلك مما نعتبره دينا إن قسناه بمعاييرنا ووزنَّاه بِصُنُوجِ ميزاننا.

ويرتفع طموح الضمير الإنساني فيطالب بحق الإنسانية في الحفاظ على الكوكب الأرضي نظيفا، وعلى البيئة الطبيعية مَصونة للأجيال. وهذه مرتبة عالية من الوعي نعطيها من الاحترام مثل ما تعطيه الأصوات الحرة.

وتنحبس مطامح الضمير الإنساني في أفق البيئة الأرضية والمعاملة اليومية والمستقبلية المحدودة. ومن هنا تبدأ مهمتنا لإسماع البلاغ الإلهي. لإسماع رسالة القرآن. لإعلام الإنسان، والإعلان له، والصيحةِ في أذنه، والعرض اللطيف على قلبه، والحديث الشفوق إليه، والبيان الأخوي إليه، بأن من وراء الموت حياة، وبأن الإنسان ليس دابة أرضية.

هذه التبليغات هي موضوع ما فرضه الله عز وجل على المسلمين من جهاد، وما حمله الرسل عليهم السلام من رسالات. وسكوتنا عن النبإ العظيم لنبارِيَ القومَ في جوقة حقوق الإنسان على النغمة العامة المألوفة لا نتعداها خيانةٌ لما حُمِّلْنَا من أمانة، وتضييع للإنسان في أكرم حق منحه إياه الباري جل وعلا: وهو أن يسمَع خبر السماء ودعوة الخالق إلى مأدُبة الآخرة.

سكوتُنا عن النبإ العظيم، وانشغالُنا عن البلاغ الأخروي والبيان المصيري خيانة وانخراط انهزامي في جوقة العالم. سكوتنا خنوع لسلطان الغلبة الثقافية الجاهلية التي لا تعرف الله عز وجل، وتسخَر من كل تصريح أو تلويح لما بعد الموت.

إن كان غضبُنا من جانب العدل على شيوخ النفط وملوك العض وسلاطين أمريكا مشروعا مفهوما، فإن غضبنا من جانب الإحسان على السكتة الـمُريبة عن حقائق الآخرة أكثر مشروعية. وكيف تُعَبّرُ كلمة «أكثر» الكَميَّةُ عن تفاوت ما بين الدنيا والآخرة؟

شيوخ النفط ورؤساء الدولة-العشيرة ينهبون منا يداً بيد مع اللصوص العالميين مادة عيشنا. وهو ظلم شنيع، وأثَرَةٌ مؤذية، وهضم لحق ثابت من حقوق الأمة في أموالها، وتنكر لحقوق الإنسان في العدل. وتلك معركة لا نهرُب منها لنجد في الحديث عن الآخرة سُلْواناً. كلا! وإنما هي معركة واحدة متصلة متكاملة في ضمير المؤمن وعقله وطموحه وجهاده. فالدنيا ومقوماتها وخيراتها وعلاقاتها وعدلها وحرمانُها وسياستها واقتصادها طريق ووسيلة سفر. والآخرة وما عند الله عز وجل فيها من جزاء ونعيم وعقاب وعذاب وجنة ونار خالدين فيها هي المستقر.

فمتى سكتنا عن البلاغ الأخروي، وانشغلنا بمناوشة أعداء الدنيا عن الآخرة فقد انقطعنا وانجرَرنا مع تيار الدنيا وانسقنا مع منطقها. وعندئذ فلا قيمة لنا عند الناس لأننا لم نبلغهم رسالة الله العزيزة، ولا قيمة لنا عند الله لأننا خنا أمانة الله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الأمانة الطاعة والفرائض». وقال: «عُرِضت على آدم فقيل له: خذها بما فيها: فإن أطعتَ غَفَرْتُ لك، وإن عصيت عذبتك».

هذا هو حق الإنسان الخالد السامي الأسمَى: أن يكون عبدا لله عز وجل، عاملاً للقائه، آملا في جزائه وجنته، خائفاً من عقابه وناره. هذه هي كرامته الآدمية، كل حق يطالِبُ به ما دون ذلك من حقوق الدنيا فهو له حقٌّ شرعي إن

(1) سورة الأحزاب، الآيتان 73-74.

كان نيلُه يقربه من غايته الأخروية. ومن حقه أن يجاهد عليه مَانعَه. وكل «حق» من «حقوق الإنسان» يُلهيه عن آخرته فهو حظ من حظوظ النفس، لا يبالي به أهل الإيمان إلا من حيثُ كونُه مستضعفا في الأرض تجب نُصرتُه. ينصره الإسلام ليُسمعَه في مَأْمنهِ بَلاغَ الإسلام.

تسطَّح الخطاب الإسلامي، وسكت عن البلاغ الأخروي، وجارَى جوقة حقوق الإنسان في حَلَبَتها. فما شئت من بناء حضاري وسبق ثقافي وحديث عن خلافة الإنسان في الأرض ليعمُرَها بإبداعاته وإنجازاته. وصَهْ عن نبإ الآخرة حتى ندخل المسجد أو نحضرَ جنازة!

إنه انخناس في المِثْلية البشرية، وخضوع للهيمنة الثقافية الدوابية. وقد أخبر الله عز وجل عن مقاومة إغراء هذه المِثلية، ضرب لنا مثلا لمقاومتها من جهاد الرسل عليهم السلام. قال تعالى يحكي مقالة الذين كفروا لرسلهم: ﴿ قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا ﴾[2].

تريدون أن تغلبونا على ثقافتنا وتراثنا وحضارتنا وأصالتنا وقوميتنا.

وأجاب الرسل عليهم السلام: قالوا: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾1.

فمن سنة الرسل عليهم السلام، بل صُلْب سنتهم، مقاومة المحيط الاجتماعيِّ الثقافيِّ الجاهل بخبر الآخرة، الساكتِ عنه، المعادي مَنْ يتكلم فيه. ومن واجبنا الآكَدِ أن نتقدم برسالة الله للعالمين في عزة وشموخ وثقة. فالإنسانية جمعاء أمة الاستجابة، وفي سمعها يجب أن نبُثَّ كلمة الله الخالدة.

والله ولي المؤمنين. سبحانه لا إله إلا هو يحيي ويميت، وينشر ويحشر.

---

(2) سورة إبراهيم، الآية 10.

«نظيرك في الخُلق»

هي كلمة للإمام علي كرم الله وجهه قال: الناس صنفان: «أخ لك في الدين، ونظير لك في الخُلُق». يستحق الاعتبارَ من كان مثيلاً لك في الخُلُق. يستحق اعتبارا لا يتجاوز به مرتبته إن كان مخالفا لك في الدين. يرفعه خلُقُه عن عامة البشر، لكن لا يخرجه من دائرة الكفر خلُقُه إن كان لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر. أمّا أن يستدرجَك بخُلُقِه حتى تتنازلَ عن دينك، أو تتناساه، أو تسكت عن «غيبياته» مجاراة، فذلك انزلاق في «المثلية البشرية» التي حاجَّ بها الكفار الرسل فوجدوا الرسُلَ جبالا شُمّـًا لا تتزعزع. قال الرسل عليهم السلام: ﴿ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[1].

إذا استدرجك خلُقُ نظيرك في المزايا الإنسانية فنزلت معه مِن تسامح ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[2] إلى حضيض الجري الحثيث في المباراة الأرضية فقد أعطيت من نفسك الدليل على ادِّراكِ علمك بالآخرة، وعن نزولك من مراتب اليقين بها يقين المهتدين، وعن شكك، نعوذ بالله.

وإن مخالطة الساسة وتعاطي اللغط السياسي في محافل نفخ الأبواق الدعائية يؤول بالمحترف، ولو كان في بدايته ذا مُسحة من إسلام، إلى أن ينحط مَعَ المعوَّقين المعطوبين قلبيا. وبما أنه لا بد لنا من التعامل والتعاون والتواصل الجاد مع الجمعيات وكل الجهاتِ والأحزاب السياسية المخلصة المدافعة عن حقوق الإنسان فيجب أن نتعلم الحدود الفاصلة بين الأخوة في الدين والنظيرية الخلقية والمثلية البشرية.

فالأخوة في الدين لها واجباتها وحقوقها، والنظيرية في الخلق حقها أن نبَرَّ ونُقْسِط، والمثلية البشرية لا نتركها تسحبنا إلى أسفل.

(1) سورة إبراهيم، الآية 11.

(2) سورة الكافرون، الآية 6.

الدفاع المخلص عن حقوق الإنسان شُغْلَةٌ خلقية رفيعة يبذل فيها الفاضلون من غير ديننا الجهود المحمودة. هذا أمر واقع لا ينال منه تنكُّر الساسة المحترفين ولا ينبغي أن نتردد في التعاون المخلص مع نداء الضمير الإنساني الرائع الذي يدفع الجمعيات غير الحكومية عند نظرائنا في الخلق للتضحيات المشكورة. ما لم يتعارض ذلك النشاط الإنساني مع أصل من أصول ديننا.

أنا لا أتنازل قيدَ شعْرة عن أمر الله وسنة رسوله مجاراة لأحد. فإن تقزَّزَ نظيري من حدود الإسلام، ونسبها للهمجية، قرأتُ قول الله عز وجل عن حد الزانيين: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]. أقرأ كلمة الله تعالى الرحمن الرحيم بخلقه فلا أضع الشفقة على الخلق التي جَبَلني عليها سبحانه في غير محلها الشرعي. وأقول: أفّ تُفّ! للحساسية التي لا تقبل أمر الله عز وجل. وأرفض التعاون مع النظراء، وأعتز بديني وأتعالى عن المثلية البشرية التي تُجرّدني منه كلِّهِ إن تعاميت عن بعضه.

هذه الحساسية المعارضة للدين عبادةٌ للهَوَى. هي تعويض بشري نفسيٌّ للإذعان القلبي والعبودية لله تعالى. لا يتلَقَّى المؤمن من الجهة السفلى النفسية الشائعة بين النظراء في الخلُق حين يسمع النداء القلبي والتلبية الإيمانية. والنظير الكافر لا يسمع مهما كان في خلقه سموٌّ، أختامٌ على سمعه وأغلاقٌ على قلبه تحول دون ذلك.

قال الله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

لو سكن الإيقان باليوم الآخر والإحسان القلوب لنطق بك الإحسان إن لم تنطق به، ولصرَّح بك وباح. وعندها تكون شفقتُك على النظير الخُلُقي حاملة لك

(1) سورة النور، الآية 2.
(2) سورة الجاثية، الآية 23.

على أن تُسْمِعه، مجردَ إسماع، خبر الآخرة وحق الإنسان الأعلى الأسمَى. والله عز وجل يفتح الأغلاق عمَّن يشاء ويَحُل الأختام إن شاء.

بماذا يا صاحِ يتجدد الإيمان ويَحيى في القلوب التطلعُ إلى الإحسان؟ سؤالُنا السرمدي. ومن حقك أخي وأختي أن تَعْلَم، أن تُعْلَمَ، أن تُخبَرَ، مجردَ الإخبار، والله تعالى يفتح قلب من يشاء ويختم ويحُل الأختام. في المسجد، في مجالس الإيمان، في صحبة الأخيار، في ليلة القيام المنيرة الساطعة على نهار الجهاد، في مداومة ذكر الله، في صدق الطلب وتلَهُّف الهمة.

بذلك لا ينجذب المؤمنون إلى حضيض المثلية البشرية، ولا يقفون خجِلين أمام إنجازات الفضلاء النظراء فيسكتوا عن حق الإنسان في سماع النبإ العظيم. بذلك نرتفع لمقام الخلافة والوراثة للرسل عليهم السلام، نبعث ونبلغ، ميسرين لا معسرين، مبشرين ومنذرين.

وتلك كلمتنا، كلمةُ الله، التي تتعطش إليها الإنسانية المتسكعة في جفاف ماديتها. أغنياء العالم ومُترفوه فقراءُ من الإيمان، باديةٌ أضلاع روحانيتهم العجفاءُ أشدَّ وأنكرَ من بُدُوّ أضلاع الجائع الإفريقي الذي ينشرون صوره بشفقة تثير الإعجاب. يا ليتهم يعلمون! يا ليتنا نتكلم ونبلغ!

إن كتاب الله عز وجل كله بلاغ، كله رسالة للخلق: فحواها ومنطوقها ومفهومها مركزة على الإخبار بالمصير. وظيفة الرسل عليهم السلام، ووظيفة الدعاة بالتبعية، أن ينذروا باليوم الآخر ويبشروا. فمن قَبِلَ البِشارة وصدق بالنذارة وذكر الله وعبده واندمج قلبيا مع الصادقين حتى صار من أهل الإيقان بالحياة الأبدية فقد خرج من الظلمات إلى النور. وما نور السعادة الأبدية كنور الإسعاد الدنيويّ الذي تسعى إليه مشكورة منصورة من جانبنا منظمات حقوق الإنسان.

قال الله عز وجل في أول سورة إبراهيم:﴿ الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. وفي السورة: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ ﴾[3].

(3) سورة إبراهيم، الآية 5.

إسماع وتذكير بالميثاق الفطري الكامن في القلوب. بعضُها يسمع التذكير بواسطة مُسَمِّعٍ مذكر داع نبي أو وارث عالم فيتذكر ويؤمن ويذْكُرُ ويخرج من الظلمات إلى النور. وبعضُها مختوم على سمعه وقلبه، لا نعلَم إرادة الله فيه، ولا يمنعنا جهلُنا بعاقبته من التلطف له لإسماعه، ومن الإلحاح، ومن التجَنُّد مثلما يتجند النظراء الفضلاء وأكثر.

في آخر إبراهيم لقَّن الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم مضمون النذارة ونص البلاغ قال: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[1].

هذا هو البلاغ عن حق الإنسان الأسمى. هذا هو التخويف من فوت فرصة العمر، وضياع هدف الحياة، وحسرة الأبد. وما ترك الله عز وجل وجها من وجوه التبليغ إلا عرضه، من وصف يخاطب خيال الإنسان، وتبصيرٍ يخاطب عقله، و«تقرير» عن حال المقرَّنين في الأصفاد يؤْلم حِسه، وتأكيد على أن وعدَه سبحانه رُسُلَه لا يتخلف.

هذا هو البلاغ عن حق الإنسان، علينا أن نُسمعَه العالَمَ بلسان المقال، دائما وفي كل الأحوال. وعلينا أن نسعى لنخْرُجَ من دوامة التخلف ووَصْمَة خرق كرامة الإنسان لنكون النموذج الحي لما ندعو إليه. فالدعوة بالحال الظاهر المرئيِّ وبالحال الإيماني الإحساني القلبي هي قوتنا وشرفنا ورسالتنا. وما الدفاع عما فعَله في التاريخ ويفعله بعض المسلمين من فظائعَ في حق الإنسان إلا تَعْمِيَة

(1) سورة إبراهيم، الآيات 44-52.

كريهة لو اقعنا المؤلِم الذي يعالجه حتى في عُقْرِ دارنا النظراءُ الفضلاءُ المشكورون بالسعي الإيجابي الفعال.

ألا وإن الدنيا تشغل بمتاعبها عن الله وعن اليوم الآخر كما تشغل بمسراتها وزينتها. وتشغل السياسة اليومية، وممارسة الحكم، عن تدبر الغاية الأخروية. وإن خطر ذوبان الدعوة في الدولة، تطحنها رحاها، خطر جسيم يهدد الإسلاميين المتصدين للسياسة والواصلين إلى سُدة الحكم. ويشغل الجهادُ ومُنازلة الأعداء وإعداد القوة. لذلك يُذَكر الله عز وجل المؤمنين في ست آيات نقرأها من سورة آل عمران بين آياتٍ تمُنُّ بالنصر في بدر وأخرى تأسو جراحَ أُحُد. المؤمنون يومئذ عند التنزيل، واليوم وغدا، منشغلون بطاعة الله فيما أمر ونهى. فتجيئهم البشارة، وهي أخت النِّذارة، لتأخذ بتلابيب قلوبهم، ويأتيهم البيان، ويُعرض عليهم جزاء الجنة.

قال تعالى محرضا مسمعا: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2].

بيان وبلاغ. لمن ذكر الله واستغفر لذنبه. ومن يغفر الذنوب إلا الله! اللهم إنا نتوب إليك ونستغفرك من سكوتنا. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

(2) سورة آل عمران، الآيات 133 – 138.

الإنسان المعذب في الأرض

قال الله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾[1].

عذاب الآخرة لأن الإيمان لا يتجزأ: فمن لم يؤمن بالآخرة لم يكفه إيمان عائم بالغيب. من لا يؤمن بالآخرة لم يصدق ما جاء به الوحي، فلا عبرة بزعمه أنه يؤمن بالله ورسوله.

وعذابُ الدنيا وضَنْكها يتمثل في عيش حيواني يكنُفه الخوف من الموت، وينغِّصُه ذكرُها، ويقلِّصُهُ الجهل بما وراء الموت والقُنوع بأن الإنسان ظِل جاء عبثا ويذهب هَدَراً إلى لُعْبة كئيبة فاقدة المعنى. وإن تَلَهَّى الحيوان الكئيب برهة بزينة الدنيا فإنما هُو حلُمٌ طائف ثم تُخَيِّمُ غَيْمة اللا شيئية.

أما من اجتمع عليه الكفر والفقر فعذابه في الدنيا بأوصاب المرض والجوع والكدح البائس، لا ينقص ذلك من عذابه في الآخرة مع من تمتعوا في الدنيا بزهرة الحلُم الزائل.

وإن ما أوجبه الله عز وجل على المؤمنين من القتال من أجل المستضعفين يهدف بالنية الواعية إلى إزالة عوائق الظلم عنهم لتتأتى لهم فرصة الاستماع لبلاغ الإنذار وبيان البِشارة. فلا يسمع المشغول بقوت يومه مَن يحدثه عن غد بعيد. وما ابتلى به الله عز وجل العبادَ الـمُترفين من زينة الحياة الدنيا عائق آخر، يُكوِّن مع عائق الحرمان توازُنَ الشقاء والعذاب. فالدعوة تأتي هؤلاء وأولئك بالبلاغ، ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾[2]، ويفعل الله عز وجل بالعباد ما هم أهله، يُرديهم كفرُهم أو ينفعهم إيمانهم.

(1) سورة سبأ، الآية 8.
(2) الشورى، الآية 48.

وإن من كمال الإيمان وشرط الدعوة أن يُؤَرِّقنا هَمُّ المحرومين من النوعين، وإن كان الهم بالمستضعفين أسبقَ فلا ينبغي أن يحجب عنا همّ الآخرين. فالعبادُ رَحِمٌ واحدة، وصِلَتُها بالشفقة والإحسان خصلة إيمانية إحسانية رفيعة. وأيُّ إحسان أحسنُ وأرفع من تنبيه الغافل وإعلام الجاهل وإنذار المستهين وتبشير السادِر بما ينتظر العباد بعد الموت.

رحِمٌ واحدة هي رحِم الإنسانية، وحقوق الإنسان، في مقدمتها حقه الأسمى، يُمليها على المؤمنين الأمر الإلهي العَليُّ إن كانت تُمليها على النظراء الفضلاء الخلُقيين ما فيهم من مروءة. قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾[1].

تَسَّاءلون: تُسْألون عن الرحِمِ الآدمية هل أديتم حقها. في مقدمة حقها البلاغ والبيان والشهادة بالسلوك النموذجي والإحسان، والجهاد الدائم لكشف عوائق الظلم حتَّى يسمَع الناس جميعا كلام الله. تعالى الله.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه بهذه الشهادة يقول: «**اللهم ربَّنا ورَبَّ كلِّ شيء ومليكَه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك. اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكَه، أنا شهيد أن محمدا عبدُك ورسولُك. اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العبادَ كلُّهم إخوة**». رواه الإمامان أحمد وأبو داود.

شهادةُ أنَّ العبادَ كلّهم إخوةٌ في الرحِمِ الآدمية تُلزم الشاهد واجباتٍ تُجاهَ الإنسانية لا تنافي ولا تزاحم ولا تعطِّل الإلزام الوَلائي بين المؤمنين، والاصطفاف في صف المسلمين. فشرط ﴿**أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**﴾[2] قائم بسيف ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[3] يمنعنا عن الرخاوة والهشاشة التي تُزلق إلى «المثلية البشرية».

(1) النساء، الآية 1.
(2) سورة الفتح، الآية 29.
(3) سورة الكافرون، الآية 6.

بِر الرَّحِم الآدمية يحبهُ الله الجليل الرحيم. قال عز من قائل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[4].

ولمعرفة رسُل الله بمواقع حُب الله كان حَدَبُهم على الخلق وشفقتهم وخوفُهم عليهم من عذاب الآخرة صفةً بارزة. قال الله عز وجل عن نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[5]. وعن صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6]. وعن شعيب عليه السلام قال: ﴿إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[7].

وما دعا نوح عليه السلام بالهلاك على قومه إلا بعد أن جاءه الوحي ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[8].

الأصل أن لا يبتئس الرسول والمؤمن الوارث المبلغ رحمةً وشفقة وخوفا على الخلق. يُملي ذلك عليه إيمانُه من أعلى واجب حقوق الإنسان، من جانب الدين والمروءة معا. يَقف باعث المروءة عند معاملة المثيل البشري بتوفير كرامة العيش الدنيوي، ويطلُب الدينُ أن تحسن إلى الناس في معاشهم بقصد أن تدعوَهم إلى صلاح مَعادِهم. والرسول في حِرْصه على الصلاح الدنيوي الـمُهَيِّئ الممهد للصلاح الأخروي مُؤَرَّقٌ مهموم وشَفوق. قال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[9]. وقال له: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[10].

(4) سورة الممتحنة، الآية 8.
(5) سورة الأعراف، الآية 59.
(6) سورة الأعراف، الآية 73.
(7) سورة هود، الآية 84.
(8) سورة هود، الآية 36.
(9) سورة الشعراء، الآية 3.
(10) سورة فاطر، الآية 8.

باعِثُنا على احترام حقوق الإنسان، على أداء حقوق الإنسان، على الجهاد من أجل حقوق الإنسان، باعث عالٍ. وكل تديُّن لا يكون من مضمونه الشفقة على الخلق، ومن أهداف جهاده البِر بالخلق والعدل في الخلق، فهو تدين أجوف. كما هي منقوصة مبتورة -إنسانيَّةٌ مع ذلك مشكورة- الاهتمامات بالحقوق الدنيوية للإنسان دون حقه الأسمى.

غدا إن شاء الله يُعرَض الإسلاميون على مِحَكّ المسؤولية. بل منذ الآن وهم في طريقهم إلى الحكم تَفرض عليهم المواقف السياسية، كما يندبهم لذلك دينُهم، الوِفاقَ والتعاونَ مع جمعيات حقوق الإنسان، الوطنية المحلية منها والدولية. إن اختلفت البواعث فالأهداف توحِّدُ. باعثهم المروءة، مروءةُ «نظيرك في الخلُق». وباعثنا العقيدة والمروءةُ معا. فإن كانوا يحملون معايير الغَيْرَةِ على الضعيف والكراهية للظلم فنحن بقُسطاس الدين المستقيم نضع الرحمة مواضِعها، لا نَتْرك الوِفاق يُزهقنا إلى شيء من التنازل عن الحق المنزّل.

منابعُ حقوق الإنسان ومراضعُها في وعي جمعيات النظراء الفضلاء نضالُ الشعوب ومكاسب الأجيال البشرية. فهو «تراكم» كما يقولون خُلُقي ساهم في توريثه للإنسان أمراء إنجلترا حين فرضوا «الماجْنا كارطا» على الملك منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وساهم فيه سييس ورفاقُه في الثورة البرجوازية الفرنسية على الأمراء، وساهم فيه قبل ذلك إعلان جفرسون والثائرون الأمريكان على الاستعمار البريطاني، وساهم فيه لينين وثورتُه البرلتارية، ويساهم فيه على مَرْأىً من جيلنا ومَسمَع الثائرون «ثورة مخملية» في شرق أوربا وجمهوريات السوفيات العائدون من جنة ماركس الموعودة المكذوبة.

قالت إعلانات الحرية البرجوازية: حريتي تنتهي حيث تبدأ حرية الآخر. وقالت إعلانات الاشتراكية قبلَ أفولها: الفردُ خادمٌ للهدف الاجتماعي، فحقه أن يندمج وينصهر في الكل الاجتماعي ليَنْعم الجميع بالعدل.

وازدهت البرجوازية بحقوقها الفردية الأنانية. ومرت دَكَّاكةُ الاشتراكية على الشعوب الـمُسفيتة وكبستها. وقال نكسون عن حقوق الإنسان المهضومة: «إنها

مسرح المعركة الحقيقية». وكان. فالحقوقية الرأسمالية مُنذ اليوم في عرس انتصارها تحتفل بإعلان حقوق الإنسان سنة 1948 بتاريخ النصارى. ذلك الإعلان الذي بدأ منذُ انتهاء الحرب الباردة يكتسي صبغة الإلزام الفعلي بالقوة الدولية بعد أن بات زمانا حبرا على ورق بكرامة حق الفيتو.

لا نتنكَّر لنضال الشعوب وكفاح مروآت الأجيال ولا نتجاهله. ولا يقطعنا هذا الاعتراف عن منابعنا. فالله تعالى أمر ونحن نطيع. من هنا نبدأ.

من هنا نبدأ شوطا من أشواط جهادنا لإقامة دين الله في الأرض، نضُمُّ جُهدنا لجهود النظراء الفضلاء من بني جلدتنا ومن غيرنا. ومن بني جلدتنا مسلمون لعل في رحلتنا معهم يَصعَد الوفاق إلى الوَلاية التي أوجبها الله عز وجل على المؤمنين.

يناضلون ونجاهد، هم في حدود طموحهم السياسي ونحن في ركاب الشرع، من أجل رفع الظلم عن الإنسان.

من أجل كرامة المواطن وسلامته البدنية والنفسية، من أجل حريته. من أجل حقوقه المدنية الاقتصادية الاجتماعية السياسية الثقافية التي لا تقبل التبعيض والتجزيء. ولنا مع النظراء الفضلاء المسلمين خاصة حوار لنحدد في أي سياق نفهم هذه الكلية ونطبقها. نجرهم لمنطق الإسلام وسياقه.

يناضلون ونجاهد من أجل استقرار سياسي تكون قاعدتُه سيادَةَ الشعب في تقرير مصيره وسياسته، وفي انتخاب حكامه وتبديلهم، وفي تنفيذ السياسة ومراقبة التنفيذ. نحاور النظراء المسلمين لننتهي إلى الشورى بآليات الديموقراطية.

يناضلون ونجاهد من أجل توفير السكن والعلاج والتعليم والعمل ووسائل النقل. ومن أجل العدل. ومن أجل التنمية. ومن أجل كرامة الأمة. الأمة في وعي النظراء الفضلاء المسلمين ينبغي أن تلتمس مقوماتها من الدين لا من القومية والوطنية المحلية التجزيئية الاستعمارية.

من أجل حرية التحزب والتنظيم النقابي، والإضراب. من أجل حماية المواطن من الاعتقال التعسفي والتعذيب والشطط في استعمال السلطة.

أفقنا في الوفاق مع النظراء إقامة الخلافة على منهاج النبوة. ولله عاقبة الأمور.

الفصل الثالث

التقدم والتخلف

- «ميثولوجيا» التقدم
- العصرنة والماضي
- النقاش المحوري

«ميثولوجيا» التقدم

يفضل الفاضل النظير أن يسمي عمله نضالا، فالكلمة رائجة في قاموس التقدمية. وينفِر من مادة جاهد، خاصة إن كان يساريا، ولو مسلما مصليا. وَيْ! وهل في اليساريين مسلمون مصلون؟ نعم، إي والله! وأعني هنا المسلمين المصلين المنخرطين تحت راية يسارية، لاَ أهل «اليسار الإسلامي». وقد فاوضت بعضهم فوجدت اللاييكية ضاربةً أطنابها في نفسه وعقله، متساكنة تساكنا عجيبا مع إسلامه. دينه لا يتصل بنضَاليته من قريب ولا من بعيد. مروءتُه التي لا تُنْكَرُ وغضبه على الظلم وخفته إلى فعل الخير لا تستقي مادتها من صلاته وصيامه. ولمثل هؤلاء الأفاضل النظراء أُودِعُ هنا قول الله عز وجل عن قوم كدحوا في الدنيا وعملوا، حتى إذا غابت شمس حياتهم الدنيوية وشدوا الرحال إلى المثوى وجدوا ما عملوا هنا باطلا، ووجدوا أنفسهم رغم الصلاة والصيام مع من أَحَبوا ووالوا ونصروا من غير أهل المسجد.

قال الله تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً**﴾[1].

هل تتبخر من أدمغة المناضلين الاشتراكيين التقدميين غيبية التقدمية بعد انهيار التقدمية في بلادها؟ ما يمنع النظراء، بل وبعض الإسلاميين المتسترين المرشوشين، من إعلان وَلائهم لله ورسوله جهرة، ومن الاعتزاز بإيمانهم متميزين في الوَلاء واللغة؟ إنه الإرهاب الفكري وخوف التهمة بالرجعية، سيَما ومن المسلمين، من حكامهم، قوم ما تحط عليهم من نعوت التقهقر والجمود والبلادة والقسوة والظلم إلا وكانت دون ما يَزِرُونَ.

(1) سورة الفرقان، الآيتان 23-24.

لذا تجد بين الفضلاء النظراء، وبين الإسلاميين المرشوشين، رواجا لقاموس التقدمية والنضال والاشتراكية والرقي والحضارة والثقافة والثورة. وتجد تشَرُّدا في القول ولُهاثا في الكدح خلف مُتَوَقَّع لا يقينَ في لَحاقه وسَرابٍ ميتافزيقِيٍّ يتراءَى في سماء الأحلام الثورية، لا يوقظ منها الواقع الماثل في زعزعة أركان الإديولوجية التقدمية بعد خراب ما بنَتْ في سبعين سنة.

دارتْ الثورة دورتها فرجعت الشيوعية -الحلم إلى قواعدها غير سالمة لتضع رأسها في حجر الديموقراطية الرأسمالية أمِّها. فبأيهما يصل التقدمي المتخلف التلميذ حبله؟ أيُّ وِفاق لنا مع الفضلاء النظراء من العائدين من بلاء التقدمية؟ نصل حبلنا وحبلهم بالديموقراطية المنتصرة وهي أشد ما كانت سطوة وإفسادا؟ ما هي التقدمية وبأي معيار نقيس، وإلى أين الوِجهةُ، وما هو الهدف؟ أم نصل حبلنا بالله ورسوله والمؤمنين؟

كثير من المناضلين الكادحين التقدميين لا يطرح سؤال: ما معنى التقدمية؟ فهو يقاتل تحت راية الشعارات المندِّدَة بالظلم، يبذل نفسَه وعمرَه وجُهدَه لنصر قضية يشعر في قرارة فطرته المغمورة أنها حق. وتأتي الإديولوجية السطحية لتشغَل عقله ولسانَه بفذلكَة القاموس الثوري. فهو أشبه ما يكون بالجمل المقطور المجرور، وإن كان يعيش في عصر القطار ذي السرعة الكبيرة.

في قرارات نفس المناضل النظير غضب على الظلم ومروءة تناضل، وطاقة تعبر عن نفسها. وما بعد الثورة الديموقراطية الثانية في روسيا وأوربا الشرقية والصين والعالم أجمع إلاَّ خِيارٌ من اثنين أمام المناضلين التقدميين: إما أن يتمادَوْا مع كاسترو قائد كوبا في الإصرار على أن الإديولوجية لا تخطئ ويُكذِّبوا الواقع والنتائج الملموسة حتى تنكسِرَ راية كاسترو كما انكسرت راية غيره. وإما أن يصلوا حبلَهم بحبل الله عز وجل ويُعمقوا معنا الحوارَ ليُفتح خط رجعة وتوبة. إنها دعوة لراجحي العقول.

مفهوم التقدمية يستند إلى تصور للتاريخ البشري على شكل مسيرة لها مراحل. المرحلة اللاحقة تَفَوُّقٌ وتقدُّمٌ وترق على التي سبقتها في الزمن. المعيار زمانيٌّ تاريخي محايِد أخلاقيا مُعادٍ لكل دين مبدئيا.

سواءٌ في هذا التصور فلسفة كُنت الفرنسي ومثالية هيكل ومادية ماركس التاريخية. ومرحلية الفيلسوف الاجتماعي كنت تُبَسِّط التاريخ البشري في ثلاث قفزات: واحدة إلى مرحلة الدين، والثانية إلى مرحلة الميتافزيقا، والثالثة إلى المرحلة الوضعية التقنية التنظيمية التي تسودُ فيها العقلانية على الخرافية، والملموس المعقول على المحلوم به المأمول.

وهكذا تطوُّرية ماركس وتقدميته من طور الـمُشاعية البدائية، إلى طور القِنِّيَّة، إلى طور الإقطاع، إلى طور البرجوازية، إلى طور المجتمع الشيوعي حين تذوب الطبقات وتفنى الدولة، ويدخل الناس أفواجا إلى جنة الوفرة ونعيم العدالة ونَعمة الحرية والسلم.

مرجعية مَنْ نفتحُ الأقواس لمحاورتهم من النظراء الفضلاء هي هذا الركام الفكري المثالي المادي مما أفرزته أحلام البشر وتنبُّؤات الفلاسفة.

يحلم فلاسفة التطور الاجتماعي على إيقاع الداروينية التقدمية، فيتنبأون لهذه الدودة الأرضية المسماة إنسانا بمستقبل متفائل يسعَد فيه الناس، ويسود الوفاق الاجتماعي، والرجاء، والعدل، والحرية، والسلام. ويَعْرِض الفلاسفة المصلحون والثوريون على معاصريهم نمَطا اجتماعيا يتسلسل في حلقات متصاعدة من الإصلاحات والثورات تتراكم ويهيء بعضها بعضا أو يزيلُهُ لتكون الحصيلة النهائية تقدما خالصا للبشرية.

تقدما إلى أين؟ إلى بُغية كامنة في مستقبل أفضل، في «مدينة فاضلة». كل يتقدم بتصوره لمجتمع المحبة والإخاء، أو مجتمع القوة والمنَعة، أو مجتمع الوفرة والرخاء، أو مجتمع التصنيع والتشغيل، أو مجتمع العقلانية والعلم، أو مجتمع الحرية والإخاء والمساواة.

ولا تجد من الفلاسفة والأدباء وبُناة الإيديولوجيات من يدعوك إلا إلى كرامة الإنسان. إلى كرامة أرضية كما يتصورها، لاقتناع الفلاسفة والمنظرين الغربيين، أساتذة من نحاور، أن الدين مرحلة تجاوزتها الإنسانية.

فضِدَّ الدين، وتجاوُزاً للدين، وحربا على الدين قامت الثورات على خُطى منظِّرين من أمثال فولتير وماركس. كان شعارَ الثوار الفرنسيين سنة 1789 بتاريخهم: اشنقوا آخِر إقطاعي بأمعاء آخر قِسيس. وكانت كلمة ماركس المختَزَلة أن الدين أفيونُ الشعوب الكلمة الفصلَ في الموضوع.

ففي قرارات نفوس النظراء الفضلاء يَغْلِي في مِرجل الغضَب المقدس على الظلم مزيج من العقيدة التطورية التقدمية، ومن الفكر الوضعي التكنولوجي، ومن العداء أو الرِّيبة في الدين. ويسحَبُ النظراء التقدميون نقد فلاسفة أوربا لدين الكنيسة على دين الإسلام. من كان منهم مسلما مصليا احتفظ بتدينه في ركن عميق من أركان خصوصيته، ومن كان غيرَ ذلك فأمام عينيه نماذجُ من الحكام المنافقين وتجار الدين وعلماء القصور تُمَكِّنُ لحجة الفلاسفة أساتذتِه أن الدين أفيونُ الشعوب.

وغالبا ما يكون المناضل الفاضل من المنَفِّذين النشطين لا من المفكرين المفلسِفين. فهو في شغل عن المعالجة الفكرية والمناقشة الإيديولوجية، يتركهما للمثقف الفيلسوف ليتفرغ للنضال اليومي الكادح.

فمثل هذا يفيده في حوارنا معه أن يطلع على ما عند من يسميهم الفلاسفة التقدميون الفولتيريون الماركسيون «بقُوَى الظلام». يفيده أن يعلم ما عند الإسلاميين وما في دين الحق من استعداد للتفاعل مع خِضم الإرادات والغرائز والقُوَى المنظَّمة، مع المخلصين وضد الظالمين، لتحقيق العدل. ذلك لشَغْل نضاليته.

ولإلفات نظرِ قلبه إلى ما وراء السراب الثوري الفلسفي، وإلى ما وراء الحياة الدنيا وكدحها، نخاطبه من إزاء المنهاج النبوي لنجدد عنده البلاغ والبيان إن كان مسلما مصليا، ولنَبْدأه بالبيان والبلاغ إن كان غير ذلك.

من إزاء المنهاج النبوي ننظر معه إلى المستقبل، لا من إزاء الميتافزيقا التقدمية. نخاطبه وأيدينا مستمسكة بحبل الله، وقلوبنا عامرة بحب الله، وأعمالنا مضبوطة بسنة رسول الله.

وبالنية المصلحة في الأرض. تضيع جهودُك أخي المناضل المسلم المصلي، ويبطل عملك، إن لم تصحح النية. تتسرب جهودك الفاضلة مَنبعا في رمال الكبَد الدنيوي وتذهب إلى الآخرة صِفرَ اليدين لأنك واليت وتحزبت مع من لا يرجون لله وَقارا. والمرء هناك مع من أحبَّ هنا ووالَى وعاشر وناصر. خذها محرَّرَة على لسان رسولك محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاءه رجل يسأل: متى الساعة؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: لم أُعِدَّ لها كبيرَ شيء غير أني أحبك. قال له ولك يا من يسمع بأُذن القلب والفطرة والتوجه الأخروي، يا من يصلي مع المسلمين ويتحزب مع المناضلين التقدميين تاركي الصلاة. قال له ويحك: «**المرء مع من أحب**».

هنا لَكَ الخِيارُ أن تصطف مع من شئت. وهناك تحصد ما حرثت هنا. وتُلزَم قهرا صحبةَ من أنت أدرى بعقيدتهم. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

العصرنة والماضي

أي شيء يرفعنا من حضيض الانحطاط التاريخي إلى قمة الرقي المدني الحضاري؟ أي شيء يتقدم بنا من ذُنابَى التخلف إلى رأس التقدم؟

ديموقراطية اللبرالي المنتشى في عرس انتصار الرأسمالية؟ أم اقتصادية التقني؟ أم عدلية الاشتراكي العلمي التقدمي اللاجئ إن اقتضى الحال إلى الاشتراكية الأخرى الديموقراطية؟ أم عقلانية الفيلسوف المثقف؟ أم نضالية الحقوقي؟ أم إديولوجية القومي؟ أم روحانية الإسلامي وشرعيته؟

أم كل ذلك ملَفقا ممزوجا بذوق الزمان والمكان والفرصة؟

يلفق المنافقون والانتهازيون، ويوصَمُ الإسلامي بأنه ينظر إلى الماضي، ويجهل العصر، ويتنطع أمام الحقائق الماثلة ليناجي أحلامه.

ولم يبق في الميدان بعد موت الإديولوجيات في بلادها وبعد فشل اللبراليين والاشتراكيين في بلاد المسلمين إلا التلفيق المنافق، أو الاستماع لما عند الإسلاميين بالنية البناءة، أو الرزوح الأبدي تحت وطأة الرجعيين التقليديين الذين نسميهم حكاما عاضين جبريين، ووطأةِ حلفائهم الأمبرياليين الذين نسميهم الاستكبار العالمي.

هات! هات! أين «يتموضع» الإسلاميون على الخريطة السياسية؟ أهم يمين أم يسار؟ أهم قُوى تحررية تقدمية أم هم كما نرى بعضهم قوى رجعية حليفة موضوعية للاستعمار وأذنابه؟ ما نظرتهم إلى العصر وإلى الديموقراطية؟ ما مشروعهم الحضاري؟ ما مُعسكرُهم من بين المعسكرات؟

ربما سألت عن حسن نية يأيها النظير الخلقي. فإليك في المكان الثاني قصدُنا بعد اهتمامنا بتنوير الطريق أمام أنفسنا. لكن تمام الاستماع إلينا يقتضي أن تنصِت

كيف نطرح نحن الأسئلة. فربما فاتك إن لم تبذل الجُهدَ الأول في تحويل الموجة الفهمُ عنا والحوار الضروري معنا، ضرورةً نحُسها ونسارع إليها كما تحس أنت وإن بقيت تتلكأ في ريبتك وانشطارك وحيرتك بين صلاة تخشع فيها لربك وبين نضالية تنسى فيها دين الله لتنخرط بدمك وعصبك وعقلك وعضلك في مَهْيَع السياسية الحزبية اللاييكية في أحسن أحوالها.

المهيع لغةً الطريق الواسع المنبسط. والهَيْعة كلمة تجمع معاني الحركة والفزع والجبن والضعف والجزع والضجر والحيرة. وكل أولئك حظ الفاشلين من الساسة المناضلين القوميين، اللبراليين والرجعيين، وأحلافهم من المنافقين والمشركين أمام صعود الدعاة إلى دين الله الخالص.

السياسة مهيع بكل هذه المعاني. مع الناس وضد الناس وفي زحمة الناس يجري المناضل والزعيم خلف ميتافزيقا إديولوجية، أو خلف أهداف واقعية. خلف التنمية والتحرر وحقوق الإنسان والديموقراطية والحضارة وكسب التكنولوجيا والسيطرة على الطبيعة والقوة والاكتفاء الغذائي وما بين يَدَي هذا وخلفه.

فهل الإسلاميون صنف من البشر لا يريدون تحقيق هذه الأهداف؟

بلى! لكنهم قوة حَقَّانية لا يُصنَّفونَ يمينا ولا يسارا في مهيع السياسة لسبب واحد: هو أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر. فهم بأجسامهم وعقولهم وجهودهم المنظمة ومواقفهم وجِهادهم مع الناس ومن الناس. وهم فُرادَى قومٌ سائرون بالعمل الصالح إلى موعود الله وهو حق، وإلى جزاء الآخرة وهو حق، يطمعون فيه ويثقون بوعد ربهم.

ومن يجري في مهيع السياسة بدون هذا المشروع الفردي الأخروي الرباني الإيماني الإحساني فله إن شاء أن يكون غُرَابِيَّ المِشْيَةِ، طاوُوسِيَّ البِزَّةِ، فارغ القلب، بلا أمل بعد الفشلات يُرتَقَب، وبلا مصير بعد الموت يُعتَقَب. لذلك الذاهل عن الآخرة أن يلتفت إلى الماضي وأن يحلل الحاضر ويستشرف المستقبل

حاملا أثقال تراث شَبَحِيٍّ يُثقل كاهلَه بالأمجاد إن عده أمجادا، سابحا في تيارات المهيع ذات اليمين وذات الشمال، نافخا في رماد التقدمية الإديولوجية بعد أن خمدت نارُها وهمَدَ أُوَارُها.

لا يعني هذا أن الإسلامي في الصف ووسط المعركة لا تجري عليه أحكام سنة الله. فهو مع الناس في دفاع ومدافعة، يخطئ ويصيب، وينتصر وتدول عليه دَولة الأحداث. ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[1]. لكن الإسلامي في خاصة فرديته ومسيره ومصيره في الدنيا والآخرة طالبُ حق. من الحق سعيه لنصر دين الله في الأرض، ومن الحق جهادُه لمقاومة الظلم في الأرض، ومن العمل الصالح مداومتُه على إرساء دعائم الشورى بين المسلمين، ودفعُ المنكر والنهيُ عنه، ونشر ألوية العدل بين الناس، وبث فكرة السلام في العالم، والبِر بذوي الرحِم الأقربين وبين الخلق أجمعين.

يلتقي الإسلامي في الهدف الأرضي مع النظير الخلقي، ويحمل في جعبته من مشاريع الخير ما يحمله السياسي النزيه. لكنه حامل رسالة قبل كل شيء وبعد كل شيء. مُبلغٌ تكاد نفسه تذهب حسرات على ضياع الإنسان. يؤرقه هَمُّ كفر من كفر ونفاق من نافق وتهافت من تهافت في معصية الله بقدر ما يؤرقه مصيرُ أمته المحرومة المنهوبة المتخلفة.

العصر حقل مَنْبِتِ الإسلامي وقاعة امتحانه. إن التفت إلى الماضي فإنما يلتفت أولا ليتأمل سيرة الذين سبقوه بالإيمان. سبقوه إلى مستقبل هو أمامَه أملٌ ساطع ونور لامع. ويلتفت ثانيا ليتلقى من السابقين شرع الله الذي على منهاجه سلكوا، وبأحكامه مَلَكوا. أعنِي الامتلاك والقوة، لا المُلكَ أصل بلائنا.

سؤال الامتحان واحد وإن اختلفت الظروف الزمانية والمكانية والوسائلية من عصر إلى عصر. طُرِح على من سبقونا بالإيمان وطرح علينا نفس الامتحان،

(1) سورة آل عمران، الآية 140.

نفس البلاء: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

الاستطاعة قوة تختلف وسائلها بالزمان والمكان واختراع الإنسان. وشح النفس وهواها وعبادتُها غرائز في النفوس المريضة ثابتة. والفلاح أو الخسران في الدار الآخرة واحد وإن كان درجات ودركات. وفي قلب المؤمن والمؤمنة يَتلجلج نداء اقتحام العقبة للحاق بمن سبقونا بالإيمان. يقول المؤمن والمؤمنة في الدعاء بلفظ القرآن: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾[2]. بالإيمان سبقونا، لم يقل: إلى الإيمان فيكونَ السبق زمنيا ماضيا منتهيا. سبقونا بالإيمان لمنازل القُربَى في الآخرة. فإلى تلك المنازل نسارعهم ونسابقهم، تلامذةً لما أوصلوا إلينا من شرع الله ومنهاج رسول الله، لكن منافسين على الصراط المستقيم. ندعو الله ونصلي: ﴿ اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ ﴾[3]، وهم النبيئون والصديقون والشهداء والصالحون. وحَسُن أولئك رفيقا هنا وهناك.

العصر بيْتُ نشأة الإسلامي وعنوان مسكن جند الله المجاهدين في سبيل الله. مصير أمتهم في الدنيا مرتبط في اهتمامهم وتخطيطهم وتقديمهم وتأخيرهم بمصيرهم في الأخرى. إن أحسنوا الجهاد وحرروا العباد بجهاد البنيان المرصوص استحق كل منهم عند الله، في قرب الله، في جنة الله، جزاء الأمين القوي. وإن قعدوا وتركوا الهائعين يلعبون بمصير الأمة خاف كل منهم أن يُكشف يوم القيامة كما يكشف الغوِيُّ الوَهيُّ.

قال الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[4]. وينذر سبحانه العباد: ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾[5].

(1) سورة التغابن، الآية 16.
(2) سورة الحشر، الآية 10.
(3) سورة الفاتحة، الآيتان 6-7.
(4) سورة الحشر، الآية 18.
(5) سورة النبأ، الآية 40.

ويخبر سبحانه عن الكافر أنه يقول يوم لا ينفع قول: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[6].

بهذه النية وبهذا اليقين وبهذا التوجه الإيماني يكون الإسلاميون قوة حقانية تستعصي على التصنيف في حلبة التلفيق بين الأصالة والحداثة وبين التراثية والعصرنة. ويستعصي التصنيف مع الجارين في المهيع السياسي إلى غير وِجهةٍ بعد الموت، وبغير إيمان بالآخرة، وبغير مشروع فردي إيماني إحساني.

بهذه النية وهذه الذاتية المستقلة في الكون، الخاضعة لقوانين الله في الكون، العالمة بأن العصر وتقلباته ومخاضه وتولداته من صنع الله عز وجل، يقتحم الإسلاميون الساحة السياسية غيرَ مبالين بمن يتهم الإسلام بأنه العرقلة الماضَوية أمام التقدم، غير متحيزين في نقدهم للحضارة المادية العصرية تحيّز الموتور الناقم، ولا متحيزين إليها تحيز الوامِق الهائم.

إن كان من الملفقين من يُسوِّد الصحائف ويصرخ في الندوات ليُدليَ بدلوه بين الناطقين الكاتبين ليعبر عن حاجة الأمة إلى استيعاب الماضي واستيعاب العصر فنحن لا نرى تناقضا بين الأزمنة والأمكنة على ضوء إيماننا بوحدة الخالق جل وعلا وانجلاءِ الهدف الدنيوي والغاية الأخروية أمام مقتحم العقبة.

وإن كان من يستفيض في الكلام عن تحديث المباني وعن تحرير العقل من أوْهاق الماضي وعن ضرورة حرق المراحل للحاق بالركب الحضاري فنحن وَقفتُنا الطويلةُ عند الفرد المؤمن وما ينبغي أن يسكُن قلبَه وعقلَه من نية ويقين مستَعصَمٌ يمسكنا عن الهذيان المحموم لتكون خطانا على منهاج النبوة ثابتة.

إن شاء الله ربنا القوي العزيز المتين.

في الفقرة التالية إن شاء الله ننتقد العصر النقد السليم، ونعرض لما يجب من تجديد المباني، ولما يفرضه العصر بوسائله من تكيف، ولما يفرضه الدين وتبغيه

(6) سورة الفجر، الآية 24.

المروءة وتتقبله الفطرة من تأسيس سياسة تحريرية في دولة القرآن، ولما نحتاجه من امتلاك للتكنولوجيا، ولما نتوقف عليه من اكتساب القوة وإعدادها بإعداد الاقتصاد القوي. لكن ذلك كلَّه أحلام إن لم يكن «الفاعل التاريخي» متمكنا في ذاتيته واثقا بما بين يديه وما خلفه.

وما القوة إلا بالله. عليه توكلت، وإليه أنيب.

النقاش المحوري

أمرنا بتقوى الله ما استطعنا، وأمِرنا بإعداد القوة. من أين نأتي بالقوة وقد تُرك شأنُها لكسبنا وحيلتِنا واجتهادِنا؟

من العصر ووسائله المتاحة نُسلح قومتنا. لكن ينبغي أن تكون نقطةُ الانطلاق، أُولَى الأَوْلَوِيَّات، من وجود قائم، قائمٍ مؤمن بالله وباليوم الآخر، عالم بما فرض الله عليه، عارف بتكليف الشريعة، منبعِثٍ للتنفيذ مخلص صادق، منتظم في جماعة المؤمنين.

يلي ذلك في الاعتبار أن يتحرر هذا العامل التاريخي من رِبْقَةِ الحكم الفاسد. فما دامت الدولة وقدراتُها في يد العشيرة والأسرة الحاكمة والطغمة المتسلطة فإن كل جهد للدعوة الحية بالإيمان تبقى حرثا في البحر وصرخة في واد. أقول إن الجهاد السياسي بعد التربية والتعليم والتنظيم هو الركيزة الضرورية السابقة لكل انتهاض لِمَسْكِ القوة والكينونة «على مستوى العصر» ووسائله. إذا كان العامل المؤمن مغلول اليدين مُطارَدا أو مُجامِلا للحكم الفاسد أو راضيا بهامشية الوعظ المقهور فسيبقى للملفقين والمنافقين والظالمين مجالٌ لمزيد من تردية الأمة.

ثم بعد الإصلاح السياسي، بعد إبرام ما انفرط وانتقض من عروة الحكم، يأتي في الاعتبار التعلم والتتلمذ بلا عقدة ولا تردد لأساتذة العصر في العلوم والاختراعات والتنظيم والتصنيع. أقول في الاعتبار لأننا يوم نصل إلى الحكم بإذن الله لن نجد المكان فارغا. وليس من الدين ولا من الواقعية ولا من قبيل الممكن أن نأمر عجلة الحياة بالتوقف حتى نبدأ من الصفر ونبني على الترتيب. لا بد من مراحل، من أجيال، يحل فيها النسيج الحي بالتدريج مكان النسيج الغثائي.

إن واجهنا العصر بمبانينا الغثائية، واشتَرينا مصانع جاهزة، وكدسنا أشياءَ واستعرنا اقتصاداً نبيع به حريتنا فلن يعْدُوَ حالنا أن يكون حال عجوز مشوَّهَة تتشبب بالمساحيق وتتجمل.

وبدون تأسيس البناء على قواعد الإيمان بالله وباليوم الآخر، والوَلاية الجامعة المنظمة، والقومة الشورية، والتعلُّم المتواضع من تجارب الإنسان وتراكم معرفته وحيلته في السيطرة على الطبيعة نبقى كالجوقة المتخلفة تُنغِّم بألحان الحزن والحنَق الشتائمَ المُنَوَّعة في وجه العصر وأبناء العصر وسادة العصر.

أستغفر الله الذي سخر للإنسان ما في الكون من استعمال كلمة السيطرة على الطبيعة، فالسيطرة لله وحده لا شريك له. وللتفاهم من ألفاظ العصر نقتنص.

ما لنا نَظَل ونبيت في سجن الجدليات الأرضية لا نبرحها كالسجين في زنزانته أو كالدائر حول رحاه! تقدم/ تخلف! حداثة/ تراث! أصالة/ معاصرة! هوَس الدنيا وهَيْعتها ولَغَطها يُذهلنا عن المعتقَد الإيماني والمعتقد الإحساني. نكون سادة العصر، أستغفر الله، بل عبادَ الله المستخلفين الممَكَّنين القادرين على تبليغ رسالة الله، يوم يَسُود في عقولنا وقلوبنا وسلوكنا العلم السماوي بمتقابلات: إسلام/ كفر، هُدى/ ضلال، دنيا/ آخرة، جنة/ نار.

طمَس هاجِسُ التقدم والتأخر فينا معالِمَ إسلاميتنا. فالعيون شاخصة إلى الإنجازات العصرية في ذهول، والعقول حائرة بين ماض حضاري مجيد وحاضر مفجع ومستقبل تُصورُه لنا أوهام الغفلة وَجها براقا لمجتمع متطور ما على وجهه من قسمات الإسلام إلا ما يبقى من أطلال على رمال جدودنا الرُّحَّلِ.

رحلنا ونرحل عن إسلامنا على عجلات عصرية مادية ومعنوية، يصنعها غيرنا ونركبها في نشوة الظافر، أو حَوْمَةِ العابر، أو دورة الدائر.

عقيمة هي، مُردية هي، قاتلة هي، مكفرة هي العبودية على أية درجة للنموذج الغربي وحضارته. عقيمة في طولها والعرض، وإبرامها والنقض.

العبودية للغرب تطلب منا أن نرقص على أشلاء الماضي، وأن نتشَبَّع قلبا وقالبا بالثقافة الغربية، وأن نزدرِيَ «بالأفكار الغيبية الظلامية» المنحدرة من عالَم القرون الوسطى.

أما التلمذة المتواضعة لما أبرزه الله عز وجل في الكون من مكاسب عقل الإنسان الصانع المخترع المنظم فهي إمساك اليد المؤمنة على سلاح ضروري للجهاد، لا تُسأل غايةُ الجهاد مَنْ صنع السلاح ومِن أين جمع المادة وكيف أوقد النار.

العبودية التابعة للنموذج الغربي تفرض علينا إشكاليات الغرب المنهمك في توظيف الفردية الرأسمالية النشطة الشيطانية في البحث العلمي والتصنيع والتنفيذ لغاية أرضيّة محضة. والتلمذة الفاتحة عينين اثنتين على الدنيا والآخرة، على صنع الله في الكون وعلى كسب العباد، تصِلنا بجوهَرِ المسألة، وهي مصير الفرد إلى الله ومصيرُ الأمة إلى العزة والاستخلاف، نحقق الجوهر بالوسائل العارضة في زماننا كما حقق من سبقونا بالإيمان بوسائل عصرهم.

يتأرجح الملفِّق الإديولوجي بين صَدَمات الاستعمار المتتالية وبين ثِقل التراث. تفزعهُ الهُوَّة السحيقة بين قومه المتخبطين في تمرجات التخلف وبين أهل السطوة والهيمنة وغزو الفضاء والجولان اللانهائي في تخوم الذرة وبين تحمُّل تراث حضاري فاخر هو كل ما له من أصل يعتَزُّ به.

الملفق ربيب اللاييكية، طالب العقلنة، ملحد أو متدين بصلاة ينقرها في أحسن الحالات. هو مفجوع بالواقع، مقطوع عن منبع الإيمان بمانع. وما مانِعُه إلا جَرْيُهُ مع الهيعة التي تحرك العصر، بأشيائه وبشره، إلى غير وجهة.

إن وقف هذا الجاري لحظة ليراجع حسابه على ضوء زعزعة في تبني تراث قَومه أو زلزلة إديولوجية سياسية في العالم المتوَجِّع بمخاض النظام الجديد فهاجس التحديث وحُرقة السبق الذي حققه الآخر يُنسيانه حتى ترتيب الجلباب التراثي الذي تراه أحيانا يتطوّس به.

يتمخض العصر عن نظام عالمي جديد. أستغفر الله العظيم، بل قدرة العليم الحكيم سبحانه تكوِّر الخلْق في طوْر جديد تتلاشى فيه الإديولوجية الإرادية الاشتراكية. ويفقد التقدمي سند الدولة العظمى التي كانت حتى الأمس القريب تدعم نضاله.

يساريُّ الأمس لن يتوب ولن يركع أمام الرأسمالية الديموقراطية كما ركع أساتذته. خاصة إذا كان في معارضة مُريحة اليومَ لحكام الاستبداد، أو معارضة غداً لحكم الإسلام. سيظل يرعى ويسعى لتقدمية نضالية مُمركزة القرار، لها من مركزتها فاعلية وسرعة، لها القدرة على تعبئة الكادحين، لها التخطيط والبرمجة وحشد الجهود لتوطين العلوم والتكنولوجيا طوعا وكرها، لها الطاقة الإكراهية على التصنيع والتنمية. في زعمه.

لا يفكر ولا يقبل فجيعة المركزية الديموقراطية بنفسها في وطنها الأصلي، بل يبقى في العالم وحده مع كاسترو يندد برجعية الرفاق، ويهتف بالحياة الأبدية للاشتراكية العلمية.

لا بد للإسلامي من نقد بصير مُتأن للعصر وسادته. نقدٍ لا يمليه حنَقُ الموْتور ولا مِقَةُ المقطور.

روح الحضارة الغربية هي الوثنية الإغريقية الثقافية الفنية، والقانونية الرومانية الاستعمارية، والرواسب اليهودية النصرانية، والفلسفة التطورية الداروينية، والفردية اللبرالية المنفعية الاستهلاكية الدوابية. بلا غاية.

لا نقصد الشتم اللاذع المعَوِّض للأماني الخوادع، المحرِّرَ من التوابع. ودع شاهدا من أهلها ينتقد حضارة قومه من موقع فيلسوف تقدمي من صُنَّاعِ الإديولوجية قبل أن يهديه الله للإسلام. قال صاحبنا رجاء جارودي:

«إن النقاش المحوري الحيوي في عصرنا لم يعد نقاشا بين رأسمالية تفرز الاستعمار والحروب والأزمة النهائية لحضارتنا الغربية وبين اشتراكية على

النمط الاشتراكي تستهدف نفس المرامي التنموية للغرب الرأسمالي، فتصبح بذلك ظالمة لشعبها نفسِه، مستغلة للعالم الثالث، شريكة في السباق للهيمنة والتسلح المدمر.

قال: «النقاش المحوري الأساسي في عصرنا هو المراجعة الاستنكارية الجذرية لميثولوجيا «التقدم» الانتحارية، و«للتنمية» على النمط الغربي. (هذه الميثولوجيا التنموية التقدمية) سِمَتُها الفصل بين العلوم والتقنية وبين الحكمة. أعني بالعلوم والتقنية تنظيم الوسائل والقوة. وأعني بالحكمة التفكير في الغايات وفي معنى حياتنا. (هذه الميثولوجيا التنموية التقدمية) سِمتُها الإشادة بفردية أنانية تَبَتُرُ الإنسان من أبعاده الإنسانية المحضة، تبتُره من المفارقة transcendance ومن المجتمع التضامني communauté.

قال: «أعني بالمفارقة على الأقل الإمكانية الدائمة للانقطاع عن تفرعات الماضي والحاضر، وإمكانية صنع مستقبل لم يسبق له مثيل. وأعني بالمجتمع التضامني الوعيَ بأن كل واحد منا مسؤول شخصيا عن مستقبل كل الآخرين، مسؤول عن تسخير وسائل العلوم والتقنية، ووسائل الاقتصاد والسياسة والثقافة، ليتأتى لكل امرأة، وكل رجل، وكل طفل، أن ينشر على الكمال كل ثروة في طبيعته البشرية وكل القدرة الإبداعية التي يحملها». انتهى كلام الفيلسوف حديث العهد بالإسلام.

ما تجاوز الفيلسوف في نقده لحضارة أرضية أفق الجدلية الأرضية. ولعله يقصد بالكلمة الفلسفية الغامضة transcendance شيئا غير الألوهية.

تعالى الله، جل الله، لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

الفصل الرابع

التغريب

- «الدائرة الصماء»
- «طاحون التعليم الغربي»
- «الردة مرونة في الفكر»

«الدائرة الصماء»

أطلق بعضهم اسم «الدائرة الصماء» على حَلْقةٍ من الدكاترة الجامعيين والكتاب الأدباء والصحفيين كانوا طليعة أنصار التغريب في مصر، مثل النصراني شبلي الشميل والنصراني سلامة موسى وزعيم القوم أحمد لطفي السيد وطه حسين وعلي عبد الرازق ومحمد حسنين هيكل ومنصور فهمي ومحمود عزمي وإسماعيل مظهر. طائفة من الشباب أُرْسِلوا إلى فرنسا وإنجلترا، فدرسوا في جامعاتها ردحا من الزمن ورجعوا مزهُوِّين بدبلوماتهم، أفندية يتيهون على أبناء الفلاحين الأزهريين، ويُشيدون بالحضارة البراقة التي احتضنت مُراهَقَتَهُم الشبابية ومراهقتهم الفكرية، ثم أرسلتهم دعاة مخلصين متعصبين للفكر الغربي والنمط الغربي للحياة.

من أين امتد إلى المسلمين سرطان التغريب؟ من التبعية السياسية الاقتصادية التي فرضها الاستعمار بالاحتلال وبحجة الحديد والنار ومدافع المدمرات والفرقاطات، أم من تفكيك المجتمع التقليدي، أم من الغزو الثقافي، يَلِدُ بعضُ هذه التبعيات بعضا؟ أم أنها خطة مدبَّرة مُحكمة الحلقات تُكَوِّنُ «الدائرة الصماء» فيها حلقة الوصل ومدارَ المكيدة؟

ما هو مِحوَرُ تصدع المجتمع المسلم الذي هاجمه الاستعمار وكان له تماسكهُ؟ تماسُك غثائي، لكن تماسك على كل حال. أهي الهزيمة التاريخية للأمبراطورية العثمانية التي كانت دِرعا وشوكة ومِظلة نام تحت كنَفها الأبويِّ التعسفي الوراثي المسلمون مدى قرون نومَتَهم؟ أم هي الهزيمة المعنوية التي تجعل المغلوب يقلد الغالب؟

ما هذه الوجوه من الشباب الذين فَرْنجوهم وأرجعوهم إلى الديار لينشروا في الناس دعوة الانقياد للغرب إلا ضحايا لخُطة محبوكة. وما دائرتهم الصماء إلا

مبنىً أساسيٌّ من مباني التبعية التي لا تكتفي بنهْبٍ مؤقت، بل تزرع في الأرض المغزوة وُكلاءَ دائمين مستديمين متوالدين على الأجيال، يزول الاحتلال العسكري ويبقى الوُكلاءُ أوْفياء مخلصين.

لعلَّ من يقول: إن خبر طه حسين وأحمد لطفي خبر بَلِيَتْ جِدَّتُهُ ونُسِيَتْ عُهدَتُه، والاستعمار العسكري عاد جَذعا مُنذ احتلت جيوش أمريكا رمالَ الحجاز، والمغربون يُخَرَّجُون ويُفرَّخون آلافا مؤلفة كلّ عام في عُقر ديار المسلمين، والتبعية تقودنا بأزِمَّةٍ اسمُها المديونيَّة والاقتصاديات المفتوحة لخارج، و«الانفتاح»، وشروط البنك العالمي وصندوق النقد الدولي، وآلياتُ التقويم الهيكلي. فما كتابات طه حسين وفلسفة أحمد لطفي وتطورية سلامة موسى -أفراد مضَوْا وانقضوْا- في المعادلة؟

نقول إن هذا من ذاك، وهذه النتائج الوفيرة غَلَّةٌ لما زرعه الغرب من بذور بشرية بين ظُهْرَانَيْنَا، والآلاف المؤلفة من أجيال المغربين الذين لفَظتهم معامل التفريخ الجامعي في كليات الفلسفة منذ ثلاثة أجيال ما هم إلا نُسخ منقحة لتلك النماذج الصماء.

ولئن كان من الجيل الأول مَن تابوا وتراجعوا عن الإعجاب بالغرب وعن تعاطي ثقافة الغرب تعاطيَ المخدرات فإنَّ الأجيال المنقحة من المغربين أشد شكيمة وأرسخ قدما في الوَلاء للغرب.

تراجع بعدَ النُّضج وتجاوُز المراهقة الفكرية طائفة من المغرَّبين الأوائل أمثال محمد حسنين هيكل ومنصور فهمي وإسماعيل مظهر. وحتى طه حسين كتب في أُخْرَياته بقلم أقل وَلاءً للغرب وأقل بلاءً على الإسلام. أولئك الجيل الراجِع من غُلَوائه استيقظوا -ربما- لِما كان يُفعل بهم، وهبت عليهم نسائم التحرر الحقيقي باتصالهم بجيل مصطفى كامل وسعد زغلول تلامذة الشيخ المسلم الحُر جمال الدين الأفغاني. وجذبتهم إليها الوطنية التحررية فإذا بهم وسط الشعب يكتشفون، وهم الأفندية الكاتبون الأدباء، أية غرابة وغربة يعانون بين المسلمين.

وهكذا كتب محمد حسنين وطه حسين عن الإسلام كتابة هي أخف بلاء على الإسلام من كتاباتهم النضالية في صف اللبرالية.

لم يجد المغربون الأوائل الأرض الثقافية خِلْواً يصْفِرون فيها ويُنقّرون، بل وجدوا رجالا لا يقلون عنهم اطلاعا على الثقافة الغربية العامة مع بقائهم على ولائهم للإسلام، من أمثال الشيخ رشيد رضى والشيخ محب الدين الخطيب رحمهما الله، والكاتب البارع البليغ مصطفى صادق الرافعي أحسن الله إليه.

ومن المغربين من أجيال ما بعد هزيمة القومية التقدمية الاشتراكية الناصرية المغرَّبَة من يرجعون ويتمسلمون، لكنهم لتمكنهم في الفلسفة الغربية ومنهجيتها، ولتشبعهم بمفاهيمها، ولتقمصهم روحها لا يكتبون عن الإسلام إلا من كونه «بنية فوقية»، ولا عن العقيدة إلا من كونها رأياً. لا مكان للدين في المنهجية الأوربية للتحليل إلا من حيثُ كونُ الدين مَسْلاة قَرَّتْ بها أعين الرُّمْصِ في طَوْرِ ما قبل الوضعية والعقلانية. الدين عند المنهجيين الفلاسفة من الجيل الثالث لِباسٌ خَلَقٌ وماضَوية متجاوَزة. «ونحن معكم ومنكم وداخل دائرتكم أيها الإسلاميون المسيطرون على الساحة السياسية». كذا تقول وقاحتهم.

لا يتنافى التمكن في الفلسفة والارتباط المنهجي بالمرجعيات الأوربية مع قدْر من النفاق التلفيقي يظهر إلى جانبه وجهُ سلامة موسى النصراني السافر وجها إنسانيا محترما. إن كان للكفر حرمة بِعُلُوِّهِ عن دركة النفاق السُّفْلَى.

إننَا ونحن نبحث عن طرائق العلم والعمل لإدراج المشروع الإسلامي في الواقع المواتي الضروري لا نقصد سرد التاريخ لإقامة الحجة على من فُعِل بهم ولا على من فَعلوا. ما فعلته فينا الثقافة التغريبية بأقلام المستشرقين من الكافرين وبأقلام المستغربين من أبناء المسلمين والنصارى العرب نريد أن نعرف منابته ومَشاتِلَه ومُرَبَّى جنوده لنعرف موطن الإصابات في جسدنا ومبلَغ العطب في كياننا وطبيعة العراقيل في طريقنا.

ذلك لِنأْسُوَ الجُرْحَ لا لنبتُر العضو المصاب، لنتلافى ضرر الأعصاب لا لنُجْهِز على المريض، لننَحِّيَ العرقلة من طريقنا لا لنغير المسارَ اتقاء شرٍّ نَهابُه أو تنازلا لعدو أخذت تسّاقط أنيابُه، بل تساقطت على دَوِيٍّ هزائم الفكرة الغربية وهزائم أنصارها في بلاد المسلمين.

على طريق مشروعنا الإسلامي العقَدي السياسي الاقتصادي العمراني الأخوي سنجد أشلاء الفكر الغربي في بلادنا، وسماسرته في جامعاتنا. فمعرفتنا بأصل الداء تُسلح يد الدعوة المبسوطة بأدلة الإقناع والحوار والمحاجة. وتسلح يد وازع السلطان الإسلامي بخبرة الطبيب الذي يُنجِح العملية الجراحية بالفحوص الدقيقة المسبقة متى أعياه التطبيب والتمريض.

يتلخص الفكر التغريبي ويتخلص في مفاهيم منهجية ثلاثة: اللبرالية واللاييكية واللحاق بالركب الحضاري الغربي.

فاللبرالية الفلسفية المنحدرة من فولتير وروسو والثورة الفرنسية تدعو لتحرير العقل من كل سلطة سابقة. فالعقل هو الآلة والحَكَم لتمحيص المعرفة، وتحديد مكان الإنسان في الكون، وتنظيم المجتمع، وتدبير السياسة. والدين مُعطىً اجتماعيٌّ كسائر المعطيات يُنتقد ويصنف على ضوء حالة الاقتصاد ونظام المجتمع ودرجة الرقي الفكري. مبدأ النشوء والارتقاء مُسَلَّمة لا تقبل النقاش.

واللاييكية دعوة لتأسيس الحكم على مبدإ فصل الدين عن الدولة، وتنظيم السياسة على قواعدَ عصرية لا يكون للإسلام فيها كلمة.

والمطلب النهائي من المقدمتين اللبرالية واللاييكية، والاشتراكية التقدمية الآفلة الآن، هو اللحاق المباشر بالحضارة الغربية «بخيرها وشرها» كما يكتب طه حسين في فجاجة جرأته ووقاحة مراهقته.

والعِداء لكل ما هو إسلام أمْرٌ مُبَطَّن، كان ولا يزال، في الدعوة التغريبية. صرح به من صَرَّح من جيل المغربين الأوائل، ولا يزال يصرح به أو يلوِّحُ الزرعُ الخاسر في كليات الفلسفة و«الدوائر الصماء» من المناضلين العضويين التقدميين.

ولِمَن مهَّد الطريقَ في الجرأة على الدين والمكْر بمقدسات المسلمين قصَب السبق في حلَبة الخاسرين.

كانت معرفة الذين درسوا في باريس ولندن من الجيل الأول المغرب معرفة سطحية بالمجتمع الغربي، وكانت دِرايتهم المنهجية بالفلسفة الغربية بضاعة مجزاة إذا قورنت بمن تبعهم بتغرُّبٍ. لذلك كان إعجابُهم وولاؤهم غير المشروط حيلةَ طِفلٍ إذا ما قورنت بمكر المغربين من معاصرينا الذين قعَّدوا منهجية مطعمة بمفاهيم عربية إسلامية، وأشادوا بالعربية الفصحى، لم يحاربوها كما فعل الأوائل، واستشهدوا بالقرآن واعتزوا بالتراث.

هم في سرائرهم يد واحدة وكلمة وافدة على أن السيرَ في مهيع الحضارة الغربية هو المنجاة. لا يقول معاصرونا المدرَّبون المتطوِّرون مقالة الساذج طه حسين: «علينا أن نصبح أوربيين في كل شيء، قابلين ما في ذلك من حسنات وسيئات». بل هم قوميون مناهضون للأمبريالية. وينكرون أيَّ صلة عضوية ظاهرة أو باطنة «بالآخرة». هم عالَميون تتشرف العالمية بمساهمتهم الفكرية، تشجعهم هذه «العالمية» وتمنحهم الجوائز الأدبية لأصالتهم المبدعة المثرية للثقافة الإنسانية. وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرُهم.

«طاحون التعليم الغربي»

دع عنك المغربين في منفاهم الثقافي وعزلتهم السياسية المؤلمة! قال: كيف أدعهم وهم لا يدَعُون، وإن لهم لثَكْناتٍ وَوُكْنات ومراتع! إنهم ليسوا أفرادا مبعثرين. ليسوا رمادا وإن كان نَجمهم في أفول. لا يزالون أحزابا سياسية وتكتلات مصلحية، هم رجال الإدارة ودهاقنة الأبناك ووسطاء الشركات العابرة للدول. بينهم مصاهرات ومعاملات ومبادلات. أطياف وألوان، منهم الرافض في المعارضة، ومنهم الضالع في الحكم مع السلطة. لهم الحضور القوي والوحدة الثقافية. يحفظون أدوارهم جيدا ويوزعونها ما بين برجوازية كبرى ثرية لبرالية وأخرى صغيرة ثورية. والأمرُ دُولة بينهم. يحُسون خطر الإسلاميين الصاعدين، لكنَّ خبرتهم في الصراعية الجدلية ومواقعهم الاستراتيجية في دواليب الدولة تُطَمْئِنُهم على أنهم الضرورة المستقبلية مهما تقلبت الأحوال.

إنهم تعلموا من مدارسهم الماكيافيلية والماركسية أن التناقض هو المحرك الأساسيُّ للوجود، فهم على استعداد ليمتطوا الموجة الإسلامية، ويتفادَوا الاصطدام معها، ويجادلوها ليتجاوزوها بتركيبة ملفَّقة، «إسلامية» غربية، وغربية «إسلامية»، معتزلية تقدمية فلسفية يُحضَرُ فيها القاضي عبد الجبار وابن رشد شاهدين على أصالة إسلام يسارِّي أو يسار إسلامي بارع التلوُّنات.

سطا اللصوص الاستعماريون على البيت الإسلامي، فلم يبرحوه -وهل برحوه البتَّةَ!- إلا وقد خلَّفوا ثلاثة أصناف من المغربين. مُغربَنُون يمشونَ شطرَ قبلتهم الغربية مشية الغراب، لا هو يتهَدَّى تَهَدِّيَ الحمام ولا هو احتفظ بمشيته.

ثلاثة أصناف أقلها استلابا المغرَّبُ التقنيُّ الخبير والإداري والأستاذ الجامعي المهندس. وأعتاها الـمُفَلْسَفُ المناضل المؤرخ التقدمي واللبرالي. ثم الصنف الثالث من المرشوشين، أدْخَلهم في الغَرْبَنَةِ عادة التَّرف وأُلْفَةُ النمط الغربي

للحياة واللذة والمتعة. ومن كلٍّ تجد من رجع من دراسته في عواصم أوربا وأمريكا تتأبطه شقراء وتجره رمزاً لتبعيته المطلقة لذوي رحِمه هناك.

غالبا ما تجد التقنيَّ سليم العقيدة بينما يكون من غالب المفلسفين طابورُ الدعاة على أبواب جهنم. أما المرشوشون بدرجة أو بأخرى فغالبهم عصاة سادرون لم يسحق طاحون التعليم منهم بواقي الفطرة.

عبارة «طاحون التعليم الغربي» صاغها واحد من كبار حكام الاستعمار ومهندسي الغربنة. هو اللورد كرومر الشهير الذي وطد للاستعمار البريطاني في مصر. أُورِدُ هنا حديثه عن نضاله الطويل، حديثا يقدم فيه لبني جنسه صَنْعَةَ يده، ويقدم لنا شهادة ووصفا دقيقا لنفسية الصِّنف المشدوه بالغرب المجرد من إسلاميته حتى النخاع. وما عدا كرومر الحقيقة التي نعرفها ويعرفها كل من احتَكَّ بالمغربين من قريب. كتب كرومر سنة 1908 من تاريخهم قبل ظهور «الدائرة الصماء»، في فترة نشوئها وقبل اكتمالها.

قال في كتابه «مصر العصرية»: «إن المجتمع المصري في مرحلة الانتقال والتطور السريع. وكانت نتيجته الطبيعية أن وُجدت جماعة من أفرادهم هُمْ «مسلمون»، ولكنهم مجردون عن العقيدة الإسلامية والخصائص الإسلامية. وإن كانوا غربيين فإنهم لا يحملون القوة المعنوية والثقة بأنفسهم. وإن المصري الذي خضع للتأثير الغربي وإن كان يحمل الاسم الإسلامي فإنه في الحقيقة ملحد وارتيابي. والفجوة بينه وبين عالم أزهري لا تقل عن الفجوة بين عالم أزهري وبين أوربي.

قال: «إن الحقيقة أن الشاب المصري الذي قد دخل في طاحون التعليم الغربي، ومر بعملية الطحن، يفقد إسلاميته، وعلى الأقل أقوى عناصرها وأفضل أجزائها. إنه يتجرد عن عقيدة دينه الأساسية. إنه لا يعود يؤمن بأنه لا يزال أمام ربه، وأنه تراقبه عين لا تخفى عليها خافية، وأنه سيحاسب أمامه يوما من الأيام. ولكنه لا يزال -رغم ذلك كله- يستفيد من مظاهر الحياة الإسلامية التي تتسامح

مع ضعفه الخلقي ولا تتصادم معها، والتي تتفق مع مصلحته في مجال الحياة. ولكن المصريَّ المثقف رغماً عن ابتعاده عن الإسلامية لا يميل إلى المسيحية إلا نادرا.

قال: «إن المصري المتحرر يسبق الأوربي المتحرر في التنور (قلت: يقصد بالتنور العقلانية الفلسفية الملحدة) وحرية الفكر والحيرة. إنه يجد نفسه في بحر هائج لا يجد فيه سكانا ولا رُبانا لسفينته. فلا ماضيه يضبطه ولا حاضره يفرض عليه الحواجز الخلقية. إنه يشاهد أن الجمهور من مواطنيه يعتقدون أن الدين يعارض «الإصلاحات» التي يراها جديرة بالتنفيذ. إن ذلك يثير فيه السخط والكراهية الشديدة للدين الذي يؤدي إلى هذه النتيجة. فيدوسه بقدمه، وينبذه بالعراء.

قال: «إنه إذا قطع الصلة عن دينه وتعاليمه فلا يَحْجُزُه عن التورط في المزالق الخلقية إلا مصلحته الشخصية السافرة، مع أن الأوربي الذي يحرص على تقليده لا يزال متقيدا بشرائع أمته الخلقية.

قال: «إن المجتمع الذي يتكون من مثل هؤلاء الأفراد المتحررين في مصر لا ينكر الكذب والخديعة إنكارا شديدا، ولا يمنعه من ارتكاب الرذائل خوفُ سوء الأحدوثة في المجتمع. إنه إذا رفض دين آبائه فإنه لا يُلقي عليه نظرة عابرة. إنه لا يرفضه فحسب، بل يرفسه ويركله برجله. إنه يترامى في أحضان الحضارة الغربية متعاميا عن كل حقيقة». [1]

أَقِف السرد هنا لأن التقدمي المغربن يحتج بأن هذا تحامل استعماري مقيت مُنْحَطٌّ، وأن مثل هذه الشهادة المغرضة تدخل في مخطط الاستعمار، وأن هذا الصحن القديم من الثلب في الطبقة المتنورة لا طعم له في عصر تحرر فيه المثقفون من وِصايَة أمثال كرومر رمز الاستعمار البغيض.

(1) ص228 وكما نقله الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه «الصراع بين الفكرة الغربية والإسلامية» ص106.

وأقف السرد لأن الملاحظ الذي له أدنى فطانة يرى في وصف كرومر نموذجا محتشما لما عليه المغربنون الملحدون من فسولة في الشخصية وتفسخ في الخلق. والأدهى فساد العقيدة ورفس الدين.

يعود المغرب من بلاد أوربا بدبلوماته، أو ينالها في الجيل الثاني والثالث والرابع في بلده بعد أن أصبح بلده طاحونا، وقد انقطعت أنفاسُه إعجابا بالحضارة الغربية والثقافة العصرية والفن والحياة، وانبهر عقله، وغمر نفسَهُ ما يشبه الغيبوبة، فيتلقى فقط من مصادره الغربية ومراجعه الموثوقة لا يتلقى من سواها. ويعود لينظر إلى الإسلام، وليفهم الإسلام، بعين مستشرق، في كتب المستشرقين وبحوث الإسلامولوجيين. والعبقري الباقعة منهم من يقرأ النصوص الأصلية ويتكلم ويكتب ويحاضر في الجامعة بمنهجية مطعمة.

يتعلم المطحون المسحوق من المدارس الاستشراقية، ويتبنى الآراء، ويردد صَدَى الأساتذة، ويعلق على مقولاتهم، ويشتد عودُه فيعلق الحواشي على متونهم. أو تَنْبُتُ له أجنحة فيتجاسر على نقدهم. ينتقدهم التقدمي على أرضية مسلمات منها التسليم المطلق بأن الدين نصوص أرضية لا غير. ثم يحاول ببراعة الدياليكتيكي الـمُدَرَّب أن يبرهن كيف ساهم المستشرق ببحوثه الاجتماعية في تمهيد الطريق للحاكم الاستعماري. لا ينتقد البارع أساتذته من جانب كيف طحنوه هو ومن على شاكلته وطمسوا فيهم إسلاميتهم.

يتبنى المغرب المفلسف النظريات الاستشراقية الأساسية بلا تحفظ. يتبنى القول ببشرية القرآن، والشك في مصادر التاريخ وميلاد النبوة وأحداث السيرة. ذلك الشك المنهجي الذي بدونه لا تصح معرفة ولا يسلَمُ استنتاج.

يَشُك تلميذ المستشرقين ويُشكِّكُ في السنة، ويرتاب في قيمة الحديث، ويطعَن في أسلوب الإسناد، وينتقد المتون، ويعزو الحديث للوضع باحثا عن أسباب سياسية دفعت الرواة لصياغة حديث يؤيد موقفا أو يدحض حجة خصم.

يتعلم ويُعَلِّمُ ويُوَشِّي النصوصَ الاستشراقية بما يثبت أن الفقه الإسلامي مقتبس من الرومان، وأن الإجماع السني عبارة عن الرأي الرسمي للدولة الحاكمة فرضته فرضا، وأن الانشقاق الشيعي والرأي المعتزلي والثورة الخوارجية والزنجية والقرامطية صفحات ناصعة تقدمية.

ذلك بعض ما صنعه طاحون التعليم الغربي فينا، ولا يزال الطاحون تديره بين ظُهْرَانَيْنَا أيْدٍ أكثر مهارة وأسرع نجاعة من الأيدي التي ساعدت كرومر في فجر الاستعمار.

لا يزال الغربيُّ من علياء ثقافته الفريدة يتعجب كيف يكون للناس ثقافة غيرُ ثقافته. من إعجابه بنفسه، وإعجاب المغَرْبَنِ به، وبإنجازاته وسيطرته على الطبيعة، لا يتصور الغربي ولا المطحون حضارة غير حضارة الغرب تستحق أن يوقف عندها. اللهم إلا إذا كان مُنَقِّباً أركيولوجيا، أو مستشرقا إسلامولوجيا، أو سائحا يتلهى بفلكلور الشعوب، أوْ زائرا لـمُتحف الآثار الدارسة الطامسة.

الغزو الثقافي المسلط على العالم بسلطان الإعلام وسلطان التعليم والتطحين يستخدم فعَلَةً ومهندسين وضباطَ صف من أبناء البلد بعد أن دَرَّبهم وصبغهم بصبغته. لا يضيره إن أصبحوا وطنيين وتقدميين يتسلمون دواليب الدولة المستقلة. فهم من مِلَّتِه الثقافية على أقل تقدير إن كانوا لا يجرؤون على الجهر بملتهم الإلحادية. وهم الوكلاء وهم رَجَّالة الجيش المرصود للزحف الإسلامي.

يشارك خَيَّالَةُ اللاييكيين ورَجَّالة المثقفين العضويين في عملية توطيد الهيمنة الثقافية الغربية التي توحد الأذواق وتُنَمِّط الأهواء على النمط الغربي فيتوسع سوق الرأسمالي الاستهلاكي، ويَسْخو المستضعفون بالمال والموارد الطبيعية. ويساهم المغربون في رفع الحواجز الدينية واللغوية التي تقف حائلا دون امتداد السوق ودون ارتفاع مردودية رأس المال.

طاحون التعليم الغربي لا يزال يطحن ذاتية الشباب المسلم، ويقتلع من أرض الفطرة جذور الإيمان، ويجفف ينابيع الإسلام. وفي التعليم، حيث يختار الفلاسفة ثكناتهم وَوُكناتهم، مكان المعركة الحاسمة لتنشئة أجيال سليمة. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

«الردة مرونة في الفكر»

تَحْدُثُ بين الفينة والأخرى صِدامات دامية في الكليات والأحياء الجامعية بين الطلبة الإسلاميين والتنظيمات اليسارية الماركسية. نسمع عن ذلك ونقرأ خاصة في البلاد التي لم تتم فيها سيطرة الإسلاميين على الساحة. هذه الـمُشادَّات لَعِبُ أطفال إذا قورنت ببأس التنظيمات من نوع «مجاهدي خلق» التي تلتحف بالشعارات الإسلامية وتقاتل الإسلاميين بسلاح الحديد والنار وسلاح إديولوجية مارقة تتمسح بالإسلام لتنسف العقيدة نسفا.

هذا الصنف العاتي هو زبدة طاحون التعليم، تلامذة أمثال علي شريعتي وحسن حنفي، الملاحدة اللاييكيون. نورد في هذه الفقرة سردا طويلا لشهادة زعيم من زعماء من يُسمون أنفسهم «اليسار الإسلامي» لنأخذ حِذْرنا منهم اليوم، ولنُعِدَّ العُدَّة لغدٍ تكون بأيدينا الوسائل لنطهر مؤسسات التعليم من مشغّلي الطاحون الإلحادي، ولنغير النظام التعليمي الغربي الموروث من أساسه.

للدكتور حسن حنفي فضل على المنافقين الملَفِّقين، فإن له وقاحةً في نشر آرائه الإلحادية، يعلنها إعلانا. وبذلك يكون مشروعه الإلحادي الذي يسميه «التراث والتجديد» نُقلة نوعية تقدمية. لا يوافق كثير من أقران حنفي وزملائه على مشروعه المكشوف، بل يفضلون التسلل ولُبس المسوح الإسلامية والتعتيم. وما يُسِرُّه كثير منهم لا يختلف عن رأي حنفي إلا في التفاصيل.

قال الدكتور البارع المحاضر في كليات أوربا وأمريكا، الكاتب المؤلف بعدة لغات، في كتابه «التراث والتجديد»: «هذه «المقدمات»... محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين التقليدي كإديولوجية ثورية للشعوب الإسلامية تُمد بأسسها النظرية العامة وتعطيها موجهات السلوك»[1]. فالمشروع واسع الطموح.

(1) كتاب «التراث والتجديد»، دار التنوير للطباعة والنشر، ببيروت، سنة 1981، ص7.

وقال عن الهدف السياسي لمشروعه: «تجديد التراث هو حَلٌّ لطلاسم القديم وللعُقَدِ الموروثة، وقضاء على معوقات التطور والتنمية والتمهيد لكل تغيير جذري للواقع. فهو عمل لا بد للثوري من أن يقوم به، وإلا ظل القديم شبحا ماثلا أمام الأعين يمثل أشباح الأسلاف التي تُبعَث من جديد، تتربص بالأبناء شرا إذا هم خرجوا من جُبَّتهم، ورفضوا سلطانهم، ولم يدينوا لهم بالطاعة والوَلاء، أو يقوم أنصار المحافظة والإبقاء على الأوضاع القائمة باستغلال هذا المخزون لصالحهم، وأخذ الجماهير من جانبهم، وقطع خط الرجعة على أنصار التغيير والتقدم وسحب البساط من تحت أرجلهم»[1].

مشروع الدكتور أن يسحب البساط من تحت أرجل الإسلاميين ويستنقذ الأبناء من تحت جبتهم الظلامية ليستغل «المخزون النفسي الديني» لدى الجماهير. وعبارة «المخزون» موضوع النزاع تنِم عن اللصوصية السياسية المؤسِّسة للفكر الحنفي.

ويُعَرِّف الدكتور الإلحاد ومزاياه قائلا: «ليس للعقائد صدق داخلي في ذاته، بل صدقها هو مدى أثرها في الحياة العملية وتغييرها للواقع. فالعقائد هي موجهات للسلوك، وبواعث عليه لا أكثر. وليس لها أي مقابل مادي في العالم الخارجي كحوادث تاريخية أو أشخاص أو مؤسسات إلا من الواقع العريض الذي هو حامل للمعاني وميدان للفعل. فالإلحاد بهذا المعنى رغبة في بيان الأثر العملي للأفكار ورد فعل على الإيمان المتحجر المكتفي بذاته الذي يكفي المؤمنين شر القتال.

قال: «ليس المقصود من الوحي إثبات موجود مطلق غني لا يحتاج إلى الغير بل المقصود منه تطوير الواقع في اللحظة التاريخية التي يمر منها والتي تحتاج إلى من يساعدها على التطور. [...] فالإلحاد بهذا المعنى تَطابق مع الواقع، ووعي بالحاضر، ودَرء للأخطار، ومرونة في الفكر، وفضح لشتى أنواع الاستعمار والسيطرة على كل المستويات. ويُسعد الغربَ اتهامُ كل محاولة للتوعية الثقافية

(1) كتاب «التراث والتجديد»، ص16.

للمواقف الحضارية المستنيرة بالإلحاد لأنه يبغي المحافظة على الإيمان القديم، ويزايد على أهل الدار، فذاك يسهل عليه ما يريد»[2].

مِنْ أهل الدار يزعم نفسَه الحنفي. ويتبجّح باتصالات له مع سيد قطب رحمه الله. ويراوغ، لكنه يفصح لا يكتم دخيلته الإلحادية. ويستعمل المنهجية اللسانية لينسق المفاهيم الأساسية من أصولها. يقول: «ولما كان لفظ «دين» قاصرا عن أداء المعنى، فإن لفظ «إديولوجية» أقدر منه على التعبير عن الدين المعْنِيّ وهو الإسلام وإيصالِ معناه، لأن الوَحي مجموعة من الأفكار والتصورات تصدر منها أنظمة وشرائع خرجت من الواقع «بأسباب النزول» وتكيفت حسب الواقع «بالناسخ والمنسوخ»، وهدفها تغيير الواقع بأفضل منه. فالحاكمية لله تعني الوحي كنظام اجتماعي وإنشاء الدولة التي تعبر عن الكيان السياسي للأمة. وذلك عن طريق المؤمنين وهم الحزب الطليعي، أو بمعنى معاصر هم الحزب «البرلتاري» الذي يقوم بتحقيق الإديولوجية في التاريخ»[3].

ويُعَرِّفُ الإسلام فيقول: «وكذلك لفظ «الإسلام» مشحون بعديد من المعاني كلفظ «دين». فإن أمكن، من الناحية النظرية على الأقل، التعبير به عن معنى فإنه لا يمكن ذلك من الناحية العملية. وذلك لأنه أصبح هو أيضا محملا بما لا حصر له من المعاني [...]. فهو أساسا مصطلح يشير إلى دين معين وإلى ميدان معين. وليس لفظا عاما يدل على معنى مستقل عن كل ميدان مثل حرية، تحرر، مساواة، إنسانية. [...] فلفظ «التحرر» هو اللفظ الجديد الذي يعبر عن مضمون «الإسلام» أكثر من اللفظ القديم [...]. فالإسلام هو تحرر الشعور الإنساني من كل قيود القهر والطغيان مادية أو سياسية»[4].

لا يحتاج النص لأي تعليق. ولا أريد التشهير بشخص معين، لكن أريد أن يطلع الإسلاميون على نموذج للكيد تضحك منه صبيانيات المستشرقين. فحتى

(2) كتاب «التراث والتجديد»، ص52.

(3) نفس المصدر، ص99.

(4) كتاب «التراث والتجديد»، ص99.

كلمة دين وإسلام لا معنى لبقائها مَعلَمةً على قديم ديني يجب أن يُنبذ مع قديم الظلم الموروث الذي يتخذه الثوريون الملاحدة ذريعة لنسف أسس الدين.

لا يوجد مبرر للتحليل والتحريم في دين حنفي. يقول: «الواجب أول الأحكام الخمسة: الواجب، والحرام، والمندوب، والمكروه، والمباح. فهي ألفاظ توحي بأن الإنسان ما هو إلا آلة للتطبيق، وأنه فاقد حريته. في حين أن التعبير بألفاظ أخرى مثل الطبيعة، والانطلاق، والازدهار فيها تأكيد للذات، وإثبات لحريتها، وتحقيق لوجودها»[1].

ولا جنة ولا نار ولا رب ولا آخرة في عقيدة حنفي. قال: «فالعمل، والحرية، والشورى، والطبيعة، والعقل، كلها ألفاظ عقلية في علم التوحيد لا يمكن للعقل أن يرفضها. أما ألفاظ الله، والجنة، والنار، والآخرة، والحساب، والعقاب، والصراط، والميزان، والحوض، فهي ألفاظ قطعية صرفة لا يمكن للعقل أن يتعامل معها دون فهم أو تفسير أو تأويل»[2].

ألفاظ، مجرد ألفاظ اصطلاحية خرجت من الطين. قال: «وكذلك ألفاظ عين الله، ويد الله، وقلب الله [قلت: جَلَّ الله!]، ووجه الله، وصعود الله، ونزوله، وجلوسه، وقيامه، كلها ألفاظ لا يمكن استعمالها لأنها أقرب إلى الصور الفنية منها إلى ألفاظ إخبارية. وكذلك الميزان والصراط والأعراف والحوض ومنكر ونكير [...]. ولا يوجد معنى للفظ إلا وقد نشأ أولا من التربة والطين والأرض»[3].

وأُورِدُ آخرَ المطاف مع هذا الكلام القذر زبدة الفلسفة الحنفية لنحملق بتعجب في وجه البشاعة الإلحادية الشنيئة، وفي وجه الفكر الذي يطعِّم به أبناء المسلمين وبناتهم دكاترةٌ فصحاء لَسِنون، فيهب الأبناء والبنات ليَنَجِّسُوا المصاحف ويحرقوا المساجد ويحملوا السلاح لقتال المؤمنين.

(1) كتاب «التراث والتجديد»، ص100.
(2) نفس المصدر، ص103.
(3) نفس المصدر، ص103.

قال الدكتور: «فلفظ «الله» يستعمله الجميع دون تحديد سابق لمعنى اللفظ إن كان له معنى مستقل أو لِما يقصده المتكلم من استعماله له. بل إن لفظ «الله» يحتوي على تناقض داخلي في استعماله باعتباره مادة لغوية لتحديد المعاني أو التصورات، وباعتباره معنى مطلقا يراد التعبير عنه بلفظ محدود. وذلك لأنه يعبر عن اقتضاء أو مطلب، ولا يعبر عن معنى معين. أي أنه صرخة وجودية أكثر منه معنى يمكن التعبير عنه بلفظ من اللغة أو بتصور من العقل. هو رد فعل على حالة نفسية أو عن إحساس أكثر منه تعبيراً عن قصد وإيصال لمعنى معين. فكل ما نعتقده ثم نعظمه تعويضا عن فقد، يكون في الحس الشعبي هو الله. وكل ما نصبو إليه ولا نستطيع تحقيقه فهو أيضا في الشعور الجماهيري هو الله. [...]. فالله لفظة نعبر بها عن صرخات الألم وصيحات الفرج. أي أنه تعبير أدبي أكثر منه وصفا لواقع، وتعبير إنشائي أكثر منه وصفا خبريا.

قال (ولا حاجة للتعليق على كلمات الإلحاد المتهور المجنون): «فكل عصر يضع من روحه في اللفظ، ويعطي من بنائه للمعنى. وتتغير معاني الأبنية بتغير العصور والمجتمعات. فالله عند الجائع هو الرغيف، وعند المستعبَد هو الحرية، وعند المظلوم هو العدل، وعند المحروم عاطفيا هو الحب، وعند المكبوت هو الإشباع، أي أنه في معظم الحالات «صرخة المضطهدين».

قال الملحد إلا أن يتوب: «والله في مجتمع يخرج من الخرافة هو العلم، وفي مجتمع آخر يخرج من التخلف هو التقدم. فإذا كان الله هو أعز ما لدينا وأغْلى ما لدينا فهو الأرض، والتحرر، والتنمية، والعدل. وإذا كان الله هو ما يقيم أَوَدنا وأساس وجودنا فهو الخبز، والرزق، والقوت، والإرادة، والحرية. وإذا كان الله ما نلجأ إليه حين الضرر، وما نستعيذ به من الشر، فهو القوة، والعتاد، والعُدة، والاستعداد»[4].

(4) كتاب «التراث والتجديد»، ص96.

هكذا يتكلم الصرحاء من خريجي الطاحون، بعد قرن من بِدايات صَنعة كرومر. ويبدو أحمد لطفي السيد وطه حسين أشباحا باهتة بإزاء جرأة الكافرين المجددين. ومن يهن الله فما له من مكرم. سبحانك هذا بهتان عظيم. سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل الخامس

ضرورة الحوار وحسن الجوار

- حوار الضعيف للقوي
- شروط الحوار وظروفه
- قضايا للنقاش

حوار الضعيف للقوي

لماذا يجد البنون والبنات حاضنا محبوبا في الدكاترة الملحدين؟ لماذا يجد الدكاترة الملحدون آذانا صاغية وقلوبا غير واعية لدى البنين والبنات؟

لأنهم يخاطبون فيهم من الفطرة جانبا حيا هو الغضب على الظلم والظالمين، ويقدمون لهم الأمثلة الحية من مثول وعاظ السلاطين راكعين أمام السدة الظالمة؟ فلا يرى البنون والبنات بعدها الدينَ إلا أفيونا للشعوب، ولا الوعاظَ إلا كهنوتا يجب أن يشنق بأمعائهم آخر الظلمة كما هو شعار الثورة.

ضَعف الموقف السياسي للوعاظ، بل تهاويهم، يفحم الحُجَّةَ. مِن أي موقع تتكلم يا هذا؟ من أسفل عتبات الخدمة الراكعة! اخرسْ!

ضرورة الضرورات أن نحيي في الأجيال من البنين والبنات فطرة الإيمان في الطريق إلى الحكم وبعد الوصول إليه. أولى الأولويات لحكومة الإسلام أن تمهد للدعوة حتى تقيم الأوَد، وتصِلَ من الفطرة ما انقطع من السند، وتُصلح منها ما فسد. وأن تعوض النظام التعليمي الطاحوني بنظام قرآني يكون القرآن صُلْبَهُ وعَمودَه، والإيمان بالله وباليوم الآخر هِجِّيرَهُ وصَدَرهُ ووُرودَه. ومن هنا يبدأ بناء القوة لنستطيع البروز في العالم نحاوِرُه لا نُداوِرُه كما يليق بحَمَلة الرسالة الأمناءِ الأقوياءِ الأعزاءِ.

حوارنا مع النظراء الفضلاء من المسلمين، المصلين منهم والغافلين، يبدأ من الصفة الضرورية وهي الإسلامية. أما الملحدون الصرحاء والمنافقون المشهورون بنفاقٍ فيَدُ الدولة تنحيهم من أعز الأماكن حيث يتربصون بمستقبل الأمة الدوائر. وقد ذكرنا في الفصل الرابع من الباب الأول ما يليق من التؤدة في تطبيق الحدود الشرعية بعد الإنْذَار والإمهال والإعراض.

وبالإعراض وَصَّى الله عز وجل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم حين أمره وأمرنا بتبليغ الدعوة. قال تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] الصدع في اللغة هو «الشق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد». فهو أمر بتبليغ الدعوة بقوة. وذلك ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج للقبائل يعرض نفسه، لا يأبه بأذى العدو ولا بقسوة المعاند ولا بخزعبلات المستهزئ.

أمر الله تعالى بالبلاغ بقوة: ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾[2].

وما كان عصر لا يؤمن أهله إلا بالقوة كمثل عصرنا. فإذا كان الحوار ضروريا لحامل الرسالة فإن القوة بالبلاغ أكثرُ ضرورة أمام الغرب الذي يحتقر الإسلام ويُزهى بتفوقه. الصلَف جزء أساسي من التفكير الغربي. الحمية العنصرية مادة ماهيته. الذَّحْل العنصريّ، خاصة تجاه المسلمين، هو خافيته وظاهرته. الغرب متربع على كرسي تفوقه الحضاري، مستوٍ على دست المال والاقتصاد والتكنولوجيا والجهاز العسكري. فمن تحاور إن جئت حافيا عاريا متماوتا!

لا يليق بالمسلمين في قومتهم الانقياد والاستخذاء أمام جبروت الغرب. كما لا يليق بهم العنف وحجز الرهائن وخرق القوانين الدولية. ليس العنف من أخلاق الإسلام، لكن من أخلاقه القوة. والقوم يعبدون القوة لا يعرفون غيرها. فمتى خرقنا قوانين الاستقرار العالمي ألَّبوا علينا العالم كما فعلوا عند هجمة صدام على الكويت. قوانينُ هم صنعوها، وأمريكا من مجلس الأمن تُبرِم وتَنْقُض وتُؤوي في مأمن من كل ملام ربيبتها اليهودية. نعم! لكن ليس هناك بُد من تجرع العلاقم في الحلاقم والصبر على الـمَناصِل في الـمَفَاصِلِ ريثما نُعد القوة لنتكلم مع الأقوياء من الوضع المناسب لإعادة ترتيب الأوضاع العالمية والقانون الدولي.

ليس الهدفُ الإسلاميُّ إشعالَ الحرب وإثارة الصدام العسكري وتبني الصراعية المبدئية التي ليست لنا دينا. الهدف الإسلامي والدين أن نجاهد لتكون كلمة الله

(1) سورة الحجر، الآية 94.
(2) سورة مريم، الآية 12.

هي العليا. نقاتل من بَغى واعتدى، ونقاتل من منعنا من تبليغ رسالة الله للعالمين. والطريق مفتوح أمامنا رغم الكراهية الشديدة للإسلام. الحوار الديمقراطي وحقوق الإنسان دينٌ مُعلَن في ربوع الأرض، فما هي كلمتنا للعالم؟ وما هي النموذجية التي نمثلها فنُحاوِرُ بالمثال قبل أن نبدأ الناس بالمقال؟ ما هي القوة؟

والذي يفتقده العالَمُ، ويشكو منه الفاقة والإضاقة هو الأخلاقية والروحانية ومعنَى الحياة الإنسانية. فإن كان الغرب المستكبر اليومَ لا يصغى إلى ما عندنا من كلمة الحق لكراهية متأصلة عنده، وإن كان مستضعفو العالم لا يسمعون لصممهم عن كل ما ليس تنمية واقتصادا وبُلغة عيش، فإن لنا يومَ نقوَى لشأنا إن شاء الله. وإنَّ الآفات الاجتماعية الخلقية وما ينزل الله عز جل من البلاء على القرى الظالمِ أهلُها لرادعٌ يُرجع إلينا يوم نقوى كافة بني الإنسان المشردين في أرض التيه، أَرض الملاحقة الحضارية لغرب جامح طامح رامح.

يركل الغربُ اليوم كل القيم. فالطريق أمامنا مُحجّرة، ورعاية «شرف الإسلام الدولي» كما كان يعبر الأستاذ البنا رحمه الله يقتضي منا أناة حتى نقوَى. فإن قوينا فمن واقع القوة نقول للعالم سَلما وحِلما. بعدما فعله فينا الاستعمار من تمزيق نعيد بناء بيتنا الإسلامي موحدا على أسس الرحمة بيننا والرحمة بالخلق. لا تكون مظاهر الرحمة وحقائقها إلا ضعفا في أعين العالم إن بدَتْ من هزيل مشرد ممزق. لكن القوي يستطيع أن يبتسم فلا يؤخذ ابتسامه على أنه مجاملة انهزامية، ويستطيع أن يحاور بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادل بالتي هي أحسن فلا يوخذ ذلك منه مأخذ الضعف المكنون.

على أسس الرحمة نبني وحدتنا وقوتنا لنحاور العالَم برحمة الإسلام. وببلاغ الآخرة وبيانها. بالرحمة لا بلغة الدموع والحروب. وقد ذاق الغرب من بأس الثورة الإسلامية بإيران. وذاقت إيران من بأس الغرب مدى عشرة أعوام. فتعلم الغرب أن المسلمين يموتون في سبيل الله بشرف وشغَف. وتعلم آيات الله بعد وفاة الإمام الخميني رحمه الله كيف يتعاملون مع القانون الدولي تعاملا غير ما كانوا

يفعلون. فلا نكرر المآسي، لأن الغرب مستعد دائما أن يقاتل بعض المسلمين ببعض، وأن يسلح الجانبين ويؤلب ويشعل النار حتى يُفنيَ بعضُنا بعضا.

الغرب يعتبر نفسَه الجوهرَ ونحنُ الفضولَ. وحياة الغربي الذي لا يرجو لقاء الله أعز ما عنده. فهو حريص على الحياة، أي حياة. وذلك من مواطن ضعفه. علَّمته فتنام بعد حروب التحرير الوطني أن المستضعفين يقاتلون بشجاعة. تنشر التلفزيون صور الجرحى والموتى من الشعوب الملونَة ومن أطفال الحجارة فيعتاد الجمهور الغربيُّ. لكن يصيبه الهلَع لمشهد جثة رجل أبيض. فتقوم المظاهرات في نيويورك وواشنطون أنْ احبسُوا المجزرة.

هم ضعفاء أمام الموت رغم أسلحتهم المدمرة، وهم يعلمون أن المسلمين يعشقون الشهادة، فليكن الاستعداد للشهادة قوتنا. لكن لا داعي مطلقا ولاَ مشروعية مطلقة للعدوان من جانبنا والعنف وحجز الرهائن.

ليكن الرفقُ سِمَتَنا الواضحة وشارتنا البائحة. وستمر رَدّة الفعل الكارهة لنا التي أحيت عندهم العِداء الموروث الصليبي فلا يجدون ولا نجد إلا ضرورة التساكن في هذا الكوكب، وضرورة التحاور، وضرورة احترام قانون دولي هو اليوم من صنعهم وفي صالحهم، ونفرض غدا، غد القوة بحول الله، تحويرَه ليكون في صالح الإنسانية المستضعفة. فتأثيرنا في سياسة العالم وفي الأخلاقية الدولية رهن بما نأتي به ومعنا حجة النجاح النموذجية من براهين الرفق والعزيمة، مجتمعين.

ليست الجغرافية في عالم أصبح بوسائل التواصل قرية، ولا التاريخ في عالم تهب عليه رياح التغيير عاصفةً، هما الداعيَيْن للتعايش السلمي والحوار. بل الداعي دينُ الله ونحن حملتُه، وسنة الرفق وإن كانت من حولنا الغربان تُعَقْعِق، وجهادٌ نُعد له القوة من كل أنواعها لا نعنفُ.

شَرَى العنفُ وتفاقَمَ في العالم، وكان لبعض الإسلاميين انسياق مع منطق العنف حتى رَضُوا بصفقة غبن لما رَضُوا باستعمال السلاح في الضعفاء العُزْل

كما استعمله اليهود والنصارى ويستعملونه في مذابح فلسطين وغير فلسطين. ولعلها دهشة المنتبه بعد طول رقدة، القائِم بعد قعدة، فهو يتهَجَّى حروف النور بصعوبة أَرَتْهُ النورَ لَهباً. وإنما ينتقم من العُزْل الضعفاء الأضعفُ معنى وإن كان في يده السلاح.

العنف يأتي من سوء الطبع العنيف كما يأتي من سوء الفهم للواقع. من سوء فهم الغرب للإسلام أنهم يرونه «بعبعا» مخيفا متعطشا للدماء. تلك صورة ورثوها من خرافات أجدادهم الصليبيين. فهم بلداء متخلفون، لا يطابق تحليلُهم الواقع. وعلينا أن نُساعدهم على كشف هذا الوهم، ونعلـمَهم بالاستعداد الدائم للاستشهاد أننا لن نستخذي ولن ننقاد، كما أننا لن نبدأ بظلم ولن نتعدى على من لم يعتد علينا. بهذا نفتح صفحة جديدة للحوار. رحماءَ لكن أشداءَ، مَن اعتدَى علينا اعتدينا عليه بالمثل لا بالظلم.

ولا نكن أغبياءَ فنتصوَّرَ القوة العظمى العادية اليومَ في العالم -الولايات المحتدة الأمريكية- «بعبعا» لا يقهر. إنها عملاق حقا بالحجم والعتاد. لكن عملاق غارق في المشاكل الاجتماعية الاقتصادية المالية السياسية، يحاول لغبائه أن يحلَّها بالتوجه الغزوي على الشعوب المستضعفة. لا نكن أغبياءَ فنتصوَّرَ أن لهذا العملاق إرادة واحدة وقدرة لا تقاوم وعزيمة لا تفُل. فهو أحزاب واتجاهات وديموقراطية واختلاف. يتردد العزم في جوف العملاق ذي الأرجل الطينية، وتفشَل إدارة وتفتضح أخرى، وتضغط اللوبيات ويَثْقُلُ حِمْلُ قيادة العالم والمديونية الداخلية والخارجية المتفاقمة، فلا ينطق العملاق إلا تأتأةً ولا يُبين إلا عن رغبة في السلم وتفادي منظر الجثث الأمريكية على التلفزيون. والله هو القوي العزيز.

شروط الحوار وظروفه

لا يحمِلْنا على سوء التقدير وسوء الحكم أنَّ العملاق الأمريكي عدوٌّ كائد ماكر. ولا يحملْنا على الاستهانة به أن أمريكا دولة المال والمخدرات والجرائم والحضارة المادية الآفلة. فإن أفول الحضارات قد يستغرق قُرُونا. وإنَّ اختزال الحكم في إطلاق شعار «الشيطان الأكبر» هو كالتصديق بالمقالة الأمريكية التي تطلق على الولايات المتحدة وصف «مدينة الأنوار على رأس الرابية».

ولا يغرَّننا أن أمريكا أكثر الأمم صراخا بأنها نصير الحرية وحامية حقوق الإنسان في العالم، فإنها أشد الأمم عداوة لحرية الآخرين وحقوق الآخرين، خاصة إذا كان الآخرون هم المسلمين.

إن من شروط الحوار مع عالَم غربي، أمريكي على الخصوص، لا يؤمن إلا بالقوة هو أولا وقبل كل شيء أن يكون لنا من ذاتنا، أستغفر الله، أن يكون لنا من عونه سبحانه وتوفيقه، قوة ذاتية اقتحامية. وقد كتبنا بفضله تعالى في الباب الأول من هذا الكتاب كيف نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله عز وجل ما بنا.

ذلك هو شرط الشروط: إيمان المؤمن المقتحم العقبة العالم بواجبه الديني الجهادي وبالعالم، المنتظم في جماعة المسلمين المجاهدة، الباذل نفسَه وجهده وماله لنصرة دين الله، واثقا بوعد الله ورسوله، مشتاقا للقائه، موقنا باليوم الآخر. وإصلاح الدولة، وتعلم التكنولوجيا، والتنْمية وإعداد القوة مكاسب لاحقة.

ثم نستبصر في واجبنا الحواري وهو الصدع بما أُمرنا، ورفع صوتنا باستقضاء حقنا، وبنصرة المستضعفين، وبالدعوة إلى الله والبلاغ عنه والبيان للعالمين. والصدع كما قال اللغوي: «شق الأجسام الصلبة». وإذاً فلا بد لنا من تلك القوة الذاتية القوية القادرة على الصدع بما أمرنا.

بيننا وبين أسماع الخَلق، بيننا وبين استخلاص حقوقنا، جبهة عِدائية متمثلة في الدولة اليهودية رأسِ الرمح ومن ورائها أمريكا زعيمة مجلس الأمن وقائدة الأحزاب بعد انهيار الشيوعيين.

جبهة عِداء للإسلام لا يكف من غُلَوائها إلا قُصور الأعداء، وهم العالم الجاهلي الاستكباري بأسره، عن القدرة، وإلا حدودُهُم السياسية الاقتصادية القانونية التي سنعود إليها بعد حين إن شاء الله ربُّنا.

في الهند وكاشمير عِداء سافر مستمر فتاك بالمسلمين. في بلغاريا ويوغوسلافيا وجمهوريات السوفيت لم يخِفَّ البلاء فيها عن المسلمين إلا منذ بداية البرسترويكا. تحررت كل الجمهوريات في أوربا الشرقية من نِيرِ الشيوعية إلا ألبانيا، لماذا؟ الجواب البَديهي هو لأنها كانت مسلمة، فيخشى الأعداء إن تحررت أن تعود لإسلامها. وهي عائدة، نرجو ذلك من ربنا العلي القدير.

المسلمون يشكلون الأكثرية الساحقة في جمهوريات جنوب ما كان يدعى بالاتحاد السوفياتي: أذربيجان والكرج (جورجيا) وطاجقستان، وأزبكستان وتركستان وسيبريا. لا يعامل الروس، حتى بعد البرسترويكا، المسلمين الممركسين المغربين شر غربنة كما يعاملون سكان لتوانيا وإستونيا ولاتفيا النصارى الأوربيين. ثار هؤلاء على الحكم المركزي فواجههم الزعيم جرباتشوف بالحوار، وتفادى الصدام المسلح، وقامت أوربا على قدم وساق وأمريكا تحتج وتوصي بالحوار وتهدر. وثار المسلمون في أذربيجان فكان الحوار معهم بالدبابات والمدافع.

عِداءُ العالم الجاهلي للإسلام قضية مكشوفة يشاهدها العالَم على التلفزيون منذ ثلاث سنوات يقْتل فيها أطفال الحجارة. قضية مفضوحة لما تألب العالم على الثورة الإسلامية بإيران.

ولا يُخفي أحد من أعدائنا كراهيته للإسلام. فالكل يفهم ويعبر عن التوجه الجديد في النظام العالمي الجديد. ما توفر من سلاح وجهد ومال كانتْ أمريكا

والحلف الأطلسي خصصه لاحتواء الدب الأحمر يوجه من الآن فصاعدا إلى احتواء العدو الجديد: الإسلام.

ذلك ما عبر عنه الدب الأليف جرباتشوف، أليفٌ رجع إلى حضن أسرته بعد توحش سبعين سنة، حين قال: «إن من الخطإ أن نتوهم أن الولايات المتحدة تمثل العدو الأول للاتحاد السوفياتي. إن عدونا الأول في الحقيقة هو الإسلام».

ويكتب باحث ياباني، وكان اليابان أحقَّ أن يكون محايدا لولا فُشُوُّ الروح العِدائية لنا في العالم، هذا التحليل المنشور في جريدة «جابان تايمز» في طوكيو. قال: «هل يمكن للإسلام أن يحُل محل الشيوعية كخطر أكبر على الغرب؟». [1] ثم يأتي الباحث بالأدلة التاريخية والمعاصرة التي تساعد القارئ على الإجابة القاطعة بنعم. -ويكشف الكاتب أن الصراع الذي دار سابقا بين الرأسمالية والشيوعية كان مجرد انحراف وقتي في مسيرة التاريخ الغربي الطويل.

وهكذا يكشف الياباني عن نوايا أعدائنا في علاقاتهم بنا في النظام العالمي الجديد ويكتب: «إن التاريخ بالقطع لن ينتهيَ، كل ما هناك أن محوره قد تغير. فحيثما نمعن النظر من حولنا بحثا عن الأخطار والتهديدات على مجتمعاتنا الحرة المتقدمة فإننا نكتشف أن مثل هذا الخطر موجود، وهو الإسلام»[2].

أمّا وقد أعطينا لصلابة الحاجز العِدائي أمام إرادتنا للاقتحام والصدع حقَّه من التأمل، فلنرجع إلى ما في الجبهة المعادية لنا من ثغرات ومن نقط ضعف.

من الباحثين المستهينين بنصر الله، ينصر من يشاء، من يقلل من أهمية الفتوحات الإسلامية على عهد الخلافة الأولى، وَيَعْزُو انهيار الإمبراطوريتين الفارسية والرومية أمام الزحف الإسلامي إلى طول مواجهة بينهما لا إلى قوة المسلمين. ينظر المغربون المحللون إلى القوة الماثلة الحالية لأعداء الإسلام فيستبعدون أن يكون للإسلام أي مستقبل.

(1) يوم 8-2-1990.

(2) جريدة «جابان تايمز»، يوم 8-2-1990.

فليكُن النصر الأول راجعا إلى ضعف الأعداء الفرس والروم، فرْضا نجاري به المحلل المادي، فأين أنت من صنع الله عز وجل، بأسباب ظاهرة وبلا أسباب!

1. إن كتلة أعدائنا اليوم وغدا لها، لكل عضو فيها قديم وحديث، أليف أو متآلف، مصالحُ متنافرة. إنها كتلة متعددة الأقطاب، انفكت ثنائية أمريكا–السوفيات لتحل محلَّها جوقة عالمية مؤلفة من أوربا المتحدة، واليابان وإمبراطورية الاقتصاد في المحيط الهادي التابعة لليابان، والصين، والهند، والبرازيل، واتحاد جنوب شرقي آسيا. وما يظْهَرُ بعدُ من تكتلات إقليمية كل منها تطالب بنصيبها من خيرات العالم، وبحقها في مراقبة القرارات التي تَمَسُّ مستقبل العالم وتهدد استقراره.

من ثَمَّ التفاف وائتلاف، بل تنافس واختلاف.

2. من الثغرات المهمة في جبهة العِداء للإسلام أن الاستقرار في العالم، وهو مطلَبُ الكل ومصلحة الكل وضرورة الكل، لا يمكن ضمانه إلا بتسيير شؤون العالم في قنوات قانونية دولية. وإلا أصبح العالم غابة ضارية. هذه القانونية الدولية مصلحتنا وضرورتنا، نسلك معها شوطاً حتى نحوِّرها ونعدِّلَ ميلَها.

3. من أهم الثغرات وأهم دوافع العالم ودوافع المسلمين إلى الحوار لا إلى التصارع حاجة العالم وحاجة المسلمين إلى الاستفادة من النفط. النفط الآن لعنة على سلاطين العرب، وغدا إن شاء الله، ولمدة قرن أو قرنين والله أعلم، يكون للمسلمين الزّادَ والوسيلةَ لإخراجهم من دائرة التخلف الاقتصادي العلمي التقاني.

4. من أهم الثغرات في جبهة الأعداء أن القرارَ السياسي عندهم ليس إملاء من جهة واحدة، وهذا إيجابية من إيجابيات الديموقراطية دين العالم الجديد. ويشارك في القرار مديرو الأبناك والشركات الكبرى. وهؤلاء صديقهم الربح، والمسلمون مليار زبون يجب أن يُتَحَبَّبَ إليهم لاَ أن يحاربوا. والنفط عصب الاقتصاد العالمي يجب أن تستقر الأمور عند المسلمين لتستقر أسعارُه.

5. بانتهاء الحرب الباردة بين العملاقين انتهى عهد دعم الدكتاتوريات الصديقة الموالية بلا شرط. وتعلَّمَ العملاقان من زلزال أوربا الشرقية أن لا قرار لحكم استبدادي. كان سقوط الشاه درسا استوعبته أمريكا. واستوعبت أيضا أن إيران الثورة تتمتع بنظام إسلامي مستقر حُرٍّ يدعَمه الشعب. فأعداء الإسلام لم يعودوا مستعدين للتعامل مع الأنظمة الاستبدادية. لا شك أنهم سيحاولون إفشال كل محاولة لإقامة حكومة إسلامية حرة، لكنهم بعد أن يغمِزوا قناتَها ويتأكدوا من قوة بنياتها سيرجعون إلى خِطبةِ وُدّها كما نراهم يفعلون مع إيران بعد الإمام الخميني رحمه الله.

6. من الظروف المسعفة للحوار بدل الصراع الموجةُ الديموقراطية الجديدة في العالم. وإن الديموقراطية واللبرالية الاقتصادية وتعدد الأقطاب تفتح لنا الأبواب مُترعة للاتصال والمساومة في السوق الاقتصادية التنافسية، كما تفتح لنا آذان الخلق الأحرار لإبلاغ كلمتنا والصدع ببلاغنا وبياننا. لا يَصُدُّنا عن الصدع إلا عجزُنا عن اقتحام الحصار الإعلامي. ولا يمنعنا من المساومة في السوق اللبرالية إلا أن يسكننا التخوف من «بعبع» مُوَحَّد فتاك لا وجودَ له.

7. أُسُّ الديموقراطية ومضمونها هو حقوق الإنسان. لا نقبَلُ أبدا من هذه الحقوق ما يصطدم بشرعنا الحنيف. فيما عدا هذا فنحن مع إكرام الإنسان ومع المنظمات الإنسانية الساعية لإكرام الإنسان، ومع نصر الأمم المتحدة في جهودها لإكرام الإنسان. هذا من المعطيات الأساسية في العصر، ومن الحجج ضِدَّ الأعداء.

8. من وراء القانونية الدولية، ومن وراء الديموقراطية، الذي يقرر آخرَ المطاف هو المصلحة ولا شيء غيرُ المصلحة. سياسة الأمر الواقع (ريالبولتيك) هي السياسة، والمبدئية والقانونية لهما مرونتُهما، أوْ يُقْسَرانِ عليها متى تعارضتا مع المصلحة. مصلحة العالم أن يجد وسيلة للحوار مع مليار مسلم هم في ظروف الوعي بما يفرضه عليهم دينُهم من وحدة. ولله عاقبة الأمور.

قضايا للنقاش

بين أن يُسمع للمسلمين صوت وأن يَصْدعوا بما يؤمرون آجال لإعداد القوة. صوتُهم الآن تمتمة عاجزة في مؤخرة الأحداث. يومَ يقوَوْن فقط ويستجمعون القوة يكونون مؤهلين للمشاركة الفعالة في اتخاذ القرارات الحاسمة في مستقبل الإنسانية. يُتخذ القرار الآن وهم حاضرون كالغائبين في قضايا يتناقَش فيها كبار العالم مثل السلام والحرب، وتوزيع العمل بين دول الشمال ودول الجنوب، وتوزيع الثروة، والغِذاء، وإنتاجه، وأسعار المواد الخام، والأخطار المحيطة بالبيئة والمهددة لمستقبل الأجيال البشرية ربما أكثر من تهديد الانفجار النووي، وارتفاع درجة الحرارة في محيط الكوكب من تبعات التصنيع المعمم، وانخراق طبقة الأزون الحامية، وسوء استعمال الطاقة، والإسراع إلى الربح الناجز الذي يضيع على المستضعفين الطامحين في التنمية الفرص ويُجرعهم الغصص.

آفات تلويث البيئة وظلم الإنسانِ وتفاقم الفجوة بين الأغنياء والفقراء. قضايا تحتاج أن تناقش وتحل بأخلاقية كوكبية تزُمُّ النزوات الاستغلالية الرأسمالية وتنشر العدل والسلام. أخلاقية لاَ تَلِدُها رحِمُ حقوقِ الإنسان المعلنةِ الـمُخْلَقة، وإنما يلدها طموح عال لا تشغله قضايا الساعة وتطور العالم السريع المذهل عن الطموح للحق، عن الطموح لله وللدار الآخرة. ﴿**يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ**﴾[1].

وفيما بين المسلمين بعضِهم مع بعض قضايا تحتاج لمناقشة متأنية صابرة على الاختلاف، فاتحةٍ باب التسامح للاجتهاد، منها السياسيَّةُ الحركيَّةُ مثل القطرية والعالَمية ومن أين نبدأ البناء، ومنها الفقهية مثلُ تحديد ما معنى السنة وما معنى البدعة وكيف نعامل المسلمين أبمنطق التشديد والتكفير أم بمنطق الدعوة

(1) سورة النور، الآية 25.

بالحكمة، ومنها الحِكَمِيَّةُ مثل التدرج في تطبيق الشريعة، ومنها المبدئية العقَدية مما يشتغل به متكلمو العصر الناظرون في كتب الخلاف، ومنها الأساسية المصيرية مثل العدل والشورى والوحدة.

ولعل شبح سقوط الدولة العثمانية يخيم على خيال الناس من حولنا وعلى خيال الكثيرين منا فيحول دون الحوار المثمر بيننا وبين اللاييكيين الذين يرون فينا امتدادا لظل الدولة العثمانية التي عانى العرب ظلمها. ويوَطِّدُ اتهامَهم ما يقرأون من إشادة بعضنا «بالخلافة» العثمانية والأموية والعباسية، وما يراقبونه من امتداد أيدي الكثيرين لأموال سلاطين النفط ورثة العض والجبر.

شبح الدُّوَل العاضة المنحرفة في تاريخنا يحول دون التفاهم والحوار المثمر يانعِ الثمار بيننا وبين إخواننا الشيعة. تثور ثائرتهم عندما يلمسون من بعضنا انضواء تكتيكيا فرضته الظروف تحت لواء السلاطين المتسلطين، فينتضون حسامَ الطائفية ليقاتلوا يزيدات العصر ويقاتلوا معهم الإسلاميين المنضويين وغير المنضوين، يطعنون في أهل السنة والجماعة «العامة»، سائرين على درب التشيع التقليدي.

وليس العيبُ في إخوتنا الشيعة ومن جانبهم، لكن العيب من جانبنا أيضا، من جانب سلاطين العض قارونات العصر ويزيداته الذين ينفقون أموال المسلمين بسخاء المبذرين وحَنَق الـمَوْتورين لتُنْشَر كتب الثلب في الشيعة، ولتُحفَرَ الخنادق بيننا وبينهم، ولتُشعل نار الفتنة. وهكذا يجترُّ الكتبة الخلاف القروني وينظرون في كتب الطعن على الروافض ليبثوا الوقيعَة بين المسلمين، وليلتحموا مَع الشيعة في نزال دائم بعثوه من القبور، ونفخوا فيه البغضاء المتجددة فنعتوا الشيعة بالمجوسية وحملوا لواء القومية العنصرية مع صدام القومي خادم الصليبية بالأمس القريب وحليفِها في «قادسيته».

صفحات كالحة من تاريخنا وتاريخ التشيع كان الأولى بالثورة الإسلامية الإيرانية أن تطويَها من موقع القوة وتمدَّ يَدَ التعاون مع الصادقين نابذة الخصوصية

الطائفية. لكن إخواننا في نشوة الانتصار عانقوا طائفيتهم وحملوا مشعل «تصدير الثورة»، يقصدون بتصدير الثورة تصدير بضاعة الطائفية ملفوفة في ثياب الثورة على خلفاء يزيد. وهكذا اشتغلوا بتصفية الحسابات المتأخرة مع معاوية ويزيد، وأثاروا حفيظة كثير من الإسلاميين الذين صفقوا للثورة. بحماس، ثم غشيتهم الحيرة لما أسفرت الثورة عن وجه طائفي.

في نسيجنا الغثائي العميق، ما بين سنة وشيعة، جراثيم الفرقة المعششة مع عناكب التقليد. فحوارنا مع بعضنا بعد الثورة الإيرانية والحرب البعثية العدوانية يكاد يكون أشبه بالصراع بين الوثنية والإسلام. وقد آن أن يفهم إخواننا الشيعة عن الله العزيز الحكيم الذي شاء قدَرُه، بكسب البعث النكير، أن يقف تصديرُ الثورة ليلتمس المسلمون سبيلا للتحاور والنقاش والتفاهم غير سبيل التعصب الطائفي.

ولئن كان من حَمَلة الأقلام من غَمس ريشته في مداد الكراهية الصرفة، وأكل من موائد يزيدات العصر، فإن من علمائنا الأفاضل من أنكر تمادِيَ الشيعة المنتصرين في استفزاز مشاعر إخوانهم، خاصة في تقديس الأئمة عليهم السلام وفي الطعن الشنيع على الصحابة رضي الله عنهم.

مضى زمن التوهج الثوري مع الإمام الخميني رحمه الله، ونرجو أنْ قد جاءت الحكمة والتبصر ليتعامل الشيعة معنا برفق الأخوة والتغاضي عن أسباب الخلاف كما تعلمت دولتهم بعد عشر سنوات من الصدام مع «الشيطان الأكبر» السعي إلى تعامل دولي معتدل.

إن كان الشيعة، وهم المؤمنون بالله وباليوم الآخر، يطيب لهم أن يلقَوْا ربهم عز وجل وفي صحائفهم سب الصحابة رضي الله عنهم فذلك شأنهم. ولا شأن لنا نحن بتقديسهم لآل البيت عليهم السلام الذين نعتبر محبتهم وتعظيمهم دينا من الدين شريطة أن لا يستفزونا وأن يكتموا ما ثَمَّ مِن مُخَلَّفات الشَّيْنِ وحواشي البَيْنِ.

عندما يهُبّ عالم مثلُ الشيخ أبي الحسن الندوي ليعبر عن استيائه، وهو مَن هو استقلالا وإخلاصا، إخلاصا على كل حال واعتدالا، فمن واجبنا وواجب الشيعة أن يستمعوا لصوت معتَدل لا يكفر، لكن يعتِب عتابا شديدا. نرجو أن لا تنبو اللهجة وترتدَّ عن تبليغ إخوتنا الشيعة ما نُكِنُّهُ من إشفاق على مستقبل وحدة المسلمين.

قال الندوي في كتابه «صورتان متضادتان» يعدد بعض مآخذه على الشيعة: «مفاد هذه المعتقدات أن جماعة الصحابة الكرام رضي الله عنهم التي بلغ عددها في حجة الوداع فقط إلى أكثر من مائة ألف صحابي، ما بقي منهم على الإسلام إلا أربعة فقط بعدما لحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى. أما غيرُ هؤلاء الأربعة فكلهم سلكوا مسلك الردة -والعياذ بالله- والقرآن محرف بكامله، وكان أئمة أهل البيت (من وِجهة التقية التي تُعتَبَرُ واجبا دينيا وعزيمة) كاتِمِينَ للحق، ومغيِّبِينَ للقرآن بعيدا عن كل خوف وخطر، ويلقنون أتباعهم ذلك». [1]

نظر الشيخ الندوي في كتب الشيعة فكتب بغَيرته. وهو الرجل المجاهد في الميدان، الرفيقُ الحكيم، الذي يحاور الهندوس في محافل جمعيته «مستقبل الإنسانية» إبْقاء على الأقلية المسلمة المضطهدة في الهند. رجل يحاور أنجس الخلق الهندوس ما كان ليضيق بحوار إخوة لا إله إلا الله محمد رسول الله لولا تنطع «تصدير الثورة» أي تصدير التشيع وتعليم أبناء المسلمين الاستخفاف بالصحابة. وإن الاستخفاف بالصحابة تكذيب للقرآن الكريم الذي شهد للمهاجرين والأنصار أعظم الشهادات. وليس الأنصار والمهاجرون فقط البضعة عشر رجلا الذين سَلِموا من طعون الشيعة.

ثم إن العاملَ السياسي الذي دفع بالشيعة إلى قُدَّامِ المسرح، وثورتَهم المجيدة، ما كان لها أن توَظَّف لجلب حماس الشباب السني. لولا دعا المنتصرون شبابنا لمنافسة الحماس والتفاني عند المجاهدين السنة بدلَ أن يدعوهم لنبذ عقيدتهم بحجة أنها العقيدة المعلنة ليزيدات العصر! لولا! لولا!

(1) كتاب «صورتان متضادتان»، ص117، مطبعة الكلمة 1405.

لعل الشيخ الندويَّ وأمثاله من رجال الدعوة الغيورين المشفقين تكلموا وكتبوا من خنادق الجهاد المشترك يريدون تصويب الطلقات إلى نحور الأعداء لا تحريفها إلى عقائد الأَوِدَّاء. من حرارة المواجهة كتبوا وتكلموا. والآن بعد همود نار الثورة وخمودها تفرض الحقائق الباردة، وتفرض الحكمة، ويفرض الدين أن نلتمسَ وإخوتنا الشيعة مسلكا للحوار الهادئ.

كان بَدَأَ هذا الحوارَ منذ ستين سنة ويزيد جماعةٌ من علماء الفريقين ساهم الأستاذ حسن البنا رحمه الله في جهودهم. ومن موقع الفقيه النزيه الهادئ الذي لا ينظر في كتب الخلاف إلا ليُسدِّدَ النظرة المستقبلية يكتب الشيخ أبو زهرة رحمه الله عشر سنوات قبل الثورة هذه الكلمات الرفيقة التي تعكس حسن مواتاة ما بدأه حس البنا وأصحابه رحمهم الله. قال أبو زهرة: «نقول مع الأسف الشديد: إن الخلاف الطائفي يشبه أن يكون نزعة عنصرية. وإن الذين يريدون الكيد للمسلمين يتخذون من ذلك منفذا ينفذون منه إلى صفوفه ليُقَطِّعوا الوحدة الإسلامية. فيجب أن نسد الطريق أمامهم».

وقال رحمه الله: «إن الخلاف بين الطوائف ليس في أمرٍ ما يتصل بعقيدة التوحيد وبشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ولا بالأصول التي تُعتبَرُ لُب الدين كالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها مما جاء به نص القرآن الكريم. وجُل الخلاف الطائفي ليس في مسائلَ تتعلق باللب، وإن ادَّعت بعض الطوائف أنها من اللب».

وقال رحمه الله: «لسنا نقصد محق الطائفية وإدماج المذاهب الإسلامية في مذهب واحد. فإن ذلك لا يجوز، ولو جاز لا يكون عملا ذا فائدة، لأن إدماج المذاهب في مذهب واحد ليس عملا علميا عند العلماء. فإن لكل مذهب مجموعة من المعلومات أقيمت على مناهجه، تتجه في مجموعها إلى النصوص الإسلامية والبناء عليها. هو ثمرات جهودٍ لأكابر العلماء في كل مذهب. وكل

إدماج فيه إفناء، وليس من المصلحة العلمية في شيء إفناء تلك الجهود الفكرية التي قامت في ظل القرآن والسنة الثابتة». [1]

وينتهي الشيخ الفقيه المتبحر رحمه الله إلى الدعوة لنبذ الصراع الطائفي حتى لا يبقى إلا التنوع المذهبي، يكون المذهب الجعفريُّ خامس المذاهب الإسلامية.

والسؤال الذي أمام مستقبل الحوار السني الشيعي هو مدى استعداد الفريقين للتغاضي والسكوت عن كل ما يفرق، يحتفظ المتحاورون، في مجالس الحوار وفي الدعوة الموجهة عبر الحدود، بخصوصياتٍ صنعها التاريخ ريثما يعيد الجميع النظر في المرحلة التأسيسية التي لم يكن فيها بين الإمام علي كرم الله وجهه وبين معاوية وأنصاره أي خلاف البتَّةَ في العقيدة ولا في الفقه. ريثما نكشف جميعا جذور البلاء لنقلعها.

والله الحكيم يؤتي الحكمة من يشاء. سبحانه.

(1) كتاب «الوحدة»، دار الرائد العربي، ص275 وما بعدها.

الفصل السادس

مع المستضعفين

- المستضعفون والمستكبرون
- في سبيل الله والمستضعفين
- الآلة الاستكبارية

المستضعفون والمستكبرون

يتمتع إخواننا الشيعة بإحساس مُرهف في حق المستضعفين والمظلومين. ولِمَ لا ووَلاؤُهم مطلق لإمام الزاهدين وقدوة العادلين مولانا علي كرم الله وجهه، ولوعتهم عميقة على المظلوم الأعز مولانا الحسين عليه السلام!

لكن يا ليتهم! يا ليت! يا ليت! يقتبسون شَمَّةً من تسامح الإمام كرم الله وجهه الذي قال تعليقا على الآية الكريمة: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾[1]، قال: أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير منهم. ليتهم! ليت! ليت! يكفون عن سخافاتهم في حق أم المؤمنين وقد أكرم الإمام عليه السلام مقامها بعد وقعة الجمل وشرفها بخدمته الشخصية.

ذلك الذي بدَرَ بين الصحابة رضي الله عنهم بلاءٌ ما هو عبث. ومن السقوط في البلاء مداومة تنزيف ذلك الجرح الأليم واشتقاق سلوك الأجيال من أكداره.

إن الله عز وجل يبتلي العباد بالقبض والبسط، وكل شيء عنده بمقدار، وما من حدَثٍ جَلَّ أو قَلَّ إلا وله مغزى ومعنى كوني وجودي دنيوي أخروي.

والإيمان السوِيُّ هو الذي يعطي للقَدَر الإلهي أدبَه، ولسعي العباد ومسؤوليتهم حقهما، في توازن وتعادل وحكمة. ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[2].

من بلائه عز وجل التفاوت بين العباد في الأرزاق والقسمة في الدنيا. إن كان المادي، مثل ماركس مثلا، يتصفح التاريخ البشري ليُرَكِّبَ تفسيراً لآليات التظالم الطبقي، أصاب أو أخطأ، فالمؤمن يهتم قبل التحليل التاريخي الأرضي بِمعرفة المعنى لما يجري.

(1) سورة الحجر، الآية 47.

(2) سورة المؤمنون، الآية 115.

لماذا خلق الله البشر الذين استجابوا وآباؤُهم في النصف الجنوبي من الأرض، فيه الجدب والفقر؟ لماذا فتح أبواب كل شيء على الكافرين وضاقت الأسباب الأرضية بالمسلمين؟ أعبثٌ ذاك وصُدْفةٌ؟ أم دورة تاريخية بين مد وجزر لا معنى لها؟

كلا والله! فالبلاء في الدنيا والحكمة، كشفها لنا أو لا، هي سنته تعالى في الكون والتاريخ، وتداوُل النصر والهزيمة، والموقع الجغرافي للمسلمين، والنفط، وكل ما يتحرك أو يسكن. وكُنْ بعد ذلك ذكيا لبيبا لتفسر جريان الأسباب ما شئت.

يبتلي الله عز وجل المسلمين بالفقر. قال جل وعلا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[1]. يبتليهم بالرزايا ليرجعوا إليه عبيدا مطيعين متضرعين. ويبتلي الكافرين بالثروة والقوة فيطغَوْن ويستكبرون في الأرض بغير الحق. قال جل جلاله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[3].

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». حديث رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه. هذا هو الأصل والمعنى. وعلى المؤمن، وعلى المسلمين، أن يقاوموا ظلم المستكبرين وعلوهم في الأرض ليكسبوا رضى الله عز وجل، لا أن يستكينوا للواقع كما تجر إلى ذلك العقيدة الجبرية التي فعلت بالأمة الأفاعيل. والرجل من يقاوم القَدَرَ بالقَدَر كما يقول الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله. هو سبحانه قسَم الأرزاق قَدَراً، وهو سبحانه أمرنا أن نقاومَ ما يتظالم العباد ويطغَوْنَ. ويحكم ما يريد فيهم فيظهر من النتائج في الدنيا والآخرة ما استحق هؤلاء وهؤلاء.

(1) سورة البقرة، الآيتان 155-156.
(2) سورة المؤمنون، الآيتان 55-56.
(3) سورة العلق، الآيتان 6-7.

قال جلت عظمته: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(4).

يبسط الرزق سبحانه لمن يشاء ويقدِر، وبسطه لأبناء الدنيا أصل من أصل سنته في الخلق وابتلائِهم وامتحانهم. كما أن الجهادَ في سبيل الله والمستضعفين أصل من أصول شرعه. الحكمة الجمعُ في نظرة واحدة، لا تَنَاقُض، بين أمره الكوني القدَري وأمره الشرعي الجهادي. وما يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم. وإلاَّ اتهمْتَ القَدَرَ، وخمُلْتَ في جَبْرِية عاجزة أو تمردت في قَدَريّة مارقة.

يَفتِن المولى سبحانه أبناء الدنيا بزهرة الدنيا، فيَنْكَبُّون عليها ويقولون كما حكى عنهم الذكر الحكيم: ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِين وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(5).

ويكون أولَ مظهر من مظاهر الاستكبار الأَنَفَةُ مِنْ عبادة الله عز وجل. عِزَّة واستكبار هنا جزاؤهما الذل والعذاب هناك. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(6). ويُكَذِّبُ المستكبرون آيات الله، ويدفعون في صدر رسل الله، ويظلمون عباد الله المستضعفين. إن دفَعَتْ بعضهم لإنكار الحق ووجود الله والدار الآخرة فلسفةٌ دهرية، أو تقليد لما كان عليه الآباء، أوْ تعليم في الطاحون الإلحادي، فغالب ما يمنع أبناء الدنيا من العبودية لله عز وجل تَسَرْبُلُهم في أنانيتهم واستكبارهم. قال جل وعلا: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(7).

(4) سورة الزخرف، الآيات 31-35.
(5) سورة سبأ، الآية 35.
(6) سورة غافر، الآية 60.
(7) سورة الأعراف، الآية 36.

يتقمصون الأنانية المستكبرة، أو تتقمصهم، فيتألهون ويؤلِّهُون هواهم ومتاعهم وبضاعتهم وقوتهم. فيسعَوْن في الأرض فسادا، ينازعون الله عز وجل أوصاف الربوبية فيقصِمُهم هنا إن شاء بأيدي المستضعفين القائمين بالحق، ويدَّخر لهم عذاب الآخرة وهوانها. روى مسلم وأبو داود عن أبي سعيد وأبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال تعالى: «**الكبرياء رِدائي والعظمة إزاري. فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار**». اللفظ لأبي داود هنا.

يبدأ النزاع والظلم من جانب المستكبرين على عهد الرسل عليهم السلام، ويشتد النزاع والظلم كلما تجددت الدعوة كما هو الشأن في مقاومة المغربين والعالمِ المستكبرِ الصحوة الإسلامية في زماننا. قص الله تعالى علينا نزاع مستكبري ثمودَ قومِ صالح عليه السلام قال: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** ﴾[1].

وينتهي الحوار بين المستكبرين والمستضعفين يومَ الحساب في الدار الآخرة: قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[2].

لماذا يمنع المستكبرون الناس من الإيمان ويمكرون عليهم بالليل والنهار ليكفروا، وَيُدخلونهم في الطاحون الإلحادي؟ قصْد المستكبرين في كل عصر أن يحولوا بين الناس وبين عقيدة الإسلام التي تحرر العباد من كل عبودية لغير

(1) سورة الأعراف، الآيتان 75-76.
(2) سورة سبأ، الآيات 31-33.

الله، وتأمرهم شريعته بجهاد كل متأله في الأرض، نفسيّاً كان هذا المتأله داخلياً أو معتدياً أثيماً خارجيّاً.

لا يصح استعمال المصطلح القرآني التقابُلي مستكبرون/ مستضعفون إلا إذا كان الاضطهاد في الرزق وفي المقومات الأرضيّة مقترنا بالاضطهاد في العقيدة والشرع، وإلا إذا كان المستضعفون الذين أُمرنا أن نقاتل في سبيل الله وسبيلهم مسلمين أو من أمة الدعوة الذين يُرجَى أن يميلوا إلى الإسلام ثقة ومحبة واقتناعا بإسلام مجاهدٍ ينصرهم في قضاياهم الأرضية الرزقية لتتفتح آذان عقولهم وقلوبهم فيسمعوا كلام الله وبلاغ الآخرة وبيان التحرر من كل عبودية لغير من له الكبرياء والعزة سبحانه.

هكذا رتبتْ حكمة المولى سبحانه الأمور في التاريخ: أن يكون التفاوت والتناقض والتدافع. وأن يكون ابتلاء المسلمين أكثرَ شيء بالخَصاصة والنقص في الأموال والأنفس والثمرات. وأن تكون فتنة الكافرين أكثرَ شيء بالبسط في كل ذلك، فيطغَوْا في الأرض بغير الحق.

ورتبت حكمته تعالى في عالم الأسباب عِلِّيَّةً مِعيارُها قيامُ العباد واجتهادهم وإعدادهم للقوة وكسبُهم ونشاطهم الاقتصادي وحِذْقُهُم، أو كسلهم وتهاونهم وتخلفهم وعجزهم. كما رتبت الحكم العَلِيَّة أسبابا أخرى خُلُقية باطنية غيبية تُؤَثر في الواقع الحسِّيِّ للمسلمين وتشكل سوط تأديب يهُشُّ به القَدَرُ العزيز عباد الله ليرجعوا إلى الله.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتُليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطُّ حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخِذوا بالسنين وشدة الـمُؤْنة وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زَكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمْطَروا. ولم يَنْقُضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا**

بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم». رواه الحاكم بسند صحيح وابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما.

تؤول أسباب استضعاف المستكبرين لنا إلى سببيْن:أصْلي عام هو ابتلاء الله المسلمين بالنقص من الأموال والأنفس والثمرات، وفرعي هو العقوبة على ما كسبت أيدينا مما يفصله هذا الحديث العظيم الجدير بالتأمل، الحامل على التوبة والتضرع والإسراع لتغيير المنكر الذي تنصبُّ علينا تبِعاته على شكل قحط واستعمار وبأسٍ شديد بيننا وفرقة وعداوة.

إننا بصدد التماس الطريق لسلوك إسلامي يسدد خطانا في الحكم لكيلا تجرفنا السياسة إلى مهاوي الغفلة عن الله عز وجل. حضورنا الدائم مع سنته تعالى، وذكرنا له، واستحضارُنا لحكمته، سواءً كشفها لنا بالوحي وفصلها أو أجْملها، عاصِمٌ من أن نصبح كالناس فيَكِلَنا الله إلى أنفسنا. بذكرنا الدائم لحكمة الله وسنته في الكون ننطلق للجهاد في تحصيل أسباب القوة في دُنْيانا مطمئنين إلى أخرانا.

بلّغنا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم بشارة ينبغي أن نعتز بها ونفرح، بشرط أن لا نتخذها سَلْوة وذريعة للاسترخاء. قال صلى الله عليه وسلم: «**أمتي أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة. عذابها في الدنيا الفتنُ والزلازل والقتل**». رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن أبي موسى رضي الله عنه.

ومن حديث أنس عنه صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يُعْطَى عليها في الدنيا، ويُثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيعطيه حسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له بها حسنة يُعطَى بها خيرا**». رواه الإمام أحمد رحمه الله. الحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان.

في سبيل الله والمستضعفين

نعود بأنظارنا إلى عالم التكليف وما أمرَنا به الحق سبحانه وتعالى من الانتصار لأنفسنا ومن الجهاد في سبيله وسبيل المستضعفين في قوله عز من قائل: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾[1].

نزلت الآيات في الحث على إغاثة المسلمين المحجوزين في مكة عندما كانت مكة قرية ظالمـاً أهْلُها. والأمر بنُصرة المستضعفين والقتال في سبيل الله وسبيلهم عام لا يخصصه سبب النزول. وظلم الكافرين في زماننا لا ينحصر في قرية بل يعم الأرض وساكنيها، ويعم الجوَّ والبحر والهواء والماء.

كانت المائة سنة الماضية أعنَف فترة في تاريخ البشرية: حربان عالميتان تطاحن فيهما الأوربيون وجرُّوا معهم البشرية المظلومة إلى مسارح القتال. ثم تصالحوا على دَخَلٍ فحارب بعضُهم بعضـاً بوساطة المستضعفين طيلة بضع وأربعين سنة سمَّوْها حرًبا باردة، باردةً عليهم محرقة مدمرة علينا معشر المستضعفين.

في المائة سنة الماضية ترعرعت الفلسفة الماركسية فتولد عن أحلام لينين وسوط ستالين دولَةٌ قوية ظلت عقودا من الزمن أملا للمستضعفين في الأرض وسنداً ومَصدرا للسلاح. والآن انهارَ بناؤها فهي تتسكع على أبواب الأقوياء تتزعمهم أمريكا وعلى أبواب الأغنياء تمُد اليد لألمانيا واليابان.

كان الأملُ الآفِلُ في ما كان يسمى الاتحاد السوفياتيّ تعليقا لبؤس البؤساء ونكبة المظلومين على سَراب. فلا يُزالُ ظلم بظلم، ولا يَنْصُرُ المستضعفين مَن

(1) سورة النساء، الآيتان 75-76.

بُنِيَ أساسه على عنف الصراعية الطبقية. وها هي الجاهلية الموَحَّدةُ بقيادة أمريكا العسكرية وتحت المظلة القانونية للأمم المتحدة تُعَسْكِرُ على أعز بقعة في الأرض قرب مكة والمدينة تهدد كرامة المسلمين، وهم نموذج المستضعفين في الأرض، وترسُم معالـمَ نظام عالمي جديد يكون المسلمون فيه هم «دولة الشر»، والمقابلَ في المِرآة، والضد المطلق. هكذا هم في خطة الاستعمار المبيتة. وفي كلمة الله وأمره الشرعي ووعده الكوني هُم محط آمال الإنسانية وإن كانت الفجوة بين الواقع والأمل تبدو لعين المرتاب سحيقة.

أمريكا وحلفاؤها تعسكر على تخوم الأرض المقدسة مؤذِنة باضطهاد أشدَّ نِكايةً فينا من أي نكبة رُبَما من عهد غزو التتار لبغداد.

أكتب هذا ليلة الأحد الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة 1411، والحشود الأمريكية الحليفَة لليهود تهدد بشن الهجوم على القوة العربية الوحيدة التي تحسُب لها دولة اليهود ألف حساب. والأدهى من هذا أن الغزوة يمولها سلاطين النفط. العربُ يقاتلون عدوّ اليهود بأموال العرب!

أيّ مخاض هذا وأيّة هزة وأي زلزال وأي احتضار! تجرع المسلمون غصص تاريخهم الحديث كأسـاً أشد مرارة من كأس. وهذه هي العلقَم. المسلمون غرقَى في لُجَج البؤْس واليأس والإخفاق والفشل. فهذه ضربة أخرى من مقارع القدَر أليمةٌ، لعل المسلمين يَنفَضُّون من حَوْل الإديولوجيات الغربية، اللبرالية منها والتقدمية الاشتراكية، وينفضون من حول العصبية القومية ليَفيئوا إلى دين الله معتَمَدِ المستضعفين، وليبْنوا، بعد التخفف في أتُون الآلام من ركام الغثائية، ذاتـاً جديدة مُخْلَصة من شوائب الجاهلية، قوية بإسناد ظهرها إلى الله عز وجل لا إلى الأمل الشيطاني، قائمة لإسقاط عرش الشاهات أعشاش البلاء.

وتلك سنته سبحانه وتعالى عند كل عُقدة من عُقَد التاريخ البشري وعند بداية كل فصل من فصول الهداية أن يُذيق الغافلين عن آياته المعرضين عن أمره مرارة الفقر والبؤس ليرجعوا. قال تعالى يخاطب حبيبه محمدا صلى الله عليه

وسلم ويعَلِّمُه لنتعَلَّمَ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾[1]. وقال وقوله الحق: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾[2].

كلَّفَنا سبحانه، معشرَ خيرِ أمة أخرجت للناس، أن نقاتل في سبيله وسبيل المستضعفين. فعَيْنُنا الواحدةُ على سنته وسَوْطِ قَدَره، والعين الأخرى على التماس أسباب القوة الحسية والمعنوية لتغيير موازين القوى لصالحنا.

من أول الأسباب أن نكُف عن التعلق بالأحلام وعن إناطة مستقبل بالبطل المحرر، تداعب مِخيالَنا المكبوتَ صُوَرُ صلاح الدين، عند أقدامه نطرَحُ خيباتِ ماضينا وخسارةَ حاضرنا. من طفولة الشعوب، أو قل من هَرَف الشيخوخة، أن يُعْبَدَ البطلُ الوَثن. وقد عبد القوميون عبد الناصر وصداما وأزلاما أخرى صغرى في مدة جيل واحد، فقد آن أن نعبد الله وحده لا شريك له ونغْسِلَ وصْمَةَ الهزائم في طَهور توبة عامة، نتضرع إلى المولى جل وعلا، ونأخذ بأيدينا مقادَة مصيرنا ننتزعه من الأيدي المجرمة. فعدوُّنا الأول منا. وما أُتِيَ المستضعفون من جهة هي أنكى فيهم من أنفسهم، من حكامهم المجرمين، أجرموا وعتوا في الأرض واستكبروا استكبارا وتحالفوا مع المستكبرين لقعود المسلمين عن الطلب ولهبّتهم الطفولية مع كل ناعق.

كأني بالفلاسفة التقدميين والزعماء اللبراليين يعوضون عن إفلاسهم السياسي بعد سقوط عبد الناصر وعن إفلاسهم المتوَقع الأفظع بعد ما تسفر عنه غزوة صدام البعْثي بطنطنة جديدة. إننا لا نعدو أن نكون جنوداً مستميتين في تأييد قيودنا إن استمعنا بعد نزول مقارِع القَدَر لغيْر نداء الإسلام. نشُدُّ قيودنا التاريخية إن فعلنا.

هذه الحضارة الظالمة الغازية لنا جاهلية محضة، لا يمكن أن نشق من فكرها فكراً محررا، ولاّ من أساليبِها أسلوبا مُنجيـاً. لَطالما حابَى الحكام المستكبرون

(1) سورة الأنعام، الآية 42.
(2) سورة الأعراف، الآية 94.

من بني جلدتنا الغرب وفكره وأساليبه محاباة رخيصة. لَطالما لعِبوا بنا وساوموا على كرامتنا مع حلفائهم المستكبرين! واختلط علينا لَغَطُ اللبراليين والتقدميين نحسبُ فاشلَهُ نجيحَه، كما اختلط علينا مقالُ الحاكم المتمسلم لا نميز من رَغْوِهِ صَريحه.

هذه الحضارة الظالمة الكالحة نَهِمة لا تشبع، تدور في فلك الشهوة والأنانية والعنف والتمرد الوحشي. فمنذ خمسمائة سنة وهي تنهب خيرات الأرض وتضع الأغلال في أعناق المستضعفين، وتبيد الهنود الحمر في أمريكا تقتل منهم مائة مليون ويزيد، وتسوق الزنوج الأفريقيين في سلاسل العبودية إلى حقول القطن وعيش الهوان.

على جماجم البشر ومن أرزاق المستضعفين المشردين بنت حضارتَها وثروتها. وبفائض الثروة المنهوبة استطاعت أن ترفع مستوى معيشتها، وأن تُفرِّغَ أبناءها للتعَلُّم، وأن تشيّد صرْحَ الصناعة، وهياكل البحث العلمي، وأن تسخر العالَم ومن فيه لخدمة النفوس الشاردة الماردة.

فهي اليومَ وجهُ الاستكبار أكثر ما كان قتامة وكُلُوحا وبأسا ونهَما وشرا.

كتب أحدُ خبراء البيت الأبيض الأمريكي في تقريره عن قِسمة العالم قال: «العالم اليومَ مقسم إلى معسكرين تسوسهما قواعد مختلفة اختلافا جذريا: الاقتصاد ينظم الشمال، بينما القوانين التقليدية للقوة العسكرية تحكم الجنوب. هناك ثلاث نقط للتقاطع بين العالمين: النفط واللاجئون والإرهاب».

معنى الكلام أن الأقوياء الأغنياء الأثرياء المترفين المستكبرين في الأرض جالسون على مائدة الاقتصاد العالمي، لهم فَيْضُه ولَنَا غَيْضُه. وهناك في الأطراف يائسون بائسون في مخيمات صبرا وشاتلا يُقَتلون، وفي شوارع فلسطين يقتنصون، وهم بين الفَيْنَةِ والفينة يدفعهم اليأس والبؤس لمناوشة أعدائهم بسلاح الضعيف، فيمكننا أن نَمْسَح على جبيننا بدهن الأخلاقية الحضارية العالية ونشجُبَ الإرهاب.

معنى الكلام أنَّ نُقَطَ التقاطع بين العالمين النفطُ، للمحرومين من رِيعه مخيماتُ اللجوءِ ويأسُ احتجاز الرهائن، وللـمُوالين للشمال الناعمِ حصة من تَرَف الجالسين على المائدة.

بعد عشر سنوات ينضُبُ مخزونُ النفط في أمريكا وأوربا. ويبقى لمخزون النفط في بلاد العرب والمسلمين قرنٌ أو قرنان من الإمكانيات، تزيد المدة أو تنقص حسب وَتائر الاستهلاك الجنوني الذي يتضاعف في البلاد المصنعة مرة في كل عشر سنوات.

نسبة الأمريكان الشماليين من سكان العالم خمسة بالمائة، وهم يستهلكون ربع الاستهلاك العالمي للنفط. يبذرونه تبذير السفيه لمال أبيه. ولا يُتصوَّرُ ولا يُقبَل أن تمتدَّ يد إلى النفط بما يهدد مستقبل الشمال بشَل عجلة اقتصاده والنقص من مستوى رفاهيته. من هنا تنكشف دعوَى حقوق الإنسان ودعوى الأخلاقية والقانونية الدولية عن كَلَبٍ شَمالي واستعداد مستميت لقتال المستضعفين وقتلهم جميعا لتحيى أم الحضارات العتيدة.

للحضارة المترفة بُؤْسُها: المخدرات والجريمة المنظمة والأمراض العاهرة. سويسرا والسويد توفران لسكانهما أعلى مستوى دخل في العالم إذا استثنينا دخل العشائر النفطية العربية، وفي سويسرا والسويد يُضرب الرقم القياسي للانتحار. تقتل الحضارة المبتئسة لاجئي المستضعفين بالتفقير والتجويع والغزو المباشر. وتقتل أبناءها باليأس من حياة لا معنى لها ولا غاية ولا مذاق. ذلك الإنسان المحجوب بنمط عيشه وترف أحواله مستضعف أيضا محروم من حقه الأعلى. والإسلام هو أمل كل نوع من أنواع المستضعفين. والله هو البَر الرحيم. سبحانه.

الآلة الاستكبارية

نحن والمترفون على وجه هذا الكوكب كالمتبارِين في حلَبة صراع لا حَكَم فيها إلا ما يفرضه القوي على الضّعيف، ولا محكمة فيها إلا ميزان القُوى والفرصة المتاحة. كأننا. وفي التشبه بالـمُحَلِّلِ الماديِّ تذهب بي المذاهب عن سبيل الله وعن سبيل المستضعفين، فأنسى النيَة التي بها تصلح الأعمال أو تفسُد، فإذا أنا مكافح وطني ومناضل قوميٌّ.

لا أكون مؤمنا حقا إلا بالمداومة على القراءة المتزامنة، وما يُلَقّاها إلا الذين صبروا، لسنة الله في التاريخ ولسنته الشرعية. بالقراءة الثنائية المتزامنة أعرف قدرة الله عز وجل الغالبة فيطمئن قلبي فيَزيدني الاطمئنان مضاءً في بذل جُهدي وشَحْذِ عزيمتي واستماتتي على الواجهة.

هي آلةٌ واحدة، نفس الآلة، تستفز بظلمها وتطحن بعنفها كل المستضعفين. ما لي بها من قِبَلٍ ولا علَيها من سلطان إلا من كوني مبعوثا مُبَلِّغاً أمرني القادر عز وجل بإعداد القُوة، ووعدني بالنصر، وشرط لي وشرط عليّ شروطا.

فباستنادي إلى الأمر واعتمادي على الوعد أتقدم إلى الآلة من حيث كونُها آلة استكبار تُحادُّ الله ورسولَه لأقاتِلها وأجاهِد بقتالها المستكبرين، بينما غيري يستند إلى غضب نِضالي ويعتمد على أمل بشري فيقاتل بجنبي، ماله من جُهد إلا تعَبُ الدنيا إن فشِلَ ورخاؤُها إن فاز. والآخرة ما يفعلُ فيها وأفعل؟

بعد هذا فالآلة الاستكبارية هي الحضارة الرأسمالية بهياكلها وأجهزتها، وامتدادها الأُخطبُوطي، وماضيها في النهب الاستعماري، وحاضرها، وروحها، وجسمها، ولَوالِبِها، وسيرها، وحركتها.

آلة تصنع البؤس لأكثر من ثُلثي سكان المعمور ليَنْعَمَ بالترف القلةُ من المترفين.

قلت «المعمور»! لا بل المخروب. فإنها آلة تخريب وتدمير للعباد والبلاد.

جعجعة هذه الآلة وكلمتها وعقيدتها ووظيفتها التنمية بلا حدود، تنمية تصنع، تنتج، تستهلك. تستهلك لتنتج، وتنتج لتستهلك. والعباد لها خدَمٌ وتَبَعٌ. العباد لها عجلات مُضافة. بَيْدَ أن من العباد من تُطعمهم الحلو السمين ومنهم من تسحقهم سحقا. وكلا الفريقين مُستصرِخٌ بالحال أو بالمقال يضج من ظلم الآلة الشيطانية. ولكلا الفريقين عند الإسلام رسالةٌ، وعلى المسلمين حقٌّ أن يُصْرِخوه ويُغيثوه.

بحاله يَصرُخ الشقي في «سعادته» المادية، ذاك الذي ينتحرُ في سويسرا والسويد وغيرهما من بلاد التخمة. يصرخ بحاله ونفاد صبره وعَيْفه لنعيم الدواب لَمَّا حُرِمَ من معنَى الحياة، لم تبلغه رسالة الله وبلاغ الآخرة وبيان الجزاء ليعلَم أنه مخلوق خالد في إحدى الدارين بعد الموت والبعث لا مجرد قناة هضمية، لا مجرد دودة أرضية ونسل قردي رُميَ به في الأرض عَبَثا.

وبمقاله يضِج المحروم الـمُفَقّر المحَقَّرُ ويستصرخ مَن يُغيثه مِن ظُلم الآلة الاستكبارية الصماء التي نبذته وعرته وجوَّعته وقتلته.

الآلة الحضارية الرأسمالية أداة جاهلية صماء عمياء. والجاهلية عنف على الإنسان وعلى الطبيعة، وجهل بما هو الإنسان وما مصيرُه وما معناه وما مغزى مروره أجيالا من الحياة الدنيا هذه المنظورة.

الآلة الحضارية الجاهلية تؤله الشهوة وتعبد المادة وتنكر البعث. لها من جهلها عربدة الوحش، ومن عنفها سطوة الوحش. بوثنيتها وعنفها قسمت العالَم شطرين: عالـمَ الشمال المترف وعالم الجنوب الـمُفَقّر الـمُحَقّر. آلة إنتاج جنوني يُلهبه التنافس. آلة استهلاك تؤججهُ نار الإشهار ويَنفخ فيه فن التسويق. ولاَ تسأُل الآلة الصماء العمياء عن فائدة الإنتاج ما دامت الأسواق تَلْتَهِمُ البضاعة كما لا تسأل عن محدودية الموارد الأرضية والمواد الخام ما دام الاستِهلاك ينادي هل من مزيد.

بجنون دورانها وبِنيَّة مديريها المستكبرين ترهَن الآلة الاستكبارية حاضرنا ومستقبلنا ومستقبَلَ العالم، لأن رفاهية المستكبرين تتوقف على حرماننا، و«سعادتَهم» تتغذى من بؤسنا.

الظّلم هو الطابَع العام للحضارة المادية الآلية. وسَمَتْ هذه الحضارة على جَبين الخلْق مَيْسَما يتمايز به الناس حسب قدرتهم الشرائية. لأَهْلِ الحضارة من الجنس الأوربي المستعلي الحقُّ الأصليُّ في الحياة الكريمة، تدور السياسة والدبلوماسية والحرب لرَفع قدرته الشرائية. ثم لا بأسَ من التعامل الـمُربح مع كل طالب راغب منخرط في دين الاستهلاك ما دام يدفع. ولِمَنْ على وجه الأرض من البشَر الـمُعْدِمين الذين امتصت الآلة الاستكبارية الاستعمارية دماءهم الحقُّ في التقاط الفتات، والموت جوعا في إفريقيا وبنغلادش.

مِثالٌ للقسمة الـمُجحفة في الرزق بين الشمال والجنوب أن الوحدة الحرارية من أصل حيواني، وهي طعام الشمال الغني. يتطلب صُنْعُها إنفاقَ سبع وحدات حرارية من أصل نباتي. والوحدة الحيوانية طعام شريفٌ، لا يليق بالأبيض المترف ومن جلس على مائدته أن يستهلك السعرات النباتية كما يفعَل الفقير. لذلك فهو يطعم خنزيره وعجله سبعة أضعاف ما يُقيم بِنية الإنسان ويوفر صِحته ليضمن لنفسه طعاما من لحم ولَبن وجُبن وبيض.

حتى إذا فاض إنتاج الحبوب ومشتقاتها، وتكدست جبال من القمح ورُبىً من الزبد وأنهار من اللبن وأكوام من اللحم والبيض أنفق المترفون من أموالهم ومن حيلتهم وتقنيتهم التجارية ليُفنوا الفائض ويحددوا الإنتاج كيْلا تنخفض الأسعار العالمية فيضيعَ رقم من قيمة الإنتاج وتنخفضُ القدرة الشرائية للرجل الأبيض.

يتخلخل نمو الأطفال في العالَم المستضعف لنقص الغذاء، ويختل دماغ الأطفال لنقص مادة البروتيين في طعامهم. فلَو امتدت يدُ المنتج بالفائض أو ببعضه من اللبن والزبد، ولو أطعم المنتج قسطا من البطاطا والذرة والقمح أطفال المستضعفين بدل إبادتها بعد شِبَعِ الخنزير والعجل لكان للإنسانية المرتَهَنَةِ في

قبضة الآلة الاستكبارية وجه به تفتخر الإنسانية، مُحِسَّة أن للوحش الأناني الكاسر قلباً رحيما رغم كل شيء.

إن الحضارة المادية وآلتها الصماء العمياء تسيء إدارة الكوكب، وتُجْحِفُ بحقوق ساكنيه، وتعرضه لأخطار مميتة. فبإدارتها وعلمها وقصدها تَسوءُ تغذية الإنسان المستضعف، وتتدهور حالة التربة، وتُبذر الموارد النباتية والحيوانية والمعدنية، ويُسْرَف في استعمال الطاقة، ويُهدّد الـمُناخ، ويلوث الجو والأرض والبحر.

تقع على رقبة الرأسمالية المستكبرة مسؤولية التدهور في التوازن العام للكوكب وساكنيه. نظامها وقانونها وتسيير لَوَالِبها تُتيح أن يختطِف المجرمون البروتنات من أفواه الأطفال ليطعموها الخنزيرَ والعجل وتُتيح تبذير موارد الأرض، بل تدفع إليه وتشجعه. وهكذا يتصاعد بؤس أكثر من ثلثي سكان المعمور، المخروب بفعلها، كلما تصاعد نمو عالم المستكبرين.

تستخدم الحضارة المدمرة أحدث الآلات لتخريب الأرض والفتك بمن فيها. لا أتحدث هنا عن صناعة الأسلحة وعن مكانتها الضخمة في الاقتصاد الاستكباري المسيطر، وعن الكيد الاستعماري لتأجيج حروب هامشية يُصفق لها سماسرة السلاح وصناعه. وأكتفي بذكر مثال واحد على عنف الرأسمالية على الإنسان وتخريبها لمناخه. وليس للاشتراكية الآفلة مزية في الميدان، بل هي أشد تخريبا وفتكا. كانت.

أذكر مثالا للتخريب ما فعلته وتفعله الرأسمالية المتوحشة بغابات الأَمَزون بالبرازيل. هذه الغابات تضم خمسة وسبعين في المائة من أجناس النبات والحيوان في العالم، ويعطي تفاعل نباتها مع المناخ أربعين في المائة من الأوكسجين الـمُنتَج في العالم. ماذا فعلت وتفعل بهذه الغابات الرأسماليةُ المتوحشةُ الصماء عن احتجاج عقلاء العالم؟ تخريب جنوني لا يقف!

كان المهندس الزراعي «ماهلر» واحداً من التقنيين اللاَّ مُبالين، أيقظه إلى فظاعة الآلة الرأسمالية ما شاهده يوما على أرصفة مدينة «رسيف» بالبرازيل، فتحول داعية صارخا بحقوق الطفولة والإنسانية. مر يوما المهندس السالي اللا مبالي بأرصفة المدينة البرازيلية فرأى أطفالا ينازعون الكلاب بقايا النُّفايات المطروحة. وكان مشهدا لا يتحمله قلب فيه ذرة من إنسانية.

تطرحُ الرأسمالية، أوْه! فأختها الاشتراكية أشد وأنكى! نُفايات المصانع والملوثات الذرية والكيماوية في البر والبحر. وتكتري بالثمن البخس أرض المحرومين الجائعين لتدفن عندهم فَضلات الأورانيوم التي يدوم إشعاعها الخَطِرُ قرونا وقرونا.

نُفايات وفَضلات لم يعد العُتاةُ في الأرض المترفون يعرفون ما يفعلون بها. في نيويورك يفضُل عن كل شخص طنٌّ من النُّفايات في السنة. فهم يبعثرونها ويحرقونها فلا تجد مستَقرا إلا في الأنهار والبحار لتتسمم الأسماك، ويتبخَّر بعضها لتنعَمَ ببعض خيرات الحضارة الأَجواءُ والأفلاكُ.

دعك مما تفعله السيارة الخاصة وهي آلة رفاهية المترف ورمز حضارته وشارة نجاحه في الحياة. من أبخرتها ودخانها تكاثفت غازات الأوكسيد الكاربوني فأحاطت الكوكب بغُلالَة كيماوية ارتفعت منها الحرارة العامة، فالخبراء يتوقعون ذوبانَ ثلوج القطبين وارتفاع مستوى البحار، وغَرَقَ الشواطئ. دعك من تمزيق طبقة الأزون وتعريض البشر للأشعة فوق البنفسجية التي تهلك العباد بعاهات السرطان. والله لا يصلح عمل المفسدين.

الفصل السابع

التنمية

- «اقتصاد إسلامي»
- التعبئة الجهادية
- القومة وهمومها التنموية

«اقتصاد إسلامي»

في إحصاءات منظمة الأمم المتحدة أن خمسين ألف طفل من أطفال العالم يموتون كل يوم من الجوع أو من الأمراض التي تملك الدول الغنيّة علاجها ولا تَمُدّه ولا توصله لمستحقه، كما تتلف المنتوجات الغذائية أو تقلص الأرض المحروثة ليبقى السعر مرتفعا ويبقى مستوى معيشة المترفين موفورا. بينما ترغم البلادَ المستعمَرَةَ بالعساكر آنِفًا، المستعمرةَ اقتصاديا منذئذ، على إنتاج غِلَلٍ ترفيهية يَبتاعها المترفون بالثمن البخس الـمُجْحِفِ، فَتربِطهم هذه النوعية منَ الاقتصاد بعجلة الآلة الاستكبارية، فلا فَكاكَ لهم من الفاقة والعَوَز، ولا أمَل في تنمية عادلة مستقلة.

حضارة عاقَّةٌ للرحِمِ الإنسانيَّة، غامطةٌ للحقوق البشرية، فاقدة للحس الخُلُقِيِّ. واقتصاديات العالم تحت وصاية المستكبرين وإدارتهم وهيمنتهم خاضعة للسُّوق، لا يغشَى هذه السوق ولا يربح فيها ولا يتبَضَّعُ منها إلا من طَلَّقَ المبادئ وعانق دين الربح والكم والتكاثر.

إن الإسلام دين الله، وهو توجيه مِعياريٌّ يريد الإنسانَ أن يكون أخـًا مواسيا للإنسان، لا زَبونا بارِدَ العاطفة صامِتَ الحساب. والاقتصاد نشاط واقعيٌّ لا ينضبط ولا يزدهر ولا ينتعش إلا بضبط الحسابات وقياس الموارد والنتائج والمردودية. فكيف يصح ربط الكلمتين: اقتصاد إسلامي؟ وهل الاقتصاد إلا علم كالرياضيات وتفاعل كالكيمياء وميكانيكيات كالفيزياء كما يزعم الحاسبون؟

كيف نتخذ اقتصادا نابعا من الإسلام؟ هذا سؤال يُوازن سؤال: كيف ننظر لفيزياء إسلامية وكيف نطبقها؟

والحقيقة أن كل نشاط بشري له سُلَّم قِيَم، وله أهداف تَحكُم وِجْهتَه ومصرِفَه، ومَأْتاهُ وخواتمَهُ، مهما تنوعت الوسائل. والاقتصاد إما أن يخدم أهدافا شهوانية

أنانيّة عُنْفية فيكونَ اقتصادا جاهليا، وإما أن يخدم الأهداف الإحسانية، تنفقه اليد المؤمنة، فذاك إسلاميته وإن اتحدت الوسائل الإنتاجية وتشابهت.

الـمَدار في المسألة والسؤال هو: هل نستطيع أن نُسوِّدَ في علاقاتِنا بالمال وبالمنتوج الاقتصادي وعمليات التنمية وإجارة العمل وتوزيع الثروة وإشاعة الكفاية وإشباع الضرورات الركنَ الركين في الإسلام وهو الإنفاق في سبيل الله، وبذلُ الفضول، وكسبُ الحلال، وتوسيعُ ذات اليَد ليقدم كل امرئ من دنياه لآخرته؟ وعندئذ يكون الإنسانُ صانِعَ الاقتصاد وسيِّدَ التنمية، ويكونُ الاقتصاد والتنمية إسلاميين لإسلامية الفاعل فيهما لا لخصوصيةٍ ذاتية في المعطيات التي يسخرها الله عز وجل لكل من اتخذ الأسباب بَرّاً كان أو فاجرا، ويعَسِّرُها جل وعلا على من لم يتخذ ولم يجتهد ولم يتعلم ولم يتقدم.

التنمية الاقتصادية كما يُعَرِّفُها الخبير هي: «مجموعة أعمال منظمة ضرورية لتوجيه المجتمع إلى تحقيق ظروف معيشية جماعية وفردية منظمة تستجيب لنظام قيَمِي مرغوبٍ فيه».

تستجيب لنظام قيمي مرغوب فيه. قال الخبير. والجملة هذه هي الخبر المبني على مبتدإ «الأعمال المنظمة» لتوجيه النشاط وتحقيق الظروف المعيشية الجماعية والفردية. الصفة والموصوف هنا (الأعمال المنظمة) إما أن يخبرا عن نيات إسلامية وأخلاقيات إيمانية وأهداف إحسانية فتكون عملية التنمية وتصريف الاقتصاد بِرا وتقوىً وعملا صالحا يمتد أثرُه من الدنيا إلى الآخرة. وإما أن يخبرا عن نيات استهلاكية وأهدافٍ أنانية فما هي إلا زهرة الحياة الدنيا ومتاع إلى حين.

فلوجود القصد الإيماني الإحساني عند الفرد وعند المجتمع المسلم يحرص المالك والعامل والـمُدَبِّرُ على أن يكون له من الدنيا نصيبُه الحلالُ، لا يَظلم ولا يَقْبَل الظُّلم، وعلى أن يُعِفَّ نفسه وعائلَتَه، وعلى أن يبني القوة التي أمر بإعدادها. فكل الجهود عندئذ تصُبُّ في اتجاه اقتصاد الكفاية والقوة. التصنيع

ورفع مستوى المعيشة والتنمية الشاملة والنشاط اليومي وعلاقات الإنتاج ووسائله وإنتاجه وتوزيعه، كل ذلك يعطيه الإسلامُ مكانته وأهميته وحدوده.

وباختلاف القصد بين المجتمع المسلم وغيره يختلف مضمون التعليم وتقييم الأعمال ووِجهة النشاط المُجمَل. في المجتمع المسلم البارئ من أمراض الغثائية تُجعل ضرورةُ الضرورات تربيةَ الأجيال على الإيمان، لا تزاحم البرامجُ التقنيَّةُ البرامج التربوية. ويحملُ العمل والكسب والمساهمة في النشاط الاقتصاديِّ معنًى التعبئة الجهادية. وتُحدَّدُ لهذا النشاط التنموي أهدافٌ تلائم «العمران الأخوي» المرغوب فيه لا أهواءَ التملك الأناني والأَثَرة والتكاثر والترف.

ليست الهيكلة التنموية الاقتصادية التصنيعية مُعطىً واقعيا محايدا، لكنها نتيجة لاختيار قِيَميٍّ. ففي أساس إقامتها اختيار لسلوك معين وعلاقات اجتماعية معينة ونمط حياة معين. وعلى الإسلاميين أن يختاروا النمط الملائم لأهدافهم.

هذا في النظر والتوقع المستقبلي حين تكون إن شاء الله المقادة في يد الإسلاميين المؤمنين بأن محاربة شُح الأنفس وإشاعة العدل وبناء القوة مطالبُ جوهرية حيوية. أما عمليا فكيف نتحدث عن الاختيار واقتصادياتنا المتخلفة المبعثرة في أشلاء الدُّويلات ومُزَقها تابعةٌ لاقتصاد العالم القوي الغني؟ نحن تحت حكم الضرورة وسنبقى إلى حين، ولهم، هم السادة، اختياراتهُم وإمكاناتهم ووسائلهم المستقلة ونمط معاشهم، يفرضونها على العالم وسيفرضونها إلى حين وأجل يعلمه الله عز وجل.

كيف نتحدث نظريا عن خصائص اقتصاد إسلامي والمِعيارُ السائد اليوم هو معيار الاقتصاد الجاهلي القائم بالفعل، المسيطِرِ بالفعل، الناجح بالفعل؟ والناس من حولنا، وفي ديارنا، ومن أبناء جلدتنا، لا حديث لهم إلا عن اللحاق بالركب الحضاري العالمي، وما عندهم تُجاهَ الأمل الكامن فينا إلا السخرية والاستخفاف والاستبعاد. اقتصاد إسلامي!

إننا إذ نتحدث عن تنمية تخدم الأهداف العمرانية الأخوية البَرةَ بنا وبالإنسانية جمعاء، يسبِق بِرُّنا للمستضعفين في الأرض، لسنا نناغي أملا حالما. بل نرسُم معالمَ مستقبل الخلافة الثانية الموعودة، ويمضي ما شاء الله من زمان قبل أن يشتد ساعدُنا، وقبل أن نصل إلى توازن، ثم رجحان، يخدم أهدافَنا في الأرض وأغراض استخلافنا فيها. يمضي ما شاء الله من زمان علينا أن نعْمُرَه بالجهد المنظم المتواصل قبل أن ترجح كِفتنا ونستقلَّ ونقود اقتصاد العالم الخاضع في عصرنا هذا لتجاذُب نزاعات تتجدد ولا تستقر. إن شاء الله العلي القدير.

في عصرنا، والقيادة خَلُصَتْ للرأسمالية المستكبرة، لا يُطرحُ السؤال عن التفاقم الخطير بين تطور الوسائل المادية وجموح الاختراع بها وبين تخلف الإنسان المتحكم -متحكم حقا؟- في المقادة. هذا الإنسان المستعلي في الأرض ينظر إلينا من أعالي تفوقه التكنولوجي وتصرفه تصرف المالك في موارد الأرض ومُقدّرات ساكنيها، ويضحك ساخرا إن حدثته عن أخلاقية. وهل في الاقتصاد أخلاق!

متقدم هو إنسان الاقتصاد تقدما رهيبا في الخبرة والتنظيم والعلوم والتطبيق. متخلف في نظرنا في الأخلاق، مُتَيَبِّس شحيح ظالم، يشهد بظلمه وشحه ويُبسه ملايين الفلاحين في عالم المستضعفين الذين تصحرت أرضهم وفَنِيَتْ مواشيهم، ومات أطفالهم، وتشردت عائلاتهم، وامتلأت مجلات المستكبرين الملونةُ بصور بؤسهم. يشهد بذلك تحجر القلوب في بَر الجاهلية رغم التبجح الصاخب بالدفاع عن حقوق الإنسان. ولولا وجود المنظمات غير الحكومية (م.غ.ح) ونشاطها الإنساني الذي لا ينكر لَحَكمْنا باليأس من إنسانيتهم.

إن التنمية مطلب حيوي من مطالبنا، ولن ننتظرها من صدقات المستكبرين، ولن نقتنيها كما تقتنى البضائع في السوق. وسيرى الله جل وعلا عملَنا ورسولُه والمؤمنون هل نسيحُ في وادي الهوَى إن مكن لنا سبحانه في الأرض أم نحمل مسؤولية البِر بعيال الله في الأرض، لنا الكفاية والقوة وللمستضعفين.

لا تُقْتَنَى التنمية كما تقتنى البضائع، ولا يأتي تكديس الأشياء وتلميعُ واجهات المعاملِ المنقولةِ المحطوطةِ في أرضنا، العاطِلةِ المسيّرةِ بأيدي أجانبِ الجنسِ أو الدينَ إلا بمزيد من الركام الحضاري في ديارنا.

ليست التنمية شيئا يؤتى به ويُلصق على واقع متخلف فإذا هو حي. لا! ولا هي بالبضاعة الجاهزة تُصنع هناك وتُركب هنا فإذا هي تسُر الناظرين.

التنمية بناء إن لم يتأصل على إرادة قوية وإن لم يُدبَّر بأيد حكيمة فلن يكون إلا ثِقلا يطْمِر الساكنين. التنمية لن تحصُل في أيدينا، وإن حصلت فستبقى تابعة خانعة، إن لم ننطلق من إسلاميتنا ومن فَرْضية السعي والكسب والعدل والعمل الصالح. يكون السعي النشيط والكسب الحلال والعدل المعمَّمُ والعمل الصالح باعث الفرد، وقانون المجتمع، ودين الدولة، وضابط المستثمر والصانع والأجير. وكل تنمية نحاولها، وهي ممتنعة، دون إسلامنا فإنما تكون تنمية لتبعيتنا وتوغلا في عبوديتنا للأقوياء.

من هذا المنطلق الإسلامي الإيماني الإحساني يلتزم حكم الشورى بالنهضة الاقتصادية، يتبناها مشروعا أسبقيا، ويشجعها، ويحمي عملياتها، ويُرغب في المشاركة الفعالة كل ذي قدرة.

وعلى توالِي البواعث والتنظيم السياسي والمعرفة التكنولوجية وإفساح المجال للخيرات والاستثمارات، وعلى تسانُدها وترتيب الأسباب منها على المسببات والنتائج على المقدمات، يتوقف نجاح التنمية وإسلاميتها.

الباعث الإيماني سابق في الاعتبار، ثم استقرار الحكم على الشورى، ثم يجمعُ المؤمنون الراضون بحكم العدل قدراتِهم وخبراتهم وأموالَهم، ثم التصنيع تدفع إليه بقوة وتصب فيه بغزارة هذه المسبَّقات الاعتبارية. فإذا عكست فالتصنيع ركام والتنمية الشاملة حُلُم. بدون إيمان المؤمنين انتقض البناء قبل أن يؤسس. والله الغنيّ، وأنتم الفقراء.

التعبئة الجهادية

أستعمل كلمة «التعبئة» التي يسرف في استعمالها الثوريون، اليساريون منهم والقوميون. كانوا يستعملونها قبل أفول نجمهم في بلاد المسلمين وفي العالمين.

ذلك لأُلح عل جدية التنمية الاقتصادية وما يلزم من رصدٍ لجهود الإسلاميين في واجهة تيْسير المعاش وأسبابه. فإنهم إن لم تستجب جهودهم لمتطلبات الجماهير الإسلامية في حل مشاكل الاقتصاد ورفع غَائلة الفقر والبطالة وسائر العلل والعاهات فلن يطولَ زمنهم، ولن يتمتعوا بثقة الشعب أكثر من جولة تخيب فيها الآمال وتُسحبُ فيها أصوات الانتخاب. أستغفر الله العظيم، تحدثت عن جهود تستجيب، ولا مجيب إلا الله جلت عظمته، والذي علينا بذل قُصارَى ما نملك.

لا أتحدث هنا عن المعالجة الفورية المرحلية لقضايا الاقتصاد ولا للتفاصيل التطبيقية، فذلك لأهل الإيمان والاختصاص، وذاك مظروفٌ بالزمان والمكان وأحوال القطر وتقلبات المناخ المحلي والدولي. ذاك لِما يفتح الله جل وعلا لعباده المؤمنين حين يتصدَّوْن للحكم، هم يومئذ تحت طائلة الضرورة يُماشون ما يرثونه حسب الطاقة، ويراودونه على الاستقامة حتى يوسع الله تعالى لهم فيجدوا من الضائقة سَعَة، ومن خِناقِ الضرورة فُسحة لاختيار استراتيجية تُبَدِّلُ أوضاع الاقتصاد وتضَع قاطرته على السكة الإسلامية.

استعملت أيضا كلمة «استراتيجية»، وهي كلمة عسكرية قتالية للدلالة على أن معركة التنمية قضية حياة أو موت للحكم الإسلامي.

أمامنا منهجيتان وأسلوبان للتعبئة التنموية: منهجية الاقتصاد الحر اللبرالي السوقي، والمنهجية الاشتراكية الشيوعية. هذه اعتمدت على وسائل القسر والإكراه ونزع الملكية والتخطيط المركزي وإناطة تحديد الأهداف وترتيب

الأسبقيات بالرقابة البيروقراطية ففشلت وغرقت الغرق الشنيع. لم تنجح بمعايير الكم إلا في تجنيد معسكر مسلح رهيب الجانب لزمن. والثمن كان باهظا من كرامة الإنسان وحياة الملايين وخيرات الأرض. يمكننا اعتبار التعبئة الشيوعية في حقل التنمية مثالا سلبيا نموذجيا.

وينتصب الاقتصاد الرأسمالي عاتيا جبارا يباهي بإنجازاته الضخمة وجدواه وفاعليته وهيمنته. فما سر التعبئة اللبرالية، وما سر الهبَّة الثورية الاشتراكية التي ألهبت زمانا حماس المظلومين في الأرض وأمسكت عن السقوط لمدى بضع وسبعين عاما كيانا منخور الأساس؟

جَنَّدَ النداء الثوريُّ «يا عمال العالم اتحدوا!» همة المظلومين المطالبين بالعدل والنَّصَفة من الرأسمالية الأمبريالية. كان طلب العدل القوة الفطرية التي جمعت الطليعة الثورية وحشدت الجموع ودكت حصون العدو البرجوازي الرأسمالي ثم أعقبَ الإديولوجيةَ الثوريةَ دهاءُ لنين وسفك ستالين والطموح القومي الروسي. وانهار البناء بعد ذلك لأنه خنق الحريات دون أن يحقق الكفاية المعاشية ولا العدل.

أما اللبرالية فاعتمدت ولا تزال تعتمد على تعبئة الغريزة الفردية وتتخذها مطية وباعثا وقائدا: غريزة التملك والكسب والمغامرة والربح. كانت كلمتُها السحرية وشعار المرور وجواز النجاح: المبادرة الحرة. أنكرت الشيوعية هذه الغريزة فغرِقَتْ.

يلتقي طموح الإسلاميين المنطلقين من أوامر الله جل وعلا بطموح طلاب العدل. فطلب العدل ومقاومة الظلم فطرة سليمة يزكيها الدين ويشجعها وينصرها.

ويعترف الإسلام بحرية العمل، وبالملكية الخاصة، وبدافع الربح، وبالتراضي الحر بين المتعاملين. وكل هذه من مكوِّنات اقتصاد السوق، وفي ضمنها التنافس والمبادرة الحرة.

فهل يكون الاقتصاد الإسلامي نسخة منقحة من الرأسمالية، أم يكون نقداً للرأسمالية يحاربها بسلاحها؟

إن كانت وسائل التنظيم الاقتصادي والإدارة التجارية والخبرة التكنولوجية والآلات والمرافق التي طورتها الرأسمالية وِعاءً ماديا صالحا أن يستعمله الاقتصاد الإسلامي ويبني عليه ويطهره من حيث الربا ورذيلة الغش وآفة التبذير وعاهة التكاثر فإن المضمون الخلقي والهدف المعاشي والوظيفة الحيوية للثروة وللإنتاج والتوزيع في الاقتصاد الإسلامي تختلف اختلافا جوهريا عن مثيلاتها في الاقتصاد الرأسمالي. اختلافا راجعا لما يُكنه ضمير المؤمنين وسلوك المحسنين مهما تشابه وِعاؤهما بوعاء الكافرين.

يعبئ الإسلام غريزة التملك ونازِعَ المبادرة وجاذبيَّةَ السوق، لكن يهذب هذه الغريزة، ويخاطب الفطرة، ويوقظها لكيلا تستنيم، ويذكر المرءَ بأنه مسافر عابر سبيل، إن كان لا بد له من متاع يرتفق به في الدنيا ويتبلغ به فإنه لن يجد في آخرته غيرَ ما قدمت يداه من عمل صالح يشهد الشرع بصلاحه.

من هنا تبدأ استراتيجية الاقتصاد الإسلامي التغييري. من تغيير ما بالنفوس. وكل مكتسبات العقلانية التنظيمية الإدارية التكنولوجية التي طورتها الإنسانية يُذكر عليها اسم الله وتُستصلح. بدون تردد ولا تعقد ولا تخوف من التعلم في مدرسة الحكمة البشرية.

تبدأ استراتيجية الاقتصاد الإسلامي من تربية البواعث الإيمانية وهي قضية أجيال. إن كانت التنمية المادية تقتضي العناية البالغة «بالموارد البشرية» وتستثمر في التعليم حسابا لمردودية اقتصادية وتسوية اجتماعية فإن عنايتنا بهذا الجانب، وينبغي أن تكون من أسبقياتنا، لا تحجب عنا الهدف الاستراتيجي الجهادي، ألا وهو تربية أجيال مؤمنة بالله وباليوم الآخر تُصلح في الأرض ولا تفسد، تكون رحمة للخلق لا طاغوتا مخربا، تخدم المستضعفين وتطعم الجائعين وتَبَرُّ بالخلائق أجمعين.

بمخاطبتنا لفطرة الإيمان نطلق سراحَ الغرائز العليا، وتواصل الدعوة –وهي القوة الاستراتيجية إن تفرغت الدولة للسياسة الآنية– تهذيب الغرائز وتدريبها بتنشئة مؤمنين ومؤمنات يؤتون فرض الزكاة، وينفقون في السراء والضراء،

ويبذلون الفضل، ويتمتعون بزينة الله وبالطيبات من الرزق دون إسراف ولا تبذير، ويَكُمُّونَ الجشَع لكيلا يساوِرَهم، ويقمعون الشح ليتقوا غائلته، ويقفون مع داعي الورَع في حدود الشبهات بين الحلال والحرام.

من استراتيجيات الاقتصاد الإسلامي أن لا تتحمل الدولة من شؤون الاقتصاد إلا ما لا بد منه، كشرطي المرور يراقب السير لكنه لا يتدخل إلا ليعالج الاصطدامات ويستبقَ ما يتوقع منها.

هذا مَبْدأٌ اختلفت فيه منهجية الشيوعيين عن إخوانهم، فوَكلوا للدولة كل المهمات، ففشلت لَمَّا علم الكل أن الأرض لا مالك لها، وأن المسؤولَ عن المبادرة هناك في العاصمة، وأن عين الرقيب المحلي لا تقيم وزنا للمردودية، وأن العامِلَ مكفول مضمون لا حاجة له لغير إظهار الطاعة للتراتبية البيروقراطية.

وإن القيود القانونية التي تفرضها الدولة بسلطان القانون لا يمكنها أن تطوِّق وحدَها الغش والاستغلال والاحتكار والتبذير. لا يمكنها من أعلى أن تضبط حركة العمل، وسيولة التوفير، وجداول الاستثمار، وجدوى الجهاز الإنتاجي. لا يمكنها- وهي قيود وأوامر وقوانين- أن تختار التكنولوجيا الملائمة، والتنظيم اللائق، والتسويق المربح الناجع. لا يمكنها أن تساير- وهي الثقيلة الغائبة عن الميدان وإن كثرت ملفاتها- العرض والطلب في مرونتهما، ولا أن تقاوم التحجرات، ولا أن تتقلب مع الأحوال.

في استراتيجية الاقتصاد الإسلامي تُخصَّصُ الموارد بمقتضى قواعد الدين لا بهدف تنمية رأس المال وتكثيره بكل الوسائل. فإنَّ رأسَ المال العَجِلَ لا يصبر ولا ينتظر أن تؤتي الاستثمارات الطويلةُ المجالِ أُكْلَهَا، بل يريد ربحا عاجلا مضمونا وافرا. رأس المال العجل يخشى المغامرة، خاصة في البلاد التي ليست لها تقاليد وتجارب في الميدان.

يعترف الشيوعيون -وما لنا نذكر الشيوعيين وقد ماتوا!- بالمهمة التاريخية للبرجوازية الرأسمالية. ويشكو اقتصاديو التخلف من فراغ المجتمعات الفقيرة والمتخلفة من برجوازية محلية مغامرة مبادرة قديرة متأصلة.

ولا مُندوحة لنا عن الاهتمام بما نجده في الساحة من طبقة المتمولين، فهم ذخيرة للخبرة والقدرة والكفاية والمعرفة بدخائل السوق العالمية. ومن الجنون أن نعمِدَ غداة تولينا الحكمَ إلى كسر الآلة الإنتاجية، فذاك انتحارٌ. بل ننتقل مع المتمولين -حاشا الظالمين المستكبرين المفسدين بالأمس- من التعبئة الرأسمالية رُويدا للتعبئة الإسلامية. لا ضررَ ولا ضِرار. وإلا فمَنْ يتصدَّى للنظام البنكي حتى يطهرَه من رجس الربا؟ ومن يخرج هذه المصارف الإسلامية من حَبْوِ التجارب وهامشية السوق إلى السير القوي في مضمارٍ تسوده الاحتكارات الرأسمالية العالمية؟ ومن يقوم لهذه الشركات العابرة الحدود لينازلها ويداورَها لمصلحة المسلمين؟ من يسهر على عمليات الادخار والاستثمار والتسويق في عالم عاجٍّ باجٍّ؟

تعبئة المتمولين المسلمين في معارك الجهاد، وحوارُهم، وتألُّفُهم، ورعايةُ مصالحهم، واستِدرارُ تعاوُنهم لا تجد صعوبةَ الحوار مع المغربين المفَلْسفين. فالمتمولون وإن كانوا طبقة وكانت لهم عادات وصداقات ومصالح مشتركة مع الرأسمالية العالمية فإن حبل الثقافة الملحدة لا يخنُقُ رقَابهم. إن كانوا يُعطون الوَلاءَ المطلق الفريدَ لمصالحهم، وطنُهم رأسُ مالهم، فسيكتشفون معنا أن مصلحتَهم الدائمة، ووطنَهم الحق، هو الإسلام. لا ينكر الإسلامُ شيئا من ملكيتك ما آتيت الزكاة. وحتى يخرج الله عز وجل من أصلاب من يشاء أجيالا على الفطرة فإنَّ لذوي الكفاآت المنزلَ الرحبَ. وما النصر إلا من عند الله. إن الله عزيز حكيم.

القومة وهمومها التنموية

تشكل التنمية الاقتصادية من القومة قوائمها المادية ودعائمها وأرجلها. والحاجة والتخلف الاقتصادي موطن ضعف يُخشَى أن نُؤتى من قِبَلِهِ.

أستغفر الله العظيم، فأعظم ما يُخشى أن نؤتى منه هو تقصيرُنا في الوفاء بشرط الله عز وجل الذي علَّق نصره عليه حيث قال: ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾[1].

لِيَكُنْ أعظمَ ما نخشى وأكبرَ ما نحمل من هم تقصيرُنا في طاعة الله عز وجل ونزولُنا عن مرتبة الإيمان ومجانبتُنا للإخلاص والصواب في عمل الصالحات.

ثم بعدها ننظر في المعوِّقات والعقبات التي تحول دون بناءِ قوتنا الذاتية. أمامنا حواجز كيف نخرقها؟ ومَهاوٍ كيف نتجنبها؟ وشِراكٌ منصوبة وعدو ومُنافس.

إن لم يكن لك هموم كافية فسيُنشئها لك من لا تتطابق مصلحته مع مصلحتك. كيف والهموم للحاكم الإسلامي في بدايته كالجبال : هَمُّ المسكنِ للضَّاحي، والعملِ للعاطل، والصحة للمريض، والقوتِ والغذاء ونحن لا ننتج، والتعليمِ الذي يجب أن يعاد النظر في طبيعته ووسائله وأهدافه ونظامه.

عقبات لتُقتحمَ والعالم في مخاض، والحكم الإسلامي تتوجس منه خِيفةً وشكّاً وعِداءً قوى المال. والاستحقاقات حالّة، والضرورات ضاغطة، والميراث ثقيل، والوسائل شحيحة. مشاكل تُنْسي الحليم مثاليَّتَهُ وتوشك أن تفُتَّ في عَضُد القائمين عندما يصطدمون بالرخاوة العامة من بعد الحماس الأول، وبالمحسوبية الساكنة في النّخَاع، وبالرشوة أصبحت مذهبا في العلاقات بين

(1) سورة النور، الآية 55.

الحاكم والمحكوم، وبانعدام الضمير، وقلة المبالاة بالشأن العام، والفقر من الرجال الجامعين بين أمانة الإيمان وقوة العلم والكفاية في الإنجاز.

ذاك ميراث مرضيٌّ خلُقيٌّ، ومعه أمراض أخرى مواكبة مِمَّا يتولد من الفوضى الفتنوية الخاصة بالبلاد المتخلفة: أمراض اجتماعية وعيوب هيكلية وضعف عن مواجهة حقائق العصر.

نرث نمط الإنتاج المحلي المبعثر. كيف ننقله إلى نمط إنتاج صناعي قادر على مزاحمة السوق العالمية.

كيف نعبئ المال وندخره وندخله في قنوات منتجة بدل صرفه في نفقات البذخ والأعراس والمفاخرة والتكاثر بين الجيران والمعارف. بدل صرفه في المضاربات غير المنتجة.

وهنا يبرز التفاوت الشنيع بين دويلات النفط التي تدفع بأموال المسلمين في قنوات الصيرفة اليهودية العالمية ويبقى سواد الأمة تمسك بخناقه المؤسسات الدولية كالبنك العالمي وصندوق النقد الدولي التي تقف من وراء جبهة المقرضين، لا يُمدون المحتاج بدولار إلا باستشارتهما، ولا يشيرون بمعونةٍ إلا لمن قبل شروطهما. صندوق النقد الدولي سلطة اقتصادية في العالَم هي اليوم أشد وطأة على الدول المستضعفة وأنكى وأدهى من سلطة الاستعمار آنفاً.

يهدد القومةَ الإسلاميَّةَ طوْقُ المديونية الموروثُ ومعه الطوق الملازمُ، طوقُ المشروطية التي تنطق بها المؤسسات الدولية حكما لا يقبل الاستئناف. كلمة صندوق النقد الدولي الحسيبُ الرقيبُ هي برامج التقويم الهيكلي. يقترح صندوقُ النقد الدولي، بل يفرض، برامج واسعة على الدولة المدينة. برامجَ تغطي مجالات الاستيراد والتصدير، وأسعار الصرف، والنفقات العمومية بأنواعها، والضرائب، وقانون الاستثمار.

يصف صندوق النقد الدوليُّ هذه العلاجات لتطبيب الاقتصاديات المريضة، وهو علاج قاتل أحيانا، موَلِّدٌ للحرمان، مُرُّ المذاق، وخِيمُ العواقب السياسية.

يزعم صندوق النقد الدوليُّ أن وَصْفاته، وهي في الحقيقة وصفة واحدة دائمة، وأن برامجه تخفف من حِمل الخَصاص في التبادل الخارجي، وفي ميزان المدفوعات والميزان التجاري. ويزعم أنها تعيد ميزانية الدولة للاكتفاء والتوازن. والنتائج المحصل عليها حتى على الصعيد الاقتصادي قليلا ما تسُرُّ. وأحيانا كثيرةً تكونُ خطيرة العواقب.

لكن ما حيلة المضطر المخنوق الذي يَحْصُلُ في الخيار بين وباء المديونية وطاعون التضخم المالي وما يجره معه من ذيول؟

هذا هم من أعظم الهموم، إن لم يكن رأسَها: التعاملُ الضروريُّ مع السلطات المالية الدولية، ومن ورائها لغة الدولار الفصيحة ونيته الصريحة: أن لا تسهيل للحكم الإسلامي.

هم التفاوت الشنيع بين مستويات المعيشة، وهمُّ انخفاض القوة الشرائية لجمهور الشعب، وتفاقُم الضرائب، وغلاءُ الأسعار من جرّاء البرامج الدولية التي تجعل أول شروطها خفض قيمة العملة.

إن الخصاص في التمويل والمشروطية الدولية والمديونية من أهم العوائق في طريق التنمية. وليس من السهل جمعُ شيء فيه غَناء من تعبئة الموارد المحلية في البلاد الفقيرة والمتوسطة الدخل. فليس لنا من طريق مرحلي إلا التعامل المجحف مع المنظمات الدولية ريثما نحرر النفط-رزقَ الأمة وكنزَها- من قبضة السفهاء.

في الأفق يظهر ظل الاستقلال الأوربي عن هيمنة الدولار. في الأفق وحدةُ أوربا الـمُؤْذِنةُ بطلوع نجم جديد في سماء العملقة الدولية. لن تلبث أوربا المتحدة، وزعيمتُها ألمانيا الصاعدة، أن تطالب بإعادة النظر في النظام العالمي

بما يعيد لأوربا مكانتها. تطالب بمراجعة نظام الأمم المتحدة، ونظام مجلس الأمن، ونظام الصرف العالمي، ونظام أثمنة المواد الخام.

لن تلبث أوربا الموحدة أن تسحب في قاطرتها «البيت الأوربي» الشرقي جوّالةً في عالم قديم جديد يحده غربا جدار برلين الذي هُدمت أحجاره لتمتد يده في الأطلنطي وليفصل بين أمريكا الشائخة وأوربا المتجددة الشباب.

انهار النظام العالمي القديم ذو القطبين، وكذَبَتْ وعود الغرب الأمريكي ووعود الشرق السوفيتي. لم تستطع الأبناك الغربية أن تموِّلَ التنمية ولا أن تنقل التكنولوجيا لبلاد كانت لها موالية في الحرب الباردة. ولم تستطع المساعدات العسكرية السوفياتية لمواليها أن تغير من واقع دولة اليهود وتشرد الفلسطينيين. فلعل في تقلب الأحوال وصعود أوربا فجوةً للخروج من رِبقة المشروطيات الدولية الدولارية.

من أحجار الزاوية في التنمية تدريبُ اليد العاملة وتشغيلها. فإن من آثار التعليم العشوائي الذي طبقته الحكومات في البلاد الإسلامية بعد الاستقلال الصوري أن اندفع الطاحون لتكوين أدباءَ وفلاسفة ومؤرخين ومحامين. ولم تُكَوِّنْ اليد العاملة الماهرة ولا الكفاآت العلمية العالية. فإن فعلت فسوء التدبير وانغلاق الأبواب واختلال المعايير والمحسوبية والرشوة تمنع من استعمال الأكفاء والاستفادة منهم فيقفون في طابور البطالة أو ينزِفون في هجرة الأدمغة.

وهكذا يرحل خِيرة أبنائنا ليستغني بهم الاقتصاد الغربي وتتألّق بعلومهم الجامعات الغربية والمؤسسات العلمية المتقدمة. وتستورد حكومات الفتنة الذئاب الرأسمالية في دوائر الانفتاح ومعهم خبراءُ من جنسهم مُدَلّلُون مُترفون يتقاضوْن من أموالنا أضعاف ما كان يرضى به أبناؤنا لو عرفنا فقط كيف نقترح عليهم مشروعا فيه كرامتهم وعزة أمتهم ومجالا لتفتُّح عبقريتهم.

من أحجار الزاوية إذاً في البناء الاقتصادي والتنمية تدريب المتخصصين واستئلافهم واسترجاعهم من ديار الهجرة ليساهموا في استئناس التكنولوجيا

وتوطينها. إنْ لا نفعل فسيضيع ما معنا من موارد خامة تسيلُ من بين أيدينا ساذجة رخيصة الثمن نصدِّرها بالبَخْسِ لتعود إلينا وقد صنعتها اليد اليابانية وهندسها العقل الياباني وأدارتْ إنتاجها ونظمت تسويقها الحنكة اليابانية وباعتها لنا الشركات اليابانية بخلاصة دَمِنا وعرق جَبيننا الكادِحِ في غير طائل.

إن التنمية المستوردة بمموليها وخبرائها، كالبضائع المستوردة الجاهزة، وكالتصنيع المستورد، ما هي إلا حركة على السطح وموجة لا قرار لها. إنما التنمية أن نملك ناصية العلوم، ونتدرب على التنظيم والإدارة، ونستقل بالمبادرة والتمويل، ونحتك بالمنافسة الدولية. وكل ذلك يكون فرعا عن إدارة ظَهْرِنَا للحكم التقليدي المستبد.

السؤال الأساسي في التصنيع هو: كيف نشجع الإنتاج لا الاستهلاك؟ ما نجده أمامنا من هياكل اقتصادية هي إما من مِلْكِ الدولة تحمِله عِبئا ميتا لا يُنتج، أو من تملكات الانفتاح والخصخصة والرأسمالية المحلية والمستوطنة، كلها تبحث عن الربح السريع فلا تجده إلا في الإنتاج الاستهلاكيِّ الترفيِّ يُسَعِّرُ سوقَهُ الإشهار.

كيف نشجع الإنتاج الكفء الجدير بالدخول في السوق العالمية دون أن نسقط في أخطاء الرأسمالية ودون أن نستنقِع في اقتصاد التخطيط المركزي الذي أكل الدهر عليه وشرب؟

كيف نوطن اقتصادا يصون كياننا القطريَّ ويَصِلُهُ تَوّاً باقتصاديات الأوطان المسلمة في منظور وحدوي تكاملي؟

تأصلت في مجتمعاتنا الغثائية عادات الطفيلية والكسل والسمسرة في العملة والتوكيلات التجارية، فكيف نتحول إلى جدية الصناعي الشجاع المغامر؟ كيف نغْشَى السوق العالمية نُمِدُّها بلا تبعية ونستمد منها بلا غبن عارفين بآليات السوق، دون أن نُسْقِط من حسابنا ضرورة سهر الدولة على المرافق العامة، ودون إهدارها للضمانات الاجتماعية الأساسية؟ والله على كل شيء وكيل. سبحانه.

الباب الثالث

ما العمل ؟

الفصل الأول

الحل الإسلامي

- أيُّ حل؟
- بأي ثمن؟
- وبأي أسلوب؟

أيُّ حل؟

بدأت في الباب الأول من هذا الكتاب باسم الله ثم ذكرت القوة السياسية الإسلامية، والبناء القلبي الإيماني لتشكيلاتها، والرباط الوَلائي بين المؤمنين، وما يحمله الإسلاميون من إرادة، وما يرسمونه من أهداف. وتعرضت في الباب الثاني للعقبة الخارجية المتمثلة في العِداء الغربي للإسلام، وفي تنكر بعض أبناء المسلمين لدينهم. وذكرت من بين ظواهر المخاض الجديد في العالم مطالع نظام جديد من أهم ملامحه انتهاء عهد كانت فيه أوربا شطرين: أوربا أمريكية وأخرى روسية. فبعد انهيار العملاق السوفييتي وتفتته، وبعد دخول الوهن في اقتصاديات إمبراطورية الدولار تعيد أوربا الكرة فتتوحد، وتتهيأ لمعانقة «البيت الأوربي» الممتد إلى سبريا وكنوزها من الموارد الضخمة. وذاك أفق يكون فيه إن شاء الله للإسلام شأن بعدما تسفر عنه تشنجات المعركة النفطية العظمى، بل صاعقتها.

وفي هذا الباب أتعرض إن شاء الله للخطوات العملية التطبيقية على مدرجة الإسلاميين لأتساءل مع المتسائلين: ما هو الحل الإسلامي، ولأنظر مع الناظرين فيما يجمع الإسلاميين مع سائر المسلمين والخلق أجمعين، وما يفرق ويَحْجُب عن الحوار؟ وما يجعله ضروريا، وما يلزَمُ من جهود لإقامة دولة القرآن دولة الشورى والعدل.

ترتفع الشعارات الانتخابية واللافتات الحزبية في المواسم الديموقراطية، وقد أخذ يبدو من بينها الشعار الإسلامي واللافتة الإسلامية فيها: الحل الإسلامي، الإسلام هو الحل، البديل الإسلامي. ويتجاوب مع هذا الشعار الجديد، وقد ذكر فيه الإسلام، ما يكنه عامة المسلمين من «مخزون نفسي ديني»، فيسري في المسلمين شعور بالثقة والاطمئنان والاحترام لحاملي الكلمة الإسلامية، ويدخل

الإسلاميون للبرلمانات، ويُساورون الأحزاب ويزاحمون. والمدُّ يشير بتزايده الظاهر لمستقبل قريب يكتسح فيه الإسلاميون الساحة اكتساحا. إن شاء الله.

ويتميز من الغيظ فلولُ أولئك اليساريين المتمسلمين وخصومهم اللاييكيين والقوميين، الذين ينافسوننا على «المخزون» النفيس، فيتسللون رويدا رويدا ليضيفوا لشعاراتهم كلمة السر المعبئة: «الإسلام». فيبشرون بإسلام تقدمي مستنير بدل الإسلام الظلامي الرجعي، إسلام الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر، ويبشرون بالكتاب العزيز مرجعا مطلقا وبالسنة النبوية الراشدة مدرسة ونموذجا.

وحول المسلم المعتز بإسلامه، الشاهِد به بين الناس، ذاك الذي طلق أنانيته وبسط وجهه للمؤمنين وفتح جيبه لدعم الحركة الإسلامية، ينشِبُ صراع بين الدعوة الإسلامية مهما تعددت فصائلها ومشاربها وبين «الثقافة العالمية» المادية اللبرالية اللاييكية الإلحادية. بعض من يملأون صحفهم ومجلاتهم وكتبهم بكلمة «إسلام» يُضَمِّنون الكلمة مقاصد مبطنة في قشرة الشعار المنادي بالعدالة والحرية وإنصاف المظلومين. يضمنونه أن الله -جل الله وتعالى الله والله أكبر- هو الخبز للجائع والثورة للمقهور.

لَمَّا أوُصِدتْ أبواب الشعبية الجماهيرية في وجوه بعضهم، وكَسَدَتْ شعارات اليمينية واليسارية والقومية في سوق السياسة، يَدْلِفُ بعضهم لتبني شعار «الحل الإسلامي». فما هو الحل الإسلامي، وكيف يدير الإسلاميون حملات الإعلام والتعليم عنه؟

لا شك أن على الإسلاميين أن يستعملوا وسائل الإشهار عن أنفسهم وعن برنامجهم في الانتخابات حيث يكون المدخل إلى الحكم الإسلامي هو طريق الديموقراطية لا الزلزال الإسلامي كما زلزل عرش الشاه. لكن عليهم أن لا ينزلقوا إلى المزايدات الشعارية فيوهموا المسلمين أن «الحل الإسلامي» مفتاح سحري وتعويذة ملكوتية وعملية غيبية يتبخر أمامها شياطين التخلف وأبالسة البؤس وفراعنة الظلم. لا يوهمونهم أنها رُقية مطهرة تُذْهِبُ أرجاس الماضي

بين عشية وضحاها، وتبرئ الوضع المريض من عاهاته، وتحمل الأعباء عن الكواهل، وتطعم الجائع اليومَ قبل غد. لا يوهمونهم أن الملائكة تتنزل أفواجا بالرحمة العاجلة لمجرد أن الملتحين الصادقين أمسكوا زمام الحكم وجلسوا على مِنصة السلطة.

لا يوهمونهم أن «الحل الإسلامي» دَوْرة كَفٍّ تأتي من سماء العجائب بالنعيم تُدِرّه على الخلق، وبالرخاء والأخوة والكفاية والقوة بلا تعب.

بل يلزم أن يُعْلِموهم ويعَلِّموهم أن «الحل الإسلامي» للمشاكل المعيشية التي حولها تَحْمَى السوق السياسية هو اجْتهادٌ وجهاد مدعُوٌّ للمشاركة فيه لا للتفرج عليه واستمطار بركاته كل مسلم غيور على دينه، وكل ذي رصيد خلقي ومروءة وقدرة وعلم، ليقف مع الإسلاميين في الثغور. ليقف معنا في الثغور ابتداء من ثغر نفسه لتتوب عن «دين الانقياد» والاستسلام. وفي ثغر أسرته وعائلته ومسؤولية رعيته أينما كانت مكانته الاجتماعية.

يجب أن يعلموهم أن «الحل الإسلامي» ليس وَعدا انتخابيا يتوكل عنك بمقتضاه النائب في البرلمان والعضو في المجلس المحلي والوزير والحاكم ليعفيَكَ من كل تعب ويحمل عنك كل عبء. بل «الحل الإسلامي» جواب عن السؤال الحميم الحيوي: من أجل ماذا أعيش وأية قضية هي قضيتي في الحياة؟ تَطْرَحُ هذا السؤال على نفسك، أوْلا فيطرحه عليك الإسلامي بعد أن طرحه على نفسه فوجد أن مساعدتك له على الجواب ضرورة له وبشرى عاجلة لك بما ينتظرك وينتظرهُ وينتظر الأمة من خير الدارين إن كان الجواب: حَيَّهَلاً!

كان الإسلاميون في المعارضة وسيبقون فيها زمانا يرفضون الحكم بغير ما أنزل الله ويندّدون بالظلم والظالمين ويبشرون بالشورى والعدل، ويحملون في قلوبهم عقيدة وحدة الأمة، والشوق إلى توحيد الأمة، والعزم على توحيد الأمة. فحِين تَزِفُ ساعة التقدم بكلمة «الحل الإسلامي» إليك لتختار وتنتخب وتقترع فإنما هي دعوة لكي تنخرط في المجهود الإسلامي لا لكي تغامر بورقة تطرحها

في صندوق ثم تمضي لشغلك حتى يُخْفِقَ من يُخْفِقُ ويقف أمام الباب المسدود من يقف فتَمسَح في الإسلاميين تبِعات الشدائد، وتنفِضَ منهم يدك، وتَنفضَّ من حولهم.

في سوق الانتخابات-وهي بالفعل سوق- يجب أن يتمسك الإسلاميون بمبدإ الوضوح والصدق ليستظهروا بالصدق على مناوشات الماكيافليين سماسرةِ السياسة المحترفين. أيُّ تزوير أخبثُ من الكذب على المسلمين وتغميض الأحوال عليهم بِلَفِّها في خِرَقِ الشعار الإسلامي والوعد الخيالي!

الوضوح والصدق! يجب أن يُعْلِموا المسلمين ويُعَلِّموهم أن الفساد في الحكم هدَمَ أخلاق الأمة، ونخَرَ في اقتصادها، وبدَّدَ ثرواتها، وشرَّد المستضعفين، ودفع الفتيات البائسات اليائسات إلى سوق البِغاء، وخطَفَ لقمة العيش من أفواه الأطفال، وتسبب في تفشي البطالة والمخدرات والمرض والخمور والعهارة ومدن القصدير والرشوة والمحسوبية وطابور المشاكل. ويعلموهم أن صلاح هذا الفساد يتطلب علاجا طويلا، وجراحة متخصصة، وتجريع المريض الدواء المر، وحمله على الالتزام بالمواعد، وعلى قَبول التطبيب طوعا وكرها.

يجب أن يُعلم الإسلاميون المسلمين ويعلِّموهم أن «الحل الإسلامي» يعني تطهير المحل لِيَنْبُتَ فيه نسيجُ حياة جديدة، تبعثها روح جديدة، وتوجهها عقلية جديدة، ويضبطها شرع الله الأزلي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. يجب أن يُعْلِموهم ويعَلّموهم أن عملية التطهير والاستنبات لا تتم برُقية ساعة، ولا بِخَلْقَطِيرَةِ غَمْضة عين، ولا بجهد طائفة من الناس يُعفى حضورُهم الناسَ من كل كُلْفة.

يجب أن يُعلموا المسلمين ويعلموهم أن أمام الحكومة الإسلامية مَجالاً طويلا عريضا مديدا في الزمن للإصلاح، وأن دين المتدين ومروءة الشريف ومال المتقي وجُهد المستطيع وخبرة الإداري وغيرة الجميع يجب أن تتجند إلى جانب

الدعوة الإسلامية والحكومة الإسلامية في جهاد طويل مرير في مذاق أبناء الدنيا، عَسَل في لَهاة المؤمنين والمؤمنات. أمامَ الدعوة الإسلامية والحكومة الإسلامية أيام الصبر والمطاولة والمواصلة.

ومن سائر المسلمين يطلب «الحل الإسلامي» تضحيات. أستعمل كلمة «تضحيات» من قاموس النضالية السياسية واصطلاح أبناء الدنيا. والكلمة الإسلامية النبوية هي «البذل».

من يستجيب لمرشح يعِدُ الناخبين بالتضحيات، لا يتملقهم ولا يداريهم ولا يُماريهم وسوق المزايدات الحزبية قائمة على ساق؟

يكون ذلك الصادق غريبا ولا شك بين الكذابين. لكن عندما يمَلّ المسلمون كذب الساسة الفاشلين-وقد مَلّوا وسئِموا- فستُوقظ كلمة الصدق التي تزيل الوِصاية عن ضمائر المسلمين، والغشاوةَ الديماغوجيَّةَ عن أعينهم، والتعتيم المخادِعَ عن عقولهم، لتبني علاقات جديدة عِمادُها الصدق والمسؤولية والمشاركة الفعليَّةُ.

هذه العلاقات الوثيقة الصادقة الـمُشارِكة تُؤَسَّسُ وتُبنى خارج الحلبة السياسية وطيلة الوقت لا في المواسم الانتخابية. هذه العلاقة لا يقدر أن يؤسسها ولا أن يرفع بنيانها الانتهازيون ولا المنافقون ولا لصوص الأصوات الانتخابية. ذلك لأنها تؤَسَّسُ وتبنى في المسجد، في صف الصلاة، في مجلس الوعظ، في حلقة العلم. في المسجد يعرِض هذا على الفقيه والواعظ والأخ الناصح مشكلةً يجد لها رأيا، ويُلـمِّحُ هذا لحاجة فيأتيه العَوْنُ، ويمرَض ذاك فيدلِفُ إلى بيته الإخوان، ويتَأَيَّم هذا فيجد من يُزوجه، ويُرَحَّل ذاك فيتجند من يدبر له مأْوىً، ويحمل جنازة بيت الآخر مؤمنون متطوعون.

من المسجد يبدأ «الحل الإسلامي». في المسجد تُنسج الخيوط الأولى في كساء الوَلاية بين المؤمنين، لا تُعوِّض مُبْرَمَ سَداها وتماسُكَ لحمتها علائقُ الزَّبانة السياسية ولا تُقارِب، وحاشا.

إن لم تكن العلاقةُ حميمة متينة بين الإسلاميين وجمهور الأمة فإن أول عثرة في الطريق -ولا بد من عثرات- تفرق الجمع وتشتت الشمل وتُجْهِضُ الحِمل. ثم إن هناك المتربصين، معهم متفجرات نائمة، وقنابل موقوتة، لن يُفلتوا الفرصة ليُصعقوها بين أقدام السائرين على درب الإسلام ليزرعوا البلبلة ويخلخلوا الثقة في «الحل الإسلامي» وحاملي شعاره. لن يُفلتوا أولَ فرصة. ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.

إن الله لا يهدي كيد الخائنين. سبحانه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

بأي ثمن؟

من سعادة المرء، بل هي السعادة كل السعادة، أن يبذُل نفسه وأن يجاهد بماله في سبيل الله. ذلك ثَمَنُ ما تبايع الله عز وجل فيه مع المؤمنين حيث قال جلت عظمته: ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللِه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللِه فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1].

ماذا أتى بالصحوة الإسلامية وبعثها بعد فضل الله تعالى؟ جهادُ أجيال من المؤمنين قامت بهم الغيرة على دين الله فلبَّوْا نداء الجهاد ولا يزالون.

ذلك ثمنٌ دفَعَ «الحل الإسلامي» إلى الواجهة، ليس كما يزعم المحللون المادِّيون فراغُ الساحة بعد فشل المحاولات اللبرالية والقومية الاشتراكية. وإن كان للفراغ يد في المسألة فهي بُؤسُ الأمة أدته أيضا ثمنا لِتَقَدُّمِ الصحوة الإسلامية.

إن كانت، وهي كائنة باعتبار، فإنها مشاركةٌ من الأمة سلبيَّةٌ قهرية في دفع الثمن. وما ألححنا عليه في الفقرة السابقة من ضرورة مشاركة جمهور المسلمين في تطبيق «الحل الإسلامي» مساهمةٌ إيجابيَّةٌ وثمن لا بد من دفعه عن طواعية وبصبر واستمرار.

وثمنٌ آخرُ هو اكتساب الحركية والنشاط والفاعلية في الحياة. الإقدام والمغامرةِ مزايا يتفوق علينا فيها أبناء الدنيا ولا قيام لنا بدونها. لا بد أن نتطبع بالعمل الدّؤوب وبالشكيمة والعزيمة المتَّقِدَةِ والإنتاج. علينا من غبار الخمول وعادة التواكل وهوان الكسل ركام لا بد من نفضه واطِّراحه.

وهنا يكمُن الخطر الداهم ويعظُم الخطبُ وتتربص الزلة حين ندخل في معمعان الحركية العالمية -ونحن داخلون إليها مرفوعي الرأس أو أذلاءَ

(1) سورة التوبة، الآية111.

مُكرهين- فتلتهمنا وتُلهينا عن مهمتنا الأولى في الحياة. هنا يهدد دَولابُ الحركية والفاعلية والوقت الجاري والمواعيد العجِلة ومنطقُ السرعة بصرفنا عن وِجهتنا. يهددنا الخطر القاتل، خطرُ أن نكسِب معركة التنمية ونخْسَرَ روحَنا. ونخسَر الإيمان. يهددنا أن نلْبَس مع الناس وكالناس لَبوسَ الدنيا ونطرح لِباسَ التقوى. ومَنْ خسِر الآخرة فما معنى حياته وما قيمة مروره من الدنيا؟ هذا ثمن باهظ وغبن ما بعده غبن. نعوذ بالله.

إن رسالتنا، معشر خير أمة أخرجت للناس، أن نحمل للعالمين بلاغ الإسلام وبيانه. وأولُ هدفٍ ذو مغزىً رسالي للتنمية والقوة في حقنا هو أن نكونَ حاملي رسالة نموذجيِّين، من كمال سِفارتنا وشروط نجاحها أن نتقدم إلى الناس في حلة العافية والغِنى والنظافة والجمال لا في أسمال متسولين جائعين مهزولين.

فما ظنك بسفير اشتغل بتهييء حُلته وتنظيف جسمه والعناية بمظهره فلم يفرُغ إلا وقد نسي مضمونَ السفارة، بل وُجودَها أصلا!

نرى من الآن، وقبل أن يحُل ميعاد دخول الإسلاميين للمعمعان حيث يَحمَى وطيس المصادمة مع الواقع المتحرك السريع، كثيرا من شباب الدعوة يستفرغون الجهد الكبير في متابعة أحداث العالم ومطالعة التعاليق السياسية وكأن مهمةَ كل واحد أن يصبح محللا سياسيا ومعلقا على الأخبار. يُسْرِفُ بعضهم في ذلك فلا تجده بعد مدة إلا وقد مُسِحت منه غُلالة الإيمان الأولى، وتلاشت البضاعة، وتضعضع اليقين.

ونرى آخرين مُنصرفين عن النظر في حركية الدنيا، منعزِلين منطوين. وآخرين كفَّروا العالم وناصبوه العِداء وتقوقعوا في دائرة مغلقة.

وكل هذا انحراف عن الاعتدال والاستقامة كما وصفهما رب العزة سبحانه في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ﴾[1].

(1) سورة النور، الآيتان 35-36.

من يتقدم مُقَنَّعا بهدايته المزعومة من دون الناس، مُعْرِضـاً عن العالم، مكفرا له، ما تسبيحه المنفرد في المسجد، وما تقوقعه في طائفة مغلقة وفكرة رافضة، برافع له إلى مراتب رجولة الذين يعطون لمستلزمات التجارة والبيع-أي السعي النشط في الحياة- حقها دون أن ينال ذلك السعي من دينهم.

ومَن تصدّى لتيار الحياة ومستلزمات التعامل النشِط معه فجذبه التيار والتهمته الدنيا فذاك أشد خُسْرا وأنكرُ نُكْراً.

ثمن باهظ وغير مقبول، وخطر داهم أن يُفرِغ رجالُ الدعوة كل الجهد غداة تأليف الحكومة الإسلامية وما بعد الغداة في تصريف شؤون الدولة وتحريك دوْلابها ومعالجة خللها وتسيير قطارها، فتدفعَهم الغَداةُ للعشي، ويسَلِّمَهُم الليل للنهار، ويَمُرَّ بهم اليوم للغد، وتَسريَ بهم الشهور للسنوات، حتى تمتصَّ دوَّامة الحياة منهم الروح، وحتى يهضمهم العصر بدَل أن يهضموه.

«الحل الإسلامي» طامة كبرى على الدعوة إن انخرط الدعاة بكامل عدَدِهم وتحولوا مديرين ووزراء ومستشارين وتركوا المسجد، وتركوا صحبة الشعب، وتركوا تربية الأجيال، وتركوا مجالسة المسلمين.

يتأكد تفرغ صفوة رجال الدعوة للدعوة، وانتصارُهم وفلاحهم يُقاسُ بقدرتهم على مراقبة الدولة من خارجها، يفَوِّضون لبعضهم الإشراف المباشر على شؤون الحكم، ويستعينون بالنظراء الفضلاء أصحاب المروآت والكفاءة والنصيب من الإيمان. أما أن يعتبروا شرفَهم في النهوض المباشر بالأعباء وأن ينهمكوا بكليتهم في تصريف الهموم اليومية «للحل الإسلامي» فذاك القضاء الـمُبرَمُ على الدعوة.

قضاء مُبرَم خاصَّةً إذا تصدى لحل أعباء الحكم ومصارعة ديناميكية العصر تكتل وحيدٌ فريد لا مشارك له ولا معارض. ذاك أدْنَى أن ينحط ثِقْلُ المسؤولية وغرور احتكار السلطة على أصحاب «الحل الإسلامي» فيدهَسهم ويَسْحَقَهُمْ. وهو ثمن باهظ، وغبن فادح، وفشل ذريع.

يساعد على سوء فهم الإسلاميين لما ينتظرهم في الساحة السياسية أن المحللين الماديين والمعلقين يتحدثون عن «الإسلام المتطرف» بما هو ظاهرة سياسية تملأ الفراغ الذي ترَكه في الساحة فشل اليسار، كما أن اليسار القومي الاشتراكي الوحدويَّ كان ظاهرة ملأت الفراغ الذي خلَّفه انهيار التجربة اللبرالية في بلاد المسلمين. وهكذا يترسخ في الأذهان مفهوم «البديل الإسلامي». هكذا يوشك بعضنا أن ينسى ما هي رسالتنا. يوشك أن يتسطح لديه الفهم فإذا «البديل الإسلامي» نقيض سياسي للمُبدَلِ منه بزيادة شعارات إسلامية لن تلبث حين ندخل في عَصّارة الأحداث أن تستحيل رواسبَ نفسيَّةً، وكلماتٍ محفوظةً، و«ثقافة» أصيلةً تناطح «الثقافة العالمية» مناطحة النِّد للند والمِثل بالمثل.

لن يلبث مع الفهم المسطح والاستعداد الـمُبتَسر والبضاعة الإيمانية الـمُزجاة أن يستحيل «الحل الإسلامي» و«البديل الإسلامي» إديولوجية تأصيل وفكرة استرجاع للهوية الضائعة الحضارية الثقافية. لن يلبث أن يستحيل «الحل الإسلامي» و«البديل الإسلامي» اعتزازاً نفسيا فكريا بالتراث المجيد وبالسيرة النبوية وبالخلفاء الراشدين يتسلسل مجدهم في العَقِبِ الأموي والسلالة العباسية. وتضمحل في الإرادة مع طول معاناة الحكم وحركية الحياة ذكريات البدايات المشرقة التي هبت بأمثال البنا وسيد قطب وأمثالهم من شهداء الدعوة ليرفعوا كلمة الإسلام وينادوا بالحل الإسلامي.

إنْ خَبَتْ جِذْوةُ الإيمان في قلوب الدعاة ونَبا حَدُّ الإرادة الإحسانية وغاب اليقين باليوم الآخر فلا تنتظر إلا أن يتحول سلوكنا وخطابنا وتربيتنا تعبيرا بشعار إسلامي عن محض خيبة الآمال في الساسة من قبلنا. يصبح سلوكنا وخطابنا وتربيتنا ومظهرنا ومَخبَرنا احتجاجا وسخطا على الفشل الاقتصادي. يصبح أداة تعبير عن تطلعات الطبقة المتوسطة -التي سنخالطها وتخالطنا- الراغبةِ في الحريات الديموقراطية لتتاح لها الفرصة ويُفسَحَ لها المجال لتصعد وتحتل مراتب كان يتربع عليها قبل «الحل الإسلامي» بورجوازية اللبراليين أو بورجوازية الدولة اليسارية ذات الحزب الوحيد.

لا مناص لنا يومَ يخاطبنا الحكم وينادينا إليه استصراخُ الشعب بالأيدي المتوضئة من الاستعانة بالطبقة المتوسطة المتعلمة ومخالطتِها ومعاشرتِها. وإن لهذه الطبقة لطموحات تُقَرِّبُها من المنتصر كما لها كفاآت تقربُ المنتصر منها، بل تفرض عليه الحاجة للكفاآت التعاملَ معها. فمتى ترك الدعاة المسجد وعَمَروا دواوين الحكومة واندمجوا وهم قلة في النوع والعدد مع الطبقة الطَّموحِ سرقتهم الطبيعة الحركية، وأعجبهم نشاط المساعدين الخبراء، فلا يستفيقون- إن استفاقوا يوما- إلا وقد أصبح «الحل الإسلامي» مركبة للطموح الاقتصادي الاجتماعي. وأصبح مِلاطا ولِحاماً لأشتات الراغبين في البداية في خير، اطلعوا على ما هناك من مغانِمَ فانجروا لاَ تضبطهم مقادة الدعوة بعد أن انعزلت الدعوة عن المسجد وعن جماهير المسلمين.

أو يصبح شعارُ «الحل الإسلامي» صرخةَ المحرومين المكبوتةِ، وجدَتْ أداة تعبير عن لواعجِها ويأسها وبؤسها. صرخةَ أولئك الذين خلَّفهم قطار التنمية المعوجة وأَثَرَةُ الطبقة المستعلية من قبل.

يجب أن يبقى صوت الإسلام عاليا لا يُعلى عليه، صافيا في مثاليته، محتفظا بالوِجهة، رافعا النظر لمقام الرسالية العالمية مهما كانت حركية الواقع وإعصار الأزمات ومجاذبة الناس من جوانبنا ومن خلفنا. يجب أن يبقى صوت الإسلام صافيا ومثاليتُه مرسومة على أفق المستقبل، معزومةً في صدور رجال الدعوة، لا ينجرون إلى أسفلَ مع جاذبية حركة الحكم، ولا يستحيل هتافُهم «بالحل الإسلامي» مجرد صدىً لتطلعات غيرهم.

يجب أن يكون القرآن كلمتَنا العالية مهما تقاصرتْ خُطانا على مسرح الأحداث. يجب أن يبسط الشرع سيادته على الواقع رويدا رويدا. ولا يصح شيء من ذلك إلا أن نبقى مع القرآن، ومع الشرع، وفي المسجد، رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة. يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله. والله يرزق من يشاء بغير حساب. هو الملك الوهاب لا إله إلا هو.

وبأي أسلوب؟

جواب العنوان هو أنَّ نجاح محاولاتنا يتوقف على مدى سلوكنا على المنهاج النبوي. المنهاج ما جاءت به السنة كما قال حَبْر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. لكن لَمَّا كان قصورنا ونزولنا عن مرتبة الإحسان سِمةً غالبة لَزِمَ أن نُمرِّضَ المسألة، فاستعملنا كلمة «أسلوب»، ولها من لفظها رمزٌ للسلوب العالقة بنقائصنا.

شرط النجاح الإيمانُ والعملُ الصالح. الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والعمل الصالح يطلب خصلتين: واحدة لتَثْبُتَ الخطى على الطريق بثقة وعزم، والأخرى لئلا يتسرب اليأس إلى النفوس إن عاقت العوائق وطالت المسافة.

الأولى اليقين بموعود الله ورسوله، وقد روينا في فاتحة هذا الكتاب الحديث النبوي الصحيح الذي بشرنا بالخلافة الثانية تأتي على المنهاج النبوي.

والثانية فصلنا الحديث عنها في الفصل الرابع من الباب الأول، وهي سنة التدرج، ونذكر هنا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد عن مَعْقِلِ بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يلبَثُ الجَوْرُ بعدي إلا قليلا حتى يَطْلُعَ. فكلما طلع من الجَوْرِ شيء ذهب من العدل مثلُه، حتى يُولَدَ في الجَوْرِ من لا يعرفُ غيرَه. ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولَد في العدل من لا يعرفُ غيْره**».

من أعظم الجوْر، بل أمُّ الجوْر وأبوه، الذي طلع قَرْنُهُ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خصامُ السلطان والقرآن، وانفصال الدعوة عن الدولة، وتسلط الحكم العاض، حتى إن من الإسلاميين اليوم كما كانوا بالأمس طيلة تاريخ

الجَوْر من يتساءل ثم ييأس: هل يمكن الجمعُ بين الدعوة والدولة؟ وهكذا يتفرغ جماعة الدعوة والتبليغ، هؤلاء الأبرار، من همِّ الدولة ويتخصصون في تتويب المسلمين وتعليمهم مبادئ الدين. وكم من رجالٍ برزوا في الصحوة الإسلامية كانت خطاهم الأولى مع هؤلاء المتبتلين.

أسلوب حافظ على الجوهر، وهو إيمان الفرد وصلاحُه الشخصي، لم يستطع سالكو ذلك الطريق الخيِّر إلاَّ أن يُعرضوا عن أصحاب السلطان كما أعرض عنهم طيلةَ هذه القرون طوائفُ الزاهدين والصوفية والعابدين. حافظوا على الجوهر وهم الناشئون -رحم الله الشيخ محمداً إلياسَ- في بلد الهيمنة الهندوسية. وهي مدرسة نفيسة، ما هي أهلٌ ليُعَمَّمَ أسلوبها، ولا يُقَصِّرُ في ظلمها من ينتقد هؤلاء الصالحين -والله حسيبهم لا نزكي على الله أحدا- لتقصيرهم.

وقم أنت لنرى ما أنت فَاعل. لنرى ما الله موفقك إليه.

الإيمان والثقة والتدرج. وقد اجتهد في هذه العصور أكابرُ الدعوة، كلٌّ حسبَ زمانه ومكانه وملابساته. إلياس رحمه الله التزم الصحبة والذكر وتَرْكَ ما لا يعني. أبو الحسن الندوي، زكى الله عمله، ينشر العلم ويناوش الهندوس الأغلبية الحاكمة على أرضية اللاييكية و«مستقبل الإنسانية». المودودي رحمه الله ترك تراثا علميا نفيسا وتنظيما لا يزال يتقدم نحو السلطان بأساليب الانتخاب والديموقراطية والحركية مع الأحزاب. البنا رحمه الله خلف فرعا يانعا من فروع الإسلام مزدهرا، تبارك الله، وكان لا يحب أن تتعدد الأحزاب في بلاد المسلمين. سيد قطب رحمه الله تميز واستعلى على الجاهلية من وراء قضبانه وعند مَنْصِب مشنقته، وترك صيحة خالدة توقظ الأجيال لواجب الجهاد والعزة.

الخميني رحمه الله خرج بالدعوة من ظلالِ الحوزات العلمية إلى فضاء الثورة والسلطة الفعلية وبناء الدولة. وهي تجربة رائدة بإيجابياتها الكبيرة وأخطائها الضخمة، لا محيد للإسلاميين عن التعلم منها ومن كل ما بث الله فيها من ساع وداع.

الانقلابية دين القوميين وأسلوبهم. يجب أن نكون من هذا على حذر، ويجب أن نستخلص دروس تاريخ الفتنة مجمَّعَةً مُلخَّصةً مركَّزة في نيات القوميين وأفعالهم وجرائمهم. نستخلص الدروس لكيلا يسبقونا إلى خطف الحكم.

قال فيلسوف البعث ومؤسسهُ مشل عفلق: «البعث هو قدَر الأمة العربية. إن عقيدة «البعث» لا يمكن الوصول إليها بالعقل، ولكن بالإيمان وحده. إن القدَر الذي حمّلنا رسالة «البعث» أعطانا الحق في أن نأمر بقسوة ونتصرف بقسوة.

قال: «إن «البعث» هو الطليعة، وعلى الجماهير أن تمشيَ وراءه.

قال: «الانقلابيون صورة سباقة لمجموع الأمة. إننا نعرف أن هذه الفئة القليلة من الانقلابيين الذين تضمهم حركة «البعث العربي» هم قلة في الظاهر، قلة في البدء، ولكن صفتهم القومية الصادقة تجعلهم صورة مصغرة وسَبَّاقة لمجموع الأمة. نحن نمثل مجموع الأمة الذي لا يزال غافيا مُنكراً لحقيقته، ناسيا لهُويَّتِهِ، غيرَ مطلع على حاجاته. نحن سبقناه، فنحن نمثله [...]

قال: «فالانقلاب إذاً طريق، طريق إلى الغاية المنشودة، إلى المجتمع السليم الذي نَنْشُده. ولكنه ليس طريقا من الطرق، إنما هو الطريق الوحيد»[1].

كان موسِليني يقول: «الفاشستية هي قدَر إيطاليا». وقال مثلَ ذلك لنين رائد الثورة الاشتراكية. ويقوله كل متسلط.

أسلوب وحيد: الانقلابية والوِصاية على الأمة، والقسوة، القسوة! ألا من يقود الأمة بقوة وأمانة، رائداً لا يكذب أهله، خادما لدين الله لا فرعونا مستكبراً!

وبهذا العزم، وبهذه النية، وبهذه الثقة استولى القوميون الاشتراكيون الوحدويون على مقاليد السلطان كما استولى من قبلهم أصحاب العصبيات والسيف من لَدُنْ الأمويين. الحتمية التاريخية، قال الماركسيون. وقال عفلق: قدَر

(1) «في سبيل البعث»، ص171.

الأمة. والله أعلم بم خُتِم لعفلق، فقد قالوا إنه أسلم. وإن أسلم فلا يمحو إسلامه جنايتَه وجناية حزبه الشنيعةَ على الأمة.

وماذا بنى وجنى الانقلابيون القوميون الأوصياء على الأمة: عليها أن تطيع وتَتْبَعَ وتخنَع؟ بنَوْا الحزبَ الوحيد والزعيم العنيد والويل العتيد. وقد بادت دولة «الحتمية التاريخية» العظمى وانهارتْ، تلك التي كانت تُسند الجبارين في الأرض نكاية في أمريكا.

وليس يفيد ولا يصمد للزعازع ولا يصلُح على الأيام إلا حكم تتعانق فيه الصفوة الرائدة مع الشعب، وتنهض به ومعه، وتقاتل في صفه خادمة لمصالحه لا سيدة متسلطة عليه. وذلك ما شاهدناه في ثورة إيران حين تصدَّر آيات الله الزحفَ والْتَحَم بهم الشعب، فما كان لقوة الجيش، وكان من أعظم جيوش الأرض، إلا أن ينحاز للأمة ويُعطي من نفسه الوَلاءَ طوعا وكرها وعجزا أمام الصدور العارية.

الجيش هو آلة الانقلاب وآخِرُ معقِل تلتجئ إليه القوة عندما تنهار الأحزاب السياسية، وعندما يحدث فراغ في السلطة، وعندما يكون الشعب غافيا غائبا ألِف «دين الانقياد».

فإذا كان في الشعب قوة منظمة عازمة، وكانت لها كلمة واضحة، ومبدأ وبرنامج، فلا يسع الجيشَ ومطامحَهُ الانقلابية إلا أن يتفاوض ويتعاون ويترك الأمر لأهله آخر المطاف ليعود لثكناته. وهذا ما يحدث في مراحلَ وعَبْرَ أزماتٍ في السودان، حيث تُكَوِّنُ المنظمات المدنية، وخاصة الجبهةُ الإسلامية، القوة السياسيَّة التي لا يمكن تجاهلها ولا الاستغناء عنها ولا ترويضها وتعبيدها. وهكذا اضطر المارشال النميري ثم الجنرال عمر البشير أن يعتمدا على القوة الإسلامية التي أصبحت واقعا لا محيدَ عنه ولا مراوغة تنفع معه.

مهما كان أسلوب الإسلاميين في الاقتراب من الحكم فسيجدون أمامهم، وسيجدهم أمامه، العسكري الثائر الذي يبقى القوة الوحيدة في البلد بعد سقوط الأنظمة وانهيار الأحزاب. أمامنا النموذج الإيراني الذي قِوامه عشرات الآلاف

من الملالي تخرجوا من الحوزة بفكر موحد، وتمتعوا بتمويل البازار، واستثاروا حماس شعب وغضبه المتأجج على الظلم منذ مقتل الحسين عليه السلام.

للجيوش الثائرة حسابُهم وطموحُهم وأسلوبهم، ولهم أيضا ضرورات الحاجة للسند الشعبي، وفيهم مسلمون ميالون للدين. شهد بذلك واحد منهم هو أنور السادات، قال للصحفي أحمد بهاء الدين: «لا تعتقد بأنني لا أعي خطر مساعدة هذه الجماعات الإسلامية، فهي ليست بلعبة دونَ نتائج، وأنا واثق من أن المجابهة الكبرى ستكون مع هذه الجماعات. نحن العسكريين نفهم هؤلاء الأشخاص أكثر منكم: فقد جمعَنا العملُ السريُّ، وتدرب الإخوانُ المسلمون على أيدي ضباطنا. لذا تفَرَّدوا بالسلاح والتدريب الجيد خلال سنوات الاضطراب.

قال: «ولعل تقرُّبَ المجاهدين من الضباط الأحرار، وقدرتَهم الكبيرة على إقحام ذاتهم في الأوساط العسكرية يزيد من الأخطار الداهمة. فلا الوفد ولا الشيوعيون قادرون على استقطاب ضابط أو جندي، فدعاياتهم لا تؤثر على هؤلاء، بينما تجتذب صغارَ الضباط والمجندين ذوي الأصل الريفي مزاعمُ الجماعات الأصولية». [1]

قال: مزاعم! ونقول نحن: إن في الجيوش مسلمين، إن كان «البعث» القتال القاسي جندهم لأهدافه يوما فإن ما مع عساكر المسلمين من إيمان وما يضغطهم من حاجة لمشروعية وسند معنوي وشعبي كفيل أن يفتح يوما بيننا وبينهم الحوار ريثما تترعرع الدعوة ويُحصحصُ الحق ويَلْزَمُ كلٌّ نصابه. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

(1) كتاب «رأيهم في الإسلام»، ص129.

الفصل الثاني

هداية الوحي، سيادة العقل

- الوحي والفلسفة
- العقلانية المحرِّرة
- المعتزلة الجدُد

الوحي والفلسفة

لعل الحوار مع العسكري يكون إليه مسلك أهون وأقرب من المسلك إلى محاورة المتفلسف الـمُشبع بأفكار رَضَعها وتمثلها وسكنت في فكره وطبعه ونمط حياته ونظرته للكون وحكمه على الأشياء والناس بمنهجيته العقلانية الطاغية.

العسكري رجل التقنية والعلوم وأوامر تطبق. فمن الطبيعي أن يكون في سلوكه بعض تحجر وتصلب وتقييم للحياة وما فيها بمعيار مرتبية الرئيس والمرؤوس. لكن براءته من الفلسفة وما تصنعه الفلسفة بالعقول وما تسلخ من فطرة تجعله أقرب إلى مراجعة ما يكون معه من ميراث عقَدي. وذاك ما تشير إليه كلمة أنور السادات التي قرأناها في الفقرة السابقة.

تقول الملاحظة الميدانية: إن طلبة كليات العلوم والطب والهندسة يستجيبون للدعوة الإسلامية ويُكوِّنون صفوة جندها، بينما الطلبة الذين مروا بالشعب الأدبية والفلسفية -لا سيما في المدارس المقتفية نظامَ التعليم الفرنسي ومناهجه- ينغلقون عن الدعوة. ذلك لأنهم اكتسبوا «مَنَعَة» ضد الإيمان بما أودعتهم المناهج الفلسفية التي تعرضوا «لإشعاعها» المميت وعدوانها من الشك والتشكيك ومركزية الإنسان في الوجود وعقيدة أن الله -تعالى الله- فكرة تتطور مع العصور، وأن الإنسان خلق فكرة الله -جل الله- لا العكس.

فإنْ رَبَطَ أساتذة الفلسفة خريجو الطاحون الغربي منهجية الشك بنضاليةٍ لبراليةٍ تقدس الحرية، أو بنضالية تقدمية تنشدُ العدل، اجتمع على الطلبة عاملان يخربان أصول الفطرة، ويحفران جذورها، ويدوِّخان فروعها، ويطمسان رسومها: عامل فكري منهجي فلسفي، وعامل سياسي نضالي نفسي.

فإن كان الطالب طلع إلى الثانوية والكلية وما معه من سلالة الفطرة وهداية الوحي ما يبصِّرهُ بضلال الأستاذ فقد تمددت الضحية أمام الجزار. إذا طلع

الطالب ولم يسبِقْ إلى سمعه الفطري خبرُ الآخرة، ولا ألقَتْ إليه الأم ولا ألقى إليه الأب في نعومة أظفاره، ولا علمه معلم الابتدائية، أن الله تعالى هو الخالق العليم المحيي المميت باعث الرسل محيي العظام وهي رميم حسيب العباد ومجازيهم في الجنة أو النار فقد انفرد الأستاذ الفيلسوف بالمتلقي النموذجي.

ويقرِن الفلاسفة الملاحدة المنتشرون في الكليات والثانويات المنَظَّمُونَ الـمُحزَّبون نقدَ الدين بنقد الرجعية السياسية المتلفعة بشعار الدين وشعار الدفاع عن العقيدة. وتعمل الكلمة المتوهجة بالغضب النضالي، المشفوعةُ بالحجة الفلسفية، المعززةُ بِسلطان الأستاذية، المتحببةُ بطول العِشرة، الـمُمنهجةُ بتقنيات الاستقطاب، عملها في النفوس الغضة العزلاء.

يقدِّمُ الفلاسفة الملحدون الدين -كلَّ دين- على أنه كهانة سبقنا الغرب إلى حربها وتنحيتها من الساحة وطردِها من الوجود السياسي منذ قرون.

يعرِضُ الأساتذة الفلاسفة الملحدون المناضلون على النفوس الغضة الضحية مآثر العقول الجبارة من سقراط إلى دِكارط، ومن لوك إلى كانط، ومن هيجل إلى ماركس، ومن سارتر إلى هيدجر. ويغرقون العقول الساذجة في لفظيات الفلسفة وجُمَلِيَّات الإديولوجية فيتشربها العقل الناشئ على ظمإٍ إلى المعرفة، فإذا هو الغني الطارئ الغِنى يتبجح بمكاسبه الفكرية العالمية.

ما هي المنهجية الفلسفية، هذا السلاحُ الفتاكُ في يد القتالين؟

كانت الفلسفة التأملية السقراطية تلخص الوجود في أفكار، وتفصله في مقولات، وتترك للسؤال عن الموجِد هامشا للتأمل. وكان المذهب الأفلاطوني يقترح مُثُلا عليا تتراآى في نورها المزعوم حقائق الوجود «لساكن الكهف»، هذا الإنسان الغامض الغريب. وكان الاهتمام بالألوهية -بالمفارقة كما يعبر الفلاسفة- حضوراً مُلِحّاً يُتناقش فيه ويُسأل عنه.

وشَرِبَ من أبناء المسلمين في القرون الأولى من جداول السقراطية والأرسطية المشائية والأفلاطونية كما شربوا من مستنقعات الفلسفة المشرقية

الهندية والصابئية والزرادشتية. وهكذا يفسر «الشيخ الرئيس» ابن سينا الإسلام تفسيره الفلسفي، ينظر إليه من خلال مزيج الفلسفات الغازية، وتنتهي الرئاسة إلى ابن رشد الذي فصل الدين عن الفلسفة ليثبت للدين وجودا ومشروعية عقلانية كما يثبت مشروعية الفلسفة.

وكان جهاد علمائنا للفلسفة الحَرَّانية الأرسطية السينية الرشدية جهادا في التفاصيل لا في مبدإ وجود الله. علماؤنا الأولون ردوا على الفكر الفلسفي بما مُؤَداه أن العقل لا يناقض الوحي، وأن الوحي مرتبةُ التسليم ليس على العقل بعد أن يؤدي وظيفته إلا أن يجلس من الوحي مجلس التلميذ ليستمع.

وظيفة العقل كما يقول علماؤنا أن ينظر في ملكوت السماء والأرض وفي نظام العالم حتى يقتنع أنه لا بد للوجود من موجد. وعندئذ يستمع للنبوءة تأتيه بخبر الألوهية وخبر الآخرة.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: «أنه [أي العالَم] افتقر إلى مُحدِث، وأن بعثة الرسل من أفعاله [أفعال المحدث] الجائزة، وأنه قادر عليه وعلى تعريف صدقهم بالمعجزات، وأن هذا الجائز [أي المعجزات] واقع. عند هذا ينقطع كلام المتكلم وينتهي تصرف العقل. بل العقل يدل على صدق النبي ثم يعزل نفسه، ويعترف بأنه يتلقى من النبي بالقَبول ما يقوله في الله وفي اليوم الآخر مما لا يستقل العقل بِدَرْكِهِ ولا يقضي أيضا باستحالته»[1].

وكان لعلماء الكلام جولاتٌ مع الفلاسفة يمنعونهم من حفر جذور الإيمان. لم يسْلَم المتكلمون بطول خوضهم مع الفلاسفة في الإلاهيات من رشاش يصيبهم ونقد من جانب المحدثين أهل السنة يحط من قيمة الكلام. وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابا عنوانه «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» رد فيه على الفلاسفة بمنهجية غير منهجيتهم، وبمنطق غير المنطق الصوري الأرسطي الذي أُعجبَ به الغزالي فاستحق الملام.

(1) المستصفى، ج1 ص6.

قال شيخ الإسلام في كتابه هذا:[1] «وكان ابن العربي [المعافري] يقول: شيخنا أبو حامد [الغزالي] دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر».

وينتقد ابن تيمية رحمه الله المتكلمين ومنهجيتهم فيقول: «هذا القانون الذي وضعه هؤلاء، يضع كل فريق لأنفسهم قانونا فيما جاءت به الأنبياء عن الله فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه [يعني قانون سبق العقل للنقل] هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته. ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تَبَعا. فما وافق قانونَهم تبعوه، وما خالفه لم يتبعوه. وهذا يشبه ما وضعته النصارى».

ويشتد شيخ الإسلام رحمه الله على هذه المنهجية التي تجعل تخمينات العقل أصلا وخبر الوحي فرعا. يقول: « فالنصارى أقرب إلى تعظيم الأنبياء والرسل من هؤلاء». وينحو هو مَنْحىً آخرَ في تدليله على مطابقة «صريح المعقول لصحيح المنقول» فيجعل هداية الوحي أصلا يعرِضه على العقل فلا يجد العقل مغمَزا.

لا يجد عقل المؤمن ابن تيمية، أما العقول الـمُشْبَعَةُ بالمنهجيات الفلسفية المادية في عصرنا فالدين مرفوض عندها من أساسه. لم يعد الجدال في التطابق أو عدم التطابق بين العقل والنقل، بل الجدل في الأسلوب الذي ينبغي اتخاذه للقضاء على رواسب القرون الوسطى: الدين والرجعية، الرجعية والدين.

كان عقل الأولين يجيزُ معجزة النبي ويملأه الهم بالخالق ما صفاتُه وما يجب له وما يستحيل عليه. أما في عصرنا، عصرِ «المعجزات» العلمية المذهلة والصخَب والجرَب، فالنبوءة عند الفلاسفة الملحدين شعوذة، والألوهية خرافة انطلت على الإنسان في زمان طفولته.

الفلسفة الحديثة منذ دكارط فلسفة تمرُّدٍ وتألُّهٍ وجبروت. يقول الفيلسوف: «أنا!»، وليس لديه أي استعداد للبحث عن أَنِّيَّتِهِ خارج عقله. قال دكارط: «أنا أفكر فأنا موجود». واتخذ الفلاسفة من بعده هذه المسلمة المعتوهة أساسا منهجيا.

(1) المستصفى، ج1 ص3.

قال دكارط: «لستُ إلا شيئا يفكر... يفكر هذا الكَمَّ الذي يمكن أن أعُدَّ منه أجزاءً، وأن أنسُبَ إلى كل جزء أنواعا من المقادير والصور والأوضاع والحركة». شيء يفكر، شيء من الأشياء هو الإنسان! معناه وغايته وأصله وفرعه منحصرة في وظيفته العقلانية.

كان الفيلسوف القديم يناصِبُ الوحيَ ويطاوله ويزعم أنه بوسائله قادر على معرفة سر الوجود ومعنى الموجود. أما الفيلسوف الحديث فقد ولَّى ظهره للهم «المفارق» وأقبل على الطبيعة هو منها وإليها، لا شيءَ هو غيرَ هذا الشيء الذي يفكر في المقادير والأجزاء والصور والأوضاع والحركة.

هدف الفيلسوف الحديث السيطرةُ على الطبيعة، ومنهجيته الشك، وسؤاله: كيف؟ لا يسأل أبدا: لماذا؟ قبِلَ العبثية تفسيرا للوجود. عبثيةَ المعاناة عند سارتر، وعبثية التأله والتطاول عند نتشه. وقد تحرر كانط وحرر الفلسفة من بعده من رواسب الأرسطية وهموم «المفارقة»، فالمفارقة عندَه خيال. ثم انتهت الفلسفة وانختمت بالتجريد التصوري عند هيجل.

انختمت فلسفات التأمل في المفارقة، والتصور الحائم في «الفكرة»، لتُتَوَّج المقدمات الدكارطية والجدلية الهيجلية والمادية الفورباخية بالصراعية الماركسية، بالجدلية المادية الثورية، بفلسفة الفعل التاريخي التطوري. زهرةِ الفلسفة وثمرتِها.

إن نقدنا للفلسفات الفاعلة في عصرنا لا يصلح له إلا الفعل لا القول. ولئن كان من فروض الكفاية أن يتخصص بعضنا في «الكلام» مع الزنادقة والملحدين فإن على وازع السلطان الإسلامي أن يتحرك أسبَقَ شيء وأَمَسَّهُ ضرورة لاستنقاذ النشء من مخالب الفلاسفة الملحدين. ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين.

العقلانية المحرِّرة

وَلَغَتْ البرامج التلفزيونية في حَرَم الأسرة فزادتها تفكيكا، وشَكَّتْ خرطوم مُنَوَّعاتها المبتذلة النجِسة في أحشائها، وسَرقَت الأطفال من أمهاتهم وآبائهم، وقتلت الوقت فلم يبق لواجب الاتصال الحميم بين الآباء والأبناء فرصة ليتصل حبل الفطرة. سبق التلفزيون إلى النفوس الطرية فَنَفَثَ فيها من سمومه قبل أن تُتاح الفرصة للكلم الطيب ليصلح بذْرُها ونَماؤُها وثبات نبتها وإثمار فرعها.

الأسرة المفكَّكَةُ، والإعلام الخليع، وتخلى الأمهات والآباء عن واجب التربية الفطريَّة، وجهلهُن وجهلهُم بأصل الدين. لم تَرْضَعْ الأجيال من الأجيال دَرّ الفطرة ولَبَن هداية الوحي وسداد العقل الخاشع لله، المتفكر في آيات الله، العارف بعظمة الله، وبالمعاد إلى الله. وهكذا تبقى الأرضيَّة النفسية خاليةً قاعا صَفْصفاً من غِراس الإيمان، حتى إذا جاءه نداءُ الفلسفة الملحدة أنبتت أشواكَ الشك وحنظلَ الكفر وعَلْقَم الإلحاد.

إذا لم تُرضع الأم طفلها الإيمان مع الألبان، ولم يَقُدْ الأب خطى أبنائه الأولى إلى المسجد، ولم تُلَقِّن الأسرة كلمة التوحيد للصبي أوّلَ ما يلْهَجُ بالنطق، ولم يُرَدِّدْ معه الأخ والعم والخال والمذرِّر آيات الله في غضاضة العمر، ولم تتعهده بالوصية الإيمانية القَرابة والجوار، فقد فاته إبَّان الحرث. ويأتيه في مرحلةٍ من عمره صوت الأستاذ الفيلسوف الملحد فتتلجلج كلمات الإلحاد في نفس خَلاَءٍ. وتلك نفس ذهبت فطرتها أدراج الرياح، وشتتتها أيدي السافيات شَذَرَ مَذَرَ.

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة**». ثم يقول: «**اقرؤوا: فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**». زاد البخاري: **فأبواه**

يُهَوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاءَ؟!».

يولد المولود على الفطرة، أي على الاستعداد لتلقي الإيمان والاستقامة عليه. وإنما تُجْدَع فطرتُه وتُقطع وتُبتَر بفعل العامل التربوي، بفعل الأبوين أساسا. إما يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه إن كان ذاك دينهما، أو يحفظانه مؤمنا بالله وباليوم الآخر إن كانا مؤمنين راعيين لمسؤوليتهما التربوية قادرَيْن عليها، يشِع من قلبهما وسلوكهما وكلامهما ورفقهما وعنايتهما هداية الوحي. وإلا تخليا عن وظيفة الهداية الفطرية وزُحِزحا عنها، فزَرَعَتْ التلفزيون والنماذجُ الساقطة الألغام في أرض فطرته، حتى تُعرَض في الثانوية والجامعة على الفلاسفة الذين عَقّوا الدين وعقّوا الأمة، واغتالوا أجيال المسلمين في أعزِّ ما تَرْصُدُهُ الأمة لمستقبلها، وأوْحَدِ ما يَلْقَى به العبدُ ربه: الإيمان بالله وباليوم الآخر، والعبودية له سبحانه، وصرفِ العقل لاتباع الهُدَى الـمُنزَّل لا اتباع الهوى.

يَرَى المغربون المطحونون أن داءَ الأمة هو الإيمانُ بالغيب، «بالْماوراء» كما كان يقول الفلاسفة قبل أن تصبح حتى الإشارةُ إلى شيء خارجَ الطبيعَة وتطورها عيبا منهجيا وتخلفا فكريا. داء الأمة عندهم هو عادة تأكيد الأشياء دونَ مناقشة. فيُعَلِّمُونَ الناشئة أولَ ما تُلقيها إليهم في الثانوية والجامعة يدُ الإهمال منهجيةَ الشك، ويوقظون فيهم شيطان الشك، ويشحذون في نفوسهم وعقولهم حاسة الشك والنقد الشامل الكامل.

يرى الفلاسفة المغربون العقلانيون، عقلانية الإلحاد، أن العلة المنهجية في الفكر المسلم هي التسليم بلا نقد، ذلك التسليمُ الذي يكَوِّنُ مُناخـًا عاما يشمل الحياة بأطرافها، ويعم العلاقاتِ السياسيَّةَ حيث تسود الطاعة العمياء والانقياد لكل من غلب وتسمّى أمير المؤمنين، ويعم الحياة الاقتصاديَّة حيث يتواكل المؤمنون بالغيب على الرزق يأتيهم من السماء، ويعم الحياة الاجتماعيَّة حيث يَحضُن التضامنُ القَرابيّ كسلَ العاطلين الذين لا يُنتجون، فتصبح الطفيلية أصلا من أصول علاقات اللا إنتاج، وسببا من أسبابه.

ينتقد الشاكون المشككون المجتمع المسلم المستعمَر بأنَّ ميتافيزيقية الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالغيب تُعَمِّي على المسلمين الحقائق، فيجدون لكل حادث تفسيرا غيبيا يرسله إلى أسباب غيبية وهمية وعلل خفية، لا يقدرون على تحليله العقلاني ليعرفوا سببه الواقعي فيتأتى لهم علاجُه. وبهذا يمكُثُون متخلفينَ سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، يمكثون قطيعا موروثا وبضاعةً مُسَلّمَة. يسلِّمُون أميراً لأمير وحاكماً انقلابياً لقاهره.

ينتقدون العقل المسلم بأنه يُرجع الاستعمارَ والاحتلال اليهودي لفلسطين وكل كارثة جلبها على الأمة الكسلُ والعجزُ والجهلُ والتخلف إلى القدَر الذي لا حيلة معه، وإلى الشيطان المشخص في أمريكا واليهود. ينتقدون العقل الطفل المتخلف في مضمار التقدمية التطورية الوضعية العقلانية. ينتقدون العقل التقليدي الغيبي. وكل كلمة يكتبها الإسلاميون وينطقونها فهي ظلامية قبل كل نقاش. ينتقدوننا بأن عقلنا منغلق عن الواقع ليس له إلا جوابٌ واحد عن كل تجديد وتحديث وتقدم في الفكر والسياسة والاقتصاد: هو أنه كفر وانحراف وشطط.

ينتقدون الإيمان بالغيب ويعتبرونه منهجية تحول دون اكتساب العقلانية المحررة ودون الانفتاح على الواقع للتأثر به والتأثير فيه والتفاعل معه تفاعلا مُبدعا. ويصف الفلاسفة الملحدون الدواء للأمة بأنه التبني المطلق الكامل للعقلانية، لا يميزون بين العقلانية الفلسفية المستكبرة الجاحدة المتمردة على الله عز وجل وبين العقلانية العلمية الاكتشافية المتتلمذة لما وضع الله عز وجل من أسرار في الكون.

لا تقبل عقلانية الفيلسوف الجبار أن «يعزل العقل نفسه» بعد أن يثبتَ لديه ضرورة خالقٍ لهذا الخلق، وجوازُ بِعثة الأنبياء، وحصول المعجزات في التاريخ تزكيَّة وتأييداً للنبوءة والرسالة. لا يدخل شيء من همِّ السؤال الوجودي: «من أنا؟» و«إلى أين؟» في حساب العقلانية الفلسفية التي تعبد نفسها وتدور في رَحَا «المعرفة للمعرفة»، المعرفة من الحس وفي الحس وإلى الحس. كل ما عدا الحسَّ عندها خيال وخبال.

لا تميز العقلانية الفلسفية بين الشك المنهجي في وجود الله عز وجل وفي الدار الآخرة وبين الشك العلمي، شكِّ المكتشف الذي يباشر الأشياء ويجرب ويشك في نتائج التجربة ويتحقق ويراجع. منهجيةً واحدةً يُريدون: بَاردةً مسيطرةً واقعيةً وضعيةً لا تؤمن إلا بالحس، ترصده لا تَعْدُوه ولا تلتفت عنه ولا تسمع من غيره.

كل وعي سابق، كل رواسبَ إيمانية، يجب إلغاؤها ومحاربتها. ذلك ثمن كسب العقلانية عندهم، المحرِّرةِ، أولُ شيء تحرِّرُ منه الدينُ. لا سبيل عندهم للتحرر من كابوس التخلف وذل الهزيمة التاريخية إلا بالثورة الصارمة على الدغمائية الدينية (هكذا يسمون الإيمان الراسخ) لنكسب العقلانية التحليلية القادرَة وحدَها على رفعنا إلى مستوى العصر. العقلُ ولا شيء غير العقل. لا حقيقة لكائن مطلق، وكل ما في الكون يدخل في نسبية بين معطيات الكون، وحركته، وتطوره في الزمان والمكان، وموازين القوى، وتاريخ يتقدم ويتصارع الناس فيه، صراعُهم هو المحركُ، وسيرهم يخْضَعُ لمنطق لا علاقة له بالدين إلا من حيث كونُ الدين أفيونا للشعوب وأحلاما وشعورا مسليا ورغبة في تعويض فشل الحياة بوهم النجاح في آخرة خيالية.

لا يرى الفلاسفة الملحدون مخرجا من التخلف، ولا طريقا إلى الديموقراطية والعدل والكرامة إلا في استيعاب مقدمات الفلسفة ومنهجيتها الوضعية التطورية، جميعا مع استيعاب مقدمات العلوم التجريبية ونتائجها التكنولوجية. اعتنقوا عقيدة تقول: إنه لا سبيل لاكتساب العقلانية التكنولوجية إلا باستيعاب الأرضية الحضارية وركائزها الفلسفية الغربية. ليست عندهم -ولا عندنا بالمناسبة- التكنولوجيا غنيمة تحصُل عليها بغارَة منفردة، لكنها حصيلة جهد يبدأ من طرح الماضي التخلفي وما فيه من خرافيات. عندنا يبدأ الجُهد لاستصفاء عقلانية صانعَة مكتشفة بتجديد الإيمان، يبدأ الجُهْدُ بمعرفة أعداء الدين من بني جلدتنا. وعندهم تكون البداية بطرح الدين جملة.

هؤلاء العاقون الذين يقول أحدهم: «إن الله عند جدي يتمثل في شخص طيب، رحيم غفور تواب، يداوي الروماتزم ويقوي المفاصل. وعند أمي مأذون يجمع رؤوس بناتها على رؤوس عُرْسان أغنياءَ في الحلال... وهو عند الأطفال يشبه عروسة المولد... وهو عند أينشتاين معادلة رياضية... وهو عند عاشق مثلي حب... وهو عند مشايخ الطرق وزير أوقاف يوزع الكساوي والمعاشات... وعند الملحد موضوع دراسة... وعند المؤمن موضوع عبادة».

يقول: «إن الله فكرة في تطور مستمر... الله في العقل الحديث معناه الطاقة الخام التي في داخلنا. الله-جل الله- هو الحركة التي كشفها العلم في الذرة. والعلم بهذا المعنى عبادة، والفن عبادة، والفلسفة عبادة، لأنها إدراك لهذا الإله بوسائل مختلفة».

ويقول: «إن الله-تعالى الله- ليس فوق الجدل، وليس فوق العقل، وليس فوق الواقع... إن الله-جل الله وتعالى- هو العقل، وهو الواقع، وهو مجموع القوة الكونية التي تعمل لخيرنا في كل وقت... وهي قوى تقبل المراجعة والبحث والتطور». [1]

ويسخر العاقون من علماء الملة، يحشرون في حُمَّى غضبهم على علماء القصور أشباه رجال الكنيسة، الصالح منهم والطالح. كتب خالد محمد خالد في كتابه «من هنا نبدأ»[2] قال: «رأينا الكهانة المصرية «علماء الأزهر» تختط مذهبا عجيبا. إذ راحت تمطر الناس بخرافاتها، وسالَ جُشاؤُها حاملا مبادئها الحزبيةَ الـمُدْبِرَةَ، داعية الناس إلى القناعة المقدسة. بيدَ أن الكهَنَة أنفسَهم أَلَدُّ أعداء القناعة، وأسبقُ العالمين إلى اقتناص الغنائم، والبحثِ عن المال والجاه. وهذا خلُق لها قديم».

كتب العاقان -التائبان بعد- منذ أربعين سنة. وموجة الإلحاد العقلاني المستهتر الساخر لا تزال تسري، بل تستفحل، بين دعاة الكفر والفسوق والعصيان. لئن

(1) مصطفى محمود في كتابه «الله والإنسان»، كتبه قبل رحلته العائدة من «الشك إلى اليقين».
(2) وقد تاب بعدُ وتبرّأ من أفكاره في «من هنا نبدأ».

كان حوار من سبقنا معهم حوارَ جَدِلٍ واستنكار فلن يُجدينا إلا الفعلُ. أولُ الفعل وهدفُه أن يُفرَغَ من أنفاسهم الجهنمية جوُّ المدارس والجامعات. ربنا لاَ تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة. إنك أنت الوهاب.

المعتزلة الجدُد

من المثقفين المفتونين بالعقل والعقلانية من اختلطت عليهم الرضَاعَة الفطرية بصَبيبِ الرضَّاعة الصناعية الفلسفية، فهم بَيْنَ بَيْنَ. هم على لسان أنفسهم في دائرة الإسلام ومن أهل البيت الإسلامي. ومنهم لا شك صادقون في دعواهم، على ما هنالك من غبَش لا يرونه كما نراه. ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

هؤلاء هم المعتزلة الجُدُد المشغوفون بسلفهم المعتزلة الأوَلِ، يعتبرونهم شرفَ العقل المسلم ومجدَه. هؤلاء وجوهٌ نبتسم إليها ونرحب بها ونحاورها، يصرف وجهَنا إليها اكفهرارُ الوجوه السوداء التي كنا معها في الفقرة السابقة، لا الإعجابُ بمغاليط المعتزلة الأولين، ولا فرطُ الثقة بمغالطات خلفهم هذا السِّياسيةِ. ونحكم ويحكمونَ بجلِيِّ الأعمال لا بِمُحَلَّى الكلام في مستقبل الأيام. بيننا وبينهم المستقبل، بيننا وبينهم شرع الله، نَرى هل يتولَّوْنَهُ أم يُؤَوِّلونه كما فعل سلَفُهم في كثير من أصول الدين وفروع العقيدة.

هم طبقات ومدارس كما كان أصحابهم. عسى الحوارُ معهم يُسْلِمُنا إلى عقيدة الفطرة، عقيدةِ العقل الذي يسمع هداية الوحي ويطيع، عقيدة عقل ما قبل الخلاف وما قبل إنشاب الفلسفة أظفارها الوسخة في عقول المسلمين.

وهل يبقى العقل عقلا إذا حُجِرَ على حريته في الخلاف؟ هذا سؤال فلسفيٌّ نموذجيٌّ؟ ما هو عقل ما قبل الخلاف؟ الجواب في كتاب الله تعالى الذي أضاف العقل، وهو فعل، إلى القلب، إلى الفطرة، لا إلى الـمَلَكَةِ التخمينية التخييلية. والكفار ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِها ﴾و﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[2].

(1) سورة البقرة، الآية 111.
(2) سورة الأعراف، الآية 179.

عقل المعَاش والتخمين والتجريب والتحليل والتركيب والمنطق الماديِّ دالَّةٌ أو مَلَكة. وهل هو ملكة؟ ما هو؟ إن تطاولت على مُعطيات الوحي وقنوات السمع وجداول الفطرة فإنما هو آلة ضلال وتغفيل و«تنعيم». من الأنعام.

يُشيد المعتزلة الجدد بحكم الشورى ويناصبون الانقضاض الأمويَّ الغاصب عِداءً مثلما نناصب. ننطلق نحن من الإخبارِ النبوي بنقض عُرا الإسلام وبهلاك الأمة على يد غلمة قريش، وينطلقون هم من حِسٍّ أخلاقيٍّ غضبيٍّ على الظلم ومن سابقة سلفهم، فنلتقي وإياهم على كلمة سواء وإن اختلف المنطلق. ولا إخالُهُمْ إلا يتقبَّلون الأحاديث النبوية المخبرةَ المنبئة بفساد الحكم الملكي العاض والجبري رغم توقفهم في قبول الأحاديث الصحيحة عندنا سنداً، المقبولةِ، المعروضةِ عندهم لرقابة العقلِ سلطانِهم وأميرهم. ونقول مَرْحَى لهذا اللقاء على كره كل حكم لا ينبثق عن الشورى ولا يستند إلى اختيار المسلمين!

ويتمسكون بمبدإ العدل الاجتماعي والعدل في الحكم كما نتمسك. هم من مبادئ تحررية تقدمية فلسفية سياسية ثورية يشاطرون نُظراءهم الأولين التمسك بها. ونحن من أمرِ ربنا، أمَرَ سبحانه بالعدل والإحسان، فالعدل عقيدتنا ودِيننا. فنقول: نعم نعم للعدل بين الناس، ودعونا من قدَرِيَّةِ سلَفكم الذين يقصدون بمبدإ العدل الاحتجاج بعدل الله سبحانه وتعالى ليتقدموا بعقيدة خلق الإنسان فِعلَه واقتدارَهُ. وذاك خللٌ في العقيدة ليس هنا مكان الحديث عنه.

لكن تعالوا أولا نصحِح الخُطى الأولى. أفي مذهبكم هذا المتجدِّدِ فريضة الصلاة؟ إذاً نلتقي في المسجد لنتحدث حديث الوَلاية بين المؤمنين. أم مذهبكم إسلام فكريٌّ نظري فلسفي تراثي؟ إذاً نَذَرْكُم في سِجالٍ مع نظرائكم في الثقافة المغربين المطحونين، يكفينا منكم أن تتصدَّوا لنظرائكم في الفلسفة بما معكم من سلاح الجدل.

أوْ فتعالوا نرجِعْ معا إلى الفطرة ونطْرَحْ الكلام والفلسفة والحذلقة لنكون في الإيمان فطريين، لا نستدل بالعقليات على السمعيات، بل نؤمن بالله وباليوم

الآخر، ونصلي طاعة لله وخوفا منه ومن اليوم الآخر، ورجاء في ثوابه وشوقاً إلى لقائه.

تعالَوْا إلى عقيدة ما قبل الخلاف والفلسفة وعلم الكلام. هذا واحد من المثقفين أمثالِكم ساقته الهداية الإلهية من مضايق الفلسفة وأسواق الثقافة إلى فَسَحات الإيمان، فيحدثكم عن الفطرة ويقول: «إنه [القرآن] لم يعرض [قضية العقيدة] في صورة «نظرية» ولا في صورة «لاهوت»! ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاوله ما يسمى «علم التوحيد»!».

ويضيف سيد قطب رحمه الله قائلا: «كلا! لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة «الإنسان» بما في وجوده هو وبما في الوجود حوله من دلائل وإيحاءات... كان يستنقذ فطرته من الركام، ويُخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها، ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها». انتهى كلامه رحمه الله.

لا نحب أن نسمي تراث المعتزلة رُكاما ففي ثناياه شهادة أن لا إله إلا الله، ولا أن نتدخل في تفاصيل «أجهزة استقبال» من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله بحقها. لكن نضع المعتزلة الأولين في مكانهم التاريخي حيث وضعهم أهل السنة والجماعة، متحفظين في كثير من آرائهم الجريئة. لا نكفر كما يفعل بعضهم.

كان المعتزلة الأولون فرسانا حماة للعقيدة، ثم طرأ عليهم الخلل. قال عنهم الإسفراييني: «أسسوا قواعد الخلاف وجمعوا بين المنقول والمعقول، وأقاموا سياجا قويا من البراهين العقلية والحجج المنطقية للدفاع عن العقيدة في مواجهة المخالفين لها والمعترضين عليها». وقال المالطي: «المعتزلة أرباب الكلام وأصحاب الجدل والتمييز والنظر والاستنباط والحجج على من خالفهم، وأنواع الكلام، والمفرقون بين السمع وعلم العقل، والمنصفون في مناظرة الخصوم».

المعتزلة فرسان انتزعوا من الفلسفة الغازيَةِ سلاحها ليدافعوا به عن الدين. لكنهم ما لَبثوا بعد معاركَ جليلة أن فلسفوا الدين وتاهوا في النظر العقلي وحاربوا رجال الدين، وقالوا بخلق القرآن، وتألبوا مع السلطان العباسي المأمون فكانت محنة الإمام أحمد رحمه الله التي لا تنساها لهم ذاكرة الصالحين.

أصَّل المعتزلة أصولاً خمسة، وافقوا أهلَ السنة والجماعة في أربعة منها وشذوا في الخامسة. وافقوهم في أصل العدل لفظا، يقصدون هم بالعدل عقيدتَهم القدريَّة ويقصد أهل السنة ما أمر الله به من حكم بين الناس وقسمة. ووافقوهم في التوحيد والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وشذوا في حكمهم على مرتكب الكبيرة، جعلوه في «منزلة بين المنزلتين»، لا هو مؤمن ولا هو كافر. بينما يلتمس له أهل السنة الفقهاء والمحدثون سبيلا للمغفرة. ولم يكن الهمُّ السياسي غائبا في أحكام المعتزلة وغيرهم. فالفقهاء والمحدثون دافعوا عن «ملوك المسلمين» ونظروا إلى ظلمهم بالنظرة الجزئية السطحية، يعُدُّون لهم معاصيَ يغفرها الله إن شاء، بينما المعتزلة يرفضون حكم «من غلبهم بالسيف حتى سُمي أميرَ المؤمنين». فهو عندهم في منزلة بين المنزلتين.

كان للمعتزلة الأوَل، كما لمعاصرينا من المعجَبين بهم، قدَمٌ في الدين وقدمٌ في الفلسفة. تديُّنهم كان قِشْراً لبه الفلسفة والسياسة. وجدلهم عن الدين كان تسلِّيا في الحرب المذهبية عن مرارة الغضب على واقع زمانهم. والله أعلم بما في نفوس هؤلاء وأولئك.

ثم تفاعلوا مع الفلسفة الإغريقية وتوغلوا فيها حتى غاب عنهم القصدُ الأوَّلُ في الدفاع عن الدين، وغلبت عليهم صبغة الحِجَاجِ والنظر.

قال إمام من أئمتهم الجاحظ في كتاب «الحيوان»: «ليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام، متمكنا من الصناعة، يصلح للرياسة [قلت: للرياسة الفلسفية التي صلح لها الرئيس ابن سينا]، حتى يكونَ الذي يُحسن من كلام الدين في وزن الذي يُحسن من كلام الفلسفة». قلت: كلام، كلام.

قال: «والعالم عندنا هو الذي يجمعهما، والمصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع [أي العلم بالكونيات] حقها من الأعمال. ومن زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع فقد حَمَل عَجزَه على الكلام في التوحيد». انتهى كلامه.

كان للمعتزلة الأولين اهتمام «بالطبائع» مثل اهتمام العقلانيين في زماننا، ومثل اهتمامنا. لكنهم بنَوْا أمرهم على توازن وموازنة بين العقل والنقل، وقدموا العقل فجعلوه «أمَّ الأصول» حسب تعبير إمام من أئمتهم. جعلوا العقل المحلل المنتقد حَسيباً على النقل. فبينما نجد الفقهاء من أهل السنة والجماعة يرتبون الأدلة الشرعية ابتداء من القرآن فالسنة فالإجماع فالقياس، يجعلون التعليل العقلي واستنباط الحكم آخرا، نجد المعتزلة يرتبون العقل أولا ثم يسندون إلى سلطته الكتاب والسنة والإجماع.

حُجَجُ العقل عندهم، وعلمُ الحس، «قاضية على حجج السمع وحاكمة على أمرها».

كان المعتزلة الأولون، مثلَ نظرائهم المعجبين بهم في زماننا، «نخبة» رفيعة المستوى الفكري تسعى بوسائل التقرب للجماهير، «للعامة»، أن تجمع زَخْما ثَوْرِيّاً.

مما يزيد معاصرينا المثقفين إعجابا بالمعتزلة أنهم كانوا «تقدميين» قبل اختراع الكلمة. كانوا خرقوا حواجز العصبية القبلية وحواجز الحسب والنسب والثروة والسلطان. فكان منهم الموالي أنداداً للعرب الأقحاح. وكانوا «عُضويين» قبل كلمة غرامشي، يستقطبون العامة بتأليف قادتهم الأكثرِ وعيا.

ويجتمع مع المعتزلة الأوَلِ مثقفونا المعجبون في نقط تلاقٍ منها الثورية المناضلة. فقد ساهم المعتزلة، بل قادوا إلى جانب الشيعة، «قومات» أهمها إسقاطهم «للخليفة» الأموي الوليد بن يزيد. وكانوا يدعون إلى الشورى ويندّدون

بتبذير الأمويين وتسلطهم. ثم خبت نارهم فصالحوا المأمون العباسي ليوقدوا نار الفتنة العقدية.

يَجمَع المعتزلةَ الأولين ومعاصرينا المعجبين أن أولئك فلسفوا الدين بينما هؤلاء يحاولون تديين الفلسفة. يجمعهم بهم مبدأ «العدل» القدَري الذي ينسب الاختيار المطلق للعباد، لا يقبلون أن يمسح العباد خطيئاتهم في القدر. ولا نقبل، لكننا نؤمن بأن الله جلت عظمته خلقنا وما نعمل، ولنا الكسب وعلينا المسؤولية. ولا مجال هنا لعرض الأشعرية وقتالها للمعتزلة. ولا نحن أشاعرة ولا معتزلة. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث

جدار اللاييكية

- غرس الاستعمار
- الثقافة جامعة
- التعليم

غرس الاستعمار

غَرَسَ الاستعمار في أرض المسلمين واستنبت وتعهد غراسا كنت أسميه «علمانية» جريا على اصطلاح وَضَعَهُ من يعنيهم أن يموهوا الحقائق بالأسماء الجذابة. صاغوا كلمة «علمانية» ليترجموا مفهوم «لاييكية». ثم رأيت أن أحتفظ بالاسم على مبناه الأعجمي وأَسْتَبْقِيَهُ تنزيها لكلمة «علم» الشريفة.

عملية عدوانية على الدين هي اللاييكية. اللاييكية عزل الدين عن الحكم، وفصله عن الدولة، وتهميش الشرع ليتولى القانون الوضعيُّ وحده السيادة في المحاكم ودواوين الحكومة وتفاصيل العقود ومُجمل الدستور. ليكون القانون الوضعيُّ سيدا مطلقا في حياة المسلمين العامة، وليُزْوَى الشرع في حياتهم الخاصة إن شاءوا.

وَثاقٌ هي اللاييكية وغُلٌّ في الأعناق، وأول حَلِّ فَتْلِهَا أن نفُكَّ ربطها باللفظ الشريف «علم» لتبقى مكشوفة معروفة الأصل والفصل.

نشأت اللاييكية في أوربا، ونتجت عن صراع الطبقة المتعلمة الغنية البرجوازية مع الكنيسة ومع الدين الكنسي. تأصل العِداء بين العقل الحر الفلسفي وبين الكَهَنوتية الكاثوليكية المترابطة المتساندة مع الـمَلَكية الثيوقراطية، وسقطت على مدى قرون ضحايا للظلامية الكهنوتية والجبروت الكنسي والخرافية الكنسية. كانت اللاييكية مُكتسَبا كبيرا للعقل على الخرافية وللحرية على الغطرسة. كانت ضحايا الكهنوتية على مدى قرون مَعْلَمات للمقاومة الشريفة التي أبداها بْرُونُو فحرقوه، وغاليلي فسجنوه، ودكارط فأهانوه.

اضطهدت الكنيسة كل فكر حر، حتى إذا نجحت الثورة الفرنسية وأسقطت الملَكية طبقت البورجوازية المنتصرة شعار الفلاسفة: «اشنُقوا آخر أرِستُقراطي

بأمعاء آخر قسيس». وأقامت البورجوازية على أنقاض الحكم الملكي وعلى حطام الكنيسة نظاما معاديا للدين. ثم تقلبت الأحوال وانتكست الثورة، ثم تجددت، ثم انتكست حتى استقر الأمر في أوربا على هدنة بين الحكومات والكنيسة عَقْدُها الفصلُ بين الدين والدولة.

كانت اللاييكية نتيجة «الفِصام النكِدِ» بين رجال الدين النصراني ورجال الحكم النصراني. سماه سيد قطب رحمه الله «فِصاما نكِداً». ولا مكان للأسى على فصل أو وَصل بين نَكِدَيْن. إنما الأسى على وِصالٍ أنكَدَ وقع في بلاد المسلمين منذ القرون الأولى حين انضوى ديدان القراء تحت لواء الملك العاض وحرَّقوا له البَخورَ وأكلوا من فتات مائدته، وبذلك هيأوا في بلاد المسلمين التربة التي غَرَسَ فيها الاستعمار واستنبت وتعهد أجيالا على شاكلته، تقرأ في تاريخ المسلمين الماضي والحاضر فتجد مُتَّكأ لمعاداة الدين ومبرراً للاييكية: تجد حكاما فاسدين يُسْنِدُهم معممون طفيليون منافقون.

خدْشٌ دام في وجه تاريخنا ذلك الوِصالُ الأنكد بين ديدان القراء والمتسلطين بالسيف. لا أَقصِد أئمة المسلمين الذين أفتَوْا بالغزو مع السلطان الفاجر والصبر على انحرافه ودعم شوكة الإسلام مخافة انكسار بيضة الإسلام وتشتت وحدته. هذه الفتوى ينبغي نقدُها بفهم ملابساتها التاريخية وأصولها من تسديد الوحي وحكمة الاجتهاد. وقد تعرضت لهذا الموضوع الدقيق في غير هذا الكتاب.

أقصد بديدان القراء-وهو لفظ نبوي- طائفةَ الضعفاء من المعممين الذين لا يزال نسلُهم الكئيب يُجَمْجِمُ تارة ويُصرح أخرى بما يجعلنا نيأس منه أو نكاد، وبما يجعل الباحثين عن مبرر لتطبيق لاييكية النصارى على إسلام المسلمين في محل الاختيار الواسع -في الحاضر والماضي- لتقديم نماذج الإفلاس.

كانت اللاييكية في بلاد النصارى ثورة محكومين على حكام. فلما هجم الاستعمار على بلاد المسلمين كان الحكام الغاصبون الوافدون هم الذين فرضوا اللاييكية ليعزلوا الشعوب المسلمة عن مصدر قوَّتها وقِوامِ ذاتها. وورثَهم

غرسُهم من المغربين الذين تولوا الحكم من بعدهم في ديار المسلمين، وجلسوا على الكراسي اللاييكية لم يُغيروا منها إلا المظهر لإبراز الشخصية القومية الفلكلورية، واحتفظوا بالروح.

ارتطم الاستعمار بالذاتية المسلمة فوجد مقاومة باسلة رغم غثائية المسلمين التي جعلتهم قَصعةً تُؤكل، جعلت فيهم قابلية الاستعمار ثم تمكن العدوّ في بلاد المسلمين، فعمل رُويدا رُويدا بالقهر تارة وبالكيد أخرى على تطوير سياسة فصل الدين عن الدولة وفصل الشرع عن القانون ليبقى السلطان خالصا له، ولينزويَ الشرع في خانة «الأحوال الشخصية»، والقرآنُ في ركن المسجد، لا تحركُ تلاوتُه ساكن الانقياد السياسي للحاكم الكافر.

تجلى قهر الاستعمار وكيدُه في تغريب النخب المحلية وتمريرهم من «طاحون التعليم» كما يعبر لورد كرومر، وتوريثهم الحكمَ. لم تتمكن اللاييكية إلا بعد الرحيل الجسميِّ للاستعمار، طردت الاستعمارَ حُشاشةٌ من تديُّن المسلمين، وبقية من قدرتهم على الجهاد. تلك الحشاشة وتلك البقية التي سلَّحَتْ مقاومة حركات التحرير الوطنية. فلما رحل طابور الاستعمار سرق الخلْفُ اللاييكي ثمرة الاستقلال السياسي وأفرغته من محتواه.

أَنِس المسلمون بالنخب المتعلمة التي خلَفَتْ الاستعمار، واطمأنوا إلى وطنيتها، واستناموا على دينهم. ما علموا إلا بعد حين أن هذه النخب غَرْسٌ دخيل، جذوره الجسمية منا، وسَقْيُهُ واستمداد عقله وروحه منهم.

ومن أعلى الحكم، من مكانة السلطان، وبأجهزته، فرضت النخب اللاييكيَّة مذهبا، وأقامت جدارا عاليا بين الدين والدولة وبين الشرع والقانون. من دهائهم وخبثهم أنهم حَلَّوْا الدساتير -وهي القانون الأساسي للحكم- بديباجات تمجد الإسلام، وبفصول تقرر أن الإسلام دين الدولة. شكْلٌ في السطور يوازي مظاهر التدين التليد عند «أمراء المؤمنين» و«حماة الملة والدين» و«خدام الأقداس». تديُّن طارئ منذ سقوط الشاه.

هذا الجدار اللاييكي -والعبارة وُلدت هناك في تاريخ الثورة الفرنسية- يشْطُرُ ذاتية المسلمين ومفاهيمهم ووعيهم وسلوكهم. من هذا الجانب الدين ومن ذاك الدولة. من هذا النقلُ ومن ذاك العقلُ. من هذا الآخرةُ يشتغل بها المتبتلون، ومن ذاك الدنيا يقدر عليها أهلُها. من هذا الجانب من جدار اللاييكية الأصالة والفلكلور ومن ذاك الحداثة المتنازلة الوَدودُ تُرَبِّتُ بأبويّة حنون على كتف الأصيل الـمُمْتِعِ.

من هذا الجانب الصناعةُ التقليدية فُرْجَةً للسواح، ومن ذاك صناعة السماسرة الدوليين. من هذا الجانب لمن شاء المسجد والعبادة والصلاة على الجنازة بشرط أن لا يتعرض أحد لما لا يعنيه، ومن ذاك الجانب الحكومة والمؤسسات العصرية والبرلمانات المطبوخة. من هذا الجانب الفقرُ والقناعة -وهي كنز لا يفنى- والبؤسُ والمرض والجهل والدروشة كما يليق بالأتقياء، ومن ذاك الثروة والغنى والقوة.

من هذا الجانب دافعُو الرشوة غصبا، ومن ذاك تجار النفوذ ومقَرَّبُو المحسوبية. من هذا الجانب الوحيُ يستمع إلى آياته الغيبيون، ومن ذاك العقل والحس والتفاعل الـمُجدي والإرادة الناجعة. من هذا الجانب الماضي يمثله الظلاميون الرجعيون، ومن ذاك أنوار الحاضر ومستقبل متطور نحو مجتمع تقدمي اشتراكي وحدوي لبرالي معا. لا تنافر في ذلك الجانب بين اشتراكية ولبرالية منذ سقط جدار برلين وانتهت الحرب الباردة. جنس واحدٌ وحزب واحد هم اللاييكيون.

أزمة وإفلاس هي هذه اللاييكية التي تلبَسُ لنا تارة فَرْوَةَ الثعلب وطورا تكشر عن أنياب الشراسة؟ أم هي نار يكتوي بها المستضعفون ويطبُخ في تَنّورها المستكبرون من بني جلدتنا المعادون لديننا مآدِبَ عُرسِهم وزَواجهم الكاثوليكي مع الغرب؟

إنها ازدواجية بين فئتين من فئات المجتمع المسلم بدأت من الصدع العنيف على إثْر الصدمة الاستعمارية التي فاجأت المبانيَ التقليدية بما لا قِبَلَ لها به من قوة عسكرية وقدرة على التنظيم وبأس في العدوان ومخترعات عجيبة وبضائع

غريبة وغطرسة تائهة. واكتَمل الصدع في تكوين تلامذة الطاحون الذين يمثلون استعمارا جديدا هو أخبث وألبث، استعماراً مُقَنَّعـاً لأن المستعمِر من بني جلدتنا ينطق بلغتنا.

بلغتنا!

نسيت أن أتذكر وأتحسر على ما فعله اللاييكيون بلغة القرآن العزيزة. نسيت أن أتذكر وأتحسر على أن ألَدّ أعداء القرآن هُم الناطقون بلغة مترجمة، لفظُها ومَبناها عربيان ومعانيها أعجمية كافرة. الناطقون باللفظ العربي ينافقون الشعب المسلم ويتملقونه بتبني لهجته ولغة دينه، ويتباهَوْن في معارض الثقافات القومية بلغة أصيلة مجيدة ترفع الرأس عالية بين الأقوام.

اللغة معيار وجدار. وآلة من آلات التمويه.

ما العملُ مع الغرس الكئيب ومع جدار اللاييكية وفعَلَةِ بنائه وسَدَنة بقائه؟ من أين نبدأ نقْب الجدار للحوار؟ من أين ننقض؟ كيف نهدم؟

لا يزال الشعب وفيا لدينه لم تُصبه جرثومة الخيانة. ولا بد لنا من النظرة البعيدة والنفَسِ الطويل والصبر والتدرج لنتقدم بثقة الأوفياء إلى ميعادٍ نُحل فيه مضامين الإسلام في كليات الحياة وتفاصيلها. لا بد من تَصَدٍّ، بل قومة، لعلاج الأنظمة والمذاهب المستوردة الفاسدة المفسدة. تَصدٍّ، بل قومة، لنقض المباني الغثائية التقليدية التي برّرت اللاييكية، ولنقض اللاييكية. نقضهما معا في عملية واحدة طويلة النفس موحدة الهدف. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.

الثقافة جامعة

نداء المسلمين لكل لقاء ذي بال هو: «الصلاة جامعة». والمسجد جامع، والقرآن جامع، وكل تفاصيل الحياة مستنيرة بالصلاة، ساجدة لله رب العالمين، مهتدية بكتابه المبين، وبسنة رسوله الأمين، منتظمة على خط الموعد الأخروي، مستقبلة له، موقنة به.

هذا ما يجمعنا، فإذا استعملنا لفظ «ثقافة» وأضفنا إليها «إسلام» وقعنا في الخلط المفهومي، لأن «الثقافة» جمع له عناصره، وليس منها كلمة «إسلام».

لهذه الكلمات الوافدة مع الغزو الاستعماري بريقُها وفخفختها وطنينها مثل «حضارة»، «ثقافة»، وما شابه. فهي تغزو الألفاظ القرآنية وتزحزح المفاهيم الإسلامية لتحل محلها في الخطاب دون أن يشعر المتكلم المنساق مع العادة الاستعمالية أنه يتناقض عند ما يقول: «ثقافة إسلامية».

الثقافة تجمعهم كما تجمعنا الصلاة ويجمعنا المسجد والقرآن والسنة. فما معنى «ثقافة» حتى نعلم ما هي صلاتهم ومسجدهم وقرآنهم وسنتهم؟

المعاني التي تترجمها الكلمة بدأت نُقْلَتَها من فرنسا وجالت عند الإنجليز والألمان، والتقطت من هنا وهناك وهنالك عناصر تكوينها حتى تبلورت، لا بل حتى تضبَّبَت، وأصبح لها مائة تعريف وتعريف. الثقافة قناع العقل المتمرد. يخفي غبار أدمغة يسكنها الشك في الدين والخوف من الدين والجهل والتجاهل المبَيَّتُ بالدين. غبارٌ من التعريفات يعكس ضبابية الشيء، تكسبه ضبابيتُه قداسة المجهول المعبود.

قال أحدهم: «الثقافة ما يبقى بعد أن تنسى كل ما تعلمته».

وعرف آخر الثقافة فقال: «هي مجموع الوسائل الجماعية التي يمكن للإنسان أن يلجأ إليها ليمارس ضبطا على نفسه، وليسمُوَ عقليا وخلقيا وروحيا. وبهذا الاعتبار فالفنون والفلسفة والدين والقانون وقائع ثقافية».

وقال ثالث: «الثقافة مجموعٌ مترابط من أنماط التفكير والشعور والفِعل في درجة من درجات التنظيم استوعبتها وتقاسمتها أعداد من الأشخاص. فهي تُكَوِّن من هؤلاء الأشخاص على الصعيد الموضوعي والرمزي مجموعة خاصة متَميزة».

قاموس الثقافة تزاحم مفرداتُه وتراكيبُه وترابطاتُه ونظامُه ومقاصدُه واعتباراتُه الموضوعيةُ والرمزيةُ مقاصدَ الدين ومفرداتِه وتراكيبَه ونظامَه. الثقافة بضبابية مفهومها وغموضه تغطي مساحة واسعة في عقل المثقف وخياله وحياته اليومية وتطلعاته وشعوره وكل أجزاء نفسه. فهي دين شامل شمولي مسيطر لا يترك مجالا في النفس والعقل والشعور وسائر أرجاء النفس لدين غيره. مفرداته وتراكيبه الحرية بمعانيها السياسية والإباحية كلا لا يتجزأ، و«السعادة»، والفن، والإبداع، والشعر، والفلسفة، إلى آخره.

للمثقف المغرب دين يمنعه عن التفكير بمفردات الإسلام وتراكيبه، إن كان في نفسه بقية من فطرة فهي من وراء جدار اللاييكية شأن خاص، وعورة لا تذكر ولا تكشف. يفقد المثقف المغْرَبَنُ قدرته على التعجب من بنيانه هو، من أبدعه وبَرَأه وصوره؟ أسئلة وُجودية لا يجوز في ملة الثقافة طرحها إلا مندمجة في الشبكة الفلسفية، مَنْضُودَةً في مُتحفها مع أسئلةٍ تجاوزها العقل وخلَّفها التطور.

عقل المثقف منهمك في معرفة «كيف»، منهمك في فضول شامل، يُستثنَى من فضوله الطلبُ الفطري: من أنا ومن أوجدني ولماذا ومِن أين وإلى أين؟

وهذا مصداق قول الخالق البارئ المصور العليم الحكيم سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ﴾[1].

(1) سورة الجاثية، الآية 23.

فطرة مبتورة، مجدوعة، مقطوعة، مختومة. يا حسرةً على العباد! تنعصر أفئدتنا ألما على مصير كل مسلم علموه الإلحاد، وعلى ضياع كل مسلمة علموها الاستهتار بالدين ونسيان يوم العرض. لا تُنسينا ضرورة إقصاء المقطوعي الفطرة عن المواقع القيادية وضرورةُ تعقيم النسل المجدوع وظيفتَنا الدعوية، وشفقتَنا على الخلق، ورغبتَنا الشديدة في أن يهديَ الله بنا رجلا واحدا، امرأة واحدة. لضرورة تعامُلِ الدولة الإسلامية مع المغربين واللاييكيين وأصناف الجاهلين بالدين والمعادِين له نُطيل النظر الناقِد إليهم. ونطيل النظر لنعرف الأوصاف النفسية الفكرية للإنسان العَبَثِيِّ العابث، ولنمارس وظيفتنا الدعوية بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

لا يُنسينا الاهتمامُ السياسي السلطاني الهم الدعوي القرآني.

يحسب المثقف المطموس الفطرة أن لا شَرفَ أعظمُ من شرف الانتماء إلى عالم المثقفين. نستمع هنا لمثقف عربي يغضَب أشد الغضب على من يزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم (والتصلية مني لا يعرفها هو ولا تجيزها شريعتُه) كان أميا. بل كان، في زعمه ورغبته أن يُشَرِّفَ رجلا عربيا عظيما، المثقفَ المحنَّكَ الذي خَبرَ الظروف الموضوعية لقومه فصاغ لهم الإديولوجية المناسبة وقاد تطلعاتهم القومية إلى المجد والإبداع الحضاري.

ويتحدث هذا المثقف الكاتب الأديب عن نفسه وعقيدته فيقول: «لا أبحث في التوحيد ولا في تعدد الآلهة، إنما أدين بالجمال ومقوماته الفنية. ولا أعتقد أن التوحيد هو تقدم بالنسبة للوثنية. إن تأثير «هيراقليدس» و«بارامِنيد» علي كتأثير القرآن والتوراة. وأعْجَبُ بالأناشيد البابلية التي تُفقد التأكيدات الإغريقية و«التوراتية» طابعها الثابت فيما خص مصدر الحضارات. هذا، وانطلاقا من عبادتي للقديم أمضي بعيدا عن شواطئ المتوسط وأملأ عيني برموز «لاو-تسو» (مؤسس مذهب الطاوية) أو «تشنغ-تسو»... والأمر الوحيد الذي يحملني على تفضيل القرآن كونُه الوحيدَ بين النصوص العظمى الذي أستطيع قراءته بلغته الأصلية. هذا بغاية الأهمية ولا يقَدَّرُ بثمن. فأنعمُ وأنتشي بجماليَّةٍ سمعية ومعنوية، دون أن أنقله من ضَفَّةٍ إلى أخرى ومن لغة إلى لغة».

لا أسمي هذا المثقف المجنون بالجمالية. يعنيني فقط أن أضرب مثالا على ساكنٍ في «ضَفة» الثقافة لا يحب أن ينقل القرآن من اعتباره قديما يستحق العبادة لِقِدَمه وأصالته إلى اعتباره رسالة حية من الله العلي القدير تخاطب الغافل عن ربه. لا يحب ولا يَجْسُرُ، لأن دين الثقافة الشمولية لا يفهم لغةً غير لُغته، ولأن الحارس الثقافي يقول له عند جدار اللاييكية: قف! لا يجوز العبور!

هكذا يرى المثقف نفسه: يدين بالجمال والفن، ويعبد الأشياء القديمة، ويرفرِف بأجنحة الخيال وفي صحبة هراقليدس ولاو-تسو والقرآن في فضاآت لا حدود لها. هو مع الأناشيد البابلية وتاريخ الحضارات، لا شأن له بالتوحيد ولا بالمفاضلة بين التوحيد والوثنية. لا شأن له بنفسه ولُغْز وجودها. ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[1].

هذه حقيقة كيف ندخِلها في حساب الغافلين عن ربهم؟ حقيقة خسران النفس وضياعها وشقائها في الآخرة.

إنها الهدايةُ من الله عز وجل، وسعادتُنا أن يكون تبليغنا للدعوة وقصفُنا لجدار الصمت على موعد مع السابقة الإلهية لنستفتح الأسماع جميعا ونخرج العباد من عبوديتهم للهوى ليكونوا لله تعالى عبيدَ اختيار وإيمان وطاعة كما هم عبيد قدرته، مربوبون مقهورون، لم يختاروا قبل خروجهم من العدم مكان ولادتهم ولا سحنة وجوههم ولا لون بَشَرَتهم. طموحنا أن يلتقي بلاغُنا مع سابقة الهداية الإلهية فيخرج مثقف من روابط عالميته وإمَّعيَّة رُفقته ليدخل في جامعة الصلاة والمسجد والقرآن والسنة. وما قيمة مثقف ملحد عند الله؟ إنما نتْعَبُ معه رجاء الجزاء من الله ورجاءَ أن يأتي بما معه من بضاعة اطلاع ليخدم أمته، لعله يفيد باطلاعه أكثر مما يفيد الفطريُّ الساذج.

لعله يسير في صراط سلكه التائبون، سلكه فضلاءُ ساحوا طويلا في الفضاآت الثقافية حتى أدركتهم العناية الإلهية فاستيقظوا من نومة الثقافة، وهبّوا من غفلة

(1) سورة الأعراف، الآية 53.

الثقافة، وتحرروا من غرور الثقافة، وتحولوا من قزمية الإمعة التابع الذي يبتلع إفرازات الغرب إلى فحولة المؤمن بالله، المعتَزِّ بقرآنه، الموقن بآخرته، المبلغ نيابة عن رسوله. صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

لعله يسري فيه ما سَرَى في كاتب مثقف شاعرٍ ناثر مناضل كان يُذكَرُ في المحافل الثقافية الخاسرة، فلما هداه الله واستيقظ وتاب رفعه الله فأصبح يُذكر في الملكوت الأعلى مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين. هكذا نرجو له وندعو له، ولا نَتَأَلَّى على الله، ولا نُزكي على الله أحدا.

لعله يكون لَوْنا من سيد قطب رحمه الله.

قال سيد قطب رحمه الله في كتاب «معالم في الطريق» يصف نقلته من عالم المثقفين إلى جامعة المؤمنين: «إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة. كان عملُه الأولُ فيها هو القراءةَ والاطلاعَ في مُعْظَم حقول المعرفة الإنسانية... ما هو من تخصصه وما هو من هِواياته... ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره، فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا ضئيلا إلى جانب ذلك التُّراث الضخم-وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك- وما هو بِنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره».

قال رحمه الله عن استفادته من حصيلته الثقافية: «فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها، وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها، وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورها وادعائها كذلك!!! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرَيْن في التلقِّي». انتهى كلامه رحمه الله ورفع مقامه.

إننا في هذا الكتاب خاصمنا طويلا الجاهلية، وكشفنا طويلا عن خبايا التغريب واللاييكية، وعارضنا طويلا الحضارة المادية والغطرسة الاستعمارية والاستغلال الرأسمالي. قصدُنا بذلك ليس الانكفاءَ عن الواقع والعزلة عنه والانقطاعَ والزهادةَ. فإنَّ من ترشحه الأقدار للحكم لا خيار له إلا اقتحامُ عقبة

الواقع والدخولُ في معاركه. ومَنْ كلّفه دينُه بالتبليغ وحَمْلِ الرسالة للعالمين لا تسعه الزهادة في الخلق. قصدُنا أن نعرف الجاهلية ودُخلاءَهَا فينا لنتخذ الاحتياط المناسب ونجد الصيغة المناسبة والأسلوب المناسب لتعمل يد الدولة عملها غيرَ معطِّلةٍ وظيفة الدعوة. وكان الله على كل شيء مقتدرا.

التعليم

لعلَّ بذرة إيمان تكون مطمورةً تحت الركام الثقافيِّ يصيبها غيث الدعوة فتهتز وتربو. لعل أصل إيمان ينبعث ويستيقظ!

أما الذين باءُوا برجس العِداء لدينهم وأصروا واستكبروا فلا يصفو الـمُناخُ الملائمُ لِتَبْيِيءِ العلوم النافعة واكتسابها وتوطينها إلا بالاستغناء عنهم. الاستغناء عن الشاردين عن دينهم بحزم، لكن بضبط أعصاب.

ويأتينا المثقفون التائبون بالمساهمة الثمينة، يأتوننا قبل كل شيء بمعرفتهم بالجاهلية. تلك الجاهلية التي لا بد من التعامل معها والتحاور والتفاوض، فالعارفون بلغاتها ودخائلها وأساليبها أقدر على الكلام معها والتشارُطِ والمصانعة من غيرهم. ولعل التائبين من الشرُود الثقافي، المستيقظين من غفوته، يتمسكون بدينهم، ويعرفونَ نعمة الانتماء إليه، ويخشون العودة فيما كانوا فيه، أكثر من غيرهم. ورُبما تجد عزيمةَ سيد قطب رحمه الله ترجع فيما ترجع إلى عودته لدينه بعد طول غفلة. وهل كان سيد قطب رحمه الله غافلا يوما؟ لا يُعبِّرُ عن غيْبِ الصدور إلا ما تبوح به الألسنة والأقلام. وكتابات قطب رحمه الله فصيحة في كراهيته للجاهلية كراهية من عرفها عن كَثَبٍ ولاصقها وعاشرها.

وهذا ما يرسُم معالِمَه الحديثُ النبويُّ الشريف الذي رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أَنَس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ثلاث مَن كُن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار**».

ويؤكد المعنى ويوضحه قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تُنْقَضُ عُرا الإسلام إلا إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

ذلك أن من عرفَها حق المعرفة ثم أنقذه الله منها يحرص كل الحرص على سلامة الإسلام وقيام دولته، ويكره أن يُمَسَّ كيانُه، ويكره الجاهلية وما يمُت إليها بصلة.

على امتداد جبهة واسعة سيتعين على الإسلاميين أن يخوضوا معارك مع الجاهلية الخارجية ومع الفتنة الداخلية. وسيتكتل الدخلاء الصنائع المعادون للدين مع جنسهم من الكفار. فذلك الصف لن يستطيع مقاومتَه أقدَرُ من طبقة المثقفين الراجعين إلى أحضان الإيمان.

وأعظم ميدان للمواجهة ميدان التربية والتعليم، ذلك الميدان الذي فيه يتقرر المستقبل، وعلى نتائج غرسه يتوقف مصير الأمة. الأطفال والشباب ضحايا في يد المثقفين المغربين المعادين للدين، ما مثلُ المثقفين العائدين من يستنقذهم من الأيدي القذرة.

من شاخ في الإلحاد حتى أُشْرِبَ في قلبهِ الكفْرَ، وحصل في شبكة العنكبوت الثقافية، وامتصت منه الفلسفة والجمالية والفن والإباحية رحيق الفتوة وغَيرة الرجولة وماء الحياء وروح الإسلام فما يُرجَى منه؟ وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن سَمُرَةَ بن جندبٍ بإقصاء شيوخ الكفر واستبقاء الشباب. قال صلى الله عليه وسلم: «**اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا الشرخ**». قال الراوي: الشيخ لا يكاد أن يسلم، والشباب أقرب إلى الإسلام. الشرخ الشباب.

لا أقول بفائدة تعود على المسلمين بنصب المشانِق، ولا نصبُها مِن شريعة الرحمة. بل الإقصاءُ من الوظائف العمومية. وقد تحدثت في موضوع الردة في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الكتاب، وذكرت بابا عند البخاري في كتابه «استتابة المرتدين» عنوانه: «باب من ترك قتال المرتدين للتألف ولئلا ينفر الناس عنه».

لست أدري لِمَ لَمْ يستفد آياتُ الله في إيرانِ الثورة الإسلامية من المثقفين المسلمين أمثالِ بازرجان. أهي لِبرالية راسبة في أعماق التكتل الحزبي لم تنسجم

مع تطلعات الفقهاء الشيعة، أم استغناء عما لا يَسْتَغْنِي عنه الجديدُ في الميدان، لايعرف قيمة الاستفادة من تجربة الرجال على ما معهم من إيمان زادَ أو نقص إلا بعد التجارب الـمُرّة؟

مكان المواجهة التي نحتاج غدا للمثقفين يساندوننا فيه هو جهاز التربية والتعليم. نظام التربية والتعليم هو العَمود الفِقَري للدولة. وإعادة ترتيب هذا الجهاز ضرورة الضرورات في حياة الأمة. يجب إنشاؤه إنشاء جديدا، وصياغة قنواته، وسد منابع الفساد الـمُخَلَّفَةِ فيه لإعداد أجيال سليمة العقيدة والفطرة، مسلحة بالمعارف العملية التطبيقية.

ومَن يَفْرِزُ الغَثَّ من السمين، والضارَّ من النافع، والسم من العسل غيرُ المثقفين الذين عرفوا الجاهلية ثم عافوها وأدركوا قزامتها وضآلتها وأَوَوْا إلى حضن الإسلام؟ من يُطَهِّرُ البرامج وينتقي من زُملاء الأمس الصالحَ من الطالح غيرُ من مارس المهنة وجال في الحقل الثقافي جولات؟

قال سيد قطب رحمه الله في كتاب المعالم: «إن اتجاهات «الفلسفة» بجملتها، واتجاهات «تفسير التاريخ الإنساني» بجملتها، واتجاهات «علم النفس» بجملتها- عدا المشاهدات والملاحظات دون التفسيرات العامة لها- ومباحث «الأخلاق» بجملتها، واتجاهات دراسة «الأديان المقارنة» بجملتها، واتجاهات «التفسيرات والمذاهب الاجتماعية» بجملتها، فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها.

قال رحمه الله: «إن هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي-أي غير الإسلامي- قديما وحديثا متأثرة تأثرا مباشرا بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات. ومُعظمها-إن لم يكن كلها- يتضمن في أصوله المنهجية عِداء ظاهرا أوخفيا للتصور الديني جُملة، وللتصور الإسلامي على وجه خاص.

قال رحمه الله: «والأمر في هذه الألوان من النشاط الفكري-والعلمي!- ليس كالأمر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب... وما إليها ما دامت

هذه في حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية، دون أن نتجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفي في صوره. وذلك كتجاوُز الداروينية مثلا لمجال إثبات المشاهدات وترتيبها في علم الأحياء إلى مجال القول-بغير دليل وبغير حاجة للقول كذلك إلا الرغبة والهوى- أنه لا ضرورة لافتراض وجود قوة خارجة عن العالم الطبيعي لتفسير الحياة وتطورها». انتهى كلامه رحمه الله.

لا تُحَلّ مشكلةُ تَجَذُّر الثقافة المادية في بلاد المسلمين وتَمَكُّنِ غرس الاستعمار من الفلاسفة الملحدين بمجرد إعلان جمهورية إسلامية. وسواء كان الإعلان بثورة عامة كما كان الشأن في إيران أو وصل الإسلاميون إلى الحكم عن طريق الاختيار الديموقراطي فلا مناص مِن معالجة التناقض الثقافي-الموازي إلى حد ما مع التناقض الطبقي- معالجة طويلة حتى يمتص الجسم الاجتماعي المبتَلَى بقايا الجرثومة الاستعمارية أو يلفِظها ويعزلَها.

المترَفون من المتمولين يتبعون مصلحتَهم، فيسهلُ انقيادهم للحكم الإسلامي عندما يأنسونَ أن الحكومة الإسلامية لا تَغْصِبُ حقا مشروعا وتشجع كل جهد منتج نافع بناء، أما مترفو الفكر فهم أصحابُ عقيدة يناضلون عنها، وينافقون فيها، ويكتمونها إن اقتضى الحال لينشروها في الخفاء كما تنشر الأوبئة والمخدرات. إن لهم إلها غيرَ الله. إلههم العقل الفلسفي المتمرد، والحس المعبود، واللذة والجمالية الإباحية. وما يَحْطِمُ هذه الأصنام، الحسيةَ منها والمعنوية، إلا النّزال بأسلحة العقل المؤمن، والحس المضبوط، واللذة المباحة، وزينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، وإنجاح التنمية، ونشر الفضيلة، ونصر الشورى والعدل.

السلاح الحسي والمعنوي لمقاومة الفلسفة المعادية للدين، المناضلة، هو إقامة الصرح المادي للعمران الأخوي على قواعد التصور الإسلامي، والإيمان بالله وباليوم الآخر، حتى تسود القيمُ الإسلامية العقولَ وتحتل تفاصيل الحياة وحقول النشاط الفكري. وحتى يعُمَّ خيرُ الاقتصاد الإسلامي المنتج الناجح المزاحم في

السوق العالمية. وحتى تجد حَلَّها المخلّفاتُ الاجتماعية من عويصات الفقر، والتفاوت الـمُخل في الأرزاق، والسَّكَن النادر، والأراضي الفلاحية المحتكرة، والصحة المهملة، وسائر ما تتجند له الدولة ويدخل في نطاق مسؤولياتها.

وتبقى الواجهةُ الأساسيةُ، واجهةُ التربية والتعليم. هذه لا يقاس النجاح فيها فقط بكم الخريجين من المعاهد العلمية التقنية إن كان الخريجون سيبقوْن عاطلين لانهيار الاقتصاد أو لسوء التنسيق بين ما تخرجه المدارس وما تستطيع استيعابه عجَلَة الإنتاج. إنما النجاح بالكيف الخلقي الإيماني المشارِك المسؤولِ الذي يتحلى به جيل كامل أصاب طويلا أو قصيرا من التكوين المدرسي.

التربية والتعليم مهمة الدعوة الأساسية، وإنما الجهاز الحكومي إطار منظم وجسم تتحرك فيه الدعوة وتُحركه. وتواجه فيه خنادق المثقفين المعادين للدين.

تلقن الدعوة المربية المعلمة، في إطار النظام الحكومي وخارجه، كيفيات الفكر والشعور والعمل بمعايير الإيمان والعمل الصالح. يمر نصيب المؤمن والمؤمنة من الآخرة بنصيب الدنيا فينتظمهُ، حسب التعبير الجميل لمعاذ بن جبل رضي الله عنه. وظيفة التلقين الفطري أن يُتَعَهَّدَ النشء حتى يستقر عنده رجاء «نصيب الآخرة»، ثم ينتظمُ هذا النصيبُ المشاعرَ والتعبير واللغة والخيال وكل الأنشطة الإنسانية المعرفية والعاطفية والحسية.

يقتضي هذا تغيير أساليب التربية والتعليم من جانب الإلقاء ومن جانب التلقي: يقتضي تغييرَ الكتب المدرسية والبرامج والامتحانات وتدريب المعلمين وتنظيم المدارس وآداب التعلم وعلاقات المعلم بالتلميذ والأستاذ بالطالب، ليعكس كل ذلك المضمون الإيماني لمنهاج التربية، ولتُشَجَّعَ «جامعة» الصلاة والمسجد والقرآن والسنة والوَلاية والشورى والعدل والبِر ومسؤولية كلٍّ عن رعيته، ابتداء من المدرسة والجامعة والبحث العلمي ذي الأهمية القصوى، ووسائل الإعلام، ورجوعا وانعكاسا إلى البيت والأسرة حتى تتزود الأسرة بزاد التقوى وتعود كما يجب أن تكونَ المحضن الفطري، تستعيد وظيفتها التربوية التي عرتها منها رياح

الفتنة، ومنعتها من بَث الإيمان والفضيلة، وبتَرتها وجدعتها. فعلت بها الأفاعيل لما مَسخت طبيعة الأمومة وشَردَت المرأة عن بيتها. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإن الله لسميع عليم.

الفصل الرابع

الفتنة

- الجاهلية والفتنة
- أم الفتن
- درء الفتنة بالفتنة

الجاهلية والفتنة

بين ظهرانَينا حاملو أوزار ومرتكبو كبائر وعتاةٌ ظالمون ومتَّقون متبتلون وخَطّاءون توابون. المجتمع الغثائي خليط، مريض، مدخول. استحق وصف الغثائية لَمّا ظهرت عليه علائم الهزيمة، وتجمعت عليه أَكَلَة القصعة، فتَمّ عليه الوصف النبوي. لكنْ ما سنَدُنا في إطلاق وَسْم الجاهلية عليه؟ قُضاة نحن جائرون أم دُعاة حائرون؟ قصدُنا الهدايةُ والتسديد أم قصدنا الثلب والعيب، بلا حجة ولا رَويَّة؟

لا مفر لنا من التدقيق لمعرفة ما بنا ونحن نطمح لتغيير ما بأنفسنا. لا مفر من معرفة الداء على حقيقته لا على صفة يشوهها لنا ويضخمها ضِيقُنا بما نرى من عِوَج وما يتعاظم في أعيننا من مسؤوليات التقويم. لا مفر من تحقيق الصفة الشرعية المطابقة لحالنا لنُنْزل عليها حكم الله بلا شطط ولا جهل. إذاً نكونُ نحن الجاهليين إن لم نفعل.

أهو مجتمع جاهلي فنقاطعه ونعاملَه على أنه غيرٌ؟ ومن نحنُ حتى نَنْفصلَ عنه وندّعيَ الهدايةَ من دون الناس؟ ما هي حدود الجاهلية، وكيف تخطيناها واستعلينا عليها؟ أم هو مجتمع مسلم؟ فما بال التهم يُصفَع بها وجه المجتمع فيطلِقُ عليه بعض الشباب الملتحي صفة الجاهلية؟ أين تقف الجاهلية؟ وما خصائصها؟

أسئلة لا بد من بحثها والجواب عنها حتى لا نربطَ مصير الدعوة بأحكام مسبقة خطإٍ، وبكلمات أطلقها بعض الدعاة مِمَّن لهم ظرفهم واجتهادهم وقصدهم فتلقفها طوائف من الملتحين واستعملوها استعمالا فضائيا، فزادوا وِزراً ثقيلا على أوزار تنوء بكاهل الأمة. وأي وِزر أعظم من تكفير أمة محمد صلى الله عليه وسلم بغير علم!

الأمة متوعكة مريضة، الأمة ينخَر فيها داء الأمم وتأكل الغثائية أحشاءها، لكنْ أن نُسَمِّيَ مجتمعاتنا جاهلية! أن ندْخل في الزقاق الضيق المُظلم وعلى عيننا منظار اليأس! أن نساهِم بتغميض الحقيقة على أنفسنا وتنفير المسلمين منا!

في مجتمعاتنا الغثائية تشتبك الجاهلية بالإسلام، وتختلط، وترتبك. على قسماتِ وجه المجتمع الغثائي، وفي دخائله النفسية وزواياهُ الذهنية وعاداته التقليدية وعلاقاته الاجتماعية واقتصاده وسياسة حكمه ومكان المرأة والطفل والرجل فيه، علائم جاهلية، وخدوش، وبثور، وجروح.

في مجمعاتنا الغثائية يختلط الحق بالباطل. الجاهلية باطل في صَرافَتِها، والذي أُنْزِلَ على محمد صلى الله عليه وسلم من الدين وشُرِع له ولنا بالتبعية حق في صرافته. أقول: باطل في صرافته، حق في صرافته، أي في مثالية الخير التي لا وجودَ لها في عالم الخطائين، وفي نهاية الشر التي لا تتشخص إلا في الشيطان الرجيم. الجاهليون فيهم خيار كما نرى في الفصل المقبل إن شاء الله.

متى اختلط الحق بالباطل، ودخل الإسلام على الجاهلية فبقي منها رواسبُ، أو أعادت الجاهلية كرَّتها على الإسلام فعكرت صفوه، فتلك «الفتنة». الفتنة مفهومٌ محوري، الفتنة حكم نبوي، الفتنة تَحفّظٌ وحِكمة ولزوم لجانب التحري والصواب.

نكتفي هنا بتعريف موجز للفتنة لنرجع إلى المفهوم في الفقرة المقبلة إن شاء الله. روى ابن أبي شيبة أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال لسائل سأله عن الفتنة: «لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك. إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل». وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خص حذيفة بعلم الفتنة ومعرفة المنافقين، فيسأله الصحابة رضي الله عنهم في هذا الفن من العلم، ويأتيه عمر بن الخطاب وهو أميرٌ للمؤمنين يناشده اللهَ أعُمَرُ من المنافقين! أيُّ اتهام للنفس! أي سُمُو! أيّ دين! يا من لا يحسنون الظن إلا بأنفسهم ويَصمون المسلمين!

الحق الدين: وهو إسلام وإيمان وإحسان. مراتب ودرجات، وزيادة في الإيمان ونقصان، ومعصية وتوبة، وسلوك إلى أعلى وانحطاط إلى دركات. الحق القرآن والسنة، الشِّرعةُ والمنهاج، وما اجتهد فيه أئمة المسلمين فأجمعوا، أو تناوله قياس الفقيه التقي فهو مذهب. والبعث حق، والشفاعة حق، والحساب والميزان والجنة والنار.

ونرى بعد حين إن شاء الله ما هو الباطل الجاهلي.

السؤال هنا: هل يدخل الباطل الجاهلي في إسلام المسلم؟ هل يبقى في النفس المسلمة بقايا جاهلية؟ هل تتساكن الجاهلية والإسلام في نفس واحدة ومجتمع واحد؟كيف تتفاعل عناصر الجاهلية وعناصر الإسلام في النفس المفتونة والمجتمع المفتون؟هل تبقى هذه النفس وهذا المجتمع في دائرة الإسلام أم يخرجان منها بارتباك عناصر الإسلام بعناصر الجاهلية؟

عقد الإمام البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه: «باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يُكَفَّرُ صاحبه إلا بالشرك». وذكر حديثاً نبويا وبَّخ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر لما سب رجلا وعيره بأمه. قال له المربي الرسول صلى الله عليه وسلم: «**يا أبا ذر، أعيَّرته بأمه؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية!**» الحديث.

هكذا لم يسكُت صلى الله عليه وسلم عن الخطإ، ولم يطرد الصحابي المهاجر السابق من الإسلام. بل علَّمَ حدود الحق ومزالق الباطل.

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعريِّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**».

أربع من أمور الجاهلية يشدد الحديث في تركهن، لكن لا يُخْرِجُ الأمة عن الإسلام لوجودهن واستمرارهن. هن معصيات بعضهن أفحش من بعض. هن بَصَمَاتٌ جاهلية على صفحات السلوك الإسلامي والعقيدة الإسلامية. فجاهلية

دون جاهلية: جاهلية كفر وجاهلية معصية. لا يكفر صاحب المعاصي إلا بالشرك. ولا يكفَّرُ المجتمع كله لوجود ملحدين بين ظهرانيه، ولا لفُشُوِّ المعاصي فيه.

كلمة «جاهلية» تُفيد لُغة معنيين اثنين: الجهلَ ضد العلم، والجهلَ ضد الحلم. فالجاهلية النموذجية تجهل الحق وهو الدين، وتغمِط حق العباد وتظلم وتعنُف. هاتان سِمتان بارزتان في جاهلية عصرنا رغم تقدم العلوم الطبيعية ورغم الصيحة المدوية باحترام حقوق الإنسان. عنف الجاهلية المعاصرة وجهلها بالله يُعَرِّضان الإنسانية والأرض والجو والبحر للخراب. يَتَوقع الخبراء بعد ثلاثين سنة أن ترتفع حرارة الكوكب درجتين فتَحُلَّ الكارثة. وتلك كهانة عصرية. والله أعلم بعواقب الأمور.

نُسند المدلولَ اللغَويَّ للفظ «جاهلية» إلى مدلوله الشرعي كما دلت عليه آيات أربع من كتاب الله عز وجل تُحيط بالمفهوم وتُجليه. أربع خصائص في أربع آيات، لم يرد في القرآن ذكر للجاهلية في غيرها. فهي جامعة مانعة في التعريف بما هي الجاهلية. لمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. أولئك الذين هداهم الله. وأولئك هم أولو الألباب. اجعلنا اللهم منهم بفضلك.

1. في «ظن الجاهلية» ورد قولُه تعالى في معرض التذكير بأحداث أُحُدٍ وتزلزل المنافقين: ﴿ **وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ** ﴾[1].

ظن الجاهلية باطل، «غير الحق». ظن الجاهلية فراغ في العقيدة، وفقدان للثقة بالله تعالى، وهزيمة وخوف من الموت ونكوص عن الجهاد. ظن الجاهلية عاهة النفوس الجاهلية الأولى، ومصدر بلاء العقل والفكر والسلوك. وعن تخلخل العقيدة تتفرغ العاهات الجاهلية الأخرى. أهمها جاهلية الحكم.

2. ورد ذكر «حكم الجاهلية» في قوله عز وجل عن أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ولم يرضَوْا بحكم شريعته المهيمنة على الكتاب،

(1) سورة آل عمران، الآية 154.

ولم يرضَخوا لحكومة الرسول الخاتم. قال جل من قائل: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2].

إذا كان «ظن الجاهلية» خللا في العقيدة وجُنوحا عن الحق لا تُعرف آفَتُه لأول وَهْلة لخفائه وكُمونه في الصدور، فإن «حكم الجاهلية» ظاهرُ العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ظاهرُ تقيّدِ المجتمع بالشرع أو تفلّتِه منه، ظاهرُ السياسة إما أن تكونَ شورى فهي حق، أو تكون استبدادا يمارسه جاهليون كفار على مجتمعات جاهلية كافرة. فالكل جاهلية في جاهلية، أو تكونَ استعمارا واحتلالا يمارسه جاهليون كفار على المسلمين فهي مصيبةٌ، أن تكونَ مُلْكا عاضا أو جبريا يمارسه باسم الإسلام متلبسون بالإسلام أو مستورون وارثون للعروش أو منافقون طغاة تسكت عنهم الأمة وتخضع لأنَّ معهم السيفَ أو لأنهم شوكتُها الوحيدة، فتلك فتنة.

3. الخِصِّيصة الثالثة من خصائص الجاهلية هي «تبرج الجاهلية» الواردِ النهيُ عنها في قوله تعالى يخاطب نساءَ النبيّ: ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾[3].

قال أهل اللغة: تبرُّجُ المرأة إظهارُها لمحاسنها، وخروجُها من بُرجها وحِصْنِها.

في كتاب الله عز وجل الهُدَى لمن يستمع. فقد جاء ذكر «ظن الجاهلية» و«حكم الجاهلية» في صيغة الاستنكار. وهنا في «تبرج الجاهلية» نهيٌ مباشر وخطاب مباشر لمن ارتفعت همتهنَّ لأعلى من مرتبة «أحدٍ من النساء». خطابٌ مباشر رؤوف، لأن صلاح النساء تقواهن واستقرارهن وإقامتهن للصلاة وإيتاؤُهن الزكاة وإطاعتهن الله ورسوله وتلقينهن مبادئ الإيمان للذرية وحفظُهن الفطرة. صلاح نساء المسلمين هو المنطلقُ الضروريُّ لاعتقال الجاهلية وسَدّ منابعها وخَنْقِها والقضاء عليها في المهد. فتنة النساء وضياعُ النساء وتشرد النساء وبُؤس النساء ما مثلها فتنة.

(2) سورة المائدة، الآية 50.
(3) سورة الأحزاب، الآيتان 32-33.

4. «حَمِيّة الجاهلية» هي العصبية القبلية، والعنف الذي لا ينضبط، والتَّمالُؤُ على الباطل، ونُصرة أخيك العنصريِّ ظالما أو مظلوما. «حمية الجاهلية» هي روح المعبود القومي. هي نقيصة في الدين وفتنة عظيمة لأنها تنقُض أساس وحدة الملة. ونرجع إلى أم الفتن هذه في الفقرة التالية إن شاء الله تعالى.

ورد عيب «حمية الجاهلية» وغضبيَّتِها في قوله تعالى يصف غَلَيَان المشركين يوم الحديبية: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾[1].

مع عيب حمية الجاهلية وصفُ نَقيضِها الإسلاميِّ: السكينةِ الجامعةِ بين المؤمنين، ولزومِهم كلمة التقوى وهي جامعة. وكان الله بكل شيء عليما. سبحانه لا إله إلا هو.

(1) سورة الفتح، الآية 26.

أم الفتن

سميتها «أم الفتن» لقول الله عز وجل: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(2). وما كبّره الله سبحانه من شأن فهو كبير خطير. والشيء الذي يترتب على عدم فعله الفتنة والفساد الكبير هُوَ الوَلايةُ بين المؤمنين، تُعَطَّلُ وتُكْفَر وتُعوَّضُ بروابطَ أرضيَّةٍ مثلِ العصبية، وهي «حميَّة الجاهلية». ونرجع إن شاء الله للسياق الذي جاء فيه الحكم الإلهي على هذا التعطيل.

تجلو عساكر الاستعمار الاحتلاليِّ عندما تستجمع الشعوب الإسلامية قواها مسلَّحَةً بعصبيَّة مسلمة وطنية قومية كما حدث بالفعل في حركات التحرير الوطني. ولإجلاء الاحتلال الثقافي نُعِدُّ قوة من لغتنا وآدابنا وعلومنا وأصالتنا نقاوم بها ثقافتهم ونصاول. إن احتلت الثقافةُ المغيرة نخبة مغربة وسكن الإلحاد الفلسفي نفوسا مفردة أو متكتلة فستُذَوَّبُ في السواد الأعظم الباقي على ملته وتَذُوب. إن شاء الله تعالى.

لكنَّ هناك احتلالا عميقا في كيان مجتمع الفتنة، مجتمع الغثائية وداء الأمم، هو احتلال «حمية الجاهلية» النفوس. يزيدها ترسيخا فيها وتشبثا بها ما أحرزته القومية، والدولة القومية، من تقدم بالشعوب القوية الغالبة في الأرض. حتى القرنِ الأخير كانت ألمانيا، نجمُ التقدم والصناعة والرفاهية اليومَ، عبارةً عن ثلاثمائة وستة وأربعين إمارة. وانظر ما صارت إليه اليوم. انهارت الإديولوجيات في هذه السنوات الأخيرة واستيقظت القوميات. فالقومية هي الملجأ الأخيرُ، والحقيقة النهائية في عُرف الأقوام وفي واقع العالم وأفق المستقبل.

وهي هي المفرِّقَةُ المانعة من وحدة المسلمين. «يا بُرْكَانَ الغضب يا موحد العرب!». شعار عبد الناصر الذي انهزم أمام اليهود. مُفرِّقَةٌ عاجزة عن

(2) سورة الأنفال، الآية 73.

مُقاومة التحدي القاتل: سرطانِ اليهود الجاثمين في فلسطينِ القدس. إسلام وطني قومي تأجج فيه «بركان الغضب» كَفَى لطرد الاستعمار الغربيّ وإن لم يَكْفِ لإعادة بناء الأمة، وأنَّى يكفي! لم يكف ولا يكفي للبناء ولا لدحر الغزو التاريخي اليهودي. ذلك الغزو الفظيع الذي يشكل بُؤْرةَ محنتنا ونزْفَ دمائنا ومصدر بُؤسنا وسَواد وجوهنا. وأنى تكون «أم الفتن» المفرقة علاجا للفتنة الكبرى!

طرد الإسلام أوَّلَ ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم «حمية الجاهلية» وحاربها وقَلَع منها الجذع. وبقيت جذورٌ ما لبث بعد وفاة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة أن اهتزت تحت الأرض، ثم أخرجت نبْتا جديدا اشتد وترعرع وكانت منه «الفتنة الكبرى» التي زلزلت الخلافة الرشيدة وأطلعت الحكم العاض الأموي.

ربَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة على كُره العصبية، وترك للشعور القومي مجالا حيويا ليكون بَنَّاءً. لم يحارب الشعور بالانتماء القومي وهو غريزة في بني البشر، بل شجعه كلما كان دِعامة للحق ونصرة على الباطل. الحق هو الوَلاية بين المؤمنين مهما كانت القبيلة والقوم والجنس واللون. والباطل العصبية المفرقة المقاتلة للوَلاية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّةٍ يغضَبُ لِعَصَبَةٍ أو ينصُر عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جاهلية**».

وروى الإمام أحمد أن عمارا بن ياسر رضي الله عنه قال لرجل أراد أن يقاتل إلى جنبه: «قاتل تحت راية قومك، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستحب للرجل أن يقاتل تحت راية قومه».

بجمع الحديثين تكون الراية القومية رِفْدا للإسلام وسَنَداً له إن كان الانتماء القومي لَوْنـاً وَطَيْفـاً في راية الوَلاية الجامعة. أما إن كانت القومية عصبية وحمية

فهي الجاهلية مَدَّت رجليها وداست بقدمها راية الإسلام. الراية العِمِّية هي الـمُعَمَّاة الغامِضة اللاعبة بالمشاعر الغريزية تجندها وتجيشها لقتال الوَلايَةِ.

وقد كان الصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شديدي الانتباه للغُول، العَصَبِيَّة الراقدة في الأعماق، يخشون أن تستيقظ. فيَسأل أميرُ المؤمنين عمرُ حذيفة بنَ اليمان الخبيرَ في الفتن في مجلس من مجالسهم الإيمانية: «أيُّكم يذكر (الفتنة) التي تموج مَوْجَ البحر؟». فيقول حذيفة: أنا! فيقول عمر: «أنتَ لله أبوك!» فيقول حذيفة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تُعْرَضُ الفتن على القلوب كالحصير عُودا عُودا. فأيُّ قلب أشْرِبَها نُكِتَ فيه نُكتة سوداء. وأيّ قلب أنكرها نُكِتَ فيه نُكتة بيضاء. حتى يصيرَ على قلبين: أبيضَ مثلَ الصَّفا، فلا تضرُّه فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخَرُ أسودَ مُرْبادّاً، كالكُوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفا ولا يُنكر منكرا إلا ما أشرب من هوَاه**». وأيّ هوىً تَشْرَبُه القلوبُ أنكى في إيمانها من الحُمَّى القومية؟

وذكر حذيفة لأمير المؤمنين أن بين المسلمين يومئذ وبين الفتنة التي تموج موْج البحر بابـًا سيُكْسَرُ. نبأٌ مستقبلي يومئذ أخبر به من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم. وكان الباب عُمَرَ. وكانت الفتنة المائجة استيقاظَ «حمية الجاهلية» التي قتلت عثمان وعليا رضي الله عنهما وأقامت ملك العصبية الأموية. الحديث رواه مسلم في صحيحه. الـمُرْبادُّ ما لونه بين السواد والغُبْرة. والكوز المجَخّى: الإناء المائل عن الاستقامة.

أم الفتن جذورها في القلوب، تُعرض عليها عودا عودا، وتُشْرَبُها بعضُ القلوب، فتَتَّبِعُ الهوى وتنحرف عن الحق وتُجخّى وتميل عن الاستقامة.

فأي علاج للفتنة لا يعمد إلى القلوب بالتربية ليعقّمَ فيها جرثومة الفساد فإنما هو دُهن سطحي وطِلاء وَقْتِيٌّ. أيُّ علاج للفتنة لا يعتمد التربية الإيمانية القلبية التي تُحِل في باطن الأفئدة طمأنينة الإيمان وسكينة الله فإنما هو حَوَمان حول زَريبة الشر وتدخينٌ لَطيفٌ في وجهه.

الطمأنينة تأتي القلوبَ من ذكر الله: ﴿ أَلَاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[1].

السكينة هي نقيض «حمية الجاهلية» كما قرأنا من سورة الفتح في الفقرة الماضية. السكينة ينزلها الله عز وجل في قلوب الذاكرين. روى الإمام مسلم والترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شَهِدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**».

قال أهل اللغة: السكينة زوال الرعب. وقيل هو مَلَكٌ يسكن القلوب. وقيل هو العقل الذي يميل عن الشهوات. والتفسير بالـمَلَكِ الذي يسكن القلوب يشهد له حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن لله ملائكةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر. فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تَنادَوْا: هَلُمّوا إلى حاجتكم! فيَحُفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا**». الحديث.

عندما تنتمي إلى حزب من الأحزاب السياسية التي تعالج الفتنة بأعظم منها لا يسألونك عن عقيدتك ولا عن المسجد والصلاة وسائِر المحطات الإيمانية الجامعة ومنها مجالس الذكر وحلق العلم. أما إذا كان التنظيم إسلاميا فستُبْذَل كل المحاولات ليجْذبك المؤمنون إلى مجالس الإيمان والسكينة. وسيطلبون إليك بذل أعزِّ ما عندك وإن كنت لا تشعر بقيمته. سيطلبون إليك أن تُعطيهم من وقتك، وأن تجلس معهم ساعة وساعة وساعة، أن ترابط معهم، وتخرج معهم، وتطوف بالدعوة معهم. معهم. معهم. معهم. صحبة الصالحين ومجالستهم شرط في قلع جذور الفتنة من القلوب.

وكذلك كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم. فقد روى الإمام أحمد بإسناد جيد عن أنس رضي الله عنه أن عبد الله بن رَواحة رضي الله عنه شاعرَ الأنصار وبطَلَهُم وشهيدهم لقي رجلا من الصحابة فقال له:تَعالَ نُؤمِنْ ساعةً! فشكا الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: يا رسولَ الله! ألاَ تَرى إلى ابن رواحة

(1) سورة الرعد، الآية 28.

يُرَغِّبُ عن إيمانك إلى إيمان ساعة! فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**يَرْحم الله ابن رواحة! إنه يحب المجلس الذي تتباهى به الملائكة**».

وعند الإمام البخاري في الباب الأول من كتاب الإيمان: «قال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة».

وعند الإمام أحمد: «كان معاذ بن جبل يقول للرجل من إخوانه: اجلس بنا نؤمن ساعة. فيجلسان فيذكران الله ويحمدانه».

تعال نُؤمنْ ساعة! أعطنا وقتك! هَلُمَّ نصطَنِعْ وسيلة ليمُرَّ نصيبُ آخرتنا بنصيب دنيانا فينتظِمَهُ! هذا ليس أسلوبَ الانتماء الحزبي. لكنه منهاجُ النبوة والصحبة. ولا سبيل لإصلاح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها، كما قال إمامنا مالك رحمه الله.

نستخلص من هذه الفَذْلَكَة عن طِبِّ القلوب أن علاج الفتنة وقلْعَ «أم الفتن» لا وسيلة له إلا إيقاظ العباد ليتحرروا من كل عبودية للهوَى وليطيعوا أمر الله بالوَلاية الجامعة.

ثم ننظر في سياق أربع آيات في آخر سورة الأنفال تفصِّلُ شروط الوَلايَةِ. أربع آيات قمينة أن يخُصَّها الإسلاميون بالدرس والتأليف، أن يخصوها بالعناية والتنفيذ.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّتَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ

مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

إن الله ربَّنا بكل شيء عليم. أناط سبحانه الإيمانَ الحق بتوفُّر شروط الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد داخِلَ الوَلاية المتكتلة. ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ﴾[2]. ولا يدحض الباطلَ إلا الحقُّ. ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[3]. إلاَّ يتكتل المؤمنون على شروط الوَلاية وهي الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد بالمال والنفس فسيبْقى باطل الجاهلية يركض في ساحتنا، وجيوشه تعيث فسادا في أرضنا، وعقائده الجاهلية تنسِف قواعدنا، وفلسفته تخرب عقولنا، وثقافته تُدوِّخُ نفوسنا.

لا سبيل إلى بناء القوة الاقتحامية المؤهلةِ لمناجزَةِ الجاهلية، القادرةِ على مطاولتها وحصارها وخنقها وطردها، وفي قلوبنا مَثْوىً لأم الفتن. نهض الرجل الأشقر الأزرق الطويل القامة في ألمانيا الإمارات المآت، وتوحد الجِرْمانُ على ثقافة ولغة وجنس وقوم. فانظر ما أججوا من حروب، وما اقترفوا من جرائم ضد الإنسانية. النازية زهرة القومية ونموذجها المتطرف. المتطرفُ حقا! أليست الحمية، حميةَ الجاهلية، عنفاً كلُّها وجهلا كلُّها؟ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. والله هو العلي القدير.

(1) سورة الأنفال، الآيات 82-85.
(2) سورة الأنفال، الآية 4.
(3) سورة الأنفال، الآية 73.

درء الفتنة بالفتنة

تمثل الهزة القوية التي أحدثتها ثورة صدام حسين عند دخوله الكويت نموذجا لتعلق المسلمين التاريخي بأسطورة البطل المحرر. في الخيال الغثائي مثال للبطل التاريخي الذي يقوم من بين الأنقاض بقوة، ويخاطب برمزيته آمال الثأر التاريخي الدفين. صلاح الدين الأيوبي رحمه الله ليس أسطورة، لكنَّ سابقته تزيد الأسطورة رسوخا والأمة المقهورة المذلولة انتظاراً مستسلما «لمستبد عادل» يأخذ بالثأر ويحمي الذمار.

تُعْطي الهزة الصدامية نموذجا لتشبث المسلمين بصاحب الشوكة المستولي، تهتز له أوتار العاطفة وتتلجلج مع رنات ندائه حُشاشة الأمل المكبوت. لا سيما في ظروف مثلِ ظروفنا، العدوُّ فيها جاثم في قعر الدار، العدو فيها اليهود في القدس وحليفهِم الأمريكي في أعز بقاع الإسلام.

نزل القومي للشارع في عُمان، وعانقه الإسلامي، وأنشد الفلسطيني اللاجئ نشيد النصر. تبَنَّى الإسلاميون في الأردن وفي غير الأردن الثورة الصدامية منذ أعلن البطل القومي الشجاع أنه يدافع عن الإسلام وعن البقاع المقدسة، وهلل الجميع منذ ربط خروجه من الكويت بخروج اليهود مما عليه النزاع من بقية فلسطين. حماس واحد برره بعض الإسلاميين بأن البطل القومي آلة ومرحلة في الطريق. وقال الآخر: إن خلافنا معه جزئي يُسوَّى فيما بعد.

وهل الخلاف جزئي بين العصبية، بين حمية الجاهلية، وبين الإسلام؟ لكن ما يفعل في عصرنا من لا شوكةَ له ولا حام ولا لواء تنضوي تحته الآمال إلا الأمر الواقع، إلا المستولي بالسيف؟ وذلك مصداقُ قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي: «**لتُنقضن عُرَا الإسلام عُروةً عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها. وأوَّلهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة**».

من الإسلاميين من كان له حِلف وتعاون تكتيكي مع سلاطين النفط الممدين بالصدقات يمُنون بها ويشترون بها الحِلْفَ الساكت، فلما صرح صدام بمقالته تجاوبت الأصداء العميقة مع صرخته، وأعلن بعض الإسلاميين عداءهم لحليف أمس التكتيكي. وكأن الأحداث تكشف فجأة وجه من يقف في خندق واحد مع أعداء المِلة ومن يبعث الأمل في تحقيق مطامح المسلمين، وحَّدَ الأملُ الإسلاميَّ والقومي والمشرد والمثقف الوطني. «**تشبث الناس بالتي تليها**».

ينبغي للإسلاميين أن لا يُخاصموا شيئا من تاريخ المسلمين الماضي والحاضر، وأن يفهموه في حركته وعِلاَّتِه، في انتقاض عروة الحكم منه وفي تشبث الناس «**بالتي تليها**»، ليكون لهم الموقف الثابت والمطمح المنهاجي الخلافي، مع الاحتفاظ بالمرونة المرحلية.

وينبغي لهم أن لا يدفعهم التقليد للعلماء السابقين الذي خلَّفوا فتْوَى وفقها في مجال الحكم اجتهدوا فيه لزمانهم فيقبلوا من الفتنة ما هو جدير بالإنكار الثابت الدائم. كان فقه السابقين رحمهم الله يدور حول فكرة دَرْءِ الفتنة الكبرى بفتنة أصغر. وعلى مر التاريخ تقهقر موقع الفتنة الصغرى الدارئة، وتراجعت عن الحق خُطوةً إلى الوراء خُطوةً كلما استفحلت الفتنة المدروءة وازدادتْ فداحة.

أكتب هذا الليلة الثامنة من جمادى الأول سنة 1411، والأقدار تهيئ لنا الجواب التاريخي، في مدرسة سنة الله، كيف ندرأ فتنة المستولي القومي بفتنة العض الوِراثي. أم كيف نهتف للبطل القومي المحارب لأمراء السوء رؤوس الفتنة. أيهما أعظم فتنة؟ وعلينا أن نقرأ سنة الله في جريان قدَرها وفي تسلسلها التاريخي السببي التكليفي قراءة ذكية، لا نتبلد مع التقليد.

كان مع علمائنا على مر العصور عذرهم وعلتهم في درء الفِتن بعضِها ببعض. وكان لهم اجتهادهم. فمن التبلد أن نعتبر ما أورثوه من فهم وكأنه فتوى أبدية، ومن التبلد أن نجري خلف الآمال الحماسية كلما نعَقَ ناعق.

أورِد هنا نصوصا طويلة لاجتهاد من سبقونا رحمهم الله، فلم يكونوا إمعاتٍ ووعاظ قصور ومتملقين على الأعتاب. لم يكن من الأذناب المتمسحين بالحكام

اللاعقين للفتات إلا قلة من ديدان القراء. ولأئمة الفقه كان الفهم الثاقب لضرورات الزمان والمكان والملابسات، تشبثوا بعروة الوحدة في ظل العض والاستيلاء لَمَّا عزَّ السبيل إلى إبرام ما انتقض من أمر الشورى.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله، الفقيه الأصولي، في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد»: «الضرورات تبيح المحظورات. فنحن نعلم أن تناوُل الـمَيتة محظور، ولكنَّ الموت أشد منه. فليت شعري من لا يساعد على هذا ويقضي ببطلان الإمامة في عصرنا لفوات شروطها وهو عاجز عن الاستبدال بالتصدي لها؟ بل هو فاقد للمتصف بشروطها. فأي أحواله أحسن؟ أن يكون القضاة معزولين والوِلايات باطلةً والأنكحةُ غيرَ منعقدة وجميعُ تصرفات الولاة في أقطار العالم غيرَ نافذة، وأنَّ الخلق كلَّهم مُقْدِمون على الحرام؟ أو أنْ تكون الإمامة منعقدة والتصرفات والوِلايات نافذةً بحكم الحال والاضطرار؟

قال رحمه الله: «فهو [أي المعترض على قبول حكم الحال وأكل ميتة الحكم العاض] بين ثلاثة أمور: 1. إما أن يمنع الناس من الأنكحة والتصرفات الـمَنُوطةِ بالقضاة، وهو مستحيل ومُؤَدٍّ إلى تعطيل المعاشات كلها، ويُفضي إلى تشتيت الآراء ومَهْلَك الجماهير الدهماء. 2. أو يقول: إنهم يُقْدِمون على الأنكحة والتصرفات، ولكنهم مُقدمون على الحرام، إلا أنه لا يحكم بفسقهم ومعصيتهم لضرورة الحال».

يقول رحمه الله في ذكر الخيار الثالث الاضطراري: 3. وإما أن نقول: يُحكَمُ بانعقاد الإمامة مع فوات شروطها لضرورة الحال. ومعلوم أن البعيد مع الأبْعد قريب، وأهوَن الشرين خيرٌ بالإضافة (أي بالنسبة كما نقول في عصرنا). ويجب على العاقل اختيارُه».

يستعمل الغزالي رحمه الله اصطلاح «شوكة» في حق صاحب السيف الحامي الديارَ. ويقول مدافعا عن إمامة المستظهر العباسي القرشي ووزرائه، بل سلاطينه الحكام الحقيقيين السلاجقة: «بل أقول: لو لم يكن بعد وفاة الإمام

إلا قُرشي واحد مطاعٌ متبع، فنهض بالإمامة وتولاها بنفسه، ونشأ بشوكته، وتشاغل بها، واستتبع كافة الخلق بشوكته وكفايته، وكان موصوفا بصفات الأئمة، فقد انعقدت إمامته ووجبت طاعته. فإنه تعين بحكم شوكته وكِفايته، وفي منازعته إثارةٌ للفتن».

كانوا رحمهم الله يخشون فتنة أعظمَ وبينهم الباطنيةُ وطوائف المذاهب المنحرفة، ومن حولهم عالم يموج. حال كالحال في زماننا. لكنَّ الفرْقَ الكبيرَ الذي يعطي لظروفنا خصوصياتِها هو أن العصبية الحاكمة فيمن قبلنا كانت تُفتِّت كل تكتُّل مناهضٍ لها، فالعلماء مثل الغزالي أفراد، إن كانت لهم شعبيتهم فليس معهم كتلة في مستوى مقاومة «حال الاضطرار»، بينما في زماننا تكتلت بالفعل قوة صاعدة تُسمَّى «الحركة الإسلامية»، ففي متناوَلِها، اليوم هنا وغداً هناك بحول الله، القوة لتَخْرُجَ من منطق دَرْءِ الفتن بعضها ببعض. لا سيما إذا كان الثمن لتحمل الأمر الواقع هو التخلي خُطوةً خطوةً إلى الوراء عن العقيدة نَفسها، يقاتل السيف المستولي العقيدة كما فعل مصطفى كمال في تركيا الإسلام، أو يقتل مليونا من المسلمين في حرب ضد الشيعة كما فعل صدام.

وتمضي ثلاثة قرون على عهد الغزالي رحمه الله، فنجد عند فقيه محدثٍ مثل الذي وجدنا من الفهم عند الأصولي الفقيه. هذا شافعي والآخر حنبلي، قرَّبت وِجهتي نظرهما الضرورة وتشابُهُ الأحوال الجامدة منذ ألف عام ويزيد إلى زماننا.

فَتوَى يَقرأها الإسلاميون في عصرنا كثيرا، ويستشهدون بها، ويبرر بها كلٌّ موقفَه. وأكثر من يتَّكِئ عليها للاستئناس في حجر سلاطين النفط الحلفاءُ التكتيكيون وغيرُهم من المتشددين المذهبيين. فتوى ابن القيم رحمه الله يجب أن نبدأ قراءتها من عنوانها في كتابه «إعلام الموقعين». يقول العنوان: «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعادات». هكذا أزال رحمه الله العُهدةَ من عنقه وطوَّقها من شاء أن يُقلد السلطة العلمية الماضية إلى رحمة الله إن شاء الله ليبرِّرَ قعُودَه. ورحم الله ابن تيمية، لو علِمَ ابن تيمية ما فعلوا بمذهبه من بعده!

قال ابن القيم رحمه الله أولَ الجزء الثالث من الكتاب المذكور: «فإنكار المنكر أربع درجات: الأولى أن يزول ويخلُفَه ضدُّه. الثانية أن يَقِلَّ وإن لم يزُل بجملته. الثالثة أن يخلُفَه ما هو مثله. الرابعة أن يخلُفَه ما هو شر منه. فالدرجتان الأولَيَان مشروعتان، والثالثة موضِعُ اجتهاد، والرابعة محرمة.

قال رحمه الله: «فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النُّشَّاب وسباق الخيل ونحو ذلك. [...] وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونوّر ضريحه يقول: مررتُ أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم من كان معي. فأنكرت عليه وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة. وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال. فدعهم!» انتهى.

هذا اجتهاد جيد وفتوَى ما أجدرَنا بتبنيها لنتعلم التدرج ونحن زاحفون بحول الله على الفتنة حتى نُجلِيَها من معاقِلِها، هي تتقهقر لا نحن. لكنَّ هذه الفتوَى الحكيمة جاءت مع فتوَى أخرى في نفس النص تؤبِّدُ قيودنا إن نحن تبنيناها غافلين عن التحذير والتَّنْبيه على أن الفتوى تتغير في الأزمنة والأمكنة إلخ. الفتوى التي تقيد وتقهقر من لا يعتبر تقول: «فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغُ إنكارُه وإن كان الله يُبغضه ويمقت أهله. وهذا كالإنكار على الملوك والوُلاة بالخروج عليهم. فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر».

قلت: يا حسرة على من يقرأ «آخر الدهر» هذه ولا يستمع لوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح الفصيح بالخلافة الثانية على منهاج النبوة! والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الخامس

المروءة والأخلاق

- المروءة والدين
- حلف الفضول
- حوار بين مريضين

المروءة والدين

أيَّ قَدْرٍ من الجاهلية نحتمل؟ أيَّ حِمْلٍ من أحمال الفتنة نحمل؟ على أية أرضية مشتركة -إن كان ثَمّ أرضية مشتركةً- نلتقي مع الناس ونتعامل؟ أم نقطع الجسور ونبقى في البرج العاجي نسبح في ملائكية عاجزة، نسب الجاهلية ونهتك بالشتم عِرْض الفتنة معزولين عن الناس؟ إنه لا بد لنا من تغيير نشارك فيه باليدين، لا بد من التشمير عن الساعدين والدخول في الوَحَل حتى الركبتَين. هنالك دَفْقٌ مِن الإمكانات في الشعب مكنوز، كيف نفجر ينابيعه ونجريه في جداول الثقة والتعاون لخدمة الشعب. هنالك دفق مطمور تحت صخور الجاهلية ورمال الفتنة المائجة وركام الغثائية. هنالك الدين راسبا في الأعماق ومع المروءة، هنالك التدين الأجوف بلا مروءة، هنالك المروءة مع قَدر ما من الدين، هنالك المروءة بلا دين.

الدين إسلام وإيمان وإحسان. درجات. ولا مناص من أن نتعامل ونتعاون في داخل المجتمع مع ذوي المروءة على ما معهم من دين. لا ننتظر حتى يكون الناس جميعا على مستوَى أهل الكهف والرقيم من اليقظة الإيمانية. وفي خارج المجتمع مروآت بلا دين، وغياب المروءة والدين معا، ولا مناص من التعامل الدولي والتعاون والتبادل. لا مناص من التعامل مع القُوى الحاقدة على الإسلام، مع القانون الدولي اللاأخلاقي ذي الوزنين، يزن بمعايير مزدوجة، يترك دولة اليهود تسخر مِن رُكام أربعين سنة من قرارات الأمم المتحدة، ويهب لنصرة «القانونية الدولية» حاشدا كل قواه في منابع النفط.

إنْ لا نقبل التعامل والتعاون في الداخل مع كل ذوي المروآت على ما عندهم من إيمان وإسلام أعرابي وحتى تُخُومِ العقيدة التقليدية الصرفة، وإن لا نتحمل الإقساط والبِرَّ بجاهلية مُحيطةٍ هي آلةُ بَلَائِنا، نتغاضى زمانـًا ونُعرض عن تحرشاتها

وظلمها. إن لا نفعلْ فسنبقى على أحسن تقدير نخبة طليعية من المؤمنين المثقفين المتطهرين عاجزة معزولة في ملائكية حالمة.

الدين إسلام وإيمان وإحسان. درجات. والمروءة أيضا درجات. المروءة كما قال أهل اللغة هي كمال الرجولة. هي «البذل والعطاء وكَف الهمة عن الأسباب الدنيئة». هي كفاآت عملية. هي معلومات وتقنيات مُحَصَّلَة لا يُؤثر في الواقع غيرُها. لا يؤثر في الواقع النوايا الطيبة والتدين الأجوف العاجز.

سنعرف قدر المحنكين من الرجال عندما نقف على عتبة الحكم. سنعرف قَدر الخبير والـمُجَرِّب والقوي. وقد يَكون مع قوته فُجورٌ. فإن كنا على هامش الأحداث وفي المعارضة فكل ما نكيله من شتائم للفتنة وللجاهلية كلام. فإذا أزِفَ وَقت العمل ونادت الأحداث: أين الإسلاميون -نادى القَدَرُ أستغفر الله- فلا يُغني كلام، إنما تغني الفاعلية والقوة على الفعل والمعلومات والتجربة. مهما كانت قوة إرادتنا وعزمُنا السياسي ووحدة صفنا وقرارِنا فسيسخر منا الواقع وتشتمنا الأحداث عندما تجربنا-عندما يختبرنا القدر أستغفر الله- فيجدنا عاجزين لا أكياساً، وسيفضل علينا الحذاق الماهرين المحنكين أيّا كان لونهم.

يجيء يومٌ لن يلتفت الناس كثيرا لأطروحاتنا ونظرياتنا، بل سيرقُبوننا عند الهفوة والزلة والخطإ في إدارة الاقتصاد وتسيير عجلات الدولة وضبط وظائفها وتنسيق جهودها. سيرقب الناس مَدى تطابُق أطروحاتنا ونظرياتنا ووُعودنا -ومنا من يكيل الوعود حتى يظنُّ الناس أن «الحل الإسلامي» ضَرْب من عصا موسى- مع سلوكنا وفعلنا وإنجازاتنا. وطائفة أخرى من الانتهازيين ستزدحم على أبواب السلطان يوم يكون السلطان في يد أهل المسجد لتعرض خدماتها. يومئذ يكون الخيار بين الاحتفاظ بخبير الأنظمة البائدة الكفءِ على ما معه من دين وبين تنصيب الوفي المتدين بلا خبرة ولا كفاءة، وبين استعمال الانتهازي الذي سيلبَس لك لَبُوس الأتقياء. وفي دولتك تروج البضاعة التي يستحقها استبصارك بالواقع وضروراته أو مثاليتك الحالمة العائمة.

إما تختار المروآت المؤثرة في الواقع على ما هناك من دين حتى يُنشئ الله الملك الوهاب من أصلاب أجيال الفتنة أجيالا بارئة إن شاء. وإما تفشَلُ تجارب المتدينين العاجزين ويُثيرُ عملُهم الازدراء.

فمن الآن نوطد النية على ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنّ: «**الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا**». ومن الآن نوطد النية على ما قال مولانا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين من أن «الناس صنفان: أخوك في الدين ونظيرك في الأخلاق». ومن الآن نوطد العزم على تقليد العالم القوي الأمين أمير المؤمنين عمر الذي كان يقول: «أشكو إلى الله جَلَدَ الخائن وعجْزَ الثقة».

يشكو عمر رضي الله عنه –وهو الخبير بالرجال الناجح في الحكم– نُدْرة الجامعين بين القوة –عبر عنها بالجَلَد– وبين الأمانة. القوة والأمانة هما مجتمعتين شرط الكفاءة للوِلايات الإسلامية والوظائف والإدارات. لكنهما قلما تجتمعان. ولذلك تَنتظرك «ضرورة الحال» لتختار بين تولية «الثقة العاجز» وتولية الجَلْدِ ولو كان فاجرا. وقد اختار أميرُ المؤمنين عمر تولية المحنك القادر على تولية التقي المسَبِّحِ العاجز. واختار ذلك أيضا علماؤنا السابقون، وفقهاؤنا المبجلون.

قدِم أهل الكوفة على عمر رضي الله عنه يشكون عاملهم سيدَنا سعداً بن أبي وقاص، وهم كانوا ظالمين مفترين. فقال عمر: من يُعْذِرني [أي يكفيني] من أهل الكوفة؟ إن ولَّيْتُهم التقِيَّ ضعّفوه، وإن وليتهم القويَّ فَجّروه [أي اتهموه بالفجور]. فقال المغيرة بن شعبة الصحابي: «يا أمير المؤمنين! إن التقي الضعيف له تقواه ولك ضَعفُه، وإن القويَّ الفاجرَ لك قوته وعليه فجوره». وكان المغيرة من دهاة العرب وعقلائهم وأقويائهم في الحيلة في الجاهلية والإسلام.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «قد علمتُ وربِّ الكعبة متى تَهْلِكُ العرب! إذا ساسهم مَن لم يدرك الجاهلية ولم يكن له قَدَمٌ في الإسلام».

من لم يعرِف الجاهلية وكدرَها لا يعرف كيف يسوس الناس بالعدل بعد أن هدم الإسلام موازين القِيَم الجاهلية التي لا تعرف إلا العنف. من لا قَدَم له في الإسلام ولا رُسوخَ فهلاك الأمة على يده إن نصَبتَه في مكان «القرار الاستراتيجي». لكنَّ مواقع القرارات اليومية والتنفيذ لن نجد لها في غد القومة جامعين بين الثقة والقدرة، بين معرفة الجاهلية والقدم في الإسلام، بين القوة والأمانة، من يكفينا ويُعْذِرنا من المهمات الـمُلحات! لن نجد إن بتنا نتعلق بمثالية لا تعطي للضعف البشري ولما فعلت وتفعل فينا الفتنة حقهما.

في أول كتاب «السياسة الشرعية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فصل بعنوان «استعمال الأصلح». قال: «فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلَحَ من يجده لذلك العمل. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**من ولِيَ من أمر المسلمين شيئا فوَلّى رجلا وهو يجد من هو أصلحُ للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله**». وفي رواية: «**من قلَّد رجلا عملا على عِصابة** (أي جماعة من الناس) **وهو يجد في تلك العصابة أرْضَى منه فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين**». رواه الحاكم في صحيحه».

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فيجب عليه البحث عن المستحقين للولايات، مِن نوابه على الأمصار من الأمراء الذين هم نواب ذي السلطان، والقضاء، ومن أمراء الأجناد ومقَدّمي العساكر الصغار والكبار، وولاة الأموال من الوزراء والكتاب والشَّادِين [الجامعين للأدب والعلم الـمُتقدمين في الدراسة] والسعاة على الخراج والصدقات، وغير ذلك من الأموال التي للمسلمين. وعلى كل هؤلاء أن يَسْتنيبَ ويستعمل أصلح من يجده. وينتهي ذلك إلى أئمة الصلاة والمؤذنين والـمُقرئين والمعلمين وأمير الحاجِّ والبُرُدِ [جمع بريد]والعيونِ الذين هم القُصّاد وخُزّانِ الأموال وحُراسِ الحصون والحدادين الذين هم البوابون على الحصون والمدائن ونُقباءِ العساكر الكبار والصغار وعُرَفاء القبائل والأسواق ورؤساء القرى الذين هم الدَّهَاقون». انتهى.

قلت: أما أئمة الصلاة والمؤذنون والمقرئون والمعلمون و«أمير الحاج» فوظيفتهم تلْحَقُ بالدعوة في دولة القرآن، ولو تقاضوا أجورا من خزانة الدولة. وتُثْبَتُ هذه الوظائف في قائمة الأسبقيات حتى لا يؤم الناسَ في دينهم إلا الأتقياء الذين لهم قدم في الإسلام، ودرجات في الإيمان، ونسَمات في الإحسان.

ويستمر شيخ الإسلام رحمه الله في عَرْضه حتى يصل إلى حال الضرورة عندما ينعَدم «الأصلح»، فيقولُ بعد أن ذَمَّ وباء المحسوبية والقرابة: «إذا عُرِف هذا، فليس عليه أن يستعمل إلا أصلَح الموجود. وقد لا يكون في موجوده من هو صالح لتلك الوِلاية، فيختار الأمثل فالأمثلَ في كل منصب بحَسَبِه. وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام وأخْذِه للوِلاية بحقها فقد أدى الأمانة وقام بالواجب في هذا، وصار في هذا الموضِع من أئمة العدل والمقسطين عند الله وإن اختلت بعض الأمور بسبب من غيره. فإنَّ الله يقول: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[1]. ويقول: ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللُه نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[2].

قلت: لِيَقْرأ بينَ السطورِ مَن شاء وَرَعَ فقهائنا رحمهم الله ودقة عبارتهم وصدق أحكامهم. فقبل أن يُصدر شيخ الإسلام حكمُه بأن ولي الأمر «من أئمة العدل المقسطين عند الله» شرَطَ أن يكون «أخذه للولاية بحقها». في العبارة مرارةٌ مكبوتة.

ثم يَخْلُصُ ابن تيمية رحمه الله للقاعدة في التوليات فيقول: «فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾[3] وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾[4]. وقال تعالى في صفة جبريل: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[5].

(1) سورة التغابن، الآية 16.
(2) سورة البقرة، الآية 286.
(3) سورة القصص، الآية 26.
(4) سورة يوسف، الآية 54.
(5) سورة التكوير، الآيات 19-21.

قال رحمه الله: «والقوة في كل ولاية بحسبها». وذكر الكفاءة اللازمة لقيادة الجَيش وسائر الوِلايات التنفيذية والقضائية. قال: «والأمانة ترجع إلى خشية الله، وأن لا يشتريَ بآياته ثمنا قليلا، وترك خشية الناس. وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حكم على الناس في قوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[1]. اللهم ارزقنا خشيتك ومحبتك وحُسْن عبادتك.

---

(1) سورة المائدة، الآية 44.

حلف الفضول

إذا منح المولى عز وجل العبد نصيبا من الإحسان والإيقان كان من الشفقة على الخلق، وحب الخير لهم، والحرص على أن يهديَ الله به ولو رجلا أو امرأة بحيث يكاد يبْخَعُ نفسَه أن لا يكونوا مؤمنين. أما الـمُعْجَب بنفسه المتعالي على أبناء جنسه فَيَحْسِبُ البغضَ في الله -وهو من الإيمان- أن ينسِف الجسورَ بينه وبين الخلق، ويُكَفِّرَ، ويكفَهِرَّ في غير مواطن ذلك.

قرَّبَنَا مفهوم «الفتنة» من مواقع مجتمع المسلمين، نفهمُه فهمَ مَن لا يخْشى الذوَبان، بل فهم من يخشى أن تضيعَ منه فرصة العمر: أن يهديَ الله به.

قرَّبَنَا مفهوم «المروءة» من اعتبار الخصال الكفائية الخلقية جِسرا نمده بيننا وبين الناس لنتعامل ونتعاون، مقدِّرين المروءة والأخلاق والكفاءة حق قدرها.

فهل لنا من سَنَدٍ شرعي في الاهتِبال بالأخلاق والمروءة؟ لا! بل هل في الإسلام -أصلحك الله- إلا ما يحث على الأخلاق والمروءة والاهتبال بهما و«بمعدنهما» المحتَمَل؟

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الناس تبَعٌ لقُرَيْش في هذا الشأن** [أي الإسلام]: **مسلمهم تبَعٌ لمسلمهم، وكافرهم تبَع لكافرهم. الناس معادن، خِيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا. تَجدون من خير الناس أشدَّ الناس كراهية لهذا الشأن حتى يَقَعَ فيه**».

قلت: وهكذا وقع في هذا الشأن العظيم عمر بن الخطاب الذي كان في جاهليته من العداوة للإسلام بحيث قال من يعرفه: لا يؤمن عمر حتى يؤمن حمار الخطاب! فإذا أزلنا الحَذَرَ اللازم من «شيوخ المشركين»، من الملاحدة المجاهرين بعدائهم للدين، لم يبق إلا الأمل الدائمُ أن ينصرَ الله دينه على أيدينا بفلان وفلان، كما

كان يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل أن ينصر الإسلام بأحدِ العُمَرَين، فكان عمر بن الخطاب: دخل الإسلام ومعه المروءةُ العظيمة والمعدن النفيس الذي عرفه تاريخ الإسلام حين توَّج الدينُ المروءة.

«**إن الله تعالى يُحِب معالِيَ الأمور وأشرَافَها، ويكره سفسافها**» حديث نبوي رواه الطبراني عن الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما. يحب الله تعالى الخصال الحميدة في عبده المؤمن. وقد يكونُ هذا المؤمن المسطَّر إيمانه في كتاب القَدَر لا يزال ينتظر ساعتَه، فتكونُ جسورُك أنتَ مَدْرجةً له إلى الإيمان. لا يكُنْ نفورُك وخشونتك سببا لنفوره هو منك ومن الإيمان.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لِأَشَجِّ بني عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحِلْمُ والأناة**». حديث صحيح رواه الترمذي.

وروى البخاري في الأدب المفرد والحاكم وغيرهما بإسناد حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**بُعِثت لأتمم مكارمَ الأخلاق**». مكارمُ موصولة بالدين، متغذية من الفطرة، راجعة إلى طِيبِ المعدن. فالداعي إلى الله عز وجل يراقب علامات المنْجَم الأخلاقي علها تدله على استعداد للإيمان وعلى مروءة وكفاءة يغنَمُ رِفدَهُما لخدمة الإسلام والمسلمين.

الدين والمروءة خِلاَّنِ، وقد يفترقان في «الفاجرِ الجَلْدِ» له كفاءة ولا دين له، وفي «العاجز الثقة» له دين ولا كفاءة له. روى الإمام أحمد والحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**كرمُ المرء دينُه، ومروءتُه عقلُه، وحسَبُه خلُقه**». أشار السيوطي رحمه الله لصحته، وضعفه المحدثون.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كرم المرء تقواه، ودينُه حسبُه، ومروءتُه خلُقُه. والجُرأة والجُبن غرائز يضعها الله حيث يشاء». رواه الإمام مالك رحمه الله.

من الجسور التي ينبغي أن نمدَّها بيننا وبين الناس، ونعتبرَها مروءةً، ونتعاملَ على أرضيتها ونتعاونَ: الغَيرةُ الوطنيَّة. وهل الوطنية مروءة أم غُلٌّ وقيدٌ؟ في هذه

الفقرة نمد الجسور فنتغاضى عما تخْفيه الوطنية من رزيَّة، ونعود للموضوع إن شاء الله. من الإسلاميين من يعتبر أي تعلق بما دون الله، ولو ذرّةً، شِرك يتنافى مع صفاء الإخلاص لله سبحانه. ويعتبر الوطنية وحب الوطن عقيدة تناهض الإسلام وتصادمُه. هذا منطقُ من لا يرى في الوجود إلا نفسَه مسلما، ويكفر العالَم ويجهِّلُ، ويجحد سنة الله في الخلق، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هجرته من مكة يخاطب مكة خطاب الأحباب: «**واللهِ إنكِ لأحبُّ بلاد الله إلى الله وإلي**». وقال عن جبل أُحُد: «**جبلٌ يحبنا ونحبه**». حبٌّ على الهامش النفسي لا ينفذ إلى شِغاف القلب حيث لا ينبغي أن يستقر إلا حب الله تعالى وحب رسوله.

وجاء في صحيح البخاري أن بلالا رضي الله عنه مرض بالحُمى هو وأبو بكر رضي الله عنه لما قدما المدينة عند الهجرة، فكان بلال كلَّما أقلعت عنه الحمَّى يُنشد ويرفَع عَقيرته (صوته):

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة بوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجَليل؟
وهل أرِدَنْ يوما مياهَ مِجَنَّةٍ وهل يبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفيلُ؟

قال ذلك حنينا إلى وطنه مكة، اشتاق إليها، وبرَّحَ به المرض ورقق عاطفته. فلما أخبَرَتْ أمنا عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر قال: «**اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشَدَّ، وصَحِّحْها، وبارِكْ لنا في صاعها ومُدِّها، وانقُلْ حماها فاجعلها في الجُحْفة**».

على أرضية الإخلاص للوطن، والوفاء له، والاعتزاز بخدمته يمكن أن نمد جسورا للتعامل والتعاون مع ذوي المروآت والكفاآت، وأن نتحالَف معهم ونتعاهد. ذلك ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة مع المشركين في زمان الجاهلية فيما سمِّيَ «حلف الفضول».

جاء في مسند الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**شَهدتُ حِلفَ المُطيَّبينَ** [المتضمخين بالطِّيب]

مع عمومتي وأنا غلام، فما أحِبَّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعَمِ وأنِّي أنكثُه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**كل حِلف كانَ في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة أو حدة**».

وخبرُ «حلف الفضول» كما جاء عند ابن هشام هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لقَدْ شهِدتُ في دار عبد الله بن جُدعانَ حِلفًا ما أحِب أنّ لي به حُمْرَ النَّعَم، ولو أدْعَى به في الإسلام لأجَبْتُ**».

وذلك أن بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زُهرة وبني تيم اجتمعوا في دار عبد الله بن جُدْعان زمان كان محمد صلى الله عليه وسلم لا يزال غلاما. فتعاهدوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلَمه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلِمَتُه. فسمّت قريش ذلك حلف الفضول. وهو حِلف للفضائل والمروءة يُحْمَى بمقتضاه الضعيف والغريب.

وقال الإمام السهيلي في «الروض الأُنُف»: «وكان حلف الفضول أكرمَ حِلف سُمِعَ به، وأشرفَه في العرب. وكان أولَ من تكلم به الزبير بن عبد المطلب. وكان سببَه أن رجلا من زبيد قَدِم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاصي بنُ وائل، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عنه حقه. فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف [...]. فصاح بأعلى صوته:

يا آل فِهر لَمظلومٌ بضاعتَه ... ببطن مكة نائى الدار والنَّفَرِ
ومُحْرِمٌ أشعثٌ لم يَقْضِ عُمْرَتَه ... يااللَرجال! وبين الحِجْر والحَجَر
إن الحرام لَمَنْ تمت كرامَته ... ولا حرامَ لثوب الفاجر الغُدُر

قال رحمه الله: «فصنع [عبد الله بن جدعان] لهم [للمتحالفين] طعاما، وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام، قيامًا، فتعاقدوا وتعاهدوا: بالله ليكونُنَّ يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُؤدَّى إليه حقُّه ما بَلَّ بحرٌ صُوفةً، وما

رَسَا حِراءُ وثَبيرٌ مكانهما. وعلى التأَسِّي في المعاش». أي التكافل والتعاون ومساعدة المحتاج.

كان عبد الله بن جدعان الذي تَزَعَّم مع الزبير بن عبد المطلب أمر الحلف رجلا مشركا. عمل عملا جليلا بمعيار الدنيا ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبَّذَه واستمسك به. ما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم شركُ المتحالفين من تقدير هذه المروءة حق قدرها. وقد جاء في صحيح مسلم أن عائشة أمَّ المؤمنين رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم قائلة: «إن ابن جُدعان كان يطعم الطعام ويَقرِي الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «**لا، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**».

عمل حابط في الآخرة، هباءٌ منثور. ما منع ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم من تقديره والاعتزاز به لما ترتب عليه من صلاح الناس في الدنيا. لذلك قال: «**ولو أُدْعى إليه في الإسلام لأجبت**». وقال: «**ما كان من حِلف في الجاهلية فلن يزيده الإسلام إلا شدة**».

في مسند الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة مهاجرا عقد حِلفاً بين المهاجرين والأنصار. وفي السيرة أنه صلى الله عليه وسلم آخَى بين المهاجرين والأنصار اثنين اثنين. هذا الحلف وهذه المؤاخاة تأكيد «تنظيمي» للوَلاية الواجبة بين المؤمنين وتعميق لها. تبوأ المهاجرون والأنصار الدار والإيمانَ معاً. فهي مواطنة على مستويين، لكل منهم حقه: حق الإيمان وأخوته، وحق الدار والجوار.

وفي مكةَ تعزَّزَ حق مواطنة الدار بحق مواطنة المروءة. بمقتضى الوطنية المكية وبمقتضى المروءة، تحَلَّى بها جاهليون لا تنفعهم تلك الأعمال الجليلة يوم القيامة، قام رجال لحماية المظلوم والضعيف، و«للتأسي في المعاش»، ولرد كرامة الغريب المحتقر، سلَبَهُ حقَّه متكبرٌ جبار. في كل هذا دروس لنا لنمد الجسور مع ذوي المروآت والكفاآت من مواطنينا في دار الإسلام، ومع غيرهم من الأنام.

وَلا يُستغْنَى عن الحِلف الـمُرُوئي بما نرجو الله تعالى أن يُقَوِّيَهُ من رابطة الدين. ولا يعتبر التمسك بالأحلاف المروئية بإزاء الحلف الوَلائي ردة. «**فما كان من حلف في الجاهلية فلن يزيده الإسلام إلا شدة**».

ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن الوليد بن عُتبة والي المدينة لعمه معاوية نازع سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما في مال، وتحامَل الوليدُ على الإمام رضي الله عنه، فقال له الحسين: «أحلف بالله لتُنْصِفَنِّي من حقي أو لآخذنَّ سيفي، ثم لأقومنَّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لأدْعُوَنَّ بحلف الفضول!». فقال له عبد الله بن الزبير وكان حاضرا: «وأنا أحلِف بالله لَإن دعا به لآخذَنَّ سيفي، ثم لأقومن معه حتى يُنصَف من حقه أو نموت جميعا». فبلغ الخبرُ المِسْوَر بنَ مخرمة رضي الله عنه فقال مثل ذلك. وقال عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليدَ أنصف الحسين من حقه حتى رضي.

هذه سابقة مهمة جدا، تعلمنا كيف نستعمل الخير الذي عند أهل الخير مهما كان حظهم من الدين. لا نكن قضاةً مكشرين، بل هداةً مستبشرين. ولله عاقبة الأمور.

حوار بين مريضين

استهدف الغربُ الاستعماري بلاد المسلمين منذ قرن ونيِّف فاحتلها بسهولة، ثم استهدفها بعدما استفرغ حاجته الاستعمارية في النهب والتقسيم فوجد المسلمين لا يزالون منفعلين قابلين لفعل الأقوياء، فغرس دولة اليهود. ثم ها هو يستهدفها ليحتل منابع النفط، ولا تزال قابلية الانفعال على حالها، بل تفاقمت.

انفعل المسلمون الانفعال السلبي بالانهزام والاستكانة، هذا للضُّعْفِ العسكريِّ المادي. وانفعلوا بردة فعل فرضها عليهم الأقوياء، فحصل طائفة منهم في الارتداد إلى فكر الأقدمين يلتمسون منه مَدَدا، فإذا هم في سجن جَدلية «درء الفتنة بالفتنة». وآخرون من الذراري الذين مَرُّوا من «طاحون» التعليم الغربي وقعوا في سجن إشكالية الغرب وأسئلته وأجوبته ومنهجيته. مرض على مرض. سجن على سجن.

إن تجارب تاريخنا ثروة إذا لم تُحِلْنا إلى التقليد والدخول في بُوتقة الجمود. وعناصرُ إشكاليتنا غير ما كان يفتي فيه الأصولي الفقيه والفقيه المحدث. فإن ربطنا حلولنا بهواجس التاريخ الفتنوي ثوَيْنا في الدوامة، في دورة عقيمة.

وتجارب أوربا درس إن استطعنا الخروج من سيطرتها على المبادرة إلى عقولنا لتفرض عليها الأسئلة والأجوبة، لأننا إن بقينا في درء برهانهم الساطع على تفوقهم وتقدمهم بالتعلق الأعمى بحداثة وعصرنة لا تطاوعنا إلا بفقد ديننا فقد خسرنا الدنيا والآخرة. إن نحن قاومنا تميُّزهم بالتشبث الطفولي بأصالة شبَحيَّة نفزع إلى أحضانها انكمشنا وأبَّدنا قابليتنا للانفعال. أية أصالة؟ ما معناها يا هُواة الغُموض؟

إنما نخرج من الجدليات الانفعالية المرضية إن نحن تعرفنا على أحوالنا الحقيقية بلا مُوَارَبَة، وعمَدْنا إلى القاعدة الصلبة نبني عليها ونُؤسس. لا على أنقاض ماضٍ لنا حافل، ولا على رُكام الفكر الجاهلي المريض.

على ماذا تدلنا السنة النبوية، وهي الركن الركين الذي لا تُنقض قواعدُنا إن أسسناها عليه؟ يدلنا القرآن وتدلنا السنة على الجهاد والموت في سبيل الله، نقدر على الجهاد إن بَرَأْنا من مرض الوَهْن. لكن القرآن والسنة يدلاَّنِنا قبل كل شيء على الصبر الطويل لبناء الأمة، لإعادة بنائها على المنهاج النبوي وإقامة الخلافة الموعودة.

ولا يمكن أن نبْني في فراغ. لا يمكن أن نُعدِم من الوجود كياننا المنقوض المريض كما لا يمكن أن نتجاهل سيطرة الغرب على العالم. عالم متغيراتُه مذهلة ووتيرة حركته جنونية. والغرب فيه فاعلٌ قوي نشيط.

فمن أين تأتي لمريضنا القوة؟ أم هل يمكن لمريض ضعيف أن ينافس شياطين الصناعة وعمالقة العقل المعاشي التنظيمي؟

لعل في حديثك عن الأخلاق وحِلف الفضول والمروءة والحوار ما يُشم منه رائحة نوع من الاستكانة وتغييب الفريضة الجهادية؟

كيف تتحدث عن الأخلاق والمروءة والحوار في عالم تلْهَجُ الدول المسيطرة فيه بحقوق الإنسان لكنها تخرقها؟ كيف الحوار واليهود يعيثون في أرضنا ودمائنا فساداً؟ كيف الحوار في عالم موازين القُوى فيه هي الحاكمة: موازين عسكرية اقتصادية تمويلية لا غير؟ لا غيرَ من هذه الأخلاقيات الرخوة التي لا تؤمن بها المكيافيلية فلسفةُ الديمقراطيات. هل نستطيع بأخلاقيتنا ومروءتنا، وهما من الدين لا ريبَ، أن نتعامل مع هذا العالم؟ أيةُ أخلاقية يمكن أن نعتمد عليها في مجالات المعاملات الاقتصادية والاجتماعية والدبلوماسية في عالم مادي صرف، مع جاهليين في الخارج ومغربين في الداخل؟

أية مروءة يمكن أن نستلهمها من النبوءة والوحي لنتصرف بها في عصر الصناعة المتطورة والفضاء والذرة والإلكترون؟

إنَّ بدءَ العافية ومَبْنَى القوة أن أعرف ما مرضِي فأعالجَهُ، وما عاهة الغرب فأضعَها في حسابي. إنَّ الخروج مِنْ دوامة إشكاليات الغرب وجدلية «درء الفتنة

بالفتنة» أن أعرف ما موضوع الحوار، وما عند الآخر من اقتراح، وما عندي من رسالة أنا مأمور بتبليغها للعالمين.

موضوع الحوار مع الـمُغَرَّب الممتنع ومع الجاهلي المسيطر هو: هل تقوم في دار الإسلام دولة القرآن الموحدة الحرة أم دويلات ديمقراطية قومية وطنية، أم يدوم الحكم السلطاني النفطي رفيق الغرب وخادمه؟

والمتحاورون مرضَى. وبدءُ عافيتي أن أعرف المرض لأجلس للحوار وأنا في أطوار العافية.

عَاهة مُطلقة فيهم، داءٌ عَياء، مرض عُضال. ذلك أنهم فقدوا القدرة على التعجب في خَلْق السماوات والأرض وفي خلق أنفسهم. لا يسأل عقلهم المتأله من رفع وخفض ونظم ووقَّت وصور وبرأ. وأخرَى، وهي الثانية من خلال الجاهلية بعد الجهل بالله وباليوم الآخر، هي العنف. وثالثة هي تبرج الجاهلية. ورابعة هي حكم الجاهلية، إنما يحكمون بهوى الإنسان الذي أصبح منذ «عصر الأنوار» مركز الوجود في خيالهم المسدود.

وخامسة بَرأوا منها أو كادوا: التظالُم بينهم، وضعوا له حدا، ونظموه بالقانونية الديمقراطية، يتحداني المغرَّبُ بها ويحاسبني الجاهلي المسيطر على حقوق الإنسان وهي مضمونها، ويدعوني إلى الحوار حولها الوطني الغيورُ لينظرَ ما معي من الاستعداد.

برأوا هم أو كادوا من مرض التظالم، وأنا الأمةُ المأزومة المهزومة لا أزال أعاني من موروث العض وطارئ الجبر. أنا الأمة المأزومة المهزومة، أنا منها وهي مني، لا أملَ لي في الشفاء من عُضال الأمراض، وهي عندي فيضٌ لا غيضٌ، ما دامت «أم الفتن» تنخَر في كياني لا أدري بم أعالجها. بالديمقراطية اللبرالية وقد جَرَّبْتُ ففشِلْتُ، أم بالاشتراكية الثورية القومية وقد جربت فكان الفشلُ أفظع؟

هم عمالقة العقلانية، نَسُوا الله فأنساهم أنفسَهم وفتح عليهم أبواب كل شيء. وأنا الأمة المهزومة المأزومة، منها أنا وإليها لا خارجا عنها ولا فوقها ولا مستثْنىً

من علتها، مُشارٌ إليَّ موعودٌ بِحمل الرسالة، لكن عاجز عنها قاعد، مطعون الكرامة، كليلُ الفكر، صفرٌ في التكنولوجيا والعلوم، صفرٌ في القوة، صفرٌ في التنظيم.

عن الديمقراطية نتحاور حِوارَ مَرْضَى. الديمقراطية حصيلة نضال الإنسانية، أخرجتهم من العبودية للعباد لا ينقادون لهوَى الحاكم. وتلك مزيَّة لهم عليَّ محققة، أنا الذي لا أزال أرزح تحت «دين الانقياد». الديمقراطية هدفُها شطرُ ما به ابتعثنا الله تعالى: أن نخرج الناس من العبودية للعباد. وها هم قد خرجوا بالديمقراطية وبقيتُ أنا مَوْهوقاً. والشطر الثاني لا يعرفون له معنى، الشطر الثاني مما ابتعثنا الله تعالى به هو أن ندخِلَ الناس للعبودية لله وحده لا شريك له. فهم في ديمقراطيتهم عبيد الهوى.

إن الحكم العاض قطع أوصالي، وصيَّرنِي بعد مروره من مدرسة الغرب وتبنيه للشكليات العصرية مواطنا مشدودا إلى «الوحدة الترابية». الدستور الشكلي يقول في فصله السادس: الإسلام دين الدولة. ويقول في فصله السابع: شعار الدولة: الله، الوطن، الملك. ثالوث. أفي الإسلام أنا أم في الشرك؟ الديمقراطية على الأقل واضحة، ولا تقول كما يقول الدستور السلطاني: كلمة الملك وتوجيهه قانون لا يناقش.

أيُّ «بركان غضب» يذيب من حولي الأغلال؟ أم أية أخلاق ومروءة ومرونة تستنقذني من براثين عدُوِّي الأول، وتشفيني من علتي العظمى؟

أعْطَوْني ورقة جنسية ومواطنة اسمية، فأنا مواطنٌ رعيةٌ، لا حق لي إلا في الطاعة العمياء والتصفيق للقائد الملهم. والديمقراطية إن أوصلني إليها بركان الغضب أو أوصلها إليَّ النداء العالمي لحقوق الإنسان تعطيني وتأسو جراح كرامتي المطعونة.

إن في الغرب المطويَّ على عاهة الكفر من أخذ يتماثل للشفاء من العلل المروئية ويدعو إلى الدفاع عن القيم الإنسانية. وما يدعوني للحوار مع المروءة هو وجود هذه المروءة بالفعل. هي موجودة في بلاد الجاهلية وفي بلاد المسلمين.

تتمثل في شعار حقوق الإنسان وفي ما أصبح يُعرف بالجمعيات غير الحكومية. حروف ج غ ح علَمٌ على شيء موجود حي، علَم على ضمير الغرب يستيقظ. إن كانت الحكومات لا تعرف إلا المصلحة والماكيافيلية في التعامل الدولي، فإن «ج غ ح» يرعاها أشخاص يستقذرون السياسة والساسة، ويخدُمون بالفعل قضايا الإنسانية. من الجهل والمرض أن نُخفي هذا على أنفسنا، أو أن يشتبهُ علينا عمل «ج غ ح» بأشغال الرهبان المنصِّرين.

نداء حقوق الإنسان يصْدَعُ أسماع العالم، ومنظماتُ مثلُ «منظمة العفو الدولي» أو «أطباء بلا حدود» تجد لها صدىً في ديارنا بين ذوي المروآت. فمع مثل هؤلاء حوارُنا.

ويَجد نداء الأخلاق وحقوق الإنسان صدىً يتعاظم حتى في بلاد ما كان الاتحادَ السوفياتي. خاطب الزعيم جرباتشوف يوم 6 يناير 1989 شخصيات علمية ثقافية فقال: «إن جمعية الإحسان إلى الضعفاء أسِّست منذ أقل من عام. لكن كانت لنا قبل ذلك إمكانيَّة الاقتناع بأننا مشتاقون للتعاطف، وأننا ملَلْنا العيش في جو عقيم يسوده عدم الاكتراث والقسوةُ والأنانيةُ والكبرياءُ. اجتمعتْ طوائف من الناس لهم رغبة في تأسيس جمعيات إحسانية في كل المدن الكبرى في الاتحاد السوفياتي. لا نتحدث إلا قليلا عن هذه المبادرات، ولا نريد أن نقول عنها الكثير لأنها حركة فاضلة جدا ولا تحب الإشهار.

قال: «ليست هذه المبادرات اندفاعا أخلاقيا محضا، لكنها ظاهرة اجتماعية مهمة جدا في زماننا وفي مجتمعنا المعاصر الذي يحتاج إلى قدْر كبير من لطافة الأخلاق. ونقصنا في مجال الإحسان يكشف عن هذه الحاجة. لقد تراكم كثير من الشر والظلم، وإن حالة الصراع الدائم العام في كل شيء ومن أجل كل شيء، هذا الصراع في كل الاتجاهات وعلى كل المستويات، يعرض أخلاق الناس للتلف».

ألاَ فاعجبوا للماركسيين المأزومين المنهزمين يتحدثون عن الإحسان والأخلاق والشر والظلم! ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة. إنك أنت الوهاب.

الفصل السادس

ميثاق «جماعة المسلمين»

- العنف أو التفاهم؟
- الدين والمروءة
- تحميل الرسالة

العنف أو التفاهم؟

فقه القطيعة الذي يقسم العالم إلى دار إسلام ودار حرب نشأ تحت ظل حكم السيف والتطاحن بين إمارات مستولية بعضها في صراع مع بعض، وبينها وبين عدو محيط صراعات:تارة هو مع «أحكام المسلمين وأمانهم»، وتارة هو مع الأمان دون الأحكام.

ونشأ في عصرنا فقه التكفير والهجرة في سجون عبد الناصر من محنة الإخوان المسلمين واجتهاد بعض الدعاة الذين تشددوا في استعلائهم على الجاهلية ومفاصلتهم معها على مدى النكبة، حتى توج الاستشهادُ الاجتهادَ فقلد اللاحقون السابقين، ولم يروا في العالم إلا جاهلية وإسلاما بينهما خط فاصل واضح. لم يروا شيئا من ظلال الفتنة واشتباك الجاهلية بالإسلام وارتباكِه بها.

فقه القطيعة هذا يخيم على العقل الإسلاميّ، وينبغي أن نَتَحرّر من هذا الفقه التاريخي لنؤَسس على قواعد التبليغ النبوي ونحمل للناس الدعوة في أسواقهم ومنتدياتهم وقبائلهم وبواديهم وحواضرهم كما كان يفعل محمد صلى الله عليه وسلم.

فقهنا عندئذ يقسم العالم إلى أمة استجابة هم المسلمون اليوم، وإلى أمة دعوة هم سائر الناس والأجناس. المسلمون اليوم فيهم الفتنة ناشِبة، والكافرون اليوم لعل منهم أشدَّ الناس عِداء «**لهذا الشأن حتى يقَعَ فيه**». بيننا وبين هؤلاء المروءة والرجاء أن يهدي الله ربنا بنا رجلا واحدا أو امرأة.

هل معنى هذا أن نغيِّب أكثرَ مما هي غائبة فريضة الجهاد؟ لا، وإنما معناه أن الذي أمرنا بالجهاد أمرنا قبله بإعداد القوة إعداداً طويلا، علمنا بالمِثال والمقال أن الجهاد أصناف أولها الدعوة والتبليغ والحكمة والموعظة الحسنة ومجادلة الناس بالتي هي أحسن.

حوار بين فريقين من المرضى، بيننا وبين الفضلاء المثقفين. نستمع إليهم لنعرف ماذا يريدون ولماذا؟ كيف ينظرون إلى الإسلاميين ومم يخشون؟

يخشون من عنف الإسلاميين، ويرون العنف السياسي «إحدى الظواهر المرضية للحياة السياسية العربية، لأننا نرى أنها تهدد بتفجير المجتمع العربي، الأمر الذي يؤثر في مستقبل الأمة العربية تأثيرا سلبيا». هكذا كتب أحد الفضلاء، ونحن نوافقه، وهذا أول الحوار.

ويعتبر الفاضل المثقف محمد سعيد أبو عامود أن الجيش والإسلاميين هما مصدر الخطر والعنف في الحياة السياسية العربية. ويكتب: «القوة الوحيدة المؤهلة للقيام بهذا الدور [الوصول للحكم عن طريق العنف] هي جماعات الإسلام السياسي. وذلك بحكم توافر عناصر القوة اللازمة للقيام بهذا الدور لديها في الواقع المعاصر. ويثور التساؤل عما يمكن أن يحدث في حالة تحقق هذا، هل سيتراجع وينتهي العنف السياسي في المجتمع العربي أم سيتصاعد؟ التجربة الإيرانية تؤكد تصاعد العنف مع وصول آيات الله إلى السلطة. والتجربة السودانية تقدم نموذجًا يُؤَكد هذا، وإن كانت أقل عنفا من التجربة الإيرانية. ومِن ثَم فوصول قُوى الإسلام إلى السلطة من شأنه أن يؤدي إلى تصاعد العنف السياسي في المجتمع. تؤكد هذا الأطروحاتُ الفكرية لهذه الجماعات، وسلوكُها السياسي تجاه من يختلفون معها في الرأي»(1). انتهى كلامه.

ويعترف الفضلاء المثقفون بافتقار حاملي الفكر المغرب إلى الشعبية التي يتمتع بها الإسلاميون، كما يُبدون خشيتهم أن تفوتَ الفرصةُ العربَ القوميين والإسلاميين، فلا يستطيعون دعم الديمقراطية القومية بالشعبية الإسلامية، ولا تتويج الشعبية الإسلامية بالديمقراطية القومية. فهم يَمُدُّون إلينا بدعوة لتكوين جبهة ديمقراطية لا يُخفون المقصودَ منها. المقصودُ منها المعلَنُ أن يركبوا الموجة الإسلامية. لا أقل ولا أكثر. مقصودٌ معلَن لمن يقرأ الكلام الإديولوجي

(1) مجلة «المستقبل العربي» عدد 140 بتاريخ 10 / 1990.

الأكاديمي بين السطور. والتعبير بركوب الموجة منا، ولعله جفوة ونحن في بداية الحوار، لكنه وضوح ضروري.

يكتب الفاضل المثقف المدبر وحيد عبد المجيد في نفس المجلة: «وهنا يبرز السؤال المهم: هل يوجد تنظيم سياسي أو نقابي في أحد الأقطار العربية يمكن له القيام بهذا الدور؟ [تحويل الحركة الشعبية إلى حركة اجتماعية واسعة تمثل المسألةُ الديمقراطيَّةُ محورَها الأساسيّ].

ويسرع فيجيب الفاضل: «الإجابة السريعة هي بالنفي رغم ما يقوم به التيار القومي العربي منذ بداية الثمانينات من جهد مكثف في مجال الدعوة الديمقراطية. لكن لا يزال هذا التيار بعيدا عن التغلغل في المجتمع كغيره من التيارات. باستثناء التيار الإسلامي في بعض الأقطار. ولذلك فإن هذا التيار هو الوحيد الآن في الوطن العربي، إذ أنه يمتلك مقومات تشكيل حركة اجتماعية واسعة بالنظر إلى تغلغله في المجتمع وقدرته على الوصول إلى الناس في كل مكان».

قال: «ومن ثَم يمكن له أن يكونَ نواة لجبهة ديمقراطية. لكنَّ مشكلة هذا التيار [أقول: بل مشكلتكم] أنه لا يتبنى الدعوة الديمقراطية بمفهومها الحديث العالمي، وإنْ كانت قطاعات، داخلَة، لم تعُد بعيدة عن هذا المفهوم كما يتضح من مناقشات ندوة «الحوار القومي الديني» التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية عام 1989».

قال: «لكن هذه القطاعات لا تزال هامشية وغيرَ مؤثرة في التوجه العام للتيار الإسلامي. وهو توجه بعيد عن الديمقراطية إن لم يكن معادياً لها في بعض الحالات. ولذلك فالواضح أن كثيرا من ممارسات هذا التيار لا يزال عائقا أمام إقامة جبهة ديمقراطية ذات ثقل».

قال: «الجبهة مع هذا التيار لا يمكن أن تكون ديمقراطية، والجبهة من دونه لا يُتَصَوَّرُ أن تكون شعبية. ولِذا فإحدى القضايا الرئيسية التي ينبغي بحثها جديا هي قضية موقف التيار الإسلامي في الوطن العربي من المسألة الديمقراطية،

وكيفية التأثير في هذا الموقف بشكل يتيح ظروفا أفضل للسعي إلى بناء حركة اجتماعية من أجل الديمقراطية». [1] انتهى كلامه.

قضية عند الفضلاء رئيسية أن يعرفوا موقف الإسلاميين من الديمقراطية. وقضية عملية أن يتخذوا من الإسلاميين «نواة» شعبية من الفَعَلَة في صف جَبهة يقودونها هم إلى غاية «الديمقراطية العالمية»، يقدرون هم بما معهم من فضل المعرفة بالفكر الغربي أن يقودوا الجبهة إلى تشكيل حركة اجتماعية واسعة لها ثقل.

وقضيتنا نحن مصيرية. نحن نطلب الإسلام لا الديمقراطية. ليكن هذا واضحا. وما في الديمقراطية من دروس في تنظيم الخلاف وترتيب تعددية الآراء في نظام تعددية الأحزاب إلى سائر ما تمخضت عنه تجارب أوربا من دراية في هذا المجال شيء لا ننكره ولا نرفضهُ. الديمقراطية في بعض أهدافها شطر مما بُعثنا به. بُعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى. فإذا كانت الديمقراطية تضع حدا للتسلط على العباد فنحن، هَبَّةً واحدةً، مع كل ذي دين ومروءة لنقول نعم. لكنَّ الشطر الإيجابي، ما يأتي بعد سَلْب التسلط ونقض بنيانه، أمر لا تفي به الديمقراطية ولا تعرفه.

قضيتنا نحن قضية مصيرية يرتبط فيها خلاص الأمة من محنتها التاريخية بخلاص الإنسان من جهل من خلقه وجهل ما هو صائر إليه من الشأن العظيم شأن الآخرة. فإذا دعوتمونا –معشَرَ الفضلاء المثقفين– لجبهة ديمقراطية نكون فيها النواة الشعبية الـمَسوقة فنحن ندعوكم إلى مراجعة أصولكم الثقافية ذات النزعة التوفيقية المرتبكة في معضلة الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

تحاولون لف الإسلاميين الشعبيين، وهم القوة «الوحيدة» بشهادتكم، في مشروع أسئلتُه من هناك وأجوبته ملفقة مما أعطته العالمية الديمقراطية ومما تطمحون إليه من تسييرنا في قافلة اللحاق بذلك الركب السائر في التيه. ومتى كنا

(1) عدد 138 بتاريخ 8 / 1990.

بجنبكم، نواة شعبية مُوَجَّهة، فقد اكتملت لكم بالقوة العضلية الإسلامية مقومات الحركة السياسية التي تخرجكم من عزلتكم وتعيدكم من منفاكم!

مشروعنا أيها الأعزاء أن تدخلوا الميدانَ على شرطنا. من المتوَقَّعِ في ظروف هذا القطر أو ذاك، وفي مرحلة من مراحل نمو الحركة الإسلامية، أنْ نسيرَ معكم شوطا بشروطكم التعددية الديمقراطية. لكنَّ هدفَنا هو أن نصارح، نحن وأنتم، الشعب بما ننوي وتنوُون، وأن نخرجه من «دين الانقياد» الذي عاش عليه قرونا، وأن نوقظه من وَسَنِ «الذهنية الرعوية» التي طبعتها عليه تقاليد الاستسلام و«البعد عما لا يعني»، لكي يفهم ويختار ويشارك ويفعل. لا يكونُ مفعولا. لا يكون رهينة بيننا وبينكم. وأين أنتم عافاكم الله من أن يستمع إليكم الشعب وأنتم في أبراجكم العاجية تمضغون الكلام الإديولوجي؟

ندعوكم أن تدخلوا معنا الميدان على شرطنا وهو شرط الإسلام. هذه هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم، حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدين كله لله. حتى لا يزورَ هاجس العنف ربوعَنا. والعنف باسط جناحيه في أفق الفشل الذريع الذي جره على الأمة تنازعكم ما بين لبراليين يمينيين وقوميين يساريين اشتراكيين وحدويين. ولا نحب العنف ولا نقول به. ونعوذ بالله العلي العظيم من خصلة العنف وهي ملمح من ملامح الجاهلية، ولازمة من لوازمها، ومعنى من معانيها.

لكيلا تكونَ فتنة ويكونَ الدين كله لله ندعوكم إلى ميثاق نطرحُه على الأمة للنقاش الواسع، تقبله الأمة أو ترفضُه، تدخلون فيه أنتم معنا أو نترككم أحرارا في انقساماتكم. هذا الميثاق يقترح على الأمة أن يكونَ لها، أن يكونَ منها، قاعدة سياسية متعددة التنظيمات الحزبية والنقابية والمهنية إلخ. قاعدة تسمى «جماعة المسلمين» تكون لنا فيها رابطتنا الإسلامية تضم تنظيمات الإسلاميين في جبهة إسلامية، وتكون لكم فيها وبمقتضى ميثاقها وبالتزامكم ببُنوده أحزابُكم وتنظيماتكم. وربما تدْعونا الضرورةُ وتدعوكم يوما لتشكيل حكومة «وِفاق وطني» نعمل فيه نحن وأنتم جنبا إلى جنب، ونحمل معا عبء الحِمل الثقيل الموروث مما أفسده السلطان العاض

والجبري ومما أفسدتم. نعمل نحن وأنتم ونحمل ونصلح على بساط المروءة وفي ظل الميثاق.

أو تختارون عدم الدخول في ميثاق «جماعة المسلمين». وذلك إليكم، لا تُضارُّون فيه ولا تخشوْن منا عنفاً. شرطنا الوحيد أن تعلنوا رفضكم لذلك الميثاق، وأن تنتقدوه ليعرف الشعب، وليهلِكَ من هلك عن بينه ويحيى من حيي عن بينة. وإن الله لسميع عليم.

الدين والمروءة

لا نريد أن نشك ولا أن نشكك في مروءة الفضلاء المثقفين، وبعض الظنّ إثم. كيف ومنهم مناضلون شجعان في صف المدافعين عن حقوق الإنسان! لكننا نرتاب عندما نرى صلة بعضهم بالمارقين الملحدين، ونرفض أن نكون لهم قاعدة لجبهة تسير بالمسلمين في درب التيه. لاَ تُضَارُّون معاشرَ النظراء في المروءة، ولا تخشوا من عنف الإسلاميين، فعنف البدايات شِرَّة طفولةٍ تكبُر، ووعكة صِبىً تَمُرُّ، وعَرامةُ شباب طافح. يكفيكم عنفا اليأسُ في عزلتكم عن الشعب، عَلَّ اليأسَ السياسيّ يوقظ فيكم ما نوّمَتْهُ الشمولية الثقافية التي احتلت منكم النخاع.

إننا أيها الفضلاء نَمُدُّ إليكم الجسور بالنية المبيتة أن تعبروا إلينا، وأن تركبوا سفينة نوح وتسيروا في قافلة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم.

إشكاليتكم وهمُّكُم: كيف تتكون تحتكُم حركة اجتماعية شعبية واسعة تحمِل الديمقراطية؟ همُّنا وسؤالنا نحن الركبُ الغادي الرائحُ مع النبيئين والمرسلين: كيف نلقى الله ربَّنا وهو عنا راضٍ، وكيف تحمل الأمة رسالة الله، كيف نُحَمِّلُها نحنُ؟ سؤالنا: كيف يقتحم العبد العقبة إلى الله عز وجل، وكيف نشَكِّلُ قوةً اقتحامية مجاهدة لنُحشر مع المجاهدين؟

نتفق معكم على أن لا خلاص للأمة إلا بإشراك قاعدة عريضة في الزحف. ونفترق في أنكم لا تَعدو أبصارُكم القوميةَ العربيَّةَ بينما نحن لا نستطيع، ولا ندري، ولا يجوز في شرعنا، أن نفكر فيما دون أمة الاستجابة، وبصرُنا بعدُ يخْرِق الآمال إلى أمة الدعوة. نفترق معكم في أنكم تريدونها ديمقراطيَّةً وثورة، ونريدها نحن قومة وجهادا وشورى. فلنجلس معا أمام المسلمين ليبين كلٌّ ما معنى الجهاد والشورى والدين عنده.

أنتم تركزون على نوعيَّة النظام، فوقع اختياركم على النظام الديمقراطي. فنقول: في هذا حوار ممكن معكم. لكننا لنا دين نظامُه في الحكم يسمى خلافة وشورى. ونرَكز على نوعيَّة الرجال الذين يُكَوِّنون القاعدة العريضة، ويَحْملون الدعوة، ويقومون بأمانة الخلافة وأعباء الشورى.

ما ترسمونه «حركة اجتماعية شعبية واسعة» وترجونه هو بالفعل موجود، هو الأمة الإسلامية، سَدَى كينونتها الدينُ ولحمتُها المروءة. والنَّسيج أصابه مع القرون وهْن. والوَلاية التي كانت رابطته أصابها انحلال. لكن العلاج بيدنا نَعْتُه، ومعرفتنا بمواطن الداء نِصف العلاج.

نتفق معكم على أن كل حديث عن التغيير هَذَرٌ بدون قاعدة يتفق عليها السواد الأعظم، وينهض لإخراجها من حَيِّزِ الأمل إلى حيِّز التطبيق. لكن نختلف في أنكم تُنيطون مهمتكم التاريخية بمروآت تسمى الوطنية والديمقراطية والسياق، ونحن ننيطها بمؤمنين ومؤمنات تابوا إلى الله توبة نصوحا فتأهلوا لحمل القرآن. من جملة مؤهلاتهم وضرورياتها المروءة. مروءة يطبعها الدين بطابع القَبول عند الله الملك الديانِ.

ولكيلا تحسبوا أننا في هذا الزمان نطلب الحوار ونَنصِبُ الجُسور منْ موقع الاضطرار لنجدَ بأي ثمن أعوانا لنا ونحن على وشْك أن نُدْخِل يدنا في العجين، نقرأ معكم مواصفات الرجولة التي نطمَح أن يُنبتها الله الملك الوهاب لتحمِل الرسالة، ونقرأ معكم شروط الوضوح، وعزة التميُّز، في كلمات لرجلين من رجال الجهاد في عصرنا. مطمحُنا مطمحُهم، وشروطُنا شرطهم، لأنه مطمح الإيمان وشرط الإحسان. مطمحنا وشرطنا الدين الوثيق والمروءة العالية.

كتب الأستاذ أبو الأعلى المودودي رحمه الله في كتاب «نظرية الإسلام وهديُه» ما يلي: «وبالجملة، فإن كُلَّ من أُعِدَّ لإدارة الدولة اللاَّدينية، ورُبّيَ تربية خلقية وفكرية ملائمة لطبيعتها، لا يصلح لشيء من أمر الدولة الإسلامية. فإنها [أي الدولة الإسلامية] تتطلب وتقتضي أن يكونَ كلُّ أجزاء حياتها الاجتماعية،

وجميعُ مقومات بِنيتها الإدارية من الرعية والمنْتخبين والنواب والموظفين والقضاة والحكام وقواد العساكر والوزراء والسفراء ونُظّار مختلِفِ الدوائر والمصالح، من الطراز الخاص والمنهاج الفذ المبتكر».

قال رحمه الله: «وهي [أي الدولة الإسلامية] تتطلب بسَجِيَّتِها رجالا يَخشَوْنَ الله ويخافونَ حسابه، ويُؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا. والنفعُ والضررُ الخُلُقيّان عندهم أثقلُ في الميزان وأرجحُ كِفَّةً من النفع العاجل والضررِ اللاحقِ في الحياة العاجلة. وهم يُمسكون في كل حال بما وضع الله من دستور وبما سن لهم من منهاج للعمل للأبد».

قلت: هذه عبارة أمْسكُوها أيضا أيها الفضلاء، ولعل صياغَتَها تناسب مداركَكم. أمسكوا أن دستَورية القرآن الكريم وأبدية شرع الله العزيز الحميد هما الركيزة والقاعدة. وأن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المنهاج لا منهاج لنا غيره. وعلى قاعدةِ دستورية القرآن وأبدية الشرع المقدس ومنهاجية السنة وحُرمة الإجماع لنا المجالُ الواسع للاجتهاد كي نُسَلِّمَ العصر لا لكي نطور الإسلام. من سجن إشكاليتكم المستوردة الدائرة في الحلقة المفرغة والجدلية العقيمة بين التطور والجمود، والنهضة والقعود، والحداثة والأصالة، نناديكم لتخرجوا إلى فضاء الإيمان بالله وباليوم الآخر. وستجدون أن في كتاب الله وسنة رسوله وفقه شرعه وما أصله السلف الصالح من قواعد وما تتأهل له الرجولة الناشئة-أنبتها الله نباتا حسنا- مجالاً لترتيب حياة الإنسان هنا الترتيب البديع مع نيل رضى الله عز وجل هناك في يوم لا ريب فيه.

قال المودودي رحمه الله يصف رجال الدولة الإسلامية: «وهم يسعَوْنَ دائما وراء ابتغاء مرضاة الله، ولم يتخذوا من أغراضهم القومية والشخصية والشهوات سلطاناً على أنفسهم. وطهروا أنفسهم من ضِيقِ النظر والتعصب الأعمى. ولا تأخذهم نشْوة الكبرياء إذا آتاهم الله نصيبا من الملك والسلطان. ولا يَمُدّون أعينهم إلى زهرة الحياة الدنيا. وليسوا جوعى إلى الثروة والجاه. وإذا امتلكوا خزائن الأرض كانوا أمناء بَرَرة. وإذا أُلقيَتْ إليهم مقاليد الأمر حرَّموا النوم على

أنفسهم، وقضَوْا الليالي ساهرين حُراسا لتكون الرعية في مَأمن على أنفسها وأموالها وأعراضها».

هذه كلمة المودودي رحمه الله تركها شهادةً لمن يأتون بعده وقد استخلفهم الله رب العزة في الأرض. وترك سيد قطب رحمه الله في كتاب «معالم في الطريق» شهادته في شرط الوضوح والتميُّزِ. تجاذبته رحمه الله داعيةُ التميز تارة فركز على «المفاصلة»، وعادت به رأفة الدعوة فمدَّ الجسور. وكتاباته بين تَقْصِيَةٍ لجاهلية شدت الخناق على الرقاب، وبين فرحة شامخة بالهداية للصراط المستقيم. قالها مدوية ورحل إلى رحمة الله ورضاه. نرجو ذلك له ولنا.

قال رحمه الله: «لن نتدسَّسَ إليهم بالإسلام تدسسا. ولن نُرَبِّتَ على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة. سنكون صرحاءَ معهم غاية الصراحة: هذه الجاهلية التي أنتم فيها نَجَسٌ، والله يريد أن يطهركم. هذه الأوضاع التي أنتم فيها خَبَثٌ، والله يريد أن يُطيِّبكم. هذه الحياة التي تَحيَوْنها دُونٌ، والله يريد أن يرفعكم. هذا الذي أنتم فيه شِقوة وبُؤس ونكَد، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويُسعدكم [...].

قال رحمه الله: «هكذا ينبغي أن نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام، لأن هذه هي الحقيقة. ولأن هذه هي الصورةُ التي خاطب الإسلامُ الناس بها أول مرة [...].

قال رحمه الله: «نظر إليهم مِنْ عَلٍ لأن هذه هي الحقيقة، وخاطبهم بلغة الحب والعطف لأنها حقيقة كذلك في طبيعته. وفاصلهم مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد لأن هذه هي طريقتُه. ولم يقل لهم أبدا إنه لن يمَسَّ حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم وقيَمهم إلا بتعديلات طفيفة! أو أنه يُشْبِهُ نُظُمَهم وأوضاعهم التي ألفوها، كما يقول بعضُنا اليومَ للناس وهو يقدم إليهم الإسلام. مرة تحت عنوان «ديمقراطية الإسلام»، ومرة تحت عنوان «اشتراكية الإسلام»، ومرة بأن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والقانونية القائمة في عالَمهم لا تحتاج من الإسلام إلا لتعديلات طفيفة!!! إلى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات».

قلت: هنا وصل بنا سيد قطب رحمه الله إلى بيت القصيد، وهو الذي عرف الثقافة الجاهلية حق المعرفة، فلما نور الله قلبه بالإسلام أبصر قتامة ظلمة الجاهلية فحذر من «التدسس الناعم» الذي لم يكن إلا تنازلا لفظيا من قلم الأستاذ مصطفى السباعي رحمه الله حين كتب عن «الاشتراكية الإسلامية». وهو تحذير بالغ الأهمية في زماننا الذي يتكلم فيه الرائح والغادي، والمبتَلُّ والصادي، عن الشورى ليقدمها نوعا من الديمقراطية، أو هي هي مع لَمَسات خفيفة.

قال سيد رحمه الله: «كلا! إن الأمر مختلف جدا، والانتقالَ من هذه الجاهلية التي تعُم وجه الأرض إلى الإسلام نُقلةٌ واسعة بعيدة. وصورة الحياة الإسلامية مغايرة تماما لصور الحياة الجاهلية قديما وحديثا. وهذه الشِّقوة التي تعانيها البشرية لن يرفعها تغييراتٌ طفيفة في جزئيات النظم والأوضاع، ولن يُنجي البشرَ منها إلا تلك النُّقْلَةُ الواسعة البعيدة».

قلت: رحمك الله! لقد كان لك من ركن سجنك فسحة لتنظر واسعا وبعيدا إلى آفاق تغيير شامل عميق. وما يفعل الجندي الذي أوقفه القَدَر على ثغرة الفتح، والعامل الذي وضع في يده القدر الآلة، والصانع الذي مدَّ القدرُ يده إلى العجين إن لم يرفع بصره ويخْفضه ليبصر الواسع البعيد تارة كما أبصرتَ، وليعود إلى مشاكل الساعة وعجين الوقت، وإلى الآلةِ في معاناتها!

ما يفعل هذا الموقوف على المهمة الحالَّة إن لم يُحاوِرْ ويلتمس معابِرَ للتواصل!

قال رحمه الله: «ولا بد أن نُرِيَ الجاهليّةَ حقيقة الدرَكِ الذي هي فيه بالقياس إلى الآفاق العليا المشرقة للحياة الإسلامية التي نريدها.

قال رحمه الله: «ولن يكون هذا بأن نُجاريَ الجاهلية في بعض الخطوات، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الآن وننزويَ عنها وننعزل. كلا! إنما هي المخالطة مع التميُّز، والأخذُ والعطاء مع الترفع، والصدع بالحق في مَودة، والاستعلاء بالإيمان في تواضع، والامتلاء بعد هذا كلِّه بالحقيقة الواقعة: وهي أننا نعيش في

وسط جاهلية، وأننا أَهْدَى طريقا من هذه الجاهلية، وأنها نُقْلَةٌ بعيدة واسعة هذه النقلة من الجاهلية إلى الإسلام.

قال رحمه الله: «وأنها هوة فاصلة لا يُقام فوقَها معبر للالتقاء في منتصَف الطريق، ولكن ليَنتقل عليه أهل الجاهلية إلى الإسلام، سواءً كانوا ممن يعيشون فيما يُسمى الوطن الإسلامي ويزعمون أنهم مسلمون، أو كانوا يعيشون في غير «الوطن الإسلامي»».

قلت: رحمك الله من مفاصل مواصل. وإننا إذ نمُدُّ الجسور لا نتَّهِمُ من يزعم أنه مسلم في دينه ما دام «حلف الفضول» بيننا وبينه، ويُوَفِّي المروءةَ حقها ويمشي مع المستورين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وربك الغفور ذو الرحمة. لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

تحميل الرسالة

ما دام بيننا وبين من يزعم أنه مسلم ممن يتصدى للأمر العام ميثاق «جماعة المسلمين» يدخل فيه أو يرفضه على ملإ من الناس فلا نتهم أحدا في دينه ما لم يُبْدِ لنا صفحة وجهه. أمامنا يومئذ أنظمة في موقع اليأس ونُخَبٌ متطلعة إلى الديمقراطية لكنها معزولة عن الشعب تُعاني كمَدَها. فيكفيها ذلك عُنْفا على نفسها. حاولَتْ وستحاول استِنبات الديمقراطية في أرض الإسلام، لكنَّ أرض الإسلام لا تنبت إلا زرُوع الإسلام. فمتى أبصرت أن الزروع الإسلامية أينعت واستغلظت واستوت على سُوقِها فسيكون لها معنا شأن غيرُ مواقف الرِّيبة والخِيفَة والاتهام بأننا ظلاميون.

الديمقراطية في بلاد المسلمين قضيةُ نُخَبٍ معزولةٍ تَبْحث عن قاعدة شعبية. ونحن نبحث عن الوسائل لإيقاظ أمة فيها الاستعداد الكامل الراقد لحمل الرسالة، فيها القدرة الكامنَة على تحمل المسؤولية، لا تثق بقيادة غير قيادة نابعة منها، نامية في أحضانها، ماسكة بأعزِّ ما في كيانها وهو دينها.

هذه ثلاث خصال إن حققنا فاعليتها وركَّبْنَا طاقاتها وصلنا إلى ما هو ممتنِع مُعْجِزٌ على النخب المثقفة الغريبة قلبا ولسانا عن الجماهير الشعبية. ووصلنا إلى إشراك الجماهير في حمل الرسالة الإسلامية، ومن فروض الحمل خوض المعارك السياسية معنا. ثلاث خصال: قابلية التلقي، وتحمل المسؤولية، والثقة في القيادة. دونَ هذا خرْطُ القَتادِ، لكن بغير هذا يكون الحديث عن التغيير ضربا من الثرثرة وصَفيراً وهذَرا.

النخب المثقفة ممتلئة بقضايا مصيرية هي: التنمية، والتحديث، والتطور، والتحرر من التبعية الاقتصادية، وتحقيق العدل الاجتماعي. هي ممتلئة بتغيير يُصَوِّرنا على شكل النموذج المتفوق في نظرهم، ويلحقنا بركبه.

ومعنا نحن الإسلاميين اهتمام بالقضايا المصيرية لاذع. هُمْ يرَوْنها من زاوية الديمقراطية، لا حَلَّ عندهم إلا الديمقراطيةُ، ولا مفتاح ولا مدخل. ونحن نراها من زاوية الإسلام، لا حل لها ولا مفتاح ولا مدخل إلا شورى الإسلام وعدل الإسلام ومشاركة الأمة في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في عمل الصالحات.

إنه لا مُنْفَلَتَ عن الاستبداد التقليدي، ولا عن المتاهات والتجارب الفاشلة التي سلكها المغربون تحت قيادة الأنظمة التقليدية أو باستقلالهم تحت زعامة الأبطال القوميين، إلاّ إذا كان الشعب قادرا على التعبير عن إرادته، مُعَبّأً ليدافع عن اختياراته. وتلك حقوق وواجبات لا تحصل إلا بطول كفاح، لا تسقط على الشعوب من السماء. ولا تنوب الطلائع المناضلة في ذلك عن مجهود السواد الأعظم.

وقد راقب المغربون كيف يستجيب الشعب لنداء المسجد، وكيف تستعجم عليه لغة المثقفين المغربنين. لذلك فهم يتساءلون لِيُرَبِّكوا الرأي الشعبي: هل الشورى والعدل بديل للديمقراطية أو إضافة إليها أو نسخة منها أو تحسين لنماذجها أو علاج لأمراضها. ونجيب نحن بأن العدل والشورى هو دين الأمة الذي تحترمه، وأمل الأمة الذي يَبْرُق في خيالها، ووعدُ الله ورسولِهِ الذي تُصَدِّقه. فإن كان في تصديق الأمة للأمل، وفهمِها للدين، وثقتها بالوعد، فتور فهو ناتج عن تقصيرنا في التبليغ، وعن الحصار المضروب على الحركة الإسلامية التي يراها أعداء الإسلام وأصدقاؤه ومراقبوه «القوة الوحيدة» ذات المصداقية التاريخية فيما مضى وفيما هو آت.

فهل تحقق الشورى والعدل نفس الأهداف التي ترمي إليها الديمقراطية؟هل يمكن أن نتلاقى مع ذوي المروآت الديمقراطيين على جسر التعامل والتعاون؟ هل لديهم استعداد لِيَخْطُوا إلينا خطواتٍ بغير اقتراح الجبهة التي نكون نحن لهم بمقتضاها القاعدةَ الطاقيَّةَ المحرِّكَةَ ويكونون هم العقلَ المدبِّرَ والإرادة الموجِّهَةَ؟

إذا كانت الصيغ المستوردة فشِلت في بلاد المسلمين وعقُمَت وعجزت فلأنها جهلت وتجاهلت نفسية المسلمين وتعلقهم بدينهم، وافتقرت افتقارا مُدْقعا إلى الفهم، وأسرفت في تقليد الغير المنافي طبعا وفكرا ووِجهة لطبع الأمة وفكرها ووِجهتها.

ولعلنا نكون مثل أولئك افتقارا وجهلا وإسرافا إن لم نستمع لما عند الديمقراطية من مقال، وما تطرحهُ علينا من سؤال. على النية المضمرة المعلنة اللازمة دينا ومروءة أن يكون الجواب من عند ذاتيتنا، من صميم ديننا، لا من ترسانة الفكر المستورد. علينا أن ننظر بعين التمييز إلى ما تقترحه الديمقراطية في مجالات التّمانُع من الظلم، وتنظيم الخلاف، وتعدد الآراء، وآليات الحكم.

تقترح الديمقراطية تعددية الأحزاب، وحرية معارضة تكون ضدا ورقيبا وناقدا وبديلا مستعدا للحكم القائم. وتقترح أن يكون للشعب الحرية في اختيار حكامه على أساس «صوت واحد للشخص الواحد». وتقترح شعار «حكم الشعب بالشعب لصالح الشعب». وتقترح تمثيلا نيابيا ومؤسسات تتعاقب عليها القوى السياسية الراضي عنها الشعب. وتقترح حرية التعبير والصحافة المستقلة ودولة القانون وفصل السُّلَط واحترام حقوق الإنسان. أهداف نبيلة هاتوها للنقاش على ملإ بين يدي صياغة ميثاق «جماعة المسلمين».

فنقول نحن: إن خلاصة ما تقترحه الديمقراطية يرجع إلى عمل مسؤول محاسَبٍ عليه، وإلى تمثيلٍ صحيح لرأي الشعب واختياره، وإلى إقامة مؤسساتٍ قاعدتُها حرية التعبير والمعارضة. فهل نحتاج لتحقيق هذه الأهداف، وهي بيننا وبينكم مشتركة، أن نتنَصَّل من ديننا وأن نجعل اللاييكية شرطا؟

إن كل ما تقترحه الديمقراطية هباءٌ في هواء إن لم يحمل الشعب الرسالة ليَنتقل العمل من سؤال: «ما يمكن؟» إلى جواب: «ما يجب أن نَفْعَلَ». من سؤال: «مَنْ

يفعل؟» إلى جواب: «أنا لها!». وتلك تَلْبِيَةٌ لا نسمعها ولن نسمعها من الشعب إلا إذا خاطبْنا فطرته، وناشدنا مسؤوليته، وحزنا ثقته. فهي إذن الشورى والعدل، لا الديمقراطية.

نكون نحن الإسلاميين الفَرَس الغريبَ في الميدان إن لم ننتقِل بثقة وعزم من مرحلة النظر إلى الأفق الواسع والنقلة البعيدة لننخرط في الواقع. والواقع تعددية قائمة، أو تعددية في رأس قائمة المطالب المُلِحَّة على الأنظمة المأزومة. وسيُقَدِّمُ لنا انخراطنا في التعددية خدماتٍ جليلةً كما سيشكل علينا خَطرا. خِدمتُه أن نخرج من هامشية الشعارات العامة المبهمة لنقدم تصورا واضحا وبرنامجا قابلا للتطبيق، ونحتك بالواقع لنتعلم بالتجربة والخطإ والصواب. إيجابية انخراطنا في التعددية والممارسة أن نتميز عن الموقف المعارض غير المسؤول الذي يطبُخُ شعاراتِ السخط.

والخطر هو أن نجاري الأحزاب فتزحلقنا خارج الحدود الشرعية. الخطر أن تذوب الدعوة في الدولة، وأن يتسرب مشروع الهداية والتغيير العميق في رمال السياسة الآنية.

لِذلك، ولِنَعْمَلَ على المكشوف والوضوح، نجعل بيننا وبين التعددية ميثاقا. يفرض الميثاقَ ضرورةُ الحال، لا نستغني عنه ولو تسلمنا مقاليد الحكم على النموذج الإيراني. وإنَّ البديل لتعددية مقبولة مسؤولة هو أن نتحول جلادين. والبديلُ لميثاق يُعْرَضُ على الأمة ويناقش طويلا هو البقاء في الغموض والإبهام والنزاع في الظلام.

يمكن لبنود ميثاق «جماعة المسلمين» أن تصاغ على النحو الآتي. وقد حذوت في بعضها حذْوَ مقترحات مؤتمرٍ لعلماء باكستان منذ زُهاء أربعين سنة حين كانوا في بدايات مساورتهم ومحاورتهم للحكم.

1. أساس الحكم وسنده العبودية لله وحده لا شريك له، والمسؤوليةُ بمعيار الشرع.

2. كل القوانين الصادرة عن الدولة لا وزنَ لها إن خالفت الكتاب والسنة. ويحدَّدُ برنامج عمل للتدرج إلى إلغاء ما كان نافذا من القوانين الموروثة المخالفة للشرع.

3. على الدولة أن تقيم المعروف وتزيل المنكر في كل مرافق الحياة بميزان الشرع.

4. عليها أن ترفع شعائر الدين ليسود الدين في التعليم والإعلام والأمن وكُلِّ ما أمر الله به ورسوله من قضايا المجتمع.

5. عليها أن تبني الحكومة على قواعد العدل والشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

6. عليها أن تسعى لوحدة المسلمين في الأرض خَطَوَاتٍ تدريجيةً جادةً لهدم الحواجز التجزيئية.

7. يتمتع أهل البلاد بجميع الحقوق التي يخولها لهم الإسلام من حفظ الدين والنفس والمال والعرض والعقل. وحرية العبادة مضمونة لمن بقي على دينه لا لمن ارتد عن الإسلام. والحرية الشخصية مضمونة، وحرية إبداء الرأي، وحرية التنقل، وحرية المبادرة للكسب، مع مراقبة الدولة لكيلا يكون المال دُولةً بين الأغنياء، ولكي يُنْصَفَ العامل ويسير الاقتصاد في اتجاه قسمة عادلة للأرزاق. وللجميع المساواة في فرص الترقي والاستفادة من المؤسسات العمومية.

8. لا يُسلبُ أحد حقا من هذه الحقوق إلا إذا كان له مَساغٌ من الشريعة الإسلامية.

9. تحافظ الدولة على ما تُبْرِمُهُ من عهود ومواثيق دولية، وتفاوض لإعادة النظر في العهود السابقة وتعديلها لرفع ما بها من حَيْفٍ أو مخالفة للشريعة.

10. لا يعاقَب أحد بتهمة حتى يُسْمَحَ له بالدفاع عن نفسه ويحاكم ويُدانَ. والتعذيب والإهانة جريمة يسأل عنها ويعاقب أمام القضاء كل موظف تجاوز حدوده.

11. رئيس الدولة لا يكون إلا الجامعَ بين القوة والأمانة، بين الدين والمروءة، وكذلك وزراء الحكومة وكبار الدولة.

12. على علماء الدين الأتقياء الذين يخشون الله ويتوبون إليه مع التائبين مسؤولية خاصة: أن ينشدوا باتحادهم على الحق وبجمع كلمة الصادقين من المؤمنين والمؤمنات إقامة الدين وقيامه بسيادة الدعوة على الدولة. تطَهُّراً وإنابة إلى الله من أنظمة العض والجبر التي كان فيها سيف السلطان وجبروته متسلطا على القرآن وأهل القرآن.

13. تبدأ المسيرة بوضع دستور موافق لروح الإسلام وشرعه، تضعه جمعية منتخبة انتخاباً حرا. يعيد بناء هياكل الحكم على أساس سيادة الدعوة وتفرُّغ رجال الدولة لتسيير الشؤون العامة وتدبيرها.

14. من البنود الرئيسية في الدستور تساوي الرئيس والمرؤوس-ابتداء من رئيس الدولة- أمام القضاء، ووحدة القانون، وفصل السلط، وإقامة العدل، والتناوب على السلطة، وحرية النشر إلا في ترويج الإلحاد والدعارة.

هذا نحوٌ مما يمكن أن يتضمنه ميثاق «جماعة المسلمين»-تنقصه الصياغة القانونية والتدقيق-، ننزل به للساحة متى قدرنا لتنطلِقَ كل مكونات الأمة وخلاياها الحية في منافسة شريفة آمنة داخل سياج الإسلام. ولمن شاء أن يَشْرُدَ ويشُذَّ كاملُ الحرية. والله بما تعملون عليم.

الفصل السابع

الشورى والعدل

- «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»
- سياق «وأمرهم شورى بينهم»
- عزمة «وشاورهم في الأمر»

«وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بالعدل»

ما الذي يمنعنا معاشر المسلمين من النظر إلى الجاهلية كفاحا، وجها لوجه، ونصارِحَ أنفسنا بما هو واقع؟ الذي يجعلُنا نحكم على الجاهلية حكما مُعَمِّما واحداً لا تمييز فيه بأنَها ظلام في ظلام هو مرارة الهزيمة التاريخية، والنِّقمةُ المشروعة على ما فعلته وما لا تزال تفعله فينا الجاهلية الغربية، فإن غفلنا لحظة عما تفعله فالخنجر المغروز في ضلوعنا يذكرنا. الخنجر دولة اليهود. ثم يمنعنا من الاعتراف بما عند الجاهليين من مزايا اعتقادُ بعضنا أنه إن اعترف للكافر بمزية فقد ركَنَ إلى الكافر، ويُخشى أن تمسَّهُ النار.

المغرَّبونَ الـمُعْجَبُونَ بالغرب على الطرف الآخر لا يرون في الغرب وحضارته إلا كل مزية. نظر الشيخ محمد عبدُه الذي مرَّ من ديار الكفر زمنا لا يكفي للتعمق في معرفة الجاهلية كما عرفها سيد قطب رحمهما الله النظرة النقيض لنظرة سيد قطب. عبده يقول: وجدت في أوربا إسلاماً بلا مسلمين، ويقول قطب: الجاهلية رُكام وظلام. والنظرة المصارحة للنفس هي أن هناك مستويين اثنين يطلبان حكمين اثنين: الجاهلية بما هي كفر واستكبار في الأرض ركام وظلام، يأتون يوم القيامة وقد حبطت أعمالهم فهم خاسرون. لكن أعمالهم هذه الخاسرة في ميزان الإيمان لها الوزن الثقيل في ميزان الدنيا، ميزان القوة والمدافعة والإنجازات والسببية.

كان الصحابي عمرو بن العاص لا تَغُصُّ حلقَهُ مرارةُ الهزيمة لأنه كان منتصرا، ولا تُحَرِّفُ حكمَه النقْمَةُ لأنه لم يكن معذَّبا في الأرض، ولا يشك في الحقائق الواقعية يعترف بها للخليقة لأنه كان واثقا من إيمانه بالله الخالق ومن وحدة الخليقة، بعين يرى الناس مؤمنين وكافرين، وبعين أُخرى يراهم جميعا خلقا واحداً لإله واحد، فيحكم الحكم الصائبَ في النظرتين، لا تزاحم إحداهما الأخرى ولا تشوش عليها.

روى الإمام مسلم رحمه الله أن رجلا روى في مجلس عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**تقوم الساعة والروم أكثرُ الناس**». فقال عمرو: «لئن قلتَ ذلك إنّ فيهم لَخِصالا أرْبعـًا: إنهم لَأَحْلَمُ الناس عند فتنة، وأسرعُهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوْشكُهم كَرَّةً بعد فَرَّةٍ، وخيرُهم لمسكين ويتيم وضعيف. وخامسةٌ حسنةٌ جميلة: وأمنعُهم من ظلم الملوك».

عمرو بن العاص داهية العرب اعترف بمروآت الروم، منها «الحسنة الجميلة»: امتناعهم من الظلم وتمانعهم منه. وهذه هي المزية الأولى للديمقراطية. في بلاد «الروم» فرنسا استمر النضال البرجوازي مائة سنة قبل أن تستقر الديمقراطية. وفي بلاد «الروم» الإنجليز استمر النضال قرونا حتى استقر نظام الحكم على «أقل الأنظمة شرا» كما كان يقول زعيمهم تشرشل.

مزية سلبية هي التمانع من الظلم، فهل للديمقراطية مزايا إيجابية يمكن للمسلمين أن يَتَخَلَّوْا لحظة عن النظرة بعين واحدة ليعترفوا بها، وعن نقمتهم المشروعة ليتعلموا مما أمَدّ الله تعالى به الخليقة الكافرة من عطائه؟ ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ**﴾[1].

إي نعم! من الديمقراطية يمكن أن نتعلم تنظيم الخلاف وصبه في تعددية حزبية مسؤولة متعاقبة على الحكم، تعددية مراقِبٍ بعضُها لبعض، معارضةٍ معبِّئَةٍ للجهود. كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرءا أهدى إليّ عيوبي. ومَنْ يُهدي إليك عيوبَكَ أحسنَ من منافس دائم لا شأن له إلا نقدُك بالحق وبالباطل. يرجع إليه نقده الباطل في جوٍّ حرية التعبير إن هو جازف. تعدديةٌ معبِّئة للجهود في قنوات منتظمة محكومة بدَلَ الفوضى والعنف. هذه حكمة لو لم تخترعها الديمقراطية لَلَزم أن يخترعها المسلمون استفادة من ماضي الخلاف والعنف، ولنا منه الحظ الوافر.

(1) سورة الإسراء، الآية 20.

يمكن أن نتعلم من الديمقراطية بلا غُصَّةٍ آليات تنظيم الانتخاب والحكومة، وفصل السلط، وتوزيع النفوذ، وترتيب أجهزة الحكم والإدارة. يمكن أن نتعلم خاصة مفهوم «المؤسساتية»: يذهب الأشخاص وتبقى المؤسسة يحكمها القانون.

لكنَّ الذي ينبغي أن نتعلمه سلْباً من الديمقراطية هو أن الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد، فهم استنبطوا كل هذه الحصافَة والتقنية لتخدُمَ الهوَى والأنانية ومصلحة الدنيا، غافلين عن الآخرة. فالديمقراطية بهذا الاعتبار رُكام وظلام.

للحكم في ديننا غاية، وللشورى وهي مَبْنَى الحكم الإسلامي غاية: الغاية طاعة الله عز وجل في أمره كلِّه، خاصةً في إقامة العدل بين الناس. فمنه عز وجل نتلقى الأمر، ولغايةٍ رسمها لنا نحكُم، ولتصويب الحكم نتشاور. فما نتعلمه من الديمقراطية لتنظيم شورانا على نسق يضاهي العصر وتقلبات معايِشه حِكمةٌ. تعلُّمُنا عندئذ للوسائل التنظيمية مما أمد الله تعالى به الخليقة عمل صالح لصلاح الغاية ولمصدرية الأمر العَليِّ. حُكْمُنا عندئذ وشورانا عُمْلَةٌ رائجة في الدنيا والآخرة إن بَطَلَتْ عُمْلاَتُ الناس.

في هذا الفصل البارد من هذه السنة تتقاطر الصدقات من المواد الغذائية على الاتحاد السوفياتي المحتضر لتبرهن على فشل الشيوعية الذريع في إقامة العدل. بينما في بلاد الديمقراطية الرخاءُ والإنتاجُ والوفرةُ. فشلت الشيوعية فشلها المخجل في تغذية سكان بلد من أغنى بقاع الأرض تربة وإمكانيات. وبعد سبعين سنة من التجربة الرائدة تضع الشيوعية سلاح الإديولوجية لتتسكع على أبواب اللبرالية الناجحة.

فهل نجحت اللبرالية الاقتصادية، وهي أخت الديمقراطية ورديفتها، في إقامة العدل؟ هل انتهت الشيوعيةُ لسوء نيتِها أم لبلادتها وجهلها بطبيعة البشر؟ ما هو النقد العملي الذي يمكن للمسلمين، بحكم الشورى والعدل، أن يوجهوه للنظام الجاهلي الساقط والآخَرِ المزدهر؟ أسئلة جوهرية.

الديمقراطية اللبرالية السياسية لا تسير إلا ومعها اللبرالية الاقتصادية. وهذه مبنية كأختها على التنافس الحر. والناس كما فطرهم الله عز وجل متفاوتون في العقل والطبع والقدرات. فمهما تُرِكت المجاري حرة للتنافس بين متفاوِتين في أصل الخلقة فمَصبٌّ ذلك التنافس إلى التفاوت في الأرزاق والأكْساب تفاوُتا مُخِلاً. هناك في الأنظمة الديمقراطية النقابات الحرة تدافع عن الحقوق وتنزع من الرأسمالية اللبرالية بعض الحقوق. لكنَّ الرأسمالية بطبيعتها وبطبيعة الجشع والأنانية والجري إلى الربح كانت ولا تزال آلةً لصنع التفاوت بين الأغنياء والفقراء. تُكَوِّنُ النقاباتُ والجمعياتُ المصلحيةُ فيما يسمى بالمجتمع المدني الديمقراطي حاجزا مهما أمام طغيان الرأسمالية اللبرالية، وتُحرز بمطالبها وضغطها وإضرابها ومفاوضتها مكاسب من جيب الرأسمالية الجشعة لكنها لا تستطيع أن تغير من طبيعتها.

وتَمشي الأمور في بلاد اللبرالية، ينال العمالُ والعامة من فضول الرخاء العام، كلما ارتفعت أرباح الرأسمالية ارتفعت دخول العمال والعامة. فيخيَّلُ للمُعْجَب المُدَلَّهِ باللبرالية أنها أم العدالة. ولو قرأ تاريخ نشأتها وحاضر نهبها للعالم وماضِيَهُ لعرف أن الرخاء العام الذي تتمتع به أوربا وأمريكا والرأسمالية العالمية وينال عمالهم منه الفُتات إنما حصل على عرق أجيال من المحرومين ودمائهم وأموالهم. جدوى اللبرالية وإنتاجيتها وجهٌ ظاهر لعُملة وجهها الآخر هو تعميم الفقر على العالم غير المصنع.

هنا يأتي التحدي الكبير أن نحكم بين الناس، إذا حكمنا، بالعدل. دع القاضيَ يفهم الأمر الإلهي على أنه العدل بين المتقاضيين في النوازل الشخصية. فذلك أيضا من أهم أركان العدل. لكنَّ نازلة سوء قسمة الأرزاق بين العباد هي مَحَطُّ اهتمام الإسلاميين يوم يصبحون في الحكم.

يقول لسان حال المستضعفين، ويضج لسان مقالهم: هاتوا ما وعدتم به من عدل! طبقوا ما أمركم الله به إن حكمتم!

حاوَلَتْ الشيوعية أن تجيب مطالبَ الطبقة العاملة فما وصلت بعد سبعين سنة إلا إلى الإفلاس المخزي. ذلك أنها استبدلت بنظام الأنانية الفردية القيصريّة أنانية الطبقة المستبدة. ففقدت المزايا الغريزية للمبادرة الفردية التي تمَعَّشت في كنف النظام القيصري وحصدت ما زرعته دكتاتورية البرلتاريا من أوبئة العنف والمحسوبية والرشوة والكسل والتبذير وتدمير الأرض والموارد. وهكذا توزع البؤس على الناس. لم تنجح إلا في بناء سلاح مخيف مدمر. دمرها قبل غيرها.

وتزهو اللبرالية بإنجازاتها وتقول: هاكُم شيئا يمكن أن يقسم! هاكُم الإنتاج الوفير، الإنتاجية والتدبير! هاكم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان!

ويرث الإسلاميون غداة وصولهم إلى الحكم آلة تابعة للرأسمالية، أو جهازا مؤمما. والعيون شاخصة إلى عدل الإسلام عاطشة. ونداء الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان هاجس أمة تعسة بحكامها. بحكام أعرضوا عن دين الله فحصدتهم سنة الله.

فما نحن فاعلون؟ أنكسِرُ الآلة الموروثة فنوزع رأس المال الظالم التابع ونبقى عالَةً يوما أو يومين ثم يطردنا الشعب؟ أم ننحدر مع الميل الروتيني من تنازل إلى تنازل فيبقى ما كان على ما كان؟ أنتبنّى الديمقراطية بِعُجَرِها وبُجَرِها أم نستأنف استبدادا باسم الإسلام؟

إن تغيير الأوضاع يكلف تعبا ومجهودا دائبا، ويَلْقَى مقاومة من طرف المحتلين للمراتب، ومن طرف دهاقين الرأسمالية المحلية، يُسعفُهم بالضغط على إرادات التغيير شركاؤهم وحلفاؤهم المتحصنون في معاقل الرأسمالية العالمية.

وهنا تبرز حاجتنا الملتهبة لحكمة ثابتة ومَضاء سائر، وحاجتُنا لرجال محنكين عارفين بدخائل الاقتصاد العالمي، وقلوبُهم وعقولهم وخبرتهم مع المستضعفين.

مشروعنا لنقد اللبرالية السياسية والاقتصادية بشورى العدل هو تحقيق أكبر قدر ممكن من المساواة. مساواة فرص، وظروف، وتربية. مع دعم الضعفاء في

الحلَبة، قعد بهم العجز وتفاوت القدرات عن السبق في المنافسة. على الدولة الإسلامية أن تُغَلِّبَ جانب الإحسان وأن تُرَجِّحَ كِفّة العطاء للضعفاء على كِفة الإنصاف المحايد. عليها تحقيق ذلك دون كسر الآلة الموروثة ولا مفاجأتها.

إن الشورى مهما كانت منظمة وأصيلة لن تكون إلا حواراً بين مفلسين إن لَم يعالج المتشاورون قضية الرّخَاء مقرونة بقضية العدل. الشورى وافدة كريمة، علينا أن نهيِّئ لها النُّزْل الكريم. نبنيه وننظفه ونرتب مرافقه. والله يرزق من يشاء بغير حساب.

سياق «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم»

مطالبُ على نفس المستوى من الأهمية، بعضها شرط في تحصيل الأُخرى: الشورى والعدل والرخاء. يُكوِّن مجموعها مقومات الجهاد، ويُكَوِّنُ الجهاد وسيلة تحصيلها. جهاد جادٌّ متصل يبدأ من «الحسنة الجميلة» التي أعجبت عمرو بن العاص، قدَّرَها عند الروم واعترف بها: ألا وهي المنَعَةُ من ظلم الملوك. وعلى الطريق أسئلة مصيرية مثلُ سؤال: هل سينام المسلمون عن أصل البلاء كله وهو الحكم العاض الذي يضع يده في يد الجاهليين؟ مثل سؤال: هل سيبقى المسلمون عربا وعجما، سنة وشيعة، يجول بعضهم ويصول في بعض، ويلعن بعضهم بعضا، ويمتطي بعضهم إلى بعض حجة «فقه القطيعة» ليقاتله؟ ومثل سؤال: هل سنجد مسلكا مع القانون الدولي الذي زَرَعَ في أعز بقعة دولة اليهود لتحرُسَ النفط، بل لتقوم بنوبتها في حراسته جنبا إلى جنب مع حلفائها من هذه الكائنات النفطية أمراءِ العشائر؟

القوة الكفيلة بإنهاء هذا المسلسل المَشينِ المَهين هو الشعب المسلم الذي بدأ بعضُه يستيقظ لنداء الإسلام، ومُعظمه لا يزال سادرا في اللامبالاة، مفَكَّكا مَوْعوكا تخدِّرُهُ «الثقافة العالمية» الصائحة البائحة بلسان التلفزيون. حاملو الشورى، المرشحون لحملها، هم المستضعفون، مُفعمةٌ قلوبهم بالآمال، قصيرةٌ يدُهم فيما مضى وإلى حين عن نيل المَنال. لن تجمَعُهم وتصوغ منهم القاعدةَ الحيةَ للشورى إلا تَربيَة المسجد، تجمع الجهود المبعثرة، وتقرب الشُّقة بين المتفاوت، وتُكتّل وتُجَمِّعُ وتُجنِّسُ وتؤلف المتنافر المتناقض والمتباعد. من وراء المستضعفين الطبقَةُ الوسط المؤهلة بما لديها من معرفة محصَّلَةٍ وخبرة وإمكانيات، تجيءُ مع المستضعفين لتتجانس في بوتقة الإيمان. والموعدُ المسجدُ.

الإيمان الجامعُ والتمانُع من الظلم والمنعةُ من ظلم الطاغين. هذه مسيرة واحدة، في ضِمنها العدل والرخاء، في سياقها شروط الشورى ومواصفات أهلها. سياقٌ يعطي المعيارَ الخلُقيَّ الروحيَّ الـمُوَحِّدَ، إن انخرَم منه شرط كانت الشورى مجرد عارية، ومَحْض اسم على غير مُسَمّىً. سياق مجموعةُ كما جاء في القرآن الكريم يرفع الشورى إلى مستوىً آخرَ غيرِ مستوَى الديمقراطية، ويدُلّ على أنها من غير جنسِها.

كثيراً ما يستشهد الكاتبون والناطقون بقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾[1] يفردونها من سياقها، ويخرجونها من بين أخواتها، فلا يُعْرَفُ مَنْ «هم» ولا يُعرف الذي «بينهم» من علائق وروابط تقرّبُ الشقة وتؤلف وتجنس. من يقرأ ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ هكذا مُفرَدة مُخرَجَة يظن أن كل جَمْع من المسلمين تواضعوا على التشاوُر فقد دَخلوا في حِمَى العبارة القرآنية الكريمة بقطع النظر عن كل اعتبار في تكوينهم النفسي، وترابطهم أو تقاطعهم، واستقامتهم أو اعوجاجهم، وإقامتِهم للدين أو سكوتهم عن فرضه ونفله، وبذلِهم للنفس والمال جهادا أو شحِّهم وقعودِهم.

إنما تكون الشورى شورى لها حُرْمَة الاسم وحقيقةُ المعنى إن توفر في المتشاورين مجموع شروط بعضُها يكمل بعضا، ويؤسسه، ويُسنِده، ويسبقه، ويلتفت إليه. هذه الشروط أخلاقيات في الأفراد، وعقيدة، وسلوك عملي تتداخل لتعطي للوَلاَية بين المؤمنين التي فرضها الله عز وجل مضمون الأخوة الجامعة ومدلولها السياسيَّ ورباطها التكافليَّ وعِمادها العَدليَّ.

سياق هذه الشروط قوله عز وجل: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾[2].

---

(1) سورة الشورى، الآية 38.

(2) سورة الشورى، الآيات 36-39.

شروط أَوَّلُها الإيمان وآخرها الانتصار على البغي. شروط تسعة بارزة في المؤمنين من بين شعب الإيمان البضع والسبعين، ثمرتُها الانتصار على البغي، ومعقِد القوة فيها والحكمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾. فإذا أفردت الشورى من السياق وقطعتها فقد ابْتَسرتَ المسلسل فلا تحصل على نتيجة.

إن المجتمع المسلم ما بين عرب وعجم، وبيض وسود، وفقراء مُدقِعين وأمراء متخمين، وأميين ومثقفين لن يحملوا الشورى حق الحمل إلا إن تشكلت نواة من بينهم تجمعها روح الوَلاية وتُقَرِّب شُقتها شروط السياق الشوري. يبدأ الانسجام بالتخلق الإيماني المتطلع إلى تحقيق العدل، وينشأ من التطلع هدف مشترك يوحد جهود العاملين في كل قطر حتى تقوم الدولة الإسلامية القطرية على الشورى. وفي الأفق المرسوم وحدة الأمة، والعدلُ بين الجائع العاري في مجاهل أفريقيا وسبْخاتِ بنغلادش وبين الطاعمين الكاسين الـمُرَفَّهين في إمارات النفط. النفط تحدٍّ قدَريٌّ لشرط ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. النفط سؤال قدريٌّ ليبتلينا الله عز وجل في شرط ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾. النفط واليهود، والحكم العاض والجبري.

المسلمون في حكم الضرورة وواقع التاريخ أشتاتٌ وطبقات لا رابطة بينها في عهد يُمثلون فيه منظمة الرفض. لكن عندما يصلون إلى الحكم فسياق ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ يفرض الوحدة و«التسجيم». وما «جماعة المسلمين» القطرية وميثاق يُبْرَمُ بين الإسلاميين وغيرهم من الأحزاب والشخصيات إلا خطوة واحدة على طريق توحيد الأمة.

إن كانت الديمقراطية تجد مثواها ومنتهى راحتها في حدود الدولة القومية، فإن الشورى وسياقها القرآني يعد بما عند الله كل المؤمنين في الأرض، لا يعرف وعد الله حدودا تفصِل العربي عن العجمي، والشيعي عن السني، والأسود عن الأبيض، والقطر عن القطر. الصنم القطري لاتُ الديمقراطية وَعُزاها.

إن كانت تعددية الديمقراطية صراعا منظما تنظيما حضاريا فعدد جماعات المؤمنين في القطر الواحد وعبرَ الأقطار تنوُّعٌ في الاجتهاد لا يُخرِجُ عن دائرة

الوَلاية العامة والشورى الجامعة بسياقها. بل تسوقُ الوَلايَةُ والشورى الأشتات القطرية إلى الوحدة.

عَيْبانِ من عيوب الديمقراطية نقف عندهما. ولها عيوب غيرها لا شأن لنا بها إلا يوم ننجح في إقامة حكومة الشورى لتفضح باستقامتها ما به يُفتَنُ المغربون. ولن نكون أبدا ملائكةً معصومين، لكن تحزبات الديمقراطية وعصبياتها ومساوماتها على المصالح الشخصية وتبايُعُها السوقيُّ وتبادلها عيب كبير. وعيب ثان هو أن الديمقراطية تسمح بمناقشة قرار الأغلبية بعد انتهاء دور المناقشة، ويشكك الحزب المعارض في صواب رأي الأغلبية، ويسخَرُ، ويَحُط من قيمة الحكومة. فينعكس ذلك على الأغلبية وحكومتها ويفقدها الاحترام. ومن يتتبَّع المهاترات اللاذعة، بل الساقطة السوقية أحيانا، يعرِف أنها من لوازم الديمقراطية وتقاليدها.

في شورى المؤمنين ينبغي أن تكون عتبَةُ الأخلاق عالية، ومستوى التعامل في النقد والمعارضة رفيعا نزيها. ومتى تَم التصويت على قرار فقد انتهى حق الاعتراض، وقبُحَ التشكيك والتعقيب، ليتفرغ الجميع للعمل الإيجابي.

للديمقراطية عيوب أخرى مِثْلُ التفويض النيابي الذي يتلخص في وضع المواطن ورقته في صندوق الاقتراع، يفوض لمجهول بعيدٍ ما عرفَه إلا من خلال الدعاية الـمُزوَّقة، ومن خلال صناعة الصورة التي يتخصص فيها المتخصصون، ويتزين لها المرشحون أمام عدسات التلفزيون.

من عقائد الديمقراطية «الصوت الواحد للشخص الواحد». هذا المبدأ له مزاياه، وأول من يستفيد منه الإسلاميون لأن عامة الأمة وجمهورها من المستضعفين. لكنَّ ترْكَ «الأشخاص» لتأثير السوق الانتخابية وفيها السماسرة الحاذقون وفيها الكذب والرشوة تغريرٌ يجب على الـمَدَى المتوسط والبعيد أن نجد له حلا. لا بد من ذلك ليكون ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾. ليكون سياق الشورى أقرب ما يمكن للتطابق مع المثل الأعلى القرآني.

نَجد في تراثنا الفقهي مفهوما اجتهد في التمكين له الفقهاء في فترة ما بعد الانقضاض الأموي. هذا المفهوم هو «أهل الحل والعقد». وتُشَكِّلُ هذه العبارة التي لا سند لها من كتاب ولا سنة تسلُّطا مغناطيسيا على عقول المقلدين. تشكل استبدادا بخيال بعض الإسلاميين حتى يظنون أنَّ «أهل الحل والعقد» بَندٌ من بنود العقيدة وركيزة ثابتة من ركائز الإسلام. ولا بد لنا من الخروج من طائلة هذا المفهوم الغامض لكيلا نُحيلَ الشورى على مجهول له من جهالته وغموضه سلطة الأغوال الفاتكة.

لَوْ اعتمدنا على مقالة لفقيه كان يُسوِّي اجتهاده على حاجات وقته، ولَوْ زعمنا أن «أهل الحل والعقد» هم العلماء المعممون مثلا لساهمنا في وقف الشورى على طائفة دون طائفة، ولساعدنا على احتكار الحكم، ولخرجنا عن السياق القرآني الواضح، ولتطرفنا من الجهة الأخرى لإطلاق «الصوت الواحد للشخص الواحد».

أعطى الأستاذ حسن البنا رحمه الله لسلطة العبارة الفقهية الموروثة التفاتة عابرة ليخرج في الحين عن دائرة نفوذها حيث قال في رسالة «مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي» في معرض الحديث عن «أهل الحل والعقد»: «هم 1. الفقهاء المجتهدون الذين يُعتمد على أقوالهم في الفُتيا واستنباط الأحكام. 2. وأهل الخبرة في الشؤون العامة. 3. ومَن لهم قيادة أو رئاسة في الناس كزعماء البيوت والأسر وشيوخ القبائل ورؤساء المجموعات. فهؤلاء جميعا يصح أن تشملهم عبارة «أهل الحل والعقد».

ثم قال رحمه الله: «ولقد رتب النظام النيابي الحديث طريق الوصول إلى أهل الحل والعقد بما وضع الفقهاء الدستوريون من نُظُم الانتخاب وطرائقه المختلفة. والإسلام لا يأبى هذا التنظيم ما دام يؤدي إلى اختيار أهل الحل والعقد. وذلك ميسور إذا لوحظ في أي نظام من نُظم تحديد الانتخاب صفات أهل الحل والعقد، وعدم السماح لغيرهم بالتقدم للنيابة عن الأمة». انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: المطلوب والمعقول أن يكون الممثلون النائبون المنتخبون على مستوىً عالٍ وحِلْيَة حسنة جميلة من خصال «سياق الشورى»، لكنَّ المنتخبين أيضا من شرطهم الإيمان والانتصار على البغي. والله ولي المؤمنين. سبحانه لا إله إلا هو.

عزمة «وَشَاوِرْهُم فِي الأَمْرِ»

كيلا يتكون «ملأ» مستكبر، كيلا تتكون طبقة سياسية فوق الناس منفصلة مقطوعة، جاءنا من الله العلي القدير الأمرُ في سورة آل عمران والأُسوةُ والمثال في قوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾[1]. ورد ضمير «هم» أربع مرات هنا في آية واحدة، وست مرات في آيات سورة الشورى. فمن «هم» هؤلاء؟ من يُستشار في أمر المسلمين؟ من «هم» الذين عرفهم القرآن بنعوتهم وجرد منهم الفقهاءُ بعد زمان مفهوما غامضا يُسْحَبُ على كل مستشارين يسمِّيهم الفقيه الرسمي «أهل الحل والعقد»؟

روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما في ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ قال: نزلت في أبي بكر وعمر. وفي رواية عند غيره قال حَبْرُ الأمة: نزلت في أبي بكر وعمر، وكانا حَوارِيَّيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووَزيرَيْه وَأبَوَيْ المسلمين. قال أهل اللغة: الحواريون: الذين أُخلِصُوا ونُقُّوا من كل عيب. وكذلك كان الصديقان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، صفَّاهما الامتحان في مدرسة الشدائد المكية، وبَنَيا الإسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانا بجانبه في المواقف الجهادية الجليلة. برزا من الصَّفِّ باستحقاقهما لاَ بوصولية أو تزلُّف لمن بيده السلطة. بعبارة العصر: كانا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار «المؤسسين التاريخيين» للإسلام. لا جرَم يقول لهما النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «**لو اجتمعتما في مَشُورَة ما خالفتكما**». رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غُنم رضي الله عنه.

(1) سورة آل عمران، الآية 159.

اختلف الفقهاء هل الأمر في الآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ للإيجاب أو التخيير. وهل تجب الشورى على ولي الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تستحب؟ واختلفوا هل نتيجة الشورى مُلزمة أو مُعلمة؟ وهل يستشير في كل أمْرٍ أو في بعضه باختياره؟ هذه مواضيع الساعة وأسئلة الإسلاميين المُلِحَّةُ. وعلى اتجاه الجواب عنها يكون الحكم الإسلامي المبني على فقهِ ساداتنا المجتهدين القدماء رحمهم الله واختلافِهم إما استبدادا متلفِّعا باسم الشورى، أو سلطةً مقيدةً مشلولةً.

يتوقف فقه المسألة أولا على طبيعة العلاقات بين المستشير والمستشار. فبين الذين نزل فيهم القرآن ونزل عليهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تسود المحبة والثقة والوفاء. كانوا تجمعهم الصحبة ويجمعهم الإيمان. كانوا يجمعهم سياق ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾. فلم يكن مجالٌ للنزاع المُغرض بين المستشير والمستشار. ولم يكن مجالٌ للتزلف والكذب. ورغم أن المواقف الجهادية كانت صارمة حاسمة، ورغم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يصارحونه بآرائهم بشجاعة ولو اختلفوا مع اتجاهه.

فقد روى الإمام أحمد عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم استشار الناس في أُسارى بدر فقال: «**إن الله قد أمكنكم منهم**». فنطق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: «يا رسول الله! اضرب أعناقهم!» فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم عاد فقال: «**يأيها الناس! إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس**». فعاد عمر لرأيه في ضرب الأعناق مرة ثانية. فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم وكرر مَقالته في أنهم «**إخوانكم بالأمس**» فعاد عمر لمقالته. حتى أبدى أبو بكر رأيه في الفدية. قال الراوي: «فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان من الغم».

قبل أن نسأل عن وجوب الشورى في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ننظر إلى العبر والأسوة والتشريع الفِعلي في عمله وعمل أصحابه. كان له صلى الله عليه وسلم رأيُه قبل أن يستشير، عبَّرَ عنه بإعراضه عن اقتراح عمر وبتلقينه

مسلك الرحمة في قوله: «**إنما هم إخوانكم بالأمس**». وكان للصحابة رضي الله عنهم رأيهم عن اقتناع واجتهاد مستقل، لم يكونوا إمعات حتى مع أعز الناس وأكرم الناس وأقدس الناس.

هكذا تَوَسَّسُ الشورى في دولة الخلافة الثانية مُناطة برجال لهم سابقَتُهم في الدعوة، ولهم اقتناعُهم، ولهم رأيُهم المستقل. ولهم خاصَّةً العلاقة الحميمة مع الشعب، يحملون همه، ويسعون في مصلحته، يتطابق عندهم هَمُّ الشعب ومصلحته مع هم قضيتهم التي بذلوا فيها جهدهم ومع مصلحتهم. يسيطر هَمُّ آخرتهم على سلوكهم في الدنيا.

والمِعيار العُمَرِيُّ يشير إلى «الحواريين آباء الإسلام» في قوله رضي الله عنه: «المرء وسابقته في الإسلام، والمرءُ وغَناؤه في الإسلام، والمرءُ وحظه من الله».

ضمانات لسلامة الشورى ترجع أولَ ما ترجع لنوعية المستشير والمستشار، يجمعهم الإيمان، يجمعهم الجهاد، يجمعهم التوكل على الله عز وجل، يجمعهم اجتناب الإثم والفواحش. يجمعهم سياق ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ مكتملا متكاملةً خصاله.

ولئن نزل الأمر على المعصوم صلى الله عليه وسلم بالشورى فما ذاك إلا لكونها ركنا من أركان الحكم. أنزلها الله للتطبيق لا للتسلية. فهي واجبة على المسلمين، ومما لا يعنينا أن نُفَرِّعَ الخلاف في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لنعلم هل هي في حقه واجبة أو مستحبة.

وما كان للشورى أن تكون «مُعلمة» يجوز لولي الأمر أن يتبع أو يترك. فالذي جاءت به السنة من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل الخلفاء الراشدين أنهم كانوا يعملون بما قرت عليه آراء الأغلبية.

فالحاكم المسلم مقيد بالشورى، مقيد بالشريعة، مقيد بمسؤوليته الجنائية أمام القضاء، فهو أمامه كآحاد الناس. وينبغي أن يكون إلى جانب هذه القيود كابح

دستوري قانوني يضع مسطرةً لمحاكمة ولي الأمر وعزله إن أخل ببَند من بنود البيعة التي تُشَكِّلُ مَعْقِد القوة في نظام الحكم الإسلامي.

فإنه بعد ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ جاء ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾. الشورى مرحلة تهييئية للقرار. ينبغي أن يُتفاوَض فيه حتى يحصل الإجماع أو شبهه. بعدها يعزم الأمير، ويأمر، ويُطاع.

البيعة من خصائص الحكم الإسلامي. هي عقدٌ يُلْزِمُ ذمة الأمير والمأمور، ويحدد مسؤولية الجانبين، ويوضح اختصاصات الحاكم وواجبه، ويَحسم في مسألة أساسية من مسائل الحكم لا تزال الديمقراطية تتناولها بالتجربة والخطإ: هي مسألة القيادة. وللكلمة تاريخها في الديمقراطية، وجدَلٌ قائم حول مفهومها ومعاييرها. الديمقراطية تزداد اقتناعا بضرورة عنصر القوة في النظام الديمقراطي، ينشغل منظروها وممارسوها بالملاءمة بين أُفُقية النقاش البرلماني وعمودية القيادة صاحبة القرار. وقد انتهت الديمقراطية الإنجلوسكسونية في أمريكا إلى إقامة رئيس دولة قوي يجمع بين يديه سُلَط رئاسة الحكومة والقيادة العامة للجيش. وفي إنجلترا مثل ذلك. ونظام فرنسا منذ دوجول أخذ بنظام الرئاسة القوية. وفي إيطاليا لا تزال الديمقراطية البرلمانية تتخبط منذ بضع وأربعين سنة في عدم الاستقرار، بمعدل حكومة كل بضعة أشهر. ذلك لانتشار الأُفُقِيَّة البرلمانية وانبطاحها كجسم ليس له عمود فِقَري.

المسألة في الإسلام محسومة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾. رد القرار النهائي إلى ولي الأمر. عليه أن يستشير ويسيرَ مع الإجماع أو شبهه، وله أن يرجح باجتهاده إن تعذر الإجماع أو شبهه. المسألة محسومة في البيعة والطاعة بمقتضى قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[1]. نرجع إن شاء الله إلى مسألة من هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم في الفصل الأخير من هذا الباب.

(1) سورة النساء، الآية 59.

إن مشكل السلطة في الحكم الإسلامي يجب أن يُحَل بكيفية إيجابية. يجب أن يُعطى للبيعة والطاعة مكانُهما الشرعيُّ بين رخاوَة شورى مفتوحة وفوضى مسترسلة منتشرة وبين استبداد فردي متسلط. ما دام الحاكم مقيدا بالشريعة مقيدا بمسؤوليته الجنائية مقيدا بمسطرة المحاكمة والعزل فالمنزلق نحو الاستبداد قد وُضعت له الحواجز. وما دام أمر الله عز وجل بالبيعة والطاعة وحيا منزلا فالضمانة سماوية لكي يكتسب الحاكم عنصر القوة والمضاء الذي بدونه تُشَلُّ الحركة وتعجز الحكومة وتسترخي الأمور. ولكي تتنزّل على المبايِع والمبايَع الرحمة الخاصة بالمتوكلين على الله أهل ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾.

القضية قضية مسؤولية. فإذا كان الحاكم يعلم أنه مراقَب من كل الجهات، وأنه مسؤول أمام الشرع وأمام مسطرة توقفه عند حده، فإنه يمارس قيادته على بصيرة لا على تهور. يعلم أنه مستبدَل به بعد فترته، فهو يحسُب حساب الغد. يحسب قبل كل شيء حساب الآخرة.

من الإسلاميين من يتصور أنّ على الأمير أن يشاور ولا يتعدَّى الشورى «قيد أُنملة». معنى هذا الشللُ التامُّ العامَّ. ومنهم من يأنَف من مسألة الطاعة وكأنه يرى في كل حبل مفتول أفعى قاتلة لطول ما عانينا من الاستبداد.

إن كلمة «أمر» الواردة في الشورى والطاعة تتضمن مفتاحا لمسألة السلطة وتوزيعِها. تقول العرب: أمِرَ أمْرُ فلان، إذا عظُم واكتَسى أهمية. فعلى كل مستوىً من مستويات الحكومة مجالس متعددة للشورى في «الأمر» الذي يكتسي عندها أهمية. ما كل الأمور تُرْفَعُ إلى المستوى الأعلى حتى تلزَمَ الشورى في كل صغيرة وكبيرة لا نتعداها قَيد أنملة.

يجب أن يُطرح في الحكومة الإسلامية مشكل التعارض بين الحريات وبين فريضة الطاعة بوضوح. ومِنَ الدين والحكمة أن لا يُجبَرَ أحدٌ على البَيْعَةِ. لكلٍّ الحق في اختيار مَوْتَتِهِ ما دام يقرأ في الحديث أن من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية. لكن إمضاء قرار الحكومة الإسلامية يجب أن لا يتلعثم. ومن

حق الإسلام علينا أن نستفيد من قوة القيادة لا أن نُوهنها. من حق الجدْوَى في الحكم أن يكونَ البناء العَموديُّ -وهو قوة القيادة- عديلا لأفُقية الشورى. وإلا كان البناء مُنبطحا يهدد بالسقوط، مشلولا لا يتحرك.

الفرق بين الحكم الشخصي الاستبدادي وبين الحكم الإسلامي المشخص القوي أن ذاك لا قَيد عليه من أخلاق ولا من وازع ورادع، بينما هذا له حدوده والتزاماته وعقد بيعة هو مسؤول عن الوفاء به أمام الله والناس. الحكم الشخصي لا يهدده قيام الجمهور عليه ما دامت بيده آلة القمع، والحكم الإسلامي المشخص المحبوب له من الجمهور دعامة، ومن العزمة سند، ومن الشورى وزير، ومن الولاية بين المؤمنين متكأ، ومن رضى الله عز وجل وتوفيقه الركن الشديد. ولَينصُرَنّ الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز. لا إله إلا الله، محمد رسول الله، عليه صلاة الله وسلام الله.

الفصل الثامن

إقامة الدين أو إقامة الدولة؟

- وتسنح فرصة...
- ثُنائية الدعوة والدولة
- طاعة الله ورسوله وأولي الأمر
- إقامة الدين
- حضور

وتسنح فرصة...

تنسل الحركة الإسلامية في هذا القطر أو ذاك إلى الحكم انسلالا تدريجيا عن طريق انتخابات لم تجد الديمقراطيات الـمُوَلّـدَةُ بُدا من شق بعض فجاجها للإسلاميين، فتلك فرصة للتناوُب على الحكم. وينبري الإسلاميون حاملو شعار «البديل السياسي» ليدخلوا مع الناس في دوامة التناوب على الحكم صعودا وهبوطا، تناديهم أصوات انتخابية ملّت من عديلهم اللاييكي الدنيوي، لتلفظهم وتستبدِل بهم قوما آخرين بعد تجربة لن يألُوَ الناصبون والنصابون جهدا في إفشالها. وتلك فرصة سرابية ما كان لمتعطش فاضل أن ينتظر منها حَسْواً لظَمْأته أو غَرْفةً لِرَيِّ الشعوب المالَّةِ القاحِلِ ساحُها من عَدْلٍ ونماء وخير تعد به الديمقراطيات الـمُوَلَّدَة ولا تفي.

أوْ تُزلْزَلُ الأرض الاجتماعية الاقتصادية زلزالها بالأنظمة الفاسدة الجاثمة على الرقاب وينتظر المسلمون تغييرا جذريا يُحق الحق ويبسط العدل. وتلك فرصة تاريخية تضيعُ بين أصابع الإسلاميين إن هم ربَطوا في طموح الشعوب المسلمة ومِخيالها بين حكومة إسلامية لا مناص لها من مُصانعة واقع شديد المِراسِ وبين الدعوة الإسلامية التي تحيي القلوب وتنعش الإيمان وتعبّئ الأمة لجهاد إحيائي مستمر صامد في وجه التقلبات السياسية العالمية والمحلية. تَصرَعُ عويصات المشاكل الحكومة الطارئة ولو بعد حين، ويمَل الناس، وتَشْرئب أعناقهم إلى بديل. والمتربصون بالإسلام الدوائِرَ كُثْر.

البابُ مسدود إذا إلى أي تغيير يقيم العدل؟ إقامة الدين إذاً رهينة بالنجاح الاقتصادي للحكومة؟ إقامة الحكومة وتنصيب الدولة ما العمل لكيلا يصبحا هدفاً يُسابق إليهما الناجون من الزلزال بالقهر الجبري أو الكذب الانتخابي والتزوير والتلفيق؟

ما العمل لكيلا تنعكس الظروف التي يصل فيها الإسلاميون إلى الحكم على مسار الدعوة، ولكيلا تثبِّط الظروف الطارئة بعد الوصول عزائِم كانت معقد الآمال؟

ثُنائية الدعوة والدولة

منذ أكثر من رُبع قرن كنت أكتب عن الثنائية بين الدعوة والدولة ملتمسا صيغة للقاءٍ بين رجال الدعوة ورجال الدولة ليتصالح القرآن والسلطان. وذلك أمل هبَّت عليه عواصف من الرياح فأغرقته.

أقصد بالثنائية بين الدعوة والدولة وقوف أهل القرآن علماء الأمة بجانب مطالب العدل والاستقامة والخلق والدين عينا رقيبة مِنْ مكان عِز القرآن وسيادته على السلطان ليشتغل أهل السلطان الحكام مديرو دواليب الدولة بتسيير دواليب الدولة وإدارة مؤسساتها تحت مراقبة يمارسها الشعب وتنطق بها الدعوة وتراقب وتحاسب.

تُتيح الآليات الديمقراطية للبرلمانات أن تراقب المعارضة التناوبية الحكومة وتحاسبها وتستعد لتكون عنها بديلا. في الديمقراطية تشكل المعارضة جزءا لا يتجزّأ من ماهية آلة الحكم. فما ثم ثنائية، بل وحدة متكاملة. ووجود آليات مراقبة من هذا النوع ضروري لتقويم المعوَجِّ. لكن ما العمل ومرض الديمقراطيات الأصيلةِ نفسها هو انعدام الوازع الخلقي. فما بالك بالديمقراطيات الـمُوَلَّدَة المستوردة في بلاد المسلمين!

نبحث إذا عن ثنائية من خارج النسق الديمقراطي ذي الشِّقَّين من حكومة ومعارضة، ثنائية لا تضع الدعوة بمقتضى الحكم أصابعها بين أسنان الدولاب فتنجَرَّ، ولا تدخل حلبة الصراع على السلطة الحكومية فتتلَبَّس لبُوسَ السياسيين، ديدن السياسيين اقتناصُ الفرص السانحة لظهور حزب على أحزاب وبروز شخصيات على منصات الوزارات والوظائف العليا، إن لم تكن بكل بساطة فُرصا لنهب خيرات المسلمين والإفساد في الأرض.

حقيقة من حقائق الطباع البشرية يلتقي عليها عقلاء الناس وحكماؤهم مع الصالحين من هذه الأمة: يندِّد عقلاء الناس بالسلطة لأنها تُفسد المتصدين لها

القابضين عليها مهما كان مُنطلقهم سوِيّا، ويحذّر صالحو المسلمين من السلطة خشية أن تُدنِّسُ الطاهرين.

فالتماس ثنائية من خارج النسق الديمقراطي ذي الشِّقَّين يُجَنِّب العاملين في الدعوة مغريات إفساد السلطة وتدنيسها.

معروفة كلمة اللورد أكتون البريطاني: «السلطة تفسد، والسلطة المطلقة تفسد إفسادا مطلقا».

ومجهولة يجب أن نفقَه فقهها ونتخذَها مستمسكا لبحثنا عن ثنائية طاهرة مطهرة، هي سيرة الطيبيْن الصالحين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وإن سيرتهما لَسُنّة أمِرنا أن نستمسك بها.

أخرج أبو نعيم في «الحلية» وابن عساكر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له: يا خليفة رسول الله! ألا تستعمل أهل بدر؟ قال: إني أرى مكانهم، ولكني أكره أن أدنّسهم بالدنيا.

وأخرج ابن سعد أنه سُئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما لك لا تُولِّي الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال مقالة صاحبه الصديق: أكره أن أدنِّسهم بالعمل!

وأنت عافاك الله بين أن تُفتح لك الدنيا فاغِرَةً فاها لتلتهِمك من خلال العمل السياسي الـمُرهق الـمُشغِل فتَهْرُبَ منها بدينك كما فعل ويفعل الزهاد والناعسون، وبين أن تقتحم بالدعوة مهَاوِل «العمل» لِتُرَوِّض شراسته وتطهر دنسه. من خارج الدَّولاب وعلى ناصيته.

على ناصية الحكم موجهين مراقبين ومن ورائهم الشعب المسلم يسود رجال الدعوة، سلاحهم المعنوي ثقتهم بالله، وخشيتهم من الله، وثقة الشعب بهم، والتفافه من حولهم، يُسلس لهم القيادَ طوْعـًا وطاعة لله ورسوله بعد أن سكنوا أزمانا للسلطان الجائر القامع. يذهب الله بأنظمة الفساد، يزلزلهم زلزال، تُحيط بهم خطيئاتهم، وتدول معهم دولة الكذب والتزوير التاريخي ليعْلُوَ نجمُ الصادقين

أهل القرآن، ولتسطع شمسهم، ولتنشر رايتهم. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ﴾[2].

مع الصادقين سلاح صدقهم وطاعة الذين آمنوا الممنوحة دينا من الدين وثقةً تُختَبَرُ براهينها ويُتأكد منها. ومعهم قوة أولي القوة، وذراع أولي العزم من كل تائب لَمْ يخن أمانته قط، ولم يزور ولم يكذب على الأمة كذبة. إذ لا بد من تحالف بين أهل القرآن وأهل القُوى الجديدة التحررية المعتنقة حقائق دينها بعد خيبة الباطل وزوال ظله المقيت. لا بد من ذراع قوية تضمن مسير القافلة لكيلا تنحرف بها بُنيّات الطريق، ولكيلا تُناوِشَها الذئاب فتأكُلَها.

ليكن واضحا جليا أننا لا نخطب وُدّ الأنظمة الفاسدة الكاذبة الخاطئة. وليكن واضحا أن خِطة بعض المترددين من فلول الحركة الإسلامية المتكسرين إلى مصالحة مع المزورين ليست خِطّتنا.

دعوتنا مُؤكّدة إلى ميثاق إسلامي يستظل بحقه كل التائبين من هذه الأحزاب مهما كان بالأمس اقترافها ما لم تكن رائدة الفسوق والعصيان والكذب على الله وعلى الناس.

(1) سورة التوبة، الآية 119.
(2) سورة النساء، الآية 59.

طاعة الله ورسوله وأولي الأمر

إسلامي هو هذا الميثاق؟ قرآني هو؟ صادق هو؟ صدقه أن يستمسك أطرافه بذمة الإيمان، ذمة الصادقين الذين يطيعون الله ورسوله وأولي الأمر منهم. في دولة الجبْر والكذب طالما فُسِّر للناس أنَّ ولاية الأمر تتمثل في الانضواء تحت ظل الحاكم حامل البهتان. وإسلامية الميثاق الذي ندعو إليه تتمثل في قرآنيتِه وصدقه. فسَّر بعض العلماء ممن مضوا قبلنا غفر الله لنا ولهم أن أولي الأمر هم الأمراء القائمون مهما كان انحرافهم. وقد بلغ الانحراف اليومَ مداهُ وغاصت أقدام الحائرين في وَحْل الباطل، اكتحلت بالباطل أعيُنهم، وفاهت به ألسنتهم، وولغت في دمائه جِراؤهم.

روى الإمام البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بَعث سَريّة (جيشا) وأمّر عليهم عبد الله بن حُذافة. فأوقد ابن حذافة الأميرُ نارا وعزم على الجيش ليَقتحِمُنَّها. ولم يفعلوا. فلما رجعوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا. إنما الطاعة في معروف**».

أيّة نار ما برح يدعو إليها أهل الجور؟ وما السبيل إلى الخروج منها وقد أُقحمت فيها الشعوب الإسلامية كَرها إن لم يكن تحرُّر من قبضة الجور كلية؟

بميثاق إسلامي، قرآني، صادق، مع الصادقين.

روى علِيٌّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أولي الأمر هم أهل الفقه في الدين. وبذلك قال مُجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العالية من علماء التابعين وصادقيهم أهل القرآن.

في آية الطاعة التي أوردناها ذكر للتنازع والتحاكم إلى الله ورسوله لفض النزاع: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[1].

(1) سورة النساء، الآية 59.

فهذه وظيفة رجال الدعوة العلماء بما أنزل الله على رسوله، الخاشعين لله، إليهم يتحاكم المسلمون، ولأمرهم يطيعون في محل النزاع. إليهم لا إلى غيرهم. إليهم إن كانوا سائرين مع القرآن لا تابعين خانعين مستسلمين للسلطان.

من هم علماء الدين وفقهاء الملة، ما سِمَتُهم؟ ما ضمان استقامتهم؟ علماء القصور وُعاظ السلاطين يُسخِّرون ذلاقة لسانهم لدعم الكذب والبهتان، يخشون الناس ولا يخشون الله، يطلبون المنزلة عندهم أوْ يُدارونَهم ابتداء حتى تنزلق الأقدام وتألف الرقابُ أغلالها. أما الصادقون فهم الذين وصفهم رب العزة سبحانه قائلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[1]. ويأتي الفقه في الدين والعلم بأحْكامه والتضلع من معارفه تغشاه سكينة الخشية من الله، وإلا كانت الشهادات والتحصيل وذلاقة اللسان حجة على بعض الناس الذين نصروا الباطل وخذلوا الحق.

(1) سورة فاطر، الآية 28.

إقامة الدين

تقتضي الثنائية الصحية بين أهل القرآن وأهل السلطان، وتقتضي وظيفة العلماء الذين يحتكم إليهم، وتقتضي واجبات الدعوة وأعباؤها وواجب تعليم الأمة دينها وعمارةَ المساجد أن يرتفع أهل الدعوة أهل القرآن عن مجالات النزال السياسي ومهاتراته ومكابداته ليتفرغوا لما هم له أهل، مُراقبين موجهين أهل الحكم المدرَّبين على شؤونه.

من مكان العزة يراقبون ويوجهون. إقامة الدين وتقويم المنحرفين عن الدين واجبهم الكلي. تضيع منهم الفرصة التاريخية، وتتسرب من بين أصابعهم إن هم عَمَدوا إلى ساحة النضال السياسي والنزال التناوُبيِّ على الحكم. الفرصة التاريخية غيرُ النُّهزة السياسية.

مؤسسة المسجد، ومنبر الوعظ، والجهر بكلمة الحق، والإشعاع الإيماني، ومغالبة أهوية الإعلام العالمي المخرب، والتصدي لأهوائه، والأمر بالمعروف بالكلمة مباشرة، وحمل الناس عليه بالذراع القوية الحليفة، والنهي عن المنكر، وزجر الناس عنه بقوة الحكومة الموالية. تلك مجالات رجال الدعوة. وتلك مواطن تأسيس، بل إعادة تأسيس، دولة القرآن. يتدنس أهل القرآن «بالعمل» السياسي المباشر، وتُخْلى مواطن البناء على القواعد إن ذهب بأهل الدعوة ريحُ مزاولة الحكم ومعاناته اليومية. ما خَشي مِن أذاه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على أكابر الصحابة وأهل بدر أولى أن يُخشى وَبالُه على من دونهم.

يتحدث الناس في زماننا بعدما أثخنت جِراحُ الاضطهاد رجال الدعوة من فعلات عبد الناصر العبد الخاسر بالإخوان المسلمين، فما فعل طاغوت تونس، فما زُجَّتْ فيه الجزائر من مجازر عن تقاسم السلطة بين الحركات الإسلامية والحاكمين الطغاة. قسمة ضِيزَى: نستودع «الظلاميين» رُكنا مظلما في الحكومة ليشتغلوا، ولنا اليد الطولى والكلمة الأولى!!!

قسمة ضيزى ومَهلَك ما يوازيه إلا مقالة حركيٍّ إسلامي نفض يده «مرحليا» من السياسة ليشتغل بما اشتغل به علماء المسلمين عبر العصور في زعمه.

ركن مظلم في سراديب الحكم، وزنزانة في أبّهته، وذيلية تابعة. لا نرضى بذلك أبدا. السيادة للقرآن، وعلماء المِلة الخاشعون لله هم أهل القرآن. لهم السيادة والكلمة الأولى. ولرجال الحكم تترك مظاهر الحكم وأُبهة البرتكول ومراتب الدولة ودواوين الإدارة لينصَرفوا إلى شغلهم. تحت النظر والمراقبة والتوجيه. والسيادة الفعلية والخلقية.

معا وبميثاق. وبدستور واضح يختارُ نواب الأمة عقدَه. ينتخبون لوضعه عقَيْب زلزال يهدُّ أركان أهل الباطل.

ليكن هذا واضحا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حضور

ليكن واضحا أننا لا نلتمس مهربا من ساحة المواجهة أو توازنا مقبولا من طرف القوى العالمية والمحلية المعادية للإسلام. كلا! ولسنا نرمي لترميم صدع الأنظمة المنهارة معنويا، المنتظرةِ ساعتها ليجرفها الطوفان جزاءً بما كسبت أيدي الناس. يَندَكُّ ما كان يظنه الغافلون عن الله الجاهلون بسنته في القرى الظالم أهلُها حصونا منيعة وقِلاعا حصينة، وتندثِر، وتغرَق. ولما بعد الطوفان، ولخواء ما بعد الطوفان، وخيبة ما بعد الطوفان نكتب.

تغيب الكآبة الـمَخْزِيَّة، ويبحث المسلمون في هذا القطر أو ذاك عن حضورٍ صادق، وصوتٍ يستحق التلبية، وذمة تليق أن تناط بها الثقة وتعقد عليها الآمال.

في جو الانفعالات والاضطراب يعلو صوت الدعوة، يحضر جاهراً بعد إسكات، وينكشِف وجهها سافرا بعد حجْب. . وتتبَنّى الدعوة قضايا الأمة الكبرى وتعبر عنها بثبات وصدق. وذلك حين يتحتم إشراك كل القوى في عملية قومة تقيم الدين، وتكون إقامة الدولة وصياغة دستور عادل، وتركيب حكومة جديدة، بعض شؤون إقامة الدين لا كل شؤونها.

وذلك حين يتحتم فرزُ وظيفة الدعوة -وهي شاملة عامة سيادية- عن وظيفة الدولة، وهي إدارية متخصصة في رعاية المصالح الدنيوية من تنمية وتسيير يومي مالي سياسي إداري. لا تدخل الدعوة في أجواء الرِّيبة السوقية إلى جانب ما يخلفه الطوفان من رُفاتٍ سياسي حزبي، ولا إلى جانب انتهازية تغامر بمستقبل المسلمين.

من المغامرة أن يَزعم زاعم أن مكوِّنا وحيدا من مكونات الشعب يستطيع مهما بلغ من قوة عَددية وعُدَدِية أن يحمل على كتفيه أوزار الماضي وكوارث الحاضر وآمال المستقبل. من المغامرة بالدعوة أن تنتصب الدعوة بصفتها دعوة طرفًا في

النزاع على السلطة الإدارية مهما كان حجمَ فصائل الدعوة وعَددِها وتماسكها. الدعوة فوق الحلَبَةِ أخلاقيا بما هي نابعة من أعماق الضمير المسلم. هي راسمة المصير التاريخي وراعية المسير التغييري، رافعة رؤوسَ المسلمين بالقدوة والسلطة المعنوية -والإلزامية السيادية أيضا- إلى النظر لآفاق العزة بعد ذلة، والمجتمع الأخوي بعد كراهية، والعُمْران التكافلي بعد خراب بيت الجبارين الناهبين خيرات المسلمين.

ما هي نُهزة تُغتَنَمُ بقطفِ أشواكِ الساعة، ولا هي نزهة للتشفي بين أطلال ما يخلفه الطوفان، ولا هي زيارةٌ عابرة لمواطن الحكم ومعاقل السلطة. بل يَعني سنوح الفرصة التاريخية أن يتغير وجه المنظر العام. بحضور القائمين بالقسط كما أمر الله تعالى عباده الصالحين، حضورا فِعليا في كل ميدان، انطلاقا من حضرة المسجد وإشعاعا منه على كل مرافق الحياة.

من أعلى، كما تُشِع الشمس على ربوع الأرض. الشمس منبع الحياة وحضرة الحياة، لاَ يمنع ارتفاع مكانها من حضورها الـمُحيي كل ذرة من ذرات الأرض، وكل نبتة، وكل قائم وقاعد، وكل نابت وساع.

في هذا القطر أو ذاك من أقطار المسلمين المجزَّأة الموروثة خرائطُها عن عصور الفتنة وتقسيم الاستعمار تدق ساعة الحقيقة. ويبعث الله المَوْؤودة المدسوسة في التراب بأيدي الفاسقين: الدعوة.

يبعث الله عز وجل وهو المحيي المميت أملا جديدا في القلوب، وعزما أكيدا في الهمم. يلتئم علماء الدين وصالحو المسلمين وكل ذي غيرة على دين محمد صلى الله عليه وسلم وملة إبراهيم الخليل في رابطة تجمع الشمل وتنادي بالحق وتتعاقد على الوفاء لله ولرسوله بعهد التعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف وفعله والنهي عن المنكر وطرده.

داخل كتلة التائبين المتعاقدين على ميثاق إسلامي عام، يدخل فيه من شاء ويخرج من شاء على ملإٍ من المسلمين، ينعقد تكتل رجال الدعوة، ساقَتُه علماء الدين الخاشعون لله وجناحاه التائبون العابدون من أهل المسجد.

الصالحون من رجال الحركة الإسلامية هم عَمَدُ فُسطاط الدعوة وقادة حضورها ولسان فصاحتها وذراع قوتها. في كوكبتهم ينضوي العلماء العاملون الراجعون من غفوة كانت انتابت بعضهم.

أولئك القيادة.

وعلى مستوى الحكومة يحضر رجال الحركة الإسلامية لا يغيبون. يشاركون في وضع دستور مسيرة جديدة، وتشكيل حكومة وشغْل مناصب وكراسي، على وُسع المتاح من الكفاءات، إلى جانب ذوي الغناء والأمانة والقوة من أهل الميثاق الإسلامي ومِمّن يرضاهم المسلمون وينتخبونهم.

يعني هذا أن ننبِذَ ظِهْرِيّاً سُلَّم الترتيب الموروث عن بناء الاستعمار الخارجي والداخلي الذي لا يقيم وزنا لشيء يسمى الدعوة ولشيء يسمى المسجد ومؤسسة المسجد إلا أن يكون المسجد مربضا للراكعين الساجدين الرعيّة المسلوبة الحق، أو يكون أُبّهة بنايات فخمة تخلد ذكرى الكبراء لتعبد فيها إلى جانب المولى العزيز سبحانه ذكرى المؤسس، تنسَب إلى اسمه المساجد ويذكر فيها اسمه مع اسم الله.

جلَّ الله. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يذهب الله عز وجل بريح السلطة القامعة المشركة بالله، وبريح المعارضة السياسية الزاعقة الناعقة حينا الراكعة الممكور بها حينا.

ويأتي ربنا سبحانه بقوم يحبهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله و لا يخافون لومة لائم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

ما كان قبلُ من فصل الدين عن الدولة إنما هو مُروقٌ عن الدين، مروقٌ متَنَمِّسٌ من وراء واجهة الإسلام الرسمي الذي يصلي فيه حكام الجبر أمام كامرات التلفزيون، يُراؤون الناس ولا يذكرون الله. أو مروق سافر متَنمِّر متغَوِّلٌ

لا يستحي بعض رُواد الأحزاب الزاعقة الصاعقة أن يستظهروا به على الإسلاميين «المتطرفين» «الإرهابيين».

ما كان قبلُ تطوى صفحته رويدا رويدا بيد الحكم والحكمة ويد الموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

يدان متكاملتان، ليمناهما، يدِ الدعوة، حقّ الإشارة والهداية والتوجيه وواجبُها، أمينةً على دين الله، أميرة على يد الدولة يدِ الحكم والحكمة والتدبير. كلاهما يقيم الدين من جانب تخصصه ودرايته وكفايته.

وعلى الحركة الإسلامية فَرْضَ عيْنٍ أن تُوحّدَ قواها لتدعم صرح البناء الجديد على تقوى من الله ورضوان، صرح الدعوة السيدة. ولفصائل الحركة الإسلامية فضيلة المشاركة في الحكم بصفتها مجموعات، أو يتقدم لفروض الكفاية كل امرئٍ بصفته الشخصية بما قدمت يداه، وبما معه من كفاءة ينفع بها أمته هنا ليجد جزاء ذلك عند الله خيراً وأبقى. والله عزيز حكيم.

خاتمة

ندخل العصر طوعا وكرها. نحن في ذاك المدخل إمّا مادة يستهلكها التاريخ، وإما ذات لها في الوجود حيثية وبين بني الإنسان معنى، فهي تصنع التاريخ. ننزع عنا لباس الإسلام ونطرحه كما تطرح التقاليد المخجلة، أو نرفع لواء الإسلام لنعتز بعزته بعد أن ذَلِلْنَا للأمم لما كسرنا عِصامه وطوَينا خافِقه.

سكان العصر وسادة المكان قوة جبارة، عملاق على أرجل من طين لوجود الفساد والانخراب الساري واستفحالهما في قواعده الخلقية، لكنه عملاق. في الفضاء كواكب، وفي الـمَسْلحات صواريخ، وعلى رأس الصواريخ الهَوْل النووي، وفي الأثير أمواج يقذفنا من على متنها الإلكترون برسالة الحضارة المتألَقة الـمُزَّيِّنَة، المنحلة الخليعة بعدَ ذلك لا معنى لها، التائهة بالإنسان إلى هلاك الإنسان.

«لا مستقبل!». هذا شعار العالم المتْخم ينطق به شبابه ويفلسفه مثقفوه. كآبةٌ مصنّعة غنية قوية لم تملأ علومها واختراعاتها وأشياؤها وتمتعها الاستحواذي بخيرات الأرض وتهالُكها على اللذة وأنانيتها الفراغ الروحي. وكآبة أقسى وأشد قتامة في عالم المستضعفين: تقهقُر إفريقيا، ومسغبة الصومال، وتمزق العرب، ومجازر البوسنة، ومحرقة بغداد. وليست الحضارة الغربية في أحشائها أحسن حالا: هي في أزمة، هي تتراجع.

انتهى التاريخ كما يزعم الحَمْقَى مِن بني الحضارة المسيطرة بسيادة الرأسمالية بعد أن انقشع عن سمائها تهديد الصواعق النووية، وسقط جدار برلين، وانبطح شطر الحضارة المادية المتفلسف الثوري-كان- أمام شطرها المتَمول الاستعماري الناجح. فلا صراع بعد اليوم، ولا من ينازع الرأسمالية اللبرالية الديمقراطية الحقوق إنسانية سيدة الدنيا.

أقبر الاشتراكيةَ الثوريَّةَ أهلُها، ولَحِقَت الاشتراكية الديمقراطية الإصلاحية بأصلها، فالدنيا سوق إلهه الربح. والمسلمون أرخَصُ بضاعة في السوق. كانت الاشتراكية الثورية صيحة احتجاج وفكرة نقد وقوة تعادل وتوازن في العالم.

فلما اختفت في جيْبِ الرأسمالية خلا الجو لاستبداد حساب الربح بعد أن قال الاستبداد الطبقي كلمته الكئيبة وانصرف.

وها نحن معشرَ الديمقراطيين في بلاد الإسلام وجها لوجه مع الاختيار المصيري: أنتمسك بالأذيال الإديولوجية من بنات فكر غيرنا حتى نهلِكَ، ثم نقلب صفحة وجوهنا نحو المذهبية المسيْطرة، أتباعا في كل الأحوال، أم نكون نحن الأمةَ الخيرة التي أخرجها الله تعالى للناس حينا من الدهر هادية قائدة، فلما نسيت رسالتها خذلها القدَرُ؟بقينا لحما على وضَمٍ، طُعمة للأمم، قصعة مأكولة.

لا مناص لنا ولكم معشر الديمقراطيين من حوار يصفِّي الأجواء. فالعنف الذي تمارسه في جسمنا الدولة القطرية اللاييكية في الجزائر وتونس ومصر، كالعنف الذي مارسه البغي الصامد حتى خرابِ بغدادِ صدام، ما هو حل، ما هو عقل. لا غرْو أن يلْقاه الإسلاميون، وهم في عرامة شباب الدعوة، بعنف مثله. لا يقابَلُ جَحْد الفكرة وقتالُها بالحديد والنار بعروض الحوار.

من الديمقراطيين من يحيَوْنَ بمروءة إنسانية، أو كرامة خلقية، أو شهامة وطنية، أو فكرة نظيفة. أولئك سيجدون أن المروءة والأخلاق والشهامة والنظافة إن شرَّفت الإنسان من حيث هو إنسان، فهي لا تَشْرُفُ في ميزان الحق، ميزان الإسلام، إلا إن توجها الإسلام. وما دمتم، معشر الديمقراطيين، تتمسكون بإسلاميتكم وتحتجون على من يحتكر الدين من دونكم، فالكلمة السواءُ بين فصائل النخبة السياسية، من التحى منها واحتجب ومن لم يَفْعل، هي ميثاق واضح المنطلقات والأهداف، ندخل به جميعا في عهد جديد. إلا أن يعشَق عاشِق قرع الأبواب المقْفَلَة، وطرقَ المسالك المسدودة، والانتحار السياسي.

حوار مع كل من يحركه غضب شريف ضد أعداء الأمة، مع كل من تغلي في صدره الغيرة على ما آلت إليه الأمة، مع كل من له طموح شريف ليخدم الأمة، مع كل عاقل متثبت مسؤول أيقظته إلى مسؤوليته نكبات الأمة. حوار ضروري وممكن ما دام الشرفاء العقلاء يرضوْن بالجلوس على بساطٍ إسلامي، في أرضية

إسلامية، لا حول فكر دخيل. ألسنا جميعا مسلمين؟ إذا فلا بساط نجلس عليه غير بساط الإسلام.

القضية مصير أمة هي الآن خارج التاريخ، طفيلية على التاريخ، لا مجرد تداوُل على السلطة بنظام تسمونه ديمقراطية ونسميه شورى. إن كانت الديمقراطية تُخفي تحت أثوابها العداوة للدين، ونفض اليد من الدين، وتنقية الأدمغة من الدين، فهو حوارُ صُمّ، وكل فكر دخيل على الإسلام لا يمتثل لكلمة الله وسنة رسوله شجرة خبيثة تجتث في فرق أرض الإسلام ولو بعد حين. ولو بعد حين!

لا مناص لنا ولكم معشر الديمقراطيين من تمريض هذه المرحلة الانتقالية بحكمة. والمستقبل لإسلام صادق العنوان والبنيان. المستقبل لتغيير عميق شامل. تغيير من داخل الإنسان، من تربية الإنسان، من تعليم الإنسان. التغيير أجيال، التغيير أمهات صالحات، التغيير مدرسة صالحة، التغيير مَنَعةٌ ضد الامتداد السرطاني للثقافة الدوابية، التغيير إعادة بناء الأمة على أصولها، التغيير تعبئة أمة، قومة أمة.

وأداة الحكم آلة لصنع كل ذلك. آلة ما هي «الآلة». صُنع كل ذلك دعوة تستجيب لها الأمة من الأعماق. صُنع ذلك توبة إلى الله خالصة صادقة. صُنع ذلك إنابة إلى الله وتوحيد وعبادة. صُنع ذلك لا مجال فيه للنخبة السياسية إن كان الدين في مخيّلتها مجرد رافد من روافد الثقافة إلى جانب الفن والمسرح والقصة والتقاليد المجيدة والمعلومات المتناثرة عن الماضي والحاضر وما كتب وما قيل وما أنشد.

فإن كان من توبة نحن ندعو إليها ونحن أحوج الناس إليها وإلى رحمة الله فذاك، وإلا فتمريض المرحلة نحاور من أجله الشرفاء العقلاء ريثما يتداركنا الله عز وجل جميعا بتوبة صادقة. نتناسى غدرة الجزائر، ومجزرة عبد الناصر. ونثق كما تثقون بأن الاستبداد الفردي هو داء الأمة. نلتقي معكم في كراهية الاستبداد، ونثِق أن ما لم يؤسس على رضى الشعب واختياره ودعمه بناء من ورق، ولو

موّهوهُ بالألوان، وحلّوه بالمجد التاريخي، وكذبوا على الشعب في التلفزيون بعرض حفلات عبادة الطاغوت.

في الشعب رواسب من «دين الانقياد»، وفيه من الأدواء الأخرى ما يسهل على قنَّاصة السياسية أن يغْتالوا في الشعب بصيص الأمل ليقودوا الشارع ويعتلوا كراسي الحكم. ما نحن بحمد الله قنَّاصةٌ ولا غدارون. وما قيادة الشارع واعتلاء الكراسي مطمحنا النهائي. مطمحنا إمامة أمة، إحياء أمة، توحيد أمة، تبليغ رسالة للإنسان. والله غالب على أمره، وحركة الإحياء شمس طالعة. الضرير من لا يرى أفقها المشع. والغبي من يظن أن الإسلاميين يريدون الحكم ليغتالوا الديمقراطية. ما نفعل باستبداد! ما نفعل بأمة في الأغلال!

مرحبا بديمقراطية تحرر الأمة من أغلالها لتختار الأمة من يحكمها. وسُوأى لأعداء الدين يُسِرّون تحت عبادة الديمقراطية نية اغتيال الدين، ويُبَيِّتون إقصاء الدين، ويتآمرون-إلى حين! إلى حين!-مع المستبد الداخلي والمسيطر الخارجي ويكيدون للدين.

شَعَر الاشتراكيون من بني جلدتنا باليُتم أو لم يشعروا، أفاق المثقفون العُضْويُّون من غفوة التبعية الفكرية أو لم يُفيقوا، نظرت الأحزاب الوطنية إلى المستقبل أم جثت على الرُّكب تعبد هيكل أمجادها الماضية، فالأمة في مفترق طرق. تاه بها عن الجادة زمناً حُكام عشيرة، وحكام قبيلة، وحكام حزب وحيد، فهي راجعة إلى الجادة. والجادة الإسلام.

ونجلس للحوار مع الشرفاء العقلاء يوما لنتأمل ملامح الطفلة المعجزة المنتظرة التي يتوسمها الناس ديمقراطية ونتوسمها شورى. خرج إلى الدنيا سِقطاً خديجاً مُشوها جنِين الحلم الاشتراكي: وحدة، تحرر، اشتراكية. وبَخّرَت الصواريخ في سماء بغداد وأرض الكويت الحلم القومي: تحرر، وحدة، اشتراكية. وتبخر من قبلُ الحلمُ الناصري تحت سنابك الدولة العظمى اليهودية: اشتراكية، تحرر، وحدة.

ألا من يُسبّح معنا بحمد الله من شرفاء الفلول الاشتراكية الوطنية القومية بدل السباحة في الأحلام؟

لا مناص من الجلوس يوما على مائدة الحكمة لننظر وإياكم في التعددية ومزاياها، وفي الديمقراطية وخفاياها. مارستُم زمنا مع المستبد سياسة إقصائنا، فنحن نغض الطرف. تعددية مارستموها فيما بينكم همشتنا زمنا، وارتحتم لسياسة النعامة. وثِقْتم زمنا بخيال خادع صور لكم أنفسكم القوة المستقبلية حاملة المفتاح السحري، ونحن لا نبخس الناس أشياءهم ولا نَلْوِي أعناقنا إلى الماضي.

ديمقراطيةً تعدديةً قلتم؟ نعم لإسلام وشورى يشارك فيها كلٌّ بما معه من مروءة وشرف ووطنية ودين، يجمعنا وإياكم توافق على خير نسديه للأمة، ومشروع تنمية وتحرير وعتق رقاب من نير الاستعباد. والمستقبل كشاف للعقلاء، يتعلمون بلا حرج ولا إحراج من جانبنا ولا أستاذية.

إنَّ المجتمع المدني اللاييكي المحايد دينيا خُدعة إديولوجية تنطلي اليوم موجةً عابرة فاشلة كما انطلت قبلُ خدعة الحزب الوحيد، والزعيم الخالد، والقائد الملهم. إن صلُحت اللاييكية قاعدة تجمُّعٍ لغيرنا فنحن لا يصلح أمرنا ولا جمعنا إلا بالإسلام.

دعكم من «مجتمع مدني» يغدو ويروح على إيقاع الرقص الحداثي. وهلموا إلى مجتمع أخوي قاعدته جماعة المسلمين المتآلفة من أحزاب سياسية، ونقابات تتآزر مع الأحزاب على كلمة العدل، وجمعيات، ومؤسسات، وشخصيات، وما شئتُم من تنظيمات، كل ذلك ينبض بروح الإسلام. وينطق بكلمة الإسلام، ويخدم أهداف الإسلام.

نُزيل وإياكم العوائق الموروثة من طريقنا، ونُجَلِّي الغاشية عن أبصارنا وعقولنا التي تُضبِّبُ أمامنا مشهد الواقع، وتوَجُّه الواقع، وحتمية المستقبل. إنه يا قوم الإسلام أو الطوفان. وكفانا طوفانا ما ترون وتسمعون.

واقع الاختلاف وشرعية الاختلاف مسلَّمة قَدَريّة. الاختلاف بآدابه ونظامه المؤسسي إثراء لفكر الأمة ما في ذلك شك. قتلتنا وفتكت بنا الزعامة الوحيدة المؤبدة، والفكر الوحيد المعصوم، والتنظيم الوحيد المسيطر.

هذا. وبصدق توبتنا إلى الله جميعا نحاول أن نجلس للحوار، ويُمضي من شاء الميثاق، بالنية الصادقة المتبرئة، ما شاء لها دين كلٍّ وشرف كلٍّ وعقلُ كلٍّ، من الآراء العنيدة، نطلب جميعا المصلحة العامة إن كان رائدَنا الحقُّ.

كلمتي إلى كل مؤمن ومؤمنة أن اتقوا الله، وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم. وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الباب الأول
ماذا يريد الإسلاميون؟

الفصل الأول: الورد السياسي الأخلاقي للحركة الإسلامية

الفصل الثاني: الدعوة والدولة

الفصل الثالث: الطاعة والمعارضة

الفصل الرابع: تطبيق الشريعة

الفصل الخامس: العمران الأخويُّ

الفصل السادس: الوحدة

الفصل السابع: المرأة

الباب الثاني
عالم في مخاض

الفصل الأول: رياح التغيير في العالم

الفصل الثاني: حقوق الإنسان

الفصل الثالث: التقدم والتخلف

الفصل الرابع: التغريب

الفصل الخامس: ضرورة الحوار وحسن الجوار

الفصل السادس: مع المستضعفين

الفصل السابع: التنمية

الباب الثالث
ما العمل؟

الفصل الأول: الحل الإسلامي

الفصل الثاني: هداية الوحي، سيادة العقل

الفصل الثالث: جدار اللاييكية

الفصل الرابع: الفتنة

الفصل الخامس: المروءة والأخلاق

الفصل السادس: ميثاق «جماعة المسلمين»

الفصل السابع: الشورى والعدل

الفصل الثامن: إقامة الدين أو إقامة الدولة ؟